نقولا زيادة

الأعمالُ الكامِلة

متوسطيات

تجارة وحياة فكرية

نقولا زيادة

متوسطيات
تجارة وحياة فكرية

متوسطيات

نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

متوسطيات

تجارة وحياة فكرية

الأهلية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
© رائد وباسم زيادة
إصدار: **الأهلية للنشر والتوزيع**
بيروت ٢٠٠٢
بيروت، لبنان ـ الحمراء ـ بناية الدورادو
ص. ب.: ٥٤٣٣ ١١٣ ـ هاتف: ٣٥٤١٥٧

المحتويات

مقدمة ٩

المدخل ١١

الأسطول العربي في أيام الأمويين ١٣

التجارة ٥٧

التجارة الإسلامية من القرن الثاني الى السابع هـ ٥٩

تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر السلجوقي ١١٨

مراجعة كتاب: التجارة والتجار في اسبانية الإسلامية ١٦١

الشرق وشمال افريقيا: طرق واقتصاد ١٧١

الحياة الفكرية ١٧٥

رسالة في تدبير سفر الحج ١٧٧

ملحق ١٨٨

مدرسة القيروان الطبية وأثرها ١٩٠

الأدب الجغرافي كمصدر لتاريخ الأندلس ١٩٦

الأندلس في عصر ابن زيدون ٢١٤

كتب الفلاحة الأندلسية ٢٣٣

فضل العرب في تطور أوروبة العلمي ٢٥٠

الخرائط ٢٧٥

مقدمة

- ١ -

البحر المتوسط، بشطآنه وخلجانه وسواحله وسلاسل الجبال التي تكاد تحيط به من نواحيه المختلفة، ومائه وقيعانه وسمائه ـ هذا البحر المتوسط عالم قائم بذاته.

فقد اتخذت الآلهة من قمم جباله مستقراً لها، واذ نهشت الغيرة قلبها تخاصمت وتقاتلت، فإذا ران السلام على نفوسها تحابت وتهادنت وتصالحت. وهي في تصرفاتها هذه كلها خلّفت لنا أدباً اسطورياً رائعاً لا يزال، حتى يوم الناس هذا، مصدر إلهام للكثير من الأدب شعراً ونثراً.

وفي قيعانه، وتحت سواحله استقرت الشياطين. وهذه لا تعرف سوى الشر باعثاً لأعمالها ولا تفهم سوى الأذى تنفيساً لنشاطها. فكانت اذا ضاقت نفوسها خرج ضيقها زلازل تهز الأرضين وتهدم المباني، من اماكن العبادة وأبراج القتال وقصور الأمراء والملوك وبيوت الناس العاديين، وتودي بحياة الناس الآمنين. أما إذا اشتطّ ضيق نفسها فانها تبعث من باطن الأرض حممها، وتقذف بها في ما حولها، فتخرج براكين تنفث ضغائنها على القوم، فتحرقهم.

على اننا، في الصفحات التالية من هذا الكتاب لسنا معنيين بالآلهة ولا مهتمين بالشياطين. اننا مهتمون بالإنسان الذي مخر عباب هذا البحر منذ فجر التاريخ، متلطياً بالشواطىء لما كان قاربه صغيراً، ومجابهاً امواجه ومقارعاً اخطاره لما كبر قاربه واتسع، ولما ركّب الشراع على سفينته كان بعد اقدر على التجوال فيه وأسرع في التنقل بين ارجائه.

ولن نثقل على القارىء فنروّي عليه قصة البحر المتوسط من ايام الفينيقيين حتى ايام الدولة الأموية (بدء موضوع هذا الكتاب)، فهذا أمر ليس هنا موضعه ولا مكانه. على اننا نريد ان نذكّر القارىء بأن الفينيقيين بعد تجارب محلية، انتشروا في ارجاء هذا البحر، وخاصة في سواحله الجنوبية، وانتهى الأمر بهم الى انشاء امبراطورية في تلك المناطق، تزعمتها قرطاجة. وظلت هذه صاحبة القول الفصل، خاصة في الأجزاء الغربية من تلك السواحل، حتى قضى عليها الرومان سنة ١٤٨ق. م.

ومع ان اليونان لم ينشئوا امبراطورية بمعنى الاستيلاء على مناطق معينة والتحكم فيها مركزياً، فقد انتشروا من بلادهم الاصلية في مصر وليبيا وصقلية، فضلاً عن جاليات لهم كانت قد اقيمت في سواحل آسيا الصغرى وبلاد الشام.

لكن الدولة التي جعلت من حوض البحر المتوسط كله امبراطورية هي رومة. وكان لخليفتها بزنطة دولة في حوض هذا البحر، لكنها لم تبلغ في سواحله ما بلغته رومة.

وجاء العرب خلفاء لبزنطة، وكان لهم في البحر المتوسط دور كبير هام. وهذا ما سنوليه عنايتنا، لكن في مجالات محدودة.

- ٢ -

عندما يقلّب القارىء صفحات هذا الكتاب سيتضح له انه لم يوضع على انه دراسة او بحث واحد، بل سيرى انه مجموع دراسات تناولت في جوهرها بعض نواحي تاريخ هذا البحر في العهود العربية الإسلامية. وقد ضمت معاً هنا لارتباطها بالبحر نفسه في كل حالة.

فنحن ندخل الكتاب مع الأسطول العربي في عهد الأمويين، لننتقل بعد ذلك الى دراسات تتصل بالتجارة في البحر المتوسط، ولا اقول تجارة البحر المتوسط، متلاحقة فصولاً. إذ إننا نتناول التجارة الإسلامية في دراسة طويلة ثم نعرّج على تجارة بلاد الشام الخارجية في ايام السلاجقة، ونخص التجارة الأندلسية بفصل لأهميتها بالنسبة للبحر المتوسط وأوروبة.

فإذا نفضنا أيدينا من التجارة، جمعنا مقالات مرتبطة بالحياة الفكرية لبعض انحاء هذا البحر. فكان لنا تعرجة على الشمال الافريقي ثم فصلان قصيران يتناولان أموراً عن الأندلس بالذات، ثم فصل طويل عن فضل العرب على أوروبة في العصور الوسطى المبكرة، وقد كان للأندلس دور كبير هنا، إذ فيها تم نقل اكثر الكتب العربية الى اللاتينية، رأساً أو بالواسطة.

- ٣ -

هذا الكتاب، مثل الخمسة التي سبقته[١]، والتي كان من حظها ان تحتضنها دار رياض الريس (بيروت)، حظي باهتمام الدار.

ومثل ما سبقه من الكتب التي هي مجموعة مقالات وضعت في مناسبات مختلفة، تتأذى من أمرين: الأول تفاوت في الأسلوب؛ والثاني تكرار في الموضوع عندما تتناول المقالات شيئاً متفقاً في الأصل متفاوتاً ومختلفاً في التوزيع.

لذلك فانني اتمنى على القارىء الكريم ان يأخذ هذين الأمرين ـ وسواهما من الهنات إذا اكتشفها ـ ببعض الصبر وقبول العذر.

بيروت ١٩٩٨

(١) شاميات ١٩٩٠، افريقيات ١٩٩١، لبنانيات ١٩٩٢، عربيات ١٩٩٤، مشرقيات ١٩٩٨.

المدخل

الأسطول العربي في أيام الأمويين

١ ـ تمهيد[١]

على الرغم من أن البحر المتوسط قد أصبح بحيرة رومانية في تاريخ مبكر، فان اهتمام الرومان بالأسطول كان أقل من اهتمامهم بالجيش، إذ كانت أكثر حروبهم برية، وقد كانت لأسطولهم مهمتان: مهمة بوليسية هي مطاردة القرصان في شرقي البحر المتوسط وغربيه، ومهمة تجارية هي نقل السلع بين الموانىء المختلفة في البحر المتوسط.

هذا الوضع بالنظر للأسطول لم يتغير كثيراً في الامبراطورية البزنطية أول الأمر. وانما بدأ هذا التغير في مطلع القرن السادس حين أصبح من الضروري لبزنطة ان تطارد سفن القراصنة الفنداليين الذين أقاموا لهم دولة في شمال افريقية، وأخذت سفنهم تخرج من جزر البليار وسردينيا وكورسيكا وتهاجم سواحل ايطالية وغيرها.

فقد أرسل أنستاسيوس (٤٩١ ـ ٥١٨) حملة بحرية (٥٠٨) ضد الفندال، كانت الأولى من نوعها من حيث التنظيم. كان فيها مئة سفينة حربية ومئة سفينة نقل كانت تقل خمسة آلاف جندي. ومع أن السفن هاجمت السواحل الايطالية الا أنها لم تنجح في احتلال دائم لها. هذا الأمر أقنع الامبراطور بوجوب إعداد اسطول وتنظيمه. فكانت حملته البحرية الثانية (٥١٦) بقيادة مارينوس ناجحة. وقد استعمل القائد مادة حارقة، لعلها كانت أصل النار اليونانية. فكانت هذه المحاولة هي الأساس الأول للقوة البحرية البزنطية.

تطغى شخصية الامبراطور جستنيان على القرن السادس. فالرجل تولى الحكم عملياً سنة ٥٢٧، وظل على العرش الى ٥٦٥؛ لكن الواقع أن جستنيان كان القوة الحقيقية في أيام جوستين (٥١٨ ـ ٥٢٧). ومعنى هذا أن جستنيان تولى ادارة الامبراطورية قرابة نصف قرن. وكانت الامبراطورة ثيودورا عوناً كبيراً له في أعماله. وكانت مطامح جستنيان تدور حول إعادة الوحدة الرومانية الى البحر المتوسط. وذلك كان يعني استعادة المناطق التي أقام فيها الفندال وغيرهم من البرابرة دولاً لهم. وكان هذا يقتضي شن الحروب على تلك المناطق لاستعادتها، فجاءت أولى حملات جستنيان سنة ٥٣٣، وكان فيها خمسمائة سفينة نقل واثنتان وتسعون سفينة مقاتلة. عني بهذه السفن ثلاثون ألف بحار، وكانت تحمل عشرة آلاف من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان. واحتلت الحملة قرطاجة، فسقط شمال افريقية في يدي جستنيان ومعه جزر البليار وسردينية وكورسيكا.

من هذا نرى أن أسس الأسطول البزنطي وضعت أيام جستنيان بشكل مخطط ومنظم. فقد أصبح أفراده محترفين، وكانوا يقومون بالعمل على أساس الاحتراف. وكان لا بد من أن تكون هناك دور صناعة تهتم بالسفينة بناء وإعداداً وإصلاحاً. ومن المرجح أن القواعد الأولى

لتنظيم دور الصناعة في القسطنطينية وعكا والاسكندرية (وفي قرطاجة) يعود وضعها الى أيام جستنيان. وكان الأسطول، على ما يبدو، قد وضع منذ ذلك الوقت على أساس أسطول رئيسي امبراطوري مركزه القسطنطينية، وأساطيل للولايات، مثل القرم وقبرص ومصر وسورية.

ومع ذلك كله فان الأسطول البزنطي كان حتى في القرن السادس، لا يزال في دور الانشاء. إنه لم يتلق ضربة قوية تحمله على اعادة النظر في أموره. إلا أن هذا حدث لما اقتحم العرب البحر، بعد فتحهم بلاد الشام ومصر ومواجهة البزنطيين.

٢ ـ العرب يدخلون البحر المتوسط

في السنة (١٥هـ/ ٦٣٦م) انتصر العرب على البزنطيين في معركة اليرموك، ففتحت أبواب بلاد الشام أمام الجيوش العربية. وقبل أن يتم فتح بلاد الشام، سار عمرو بن العاص نحو مصر. وبعد خمس سنوات تقريباً من معركة اليرموك كان العرب قد احتلوا الاسكندرية (٢١هـ/ ٦٤١م)، وقبل ذلك كانوا قد فتحوا قيسارية فلسطين الساحلية (١٩هـ/ ٦٤٠م)، وهي آخر مدينة سقطت بأيديهم في بلاد الشام. وبذلك أصبح العرب يواجهون البحر، وكان عليهم، مهما طال بهم الزمن، أن يفكروا بخوضه. فهم لم يكونوا قد احتلوا بلاداً كانت تابعة للامبراطورية البزنطية فحسب، بل كانوا ورثة البزنطيين (غرباً) والساسانيين (شرقاً) في اهتمامهم بالتجارة والمحافظة على طرقها البرية والبحرية. وهو أمر لا يمكن أن يتخلوا عنه إذا رغبوا في البقاء. فضلاً عن ذلك فان الأسطول البزنطي، ولو أنه لم يكن قوياً ولا ضخماً بشكل خاص، فانه كان يهدد الشواطىء والسواحل التي أصبحت تحت السيادة العربية من السويدية (سلوقية القديمة)، ميناء أنطاكية حتى المنطقة الواقعة غربي الاسكندرية، وهي منطقة واسعة ومكشوفة. وللتدليل على مثل هذا الأمر فان جزيرة أرواد، التي هي على مسافة قصيرة جداً من طرطوس على الشاطىء الشامي، امتنعت على العرب، لأن السفن البزنطية كانت تستطيع تزويدها بالمؤن والسلاح. ولم يفتحها العرب الا سنة (٢٩ هـ/ ٦٥٠م) بعد أن أصبح لهم سفن تهاجم الأماكن من البحر[٢].

لم تخف على معاوية أهمية البحر والحاجة الى السيطرة عليه. فقد كان فذاً بين الرجال في إدراك المواقف المختلفة والأوضاع المتعددة. وقد استأذن عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م) في السير الى قبرص لانتزاعها من البزنطيين لأنهم اتخذوها قاعدة للإغارة على الموانىء الشامية والمصرية ولتهديد المصالح العربية الإسلامية الاقتصادية وغيرها. لكن عمر رفض أن يركب العرب الماء. وهذه النظرة كانت، فيما يبدو، تمثل موقفاً اصحابه أهل بر واسع شاسع، لا خبرة لهم بركوب البحار يومها، وكانوا يخشون من سفن تحمل الانسان كأنه «دود على عود، الداخل فيه، أي البحر، مفقود والخارج منه مولود». وكان عمر يشفق على أبناء أمته وهو قد أوتمن عليهم، أن يعرضهم لمثل تلك الأخطار[٣].

تولّى عثمان الخلافة (٢٣ ـ ٣٥هـ/ ٦٤٤ ـ ٦٥٦م)، فاتجه معاوية نحوه مطالباً إياه

بالسماح له بركوب البحر. لكن عثمان لم يظهر رغبة في تجاوز ما ذهب إليه عمر. ثم جاءت غارة بزنطية على الاسكندرية (٢٥هـ/ ٦٤٥م). ذلك أن الروم الذين ظلوا في المدينة استنجدوا بالامبراطور للتخلص من الحكم الجديد. «فبعث لهم رجلاً من اصحابه يقال له منويل (ويبدو أنه كان أرمنياً) في ثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة. فدخل الاسكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين الا من لطف للهرب فنجا، وذلك في سنة (٢٥هـ/ ٦٤٥م). وبلغ عُمَر الخبر فسار اليهم في خمسة عشر ألفاً، فوجد مقاتلتهم قد خرجوا يعيشون فيما يلي الاسكندرية من قرى مصر. فلقيهم المسلمون فرشقوهم بالنشاب ساعة. والمسلمون متترسون، ثم صدقوهم الحملة فالتحمت بينهم الحرب فاقتتلوا قتالاً شديداً. ثم إن (البزنطيين) ولوا منهزمين، فلم يكن لهم ناهية ولا عرجة دون الاسكندرية. فتحصنوا بها ونصبوا العرادات. فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال، ونصب المجانيق فأخرب جدرها، وألح بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوة، فقتل المقاتلة وسبى الذرية. وهرب بعض رومها الى الروم، وقتل (قائدهم) منويل. وهدم عمرو والمسلمون جدار الاسكندرية. وكان عمرو قد نذر لئن فتحها ليفعلن ذلك»[٤].

وهكذا فان العرب لم يستطيعوا استرجاع الاسكندرية الا بحصارها من البر، ولم يحققوا ذلك الا في السنة التالية، إذ لم يكن لديهم بعد قوة بحرية. الا أن الأمر كان باعثاً على القيام بعمل ما خاص بالبحر.

وكان عثمان قد عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فكان لهذا الوالي دوره في إسهامه مع معاوية عامل الشام في إنشاء أول أسطول عربي. فقد عرف معاوية الكثير من المتاعب في حصار قيسارية وطرابلس وعسقلان وفتحها. صحيح أن معاوية، عملاً بأمر عمر، رمَّم حصون السواحل ورتب فيها المقاتلة وأقام الحرس على مناظرها واتخذ المواقيد لها[٥]، واتخذ بالنسبة الى السواحل المصرية ما تستحقه من عناية، فكان عمر «يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية»[٦]، الا أن هذا كله لم يكن كافياً. فالموانىء والسواحل كانت مكشوفة ومن ثم معرضة للغزو البحري. وهنا يتضح الدور الذي قام به معاوية وأعانه عليه عبد الله بن أبي سرح. ويبدو أن معاوية خشي من روم السواحل الشامية، على قلة من بقي فيها منهم، أن لا يخلصوا للفاتحين، فنقل جماعة من فرس بعلبك وانطاكية وحمص الى صور وعكا وغيرهما سنة ٤٢هـ/ ٦٦٢م. ويرى أنيس صايغ أن هؤلاء الذين نقلهم من الداخل الى الساحل إنما أراد لهم أن يكونوا عيوناً على السكان[٧]. وكانت الصناعة ـ أي صناعة السفن ـ بمصر فقط؛ فأمر معاوية بجمع الصنّاع والنجارين فجمعوا ورتبهم في السواحل. وكانت عكا مركزاً لتلك الصناعة ثم نقلت الى صور أيام هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣م)[٨].

وجاءت الحملة البحرية العربية الأولى سنة ٢٩هـ/ ٦٤٩م، وكانت وجهتها قبرص. ذلك أن معاوية أعاد الكرة فكتب الى عثمان ثانية يستأذنه في غزو قبرص. الا أن عثمان بقي محافظاً على رأي عمر. ومع ذلك فان هذا لم يفتّ في عضد معاوية، فكتب مرة أخرى (ولعله

كتب مرات متعددة) يهون على عثمان ركوب البحر. فالجزيرة قريبة، والسفن متيسرة، والقوة البزنطية فيها صغيرة. وعلى الرغم من ذلك فانها قاعدة للبزنطيين. فهي تهدد السواحل الشامية. ومن هنا كانت مصدر خطر. واقتنع عثمان بذلك، فلم يتشبث بالامتناع، وكتب الى معاوية، على ما نقله الرواة، طالباً منه أن لا يرغم أحداً على ركوب البحر، وأضاف: «فان ركبت ومعك امرأتك فاركبه مأذوناً والا فلا». ويروي البلاذري خبر الحملة بقوله: «فركب البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة، وحمل امرأته فاخته... وحمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام... وذلك في سنة ثمان وعشرين بعد انحسار الشتاء؛ ويقال في سنة تسع وعشرين... فلما صار المسلمون الى قبرص فأرقوا ساحلها... بعث اليهم أركونها يطلب الصلح وقد أذعن أهلها له. فصالحهم على سبعة آلاف ومئتي دينار يؤدونها في كل عام، وصالحهم الروم على مثل ذلك، فهم يؤدون خرجين. واشترطوا أن لا يمنعهم المسلمون أداء الصلح الى الروم. واشترط عليهم المسلمون أن لا يقاتلوا عنهم من أرادهم من ورائهم، وأن يؤذنوا المسلمين بسير عدوهم من الروم. فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ولم ينصرهم أهل قبرص، ولم ينصروا عليهم»[٩]. وكانت هذه المعركة أول انتصار بحري للمسلمين، وكانت قبرص أول جزيرة تضمها الدولة الجديدة الى أملاكها[١٠]. وكانت النتيجة المباشرة للحملة على قبرص الاستيلاء على جزيرة أرواد في السنة التالية.

هنا يجدر بنا أن نشير إلى أن معاوية جمع سفناً كثيرة للحملة على قبرص. هذا مع العلم أن دور الصناعة الشامية، مثل عكا وصور، كانت متروكة منذ أن فتح العرب المدينتين. لكن هذا لا يعني ان النجارين والصناعيين كانوا قد أهملوا صناعتهم نهائياً، لذلك كان من الممكن جمعهم للقيام ببناء سفن حربية. فضلاً عن ذلك فان السفن التجارية كان من الممكن تسخيرها للقيام بالخدمة، وخاصة في نقل المقاتلين والمؤن. ولا بد من التذكير بأن دار الصناعة في الاسكندرية كانت على ما يبدو أصلح للاستعمال. وكان البحارة المصريون من الأقباط، وهؤلاء لم يتركوا بلدهم على نحو ما حصل للروم، أو لبعضهم على الأقل، من سكان الموانىء الشامية[١١].

وكان الأسطول الذي جمعه معاوية للحملة القبرصية يتكون من ١٥٠٠ سفينة مختلفة الحجوم والأشكال. وكان بين السفن والملاحين عدد كبير جيء به من مصر. وقد جمعت السفن في عكا، التي رممت لذلك الغرض. وخرجت السفن الى مدينة قسطنطية ـ سلاميس في قبرص[١٢].

ويبدو أن القبارصة لم يراعوا فيما بعد شروط الصلح المتفق عليها، فأعانوا الروم على الغزاة في البحر بمراكب أعطوهم إياها. فغزاهم معاوية سنة ٣٣هـ/ ٦٥٤م في خمسمائة مركب، ففتح الجزيرة عنوة فقتل وسبى وأقرهم على صلحهم. وبعث إليها باثني عشر ألفاً كلهم أهل الديوان، فبنوا فيها المساجد، ونقل إليها جماعة من بعلبك، وبنى فيها مدينة، وأقاموا يعطون الأعطية إلى أن توفي معاوية[١٣].

في سنة ٣١هـ/ ٦٥٢م رد أسطول مصري بقيادة ابن أبي سرح أسطولاً بزنطياً عن الوصول الى الاسكندرية، كما أنه في السنة ذاتها وصلت أول حملة عربية بحرية الى صقلية بقيادة معاوية بن حديج، وكانت تتألف من مائتي قطعة. كانت هذه السفن يديرها بحارة من القبط، فيما كان المقاتلة فيها من العرب. وقد نقل البلاذري عن الواقدي أن قائد الحملة، عبد الله بن قيس بن مخلد، سبى... فأصاب اصنام ذهب وفضة مكللة بالجواهر. فبعث بها معاوية الى البصرة لتحمل الى الهند فتباع هناك ليثمن بها[١٤]. وقد تلت هذه الغزوة الأولى غزوات أخرى، لم نعثر على أخبارها[١٥]، [لكن فتح صقلية فتحاً شبه دائم جاء في سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠ م].

بعد سنتين من رد الهجوم على الاسكندرية (٣٣هـ/ ٦٥٤م) هاجم الأسطول العربي جزيرة رودس للمرة الأولى[١٦]. وعاد العرب اليها ثانية ونقلوا منها ما تبقى من تمثالها النحاسي المشهور كولوسس الذي كان يعتبر من عجائب الدنيا السبع. وكان قد وقع من قبل بفعل الزلازل. وبيع هذا النحاس الى تاجر روي أنه احتاج الى تسعمائة من الابل كي ينقل عليها هذا القدر من المعدن[١٧]. وروى البلاذري أن معاوية بعث بجنادة ابن أبي أمية إلى رودس... ففتحها عنوة... وأمره معاوية فأنزلها قوماً من المسلمين. وكان ذلك في سنة (٥٢هـ/ ٦٧٢م). ويتم البلاذري اخباره عن رودس بقوله: «أقام المسلمون برودس سبع سنين في حصن اتخذ لهم. فلما مات معاوية (٦٠هـ/ ٦٨٠م) كتب يزيد (٦٠ ـ ٦٤هـ/ ٦٨٠ ـ ٦٨٣م) الى جنادة يأمره بهدم الحصن والقفل[١٨]. لكن رودس ظلت موضعاً يهاجمه الأسطول العربي مدة طويلة. وقد غزا جنادة جزيرة اقريطش (كريت) سنة ٥٤هـ/ ٦٧٤م ودمر أجزاء منها. ثم تعاقبت الحملات عليها حتى خلافة الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩ م) وخلافة ابنه المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م)[١٩].

قبل هذه العمليات ضد رودس بسنوات، حدثت المعركة التي قلبت الموازين جميعها بالنسبة للسيادة البحرية في حوض البحر المتوسط الشرقي. فبعد ان كان للبزنطيين حضور أساسي بدأ من أيام جستنيان، انتقل ذلك الى حضور عربي. أما المعركة فهي ذات الصواري (السواري).

وقعت هذه المعركة سنة ٣٤هـ/ ٦٥٥م على مقربة من ساحل اقليقية Cilicia في جنوب غربي آسية الصغرى. هناك تقابل الأسطول البزنطي وقوامه خمسمائة (وقيل ستمائة) سفينة والأسطول العربي المكون من مائتي سفينة. وتقاتل الفريقان وكان النصر للأسطول العربي. وكان عبد الله بن أبي سرح، حاكم مصر، هو القائد، وكان بسر بن أرطأة على القسم الشامي من الأسطول، على أن يعمل بأمرة عبد الله.

وحكاية هذه الواقعة، على ما رواها ابن عبد الحكم، تتلخص فيما يلي: خرج هذا الأسطول في ربيع سنة ٣٤هـ/ ٦٥٥م متجهاً الى أرض الدولة البزنطية، فلما وصلت السفن الى ساحل كليكيا (اقليقية) واسمه ذو الصواري، أنزل عبد الله بن أبي سرح نصف الناس مع

بسر بن أرطأة ليريحوا. ثم إن الأسطول العربي لقي سفن البزنطيين فدارت المعركة واقتتلوا بالنبل والنشاب. ولما نفذ هذا، ربط المقاتلة العرب المراكب بعضها ببعض بسلاسل قوية بحيث لم يكن من الممكن اختراق صفوفها واقتتلوا مع البزنطيين بالسيوف. وكان لدى البحارة العرب (كما كان لدى الآخرين) كلابات تستعمل لتمزيق الأشرعة وجوانب سفن العدو وجرها نحوها. وكان هذا النوع من التكتيك سبباً رئيسياً في الانتصار.

فقد قرن مركب عبد الله بن أبي سرح بمركب من مراكب العدو، فكاد مركب العدو يجر مركب عبد الله اليهم. فقام علقمة، وكان مع عبد الله في مركبه، ففك مركب الأمير وأنقذه من الهلاك[٢٠]. وكانت المعركة نصراً مؤثلاً لعبد الله ورجاله. وقد جرى الدم في ماء البحر كثيفاً. ونقل ايكهوف Eickhoff عن ابن العبري أن عشرين ألف جثة وجدت طافية على وجه الماء[٢١].

دارت اسئلة حول هذه المعركة وغايتها. فهناك من يرى أن الهدف الأصلي للحملة كان القسطنطينية نفسها، وان الأسطول البزنطي لقي الأسطول العربي هناك، لأن الأول كان يحرس مداخل البحر الأيجي، ومن هؤلاء ايكهوف[٢٢]. وقد يستدل من رواية ابن عبد الحكم، في جزء منها وهو: «لما نزل (عبد الله بن سعد) ذا الصواري أنزال نصف الناس مع بسر ابن أرطأة»[٢٣]. إن هذا النزول (وليس من الضروري أن يكون الذين نزلوا نصف الناس) كان يقصد منه التعرف بشيء من الدقة إلى أنواع الأخشاب الموجودة هناك وصلاحيتها لصنع الصواري. وإن تسمية المعركة كان بسبب اسم المكان المعروف به (وهو ذو الصواري). وهذا ينفي ما اصطلح عليه الكثر من المؤرخين من أن إطلاق هذا الاسم على المعركة كان بسبب كثرة الصواري (السواري) التي شوهدت هناك يومها.

هذه المعركة هي التي قلبت موازين القوى البحرية في حوض المتوسط، في شرقه على الأقل.

جاء مقتل عثمان بعيد معركة ذات الصواري (أو ذي الصواري) فشغل معاوية بما ساد العالم العربي الإسلامي يومها من خلافات وحروب. وشغل البزنطيون بما أصاب المنطقة البلقانية من هجوم جديد وما حدث في شمال افريقية من ثورة بطرقها غريغوريوس على القسطنطينية، وقد أعلن نفسه امبراطوراً، إلا أن حملة عربية برية من مصر قضت عليه (٢٦هـ/ ٦٤٧م). وجاءت حملة أخرى بعد بضع سنوات اقضت مضجع رجال الحكم في القسطنطينية. ومن هنا فقد تلت معركة ذات الصواري فترة لم تقم فيها معارك بحرية مهمة؛ وكل ما حدث كان مناوشات محلية، لم تقرر أي منها أمراً خطيراً.

وفي منتصف القرن الأول للهجرة، وبعد تولي معاوية الخلافة ببضع سنوات، عاد الرجل الى الأسطول يعززه، وإلى القسطنطينية بالذات يتطلع الى الاستيلاء عليها، للقضاء على الدولة البزنطية على نحو ما تم للعرب القضاء على الدولة الساسانية.

ويبدو أن كونستانز الثاني (٦٤١ ـ ٦٦٨م) شعر بامكان العودة الى مقارعة العرب في

شرق المتوسط، فأرسل (٤٦هـ/ ٦٦٦م) جماعة من المردة الى لبنان أو لعله أعانهم في ثورتهم على معاوية وانتشارهم في لبنان. ولما كان معاوية مشغولاً في تلك السنة بالأمور الداخلية، عقد صلحاً مع كونستانز كي يتخلى هذا عن نصرة المردة[٢٤]. (وقد حدث شيء شبيه بهذا أيام عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥م) فوقع صلح سنة ٧٠هـ/ ٦٨٩م بين الخليفة والامبراطور جستنيان الثاني (٦٨٥ الى ٦٩٥م) على مال يؤديه الأول للثاني كي يكف هذا عن تأييد المردة[٢٥].

وتجدد النزاع بين الخليفة معاوية (٤١ ـ ٦٠هـ/ ٦٦١ ـ ٦٧٠م) من جهة والبزنطيين من جهة، جاء في وقت كان الخليفة فيه قد عاوده الاهتمام بالأمرين اللذين ذكرنا، وهما: تقوية الأسطول والزحف على القسطنطينية. وتمثل هذه الفترة (من ٦٦٩ الى ٦٨٠م) أعمالاً بحرية هجومية[٢٦] بعد ان كان أكثر الحملات التي وجهها العرب في الفترة السابقة دفاعية في طبيعتها. وقد مر بنا الإشارة الى احتلال صقلية وكريت ورودس على سبيل المثال. وفي الوقت نفسه كانت الفتوح العربية مستمرة في شمال افريقية، وكان التقدم في العمل البحري مستمراً.

يجدر بنا هنا أن نتوقف عند الحملات التي أرسلها العرب الى القسطنطينية. وهناك خلاف كبير بين ما ورد في المصادر من معلومات حول هذه الحملات. والذي نراه أن الرواة العرب لم تكن لهم معرفة كافية بجغرافية آسية الصغرى البرية وطبوغرافية سواحلها والجزر الكثيرة القائمة عند مدخل البحر الأيجي، لذلك اختلطت عليهم الأمور، كما اضطربت السنوات التي تؤرخ بها الأحداث. والذي لا مجال للتنكر له هو أن الحملات الحربية، البرية والبحرية، كانت متتالية على أراضي الدولة البزنطية من سنة ٤٤هـ/ ٦٦٤م حتى سنة ٤٨هـ/ ٦٦٨م[٢٧]. وفي سنة ٤٩هـ/ ٦٦٩م كانت ثمة حملة مركزة على القسطنطينية، وهي التي يعتبرها فيليب حتي الحملة الأولى. كان فضالة بن عبيد الأنصاري (وقيل سفيان بن عوف) قد قاد حملة برية وصل فيها الى خلقيدونية، المقابلة للقسطنطينية في البر الآسيوي، وقضى شتاء ٦٦٨ ـ ٦٦٩م هناك. فأرسل معاوية حملة بحرية، بقيادة ابنه يزيد، الى العاصمة البزنطية. وفي ربيع سنة ٦٦٩م. اشترك يزيد وفضالة في حصار مشترك بري بحري على المدينة. ويبدو أن الجوع والمرض الشديد كانا قد فعلا فعلهما في الجند العربي في ذلك الشتاء، فلم ينل المحاصرون من القسطنطينية شيئاً، فرفع الحصار في صيف ٦٦٩م وعاد الجيش في السنة نفسها. وكان ممن استشهد في تلك الحملة أبو أيوب الأنصاري[٢٨].

قام العرب بحملة ضد القسطنطينية دامت ست سنوات (٥٤ ـ ٦٠هـ/ ٦٧٤ ـ ٦٨٠م). فاستولوا أولاً على شبه جزيرة كيزيكوس (التي يشير اليها الرواة العرب باسم أرواد، وهي تسمية خاطئة) في بحر مرمرة واتخذوا منها قاعدة يقضون فيها الشتاء، وينطلقون منها للحصار في الربيع. واستعصت أسوار العاصمة على العرب، كما لقيت السفن الأمرين من النار اليونانية. وقد انسحب الأسطول والجيش لما توفي معاوية (٦٠هـ/ ٦٨٠م). وكان الخليفة قد

أدرك، قبل وفاته، استحالة الاستمرار في محاصرة القسطنطينية فعقد مع قسطنطين الرابع (٦٦٨ ـ ٦٨٥م) معاهدة صلح مدتها ثلاثون سنة[٢٩].

وكانت آخر محاولة كبيرة لاحتلال القسطنطينية تلك التي تمت في عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ/ ٧١٥ ـ ٧١٧م)، وكان على رأس هذه الحملة البرمائية أخوه مسلمة. يقول فيليب حتي إن هذا الحصار المدهش، والذي كان الأكبر تهديداً للعاصمة البزنطية، هو الذي حصلنا على معلومات وافية عنه من مصادر متعددة. فهناك روايات الطبري، والمؤرخ المجهول صاحب كتاب العيون والحقائق، وثيوفانوس[٣٠].

أسعف المحاصرون (٩٩هـ/ ٧١٦ ـ ٧١٧م) بالسفن المصرية كما جاءهم المدد من البر، وزودوا بالنفط وبآلات خاصة بالحصار. وقد عاهدوا الله على العمل الجاد؛ وكان مسلمة يتحلى بالروح القيادية المنظمة المندفعة المخلصة. لكن الشتاء كان قاسياً، فنال الجوع والأوبئة من المقاتلين. وتولى عرش الامبراطورية، والعرب على حصار العاصمة، رجل بارع قدير، سوري الأصل من مرعش، هو ليون الثالث (٧١٧ ـ ٧٤٠م) فاستطاع بدهائه ومقدرته أن يغري البلغار بمهاجمة العرب. وجاءت السفن العربية قاصدة القرن الذهبي لتهاجم أسوار المدينة، فوجدت الطريق مقفلاً، إذ نصب ليون سلسلة بين البرجين الرئيسين، فلم تستطع السفن تجاوزها. وكانت تحصينات المدينة قوية جداً. فضلاً عن أن النار اليونانية عملت عملها الكبير في إحراق عدد كبير من السفن. ومع ذلك فان مسلمة لم ييأس. وحتى وفاة أخيه (الخليفة سليمان) لم توقف هجماته. لكن الخليفة الجديد، عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ/ ٧١٧ ـ ٧٢٠م) أدرك عبث المحاولة فأمر مسلمة بالعودة. وقد هبت على السفن في طريق عودتها عاصفة قوية في بحر مرمرة والبحر الأيجي، فقضت على ما تبقى منها. يقول فيليب حتي: إذا كنا نقبل رواية ثيوفانس فان عدد السفن التي عادت سالمة لم يتجاوز الخمس من أصل عدد كبير، قدره البعض بنحو ١٨٠٠ سفينة[٣١].

ويعلق عبد العزيز سالم على هذه الحادثة بقوله: «ويعتبر فشل المسلمين في الاستيلاء على القسطنطينية للمرة الثانية حدثاً من أهم احداث تاريخ العصور الوسطى. وكتب للامبراطورية البزنطية البقاء، بخروجها ظافرة من محنة الحصار، وظلت تحتفظ بهيبتها أمام دول الغرب الأوروبي فترة طويلة»[٣٢].

ونود بهذه المناسبة أن نؤكد أن محاولة غزو القسطنطينية، على النحو الذي أوجزناه، كان منهكاً للدولة الأموية. فقد أنفقت في سبيله الأموال الطائلة، وخسر الأسطول سفناً كثيرة، وشغل أولو الأمر به عن أمور كانت أحق بالاهتمام.

على أن الأمويين عادوا الى مهاجمة البزنطيين الذين شغلوا عن متابعة انتصارهم بقضايا دينية. فكان ثمة هجوم على قبرص (١٠٨هـ/ ٧٢٦م) في أيام الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣م). ويبدو من رواية البلاذري أن المبلغ الذي فرضه معاوية على أهل قبرص، وهو ٧٢٠٠ دينار، زاده عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥م)

ألف دينار، ثم حطها عمر بن عبد العزيز، الى ما كانت عليه. أما هشام فقد رد الزيادة. وظلت على ذلك الى خلافة أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥م) فردهم الى صلح معاوية[٣٣]. ورد البزنطيون على ذلك بعد نحو عشر سنوات، إذ هاجمت سفنهم مصر، وأسرت عدداً كبيراً من السفن المصرية. وقد جاء هجوم ثان على مصر بعد ذلك باسطول قوامه ٣٦٠ سفينة[٣٤]. وكان الرد العربي هجمة جديدة على قبرص (سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م) في خلافة الوليد بن يزيد (١٢٥ ـ ١٢٦هـ/ ٧٤٣ ـ ٧٤٤م) لأمرٍ اتُّهمَ القبارصة به. وقد أجلى خلقاً منهم الى الشام على أنهم رقيق. لكن الناس أنكروا ذلك، فردهم الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٢٦هـ/ ٧٤٤م) الى ديارهم[٣٥]. وهكذا فقد كانت الحرب البحرية بين الأمويين والبزنطيين في شرق المتوسط سجالاً، أي هجوماً ورد فعل هجومي. وكانت قبرص ومصر الهدفين الأساسيين للأمويين والبزنطيين على التوالي.

أما في غرب المتوسط فقط كانت حملات العرب أعنف، وكانت صقلية هدف المهاجمين في السنوات ١٠٩هـ/ ٧٢٧م و١١٢هـ/ ٧٣٠ و١١٥هـ/ ٧٣٣م و١٢٣هـ/ ٧٤٠م و١٣٥هـ/ ٧٥٢م. أما سردينية فهوجمت في سنتي ١١٧هـ/ ٧٣٥م و١٣٥هـ/ ٧٥٢م[٣٦].

في سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٧م خرج أسطول عربي ضخم، من الاسكندرية يروم قبرص، قدّرت سفنه بنحو الألف، فاشتبك مع اسطول بزنطي أصغر حجماً. لكن هذا، على ما يبدو، كان مزوداً بالنار اليونانية، فدارت الدائرة على أسطول الأمويين، وقضي على أكثر سفنه. وكانت هذه سنة فاصلة؛ إذ بعد ذلك لم يكن ثمة حضور لقوة عربية بحرية، وخاصة بالنسبة لمصر، حتى ظهر الأسطول الفاطمي في القرن الرابع/ العاشر[٣٧].

وبعد تلك المعركة ببضع سنوات قام الأسطول العربي العباسي من مرابضه بتونس (١٣٤هـ/ ٧٥٢م) بالهجمة الجدية الأخيرة ضد صقلية بقيادة والي افريقية العباسي، عبد الرحمن بن حبيب. ولم ترسل حملة أخرى حتى أوائل القرن التالي، إذ تم ذلك على أيدي الدولة الأغلبية (١٨٤ ـ ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ ـ ٩٠٩م)[٣٨].

يمكن القول بأن التحدي الأموي للبحرية البزنطية تم في ثلاث موجات: الأولى التي امتدت من سنة ٢٩هـ/ ٧٤٩م الى سنة ٣٣هـ/ ٦٥٥م، وكانت الهجات فيها دفاعية في غالبها. واستمرت الموجة الثانية من سنة ٤٩هـ/ ٦٦٩م حتى ٦٦هـ/ ٦٨٥م، حيث كان العرب هم المهاجمين. وفي هذه الفترة جاء الحصار الطويل للقسطنطينية. وجاءت الموجة الثالثة، وهي التي كانت الأقوى والأشد، لتشغل السنوات الواقعة بين ٧٤هـ/ ٦٩٣م و١٣٥هـ/ ٧٥٢م. وقد سجلت الحملات العربية نجاحاً وخاصة في الحوض الغربي من المتوسط. وكان من الحملات الضخمة حصار القسطنطينية الكبير الذي انتهى بفشل للأسطول الأموي. وبعد ذلك كان هناك تبادل بالحملات الصغيرة حتى سنتي ٣٠هـ/ ٧٤٧م و١٣٥هـ/ ٧٥٢م، إذ تلقى الأسطول العربي ضربتين كبيرتين، في الجزء الغربي من المتوسط، على ما مر بنا.

ويرى لويس أن هذا الانتصار الذي نالته بزنطية كان ذا دلالة كبيرة، إذ إنه أنهى الصراع

الأموي البزنطي البحري، وكان ذلك لمصلحة البزنطيين. فقد اختفى الأسطول المصري لنحو قرن من الزمان [عاد الى الظهور أيام بني طولون، ولكن دوره الرئيسي جاء في أيام الفاطميين]. وخفت حدة العمل في الأسطول الشامي لمدة تتجاوز ربع القرن. ويذكرنا المؤلف نفسه بأن الأسطول الشامي لم يقم بحملة تستحق الذكر حتى سنة ٢٩١هـ/ ٩٠٤م لما قاد ليو الطرابلسي أسطول طرسوس ضد تسالونيكي (سلانيك). وكان في الأسطول أربع وخمسون سفينة. أما ليو (أو لاوي) الطرابلسي فهو غلام زرافة (وقد كني أبا الحارث). ويلاحظ فهمي أن أكثر أسماء القادة المرتبطة بطرسوس يدل على أصل يوناني (رومي) ولعلهم اعتنقوا الاسلام بعد أسرهم(٣٩).

الا أن الأمر الحري بالذكر هو أن العرب مع أنهم لم ينجحوا في السيطرة البحرية تماماً، فانهم في تلك السنة (١٣٤هـ/ ٧٥٢م) كانوا قد اصبحوا سادة شمالي افريقية واسبانية، وكانت جيوشهم قد انتصرت في مناطق في جنوب فرنسة وفي سويسرا(٤٠).

ولا بد لنا من إبداء بعض الملاحظ على ما آل إليه أمر الأسطول العربي الأموي، مع تذكرنا النجاح الذي سجله في مناسبات متعددة. وأول هذه الملاحظ هو أن السواحل والجزر التي كان على المقاتلين البحريين العرب أن يهاجموها أو يدافعوا عنها كانت واسعة ومنتشرة ومكشوفة فيما كانت القسطنطينية عاصمة الدولة البزنطية تحتمي وراء جزر وبحار صغيرة لم يكن تجاهلها بالأمر اليسير. ومع ذلك فقد وصل العرب، أيام الأمويين، ثلاث مرات الى أسوار العاصمة البزنطية. وثاني الملاحظ هو أن العناصر والمواد اللازمة لبناء السفن ـ من معادن وأخشاب ـ لم تكن متيسّرة للعرب على نحو ما كانت موجودة في المناطق التي كان للبزنطيين فيها سيادة أو حضور. وثالث ما نود أن نتذكره عن هذه الحروب البحرية ـ العربية منها والبزنطية ـ أنها كانت تأتي فورات في فترات، ثم تخمد بعض الوقت، وتنشط ثانية. فالدولتان كانتا في شغل عن الحروب بأمور أخرى. ففيما كان البزنطيون يشغلون بالجرمان والآفار وغيرهم من القبائل المهاجمة أو بالخلافات الدينية التي كان لها تأثير كبير في إضعاف الدولة البزنطية، شغل العرب في حروب أهلية مرتين أولاً، ثم انهم كانوا يتابعون الزحف شرقاً نحو حوض السند وأواسط آسية. وهذه فتوح ومعارك كانت كبيرة، وكان تنظيمها ورفدها والانفاق عليها أموراً تتطلب الكثير من الجهد والمال والوقت والعناية والإدارة. وقد يبدو أحياناً، كأن معركة بحرية أو أكثر في حوض المتوسط ليست شيئاً بالقياس الى حملات محمد بن القاسم في شمال غربي الهند، أو حملات قتيبة بن مسلم في أواسط آسية.

ونود أخيراً أن نشير إلى أن العرب في فتوحهم لشمال افريقية لم يفيدوا من الأسطول قط. فلم يكن هناك تنسيق أبداً بين القيادة البرية والقيادة البحرية. بل يبدو الأمر أحياناً وكأنه سباق بين القيادتين. وكانت الجيوش تندفع سابقة للأسطول، ثم تجد نفسها محاصرة في جهات ومناسبات كثيرة.

٣ ـ دور الصناعة في العصر الأموي

دار الصناعة هي المكان الذي تصنع فيه السفن الحربية وتصلح السفن المعطلة. وقد كان للبزنطيين، وهم الذين كانوا يحكمون بلاد الشام ومصر والشمال الافريقي، قبل الفتح العربي، مراكز لهذه الصناعة الهامة على شواطىء البحر المتوسط الشرقية والجنوبية. وهذه المراكز وقعت في أيدي العرب بطبيعة الحال، لما تم لهم فتح هذه الديار. وكانت دور الصناعة في الاسكندرية والقلزم وعسقلان ويافا وقيسارية وعكا وصور وبيروت وطرابلس واللاذقية. وقد آل الى العرب أمر العناية بها. ولم تطل المدة حتى أصبح من الضروري أن تتخذ هذه العناية نهجاً عملياً. وقد تم ذلك، على يدي معاوية بن أبي سفيان والي بلاد الشام وعبد الله بن أبي سرح والي مصر. وكان تنظيم الحملة على قبرص (٢٩هـ/ ٦٤٩م) أول عمل في هذه الناحية. فقد استدعى معاوية الصنّاع على اختلاف أعمالهم الى عكا حيث صنعوا من السفن ما يحتاج اليه، هذا مع المدد الذي جاء من مصر؛ إذ إن الحملة انطلقت من عكا. ومن الواضح انه حسبما ذكرنا قبل ـ كان من اليسير تسخير السفن التجارية الموجودة في الموانىء لنقل الجند والمؤن فضلاً عن السفن المقاتلة التي صنعت خصيصاً للحملة.

وإذا نحن أخذنا أنفسنا بالتحدث عن دور الصناعة التي أعاد العرب اليها الحياة بعد سنوات قليلة من الفتح، وجدنا أن القلزم، على مقربة من السويس الحالية، عني بها لنقل المتاجر من مصر إلى البحر الأحمر، وذلك عن طريق خليج أمير المؤمنين. فقد كان هناك قناة حفرت في أيام الامبراطور الروماني تراجان (٩٨هـ/ ١١٧م) وقد سدتها الرمال. ففتحها عمرو بن العاص وسميت خليج أمير المؤمنين (نسبة الى عمر بن الخطاب). وورد ذكر دار الصناعة فيها في رسالتين من الرسائل البردية تاريخهما ٩١هـ/ ٧٠٩م و٩٢هـ/ ٧١٠م[٤١].

وبحسب رواية ابن الحكم كان البزنطيون قد هاجموا مدينة البرلس (٥٣هـ/ ٦٧٢م) وأوقعوا بحاميتها خسارة كبيرة، فأنشأ حكام مصر دار صناعة في بابليون (باب اليون)، كانت فيما يبدو كبيرة الأهمية[٤٢].

الا أن دار الصناعة الرئيسة في مصر كانت في الاسكندرية، وكذلك كانت قبل الفتح العربي، واستمرت على ذلك من بعد، وخاصة في القرن الأول/ السابع. وقد أوصى معاوية، كما مر بنا، بصنع سفن في دار صناعة الاسكندرية، ولعل ذلك كان احتياطاً لما قد يحدث. فالرجل كان بعيد النظر؛ وقد جاءت السفن نافعة لما سمح له الخليفة بانفاذ الحملة الى قبرص. وفي رسالتين مؤرختين في ٩٢ ـ ٩٣هـ/ ٧١٠ ـ ٧١١م وفي ٩٢هـ/ ٧١٠م اشارات واضحة الى مطالب معينة للمحاربين في البحر وللصناع الذين كانوا يقيمون في الاسكندرية. وقد كان للاقباط دور هام في صناعة السفن وتنظيمها[٤٣].

اما في بلاد الشام فقد بدأ الاهتمام بالمراكز البحرية، ومن ثم بدور الصناعة، في وقت سابق لبدء الاهتمام بمصر. فقد كان معاوية يعي أهمية البحر لولايته وقد ظل هو والياً لبلاد الشام عشرين سنة مستمرة في خلافة عمر وعثمان. وهذا يسر له أن يتابع مخططه بشكل

عملي واقعي. يروي البلاذري أن معاوية رم عكا عند ركوبه منها الى قبرص ورم صور (٢٩هـ/ ٦٤٩م)[٤٤]. وكانت هذه أول اشارة الى رم عكا وصور على أنهما مركزان لانطلاق الحملة. لكن ليس لدينا ما يدلنا على المعنى «العملي» لكلمة «رم»، من حيث صلة ذلك بالعناية بدار الصناعة بالذات.

ثم جاء دور معاوية في إنشاء دار صناعة في عكا. فقد روى البلاذري أنه «لما كانت سنة ٤٩هـ/ ٦٦٩م خرجت الروم الى السواحل، وكانت الصناعة بمصر فقط. فأمر معاوية بن أبي سفيان بجمع الصناع النجارين، فجمعوا ورتبهم في السواحل وكانت الصناعة في (جند) الأردن بعكا[٤٥]. ويرى فهمي أن رواية البلاذري، المنقولة عن محمد بن سهم الانطاكي، بأن الصناعة كانت بمصر فقط لا تتفق تماماً مع نشاط معاوية البحري. ويضيف أن انشاء دار الصناعة في جزيرة الروضة كان سنة ٥٤هـ/ ٦٧٣م، فيما يروي البلاذري أن عكا أنشئت فيها دار صناعة سنة ٤٩هـ/ ٦٦٩م، أي قبل جزيرة الروضة بخمس سنين[٤٦]. ولعل الأخذ برأي فاسيليف من أن معاوية كان كبير العناية بصنع سفن جديدة في الموانىء الفينيقية التي استولى عليها[٤٧]، هو الأمر الأمثل. فما نحسب أن معاوية كان ينتظر حدثاً معيناً فيستجيب له استجابة موقتة. وعندنا أنه، بعد توليه الخلافة، صار أشد عناية بالموانىء الشامية، فهي عدته ومأواه.

وكان الخليفة الثاني الذي عني بالموانىء الشامية هو عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥م). فقد روى البلاذري أن عكا وصور، اللتين كان معاوية قد رممهما، ثم خربتا، جددهما عبد الملك. وبنى سور عكا الخارجة[٤٨]. كما أن عبد الملك أصلح عسقلان ويافا وقيسارية[٤٩]. وكانت اللاذقية قد تعرضت للهدم إثر غارة بزنطية سنة ١٠٠هـ/ ٧١٨م في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ/ ٧١٧ ـ ٨٢٠ م) فأمر عمر ببنائها وتحصينها. وأتم يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥هـ/ ٧٢٠ ـ ٧٢٤م) اصلاح أمر المدينة وشحنها. ولعل طرابلس لقيت العناية نفسها[٥٠]. وقد ظلت عكا دار الصناعة الرئيسة في بلاد الشام الى أن تولى الخلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣م) فنقلها الى صور[٥١]. ولكن يبدو أن هذا النقل الرسمي لم يفقد عكا منزلتها «كدار صناعة» ـ وكان ثمة ميناء آخر كان له دور مهم هو طرسوس. لكن أهمية طرسوس جاءت متأخرة وتم بناؤها في أيام المهدي[٥٢].

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى الدور الذي قامت به تونس كدار للصناعة ومركز للعمل البحري المستمر منذ أن انشأها حسان بن النعمان. ويبدو أنه لم يكن هناك دار صناعة أو حتى ما يشبه ذلك من عمل العرب. والإشارة الى الحملة البحرية الأولى على صقلية (٤٤هـ/ ٦٦٤م) يستفاد منها أن السفن لم تبدأ رحلتها من ميناء شامي، بل يرجح أن نقطة انطلاقها كانت برقة (بنابوليس)، وهي مدينة بحرية كبيرة تعود الى ايام البزنطيين[٥٣]. وكان عطاء بن رافق قد قاد حملة ضد صقلية أو سردينيا بأمر والي مصر عبد العزيز بن مروان (٨٤ هـ/ ٧٠٣م). ويبدو أنه خرج بأسطوله بالرغم من نصيحة موسى بن نصير له بأن لا يفعل لأن الطقس لم يكن ملائماً. وكانت النتيجة أن تحطم جزء كبير من الأسطول، وغرق من بحارته

كثيرون. وهناك رواية تقول بأن موسى بن نصير سمح لمن نجا من البحارة، ولما سلم من السفن (من حملة عطاء) بالدخول الى دار صناعة تونس. وهذه هي أول دار صناعة بناها العرب في شمال افريقية[٥٤].

وقد اختلفت الروايات حول أول من أنشأ دار الصناعة التونسية[٥٥]. فهناك اسماء ثلاثة ينسب الى اصحابها بناء هذه الدار وهم: حسان بن النعمان وموسى بن نصير وعبيد الله بن الحبحاب. ولكل مؤيد من الرواة. ولكن يبدو أن حسان بن النعمان الغساني هو الذي بنى الميناء والدار أولاً، وتم له ذلك بين سنتي ٧٩ و٨٤ هـ/ ٦٩٨ و٧٠٣م أي في خلافة عبد الملك ابن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥م). هذه هي رواية البكري التي يرد فيها أن الخليفة عبد الملك طلب من أخيه عبد العزيز والي مصر أن يزود حسان بن النعمان بألف من الصناع (في بناء السفن) من الأقباط مع أسرهم، وأن يؤمن لهم حاجاتهم حتى يصلوا تونس. وقد أمر الخليفة ببناء سفن في هذه الدار[٥٦]. ولذلك لما نكب اسطول عطاء بن رافع كان باستطاعة موسى بن نصير، حاكم تونس، ان يسمح للرجال الناجين والسفن السالمة من دخول دار الصناعة[٥٧]. وأما دور عبيد الله بن الحبحاب (والي افريقية ١١٦ ـ ١٢٣هـ/ ٧٣٤ ـ ٧٤٠م) فهو إصلاح الدار والميناء وتوسيعهما[٥٨] وتقويتهما.

وقد جاء في مقدمة ابن خلدون وصف يوضح موقف العرب الأوائل من البحر. فهو يذكر كيف كان عمر يمنع من ركوب البحر، حتى إنه عاقب عرفجة بن هرتمة الأزدي حين غزا عُمان وركب البحر بغير إذنه، حتى إذا كان عهد عثمان أذن بركوبه. ويعزو ابن خلدون هذا النفور من البحر إلى ان العرب كانوا أهل بداوة ولم يكونوا مهرة في ثقافة البحر وركوبه كما كان الروم والافرنجة. ويضيف ابن خلدون قوله:

«فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولاً لهم وتحت أيديهم؛ وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً؛ وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، استحدثوا بصراء بها، فشرهوا الى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن والشواني، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر، وعلى حافته مثل الشام وافريقية والمغرب والأندلس. وأوعز الخليفة عبد الملك الى حسان بن النعمان، عامل افريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد. ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول بن الأغلب... وكانت من بعد ذلك أساطيل افريقية والأندلس في دولة العبيديين والأمويين تتعاقب الى بلادهما في سبيل الفتنة، فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب[٥٩].

٤ ـ السفن

يورد المقدسي في أحسن التقاسيم ستة وثلاثين اسماً لأنواع السفن التي كانت معروفة في أيامه، أي في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، في البحار التي عرف عنها،

وخاصة في البحر المتوسط[٦٠]. ويقول وستنفيلد، بهذه المناسبة، إنه مع معرفتنا بطبيعة اللغة العربية التي فيها نحو مائتي اسم للجمل ونحو أربعمائة اسم للأسد، فانه مدعاة لإنعام النظر أن يكون هناك ما يزيد على المائة اسم للسفينة[٦١]. وحري بالذكر أن هذه الأسماء، قد يضاف اليها غيرها من مصادر أخرى، تمثل تجربة العرب والمسلمين في الشؤون البحرية، الحربية والتجارية على السواء. وإذا نحن تذكرنا أن الفترة التي نعالجها هنا تنتهي في سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، أي انها تشمل ما قد يسمى بطفولة العرب بالنسبة للبحر، أدركنا أن الكثير من هذه الأسماء تخص الأيام والأزمنة التي تلت قيام الدولة العباسية. فالأساطيل البحرية الحربية تطورت بشكل خاص في البحر المتوسط بسبب وجود البزنطيين في الشرق والدول الصغرى في الغرب، وتطورت خلال قرون طويلة.

والأخبار التي وصلتنا عن الأساطيل العربية جاءت من مصادر عربية ويونانية. ونحن نجد أن الكاتب العربي يستعمل أسماء عربية لسفن بزنطية (يونانية). فيما نرى ان المؤلف البزنطي يستعمل أسماء يونانية لسفن عربية. فالمقدسي عندما يتحدث عن الرباطات البحرية في كورة الرملة حيث يقع النفير «وتقلع اليها شلنديات (مفرد شلندية) الروم وشوانيهم (مفرد شيني) معهم أسارى المسلمين»[٦٢]، فانه يستعمل أسماء عربية للسفن القادمة من بلاد الروم. والطبري يستعمل كلمة «سلنديات» للسفن الحربية الرومية التي هاجمت دمياط (٢٣٨هـ/ ٨٥٣ م)، ويقدر الأسطول بمائة شلندية أنزلت قرابة خمسة آلاف رجل على المدينة[٦٣]. وبالمثل فان قسطنطين بروفوجنيتوس يستعمل كومباري cumbarri وساتوري saturae وغاليي galeae وهي المقابل باللغة اللاتينية للأسماء اليونانية الأصل[٦٤]. ومن هنا فقد يختلط الأمر على الباحث، إذ إن الأسماء ترد دون أي وصف.

فضلاً عن ذلك فان الكتّاب والمؤلفين العرب الذين دونوا أخبار المعارك البحرية في العصر الأموي كتبوا بعد أن بعُد العهد بتلك الأحداث. ولم تنقل اليهم الرواية لا وصفاً دقيقاً للسفينة، ولا توضيحاً لوظيفتها. ولعل المعاصرين أنفسهم لم يعيروا هذه القضية، أي شكل السفن ووظيفتها، الاهتمام الكافي. ولسنا نحسب أنه كان من اليسير تصنيف السفن تصنيفاً دقيقاً. فالسفن المقاتلة بالذات، أي التي تحمل الجند والمعدات، قد يتعرف اليها القوم. لكن سفن النقل، وكثيراً ما كانت هذه هي السفن العادية التي يستعملها الناس للتجارة، الا أنها كانت تسخر اثناء المعركة، فلم يكن من اليسير التعرف الى شكلها بل ماهيتها.

وكثيراً ما كان الكتّاب الأجانب وهم يكتبون عن السفن العربية، الحربية منها وشبه الحربية، يستعملون اللغة اللاتينية، لمصلحة سكان ايطالية وما اليها، ويضطرون الى نقل الأسماء من اليونانية الى اللاتينية، فيزيدون الأمر تعقيداً، من حيث تمكين الباحثين المحدثين في التعرف إلى السفن شكلاً وصنعاً ووظيفة[٦٥].

ولا يغيبن عن البال أن التطور في استعمال السفن، ونحن نعني هنا الحربية خاصة، أدى الى تبديل في صنع السفينة ووظيفتها، لكن الاسم ظل كما هو. ولندلل على ذلك بمثلٍ هو كلمة

درومون dromone. فهذه السفينة القتالية كانت تحمل في أيام الامبراطور البزنطي ليون السادس (٨٨٦/ ٩١٢م) بين ١٣٠ و٢٠٠ مقاتل فأصبحت في ايام الامبراطور قسطنطين (٩١٣ ـ ٩٥٣م)، أي بعد فترة وجيزة، تحمل ٣٠٠ مقاتل، ومع أن مثل هذا الأمر كانت له ملابسات من حيث عدد المقاتلين ومعداتهم وأدوات الحصار وسير المعركة، فان التسمية ظلت واحدة[٦٦].

وقد أنهى علي محمد فهمي الفصل الذي درس فيه السفن الحربية العربية الإسلامية في البحر المتوسط، في كتابه عن التنظيم البحري الإسلامي (وهو من خير ما وضع حول الموضوع حتى اليوم) بالرأي التالي: «يمكن القول، وفي نهاية هذه الدراسة للسفن، هو أن الأسطول الاسلامي لم يكن فيه اسماء متعددة لصنف واحد من السفن فقط، بل كان فيه اسم واحد مفرد لأصناف متعددة. فالتطور التقني لم يؤد الى إدخال كلمات جديدة الى مجموع المفردات اللفظية (المتعلقة بالصناعة والتوظيف) فحسب، بل أدى الى تطوير في المعنى. فنشوء صنف جديد من السفن لم يؤد بالضرورة الى إيجاد تسمية جديدة، بل احتفظ بالاسم الذي كان يستعمل للصنف الأصلي الناشىء عنه. والكلمات العربية العديدة الواردة باللغة العربية لعلها لا تشمل سوى بضع عشرات من الأصناف؛ ومن ثم فانه يكاد يكون من المستحيل أن نحاول تأصيل [الأسماء]، إذ إن جل ما يمكن التوصل إليه قد يصلح لفترة محددة في منطقة معينة»[٦٧].

نحسب أنه من المستحب أن نضع بين يدي القارىء بضعة أمور تتعلق بالسفن البزنطية التي عرفت في فترة الصدام البحري بين العرب والبزنطيين. فالذي نعرفه، من قراءة الكتب التي وضعها خبراء عسكريون في القسطنطينية وغيرها ومن البرديات التي عثر عليها، هو انه كان ثمة أربعة أصناف من السفن هي الدروموني dromone والبامفيليا pamphylia والأوسيا usia والغليون galeon؛ وهذه كانت طليعة الأساطيل البزنطية. والدروموني كانت، على ما يبدو، الأضخم، والأولى كسفينة قتالية. وقد تراوح عدد الرجال الذين تحملهم ما بين ١٣٠ و٣٠٠ رجل على ما ذكر. كانت الدروموني تقوم على أكتاف صفين من المجذفين، وكان لها شراع أيضاً. وكانت السفن الكبيرة المقاتلة تستعمل الشراع للانتقال من مكان إلى آخر، لكن عند احتدام المعركة، فقد كان عمل الشراع يتوقف، ويحل محله عمل المجذاف. والمهم في هذا النوع من السفن هو أنها كانت عريضة بحيث يمكن للمقاتلة أن تستعمل سطحها للقتال عندما تلتقي الرجال عليه، فيما يكون المجذوفون يقومون بالعمل في الدور الأسفل[٦٨]. والدروموني، كسفينة، هي تطوير للسفينة الثلاثية trirem التي عرفها اليونان القدامى[٦٩].

وكانت البامفيليا من السفن الكبيرة، وكانت أقوى وأسرع من الدروموني، ومن ثم فقد اختيرت لتكون سفينة القيادة (سفينة أمير البحر)[٧٠]. وقد ورد اسم الشلندية بين السفن الحربية البزنطية أيام قسطنطين السابع (٩١٣ ـ ٩١٩م). ومع أن ايام هذا الامبراطور خارجة عن موضوعنا، فاننا نرى من المناسب الإشارة الى ذلك هنا، لأن «الشلندية» ترد بين أسماء السفن العربية. وكان هناك نوعان من هذه السفينة: الواحد استعمل له اسم الشلندية فقط،

وكانت السفينة الواحدة منه تحمل بين ١٢٠ و١٥٠ مقاتلاً؛ فيما كان النوع الآخر المسمى الشلندية ـ أوسيا، هو الأصغر حجماً وتتسع السفينة منه لنحو ١١٠ مقاتلين فقط[٧١].

وتبقى السفن الأخرى، التي ورد ذكرها هنا والتي لم نذكرها، هي السفن المساعدة لنقل الجنود والمؤن والمعدات والخيول. كما كانت هناك سفن أصغر لنقل الرسائل والأخبار عند الحاجة[٧٢].

وعندما ننتقل لنتحدث عن السفن العربية يجدر بنا أن نتذكر السرعة التي اخذ فيها العرب بثقافة البحر، مفيدين من تجربة اليونان والرومان السابقة في بناء السفن وقيادتها، ومن الأيدي العاملة في السواحل الشامية والمصرية. وقد نقلت اليد العاملة المصرية الى بعض الموانىء الشامية على ما يبدو، كما نقلت الى تونس على التأكيد[٧٣].

وقد نقل علي محمد فهمي عن فلهاوزن قوله: «ان العرب تمكنوا من الانتقال من الصحراء الى البحر والسفينة بسرعة مدهشة»[٧٤]. كما أن هيلير بلوك قال عن العرب والبحر: «لما قام العرب بنهضتهم الكبيرة في القرن السابع، تركوا صحاريهم وعنوا بثقافة البحر، وقد أصبحوا بعد مدة قصيرة يعلمون الشعوب التي احتلوا بلادها شؤون البحر كما كانوا يعلمونهم الفلسفة»[٧٥].

ولنذكر، قبل كل شيء، أن الدولة العربية الإسلامية كان لها اتساع في الشرق بقدر ما كان لها اتساع في الغرب، وكانت لمدنها تجارات هناك وتجارات هنا، ومن هنا فقد عرفت الصناعة طريقين لبناء السفن: الواحدة كانت مستعملة في البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي، والثانية كانت خاصة بالبحر المتوسط. والفرق بين الاثنتين هو فرق في اسلوب البناء. ففي الشرق كانت السفن لا يستعمل فيها المسمار أبداً، إذ كانت الألواح تربط واحدها إلى الآخر بحبال مصنوعة من شجر جوز الهند ثم تقلفط بدهن سمك القرش أو زيت الخروع. أما السفن المتوسطية فكانت توضع فيها الألواح الواحد الى جانب الآخر ثم تسمر بمسامير الحديد، تغرز في عوارض فوق الألواح. وقد ظلت الطريقتان تستعملان، كل في منطقتها، قروناً طويلة[٧٦].

من حيث الأصل كانت السفن العربية التي بنيت في العصر الأموي تشبه السفن البزنطية في شكلها. وكان هذا أمراً طبيعياً. فالأسطول العربي نشأ في البيئة الطبيعية والحضارية ذاتها التي صنع فيها الأسطول البزنطي قبله، وهذا كان أيضاً وريثاً للأساطيل اليونانية والرومانية القديمة، وحتى هذه أخذت الكثير عن الأمم الشرقية الأقدم. والصنّاع الذين بنوا السفن العربية الأولى هم أحفاد اولئك الذين صنعوا السفن قبلهم في حوض البحر المتوسط، وخاصة في الأجزاء الشرقية.

كان العنصران الأساسيان في بناء السفينة هما متن السفينة أو جسرها الذي يمتد على طول السفينة من الطرف الواحد للقاع الى الطرف الآخر. وضلوع السفينة التي تبدأ في الجسر وترتفع على جانبيه مقوسة بحيث تعطي المركب شكله الأصلي. ولا بد من ان تقلفط

الألواح بعد وضعها في أمكنتها كي تثبت وتقوى. والمواد المستعملة لذلك في البحر المتوسط هي القار والزفت والقطران (وهي مواد متقاربة في المصدر والمظهر). وكانت الحبال التي تربط بها الأشرعة وتدلى بها المرساة مصنوعة من القنب أو البردي. وقد استعمل العرب الشراع اللاتيني lateen المثلث الذي يبدو أنه كان معروفاً عند الرومان منذ القرن الثاني ق. م. اما الشراع المربع فلم يكن الشيء المألوف يومها. والفرق بين الاثنين هو ان المثلث كان يتجاوب مع هبوب الرياح اكثر من المربع. لكن الأول يصعب التعامل معه، الا أنه متى استطاع الملاحون السيطرة عليه تصبح فائدته كبيرة[٧٧].

وقد حسّن العرب في الشراع اللاتيني بشكل خاص إذ عمدوا الى السارية فطولوها، ورفعوا الدعامة. ولعل الخشب الجيد الذي حصلوا عليه مكنهم حتى من ترفيع[٧٨] السارية، فأصبح العمل بها أيسر.

وبلغت السفن العربية، مع الوقت، أحجاماً كبيرة. فقد كان بينها سفن تجارية تحمل ما يزيد على الف طن، فيما كان بين السفن المقاتلة ما يحمل ألفا وخمسمائة رجل[٧٩].

وقد كانت السفن الحربية في الأسطول العربي في البحر المتوسط كبيرة وبطيئة على العموم، لكنها كانت قوية.

يذكرنا علي محمد فهمي بابن عبد الحكم أورد ثلاثة اسماء لسفن استعملت في معركة ذي (ذات) الصواري، وهي سفينة ومركب وقارب. ولكن ابن عبد الحكم لا يصف السفن ولا يبين وظائفها. ويتناول فهمي هذه الأسماء الثلاثة من الوجهة اللغوية معتمداً على معلقتي طرفة وعمرو بن كلثوم وعلى تاج العروس ودراستي كندرمان وفرنكل. ولكن هذا كله لا ينقلنا خطوة واحدة في سبيل استيضاح المعنى والوظيفة لهذه السفن في مركبة معينة معروفة[٨٠]. والذي نراه نحن ان خبر المعركة لما وصل الى ابن عبد الحكم كانت فيه إشارة الى سفن من أنواع مختلفة، فوضع المؤلف ما نقله عن الرواة من دون اهتمام بالتفاصيل.

لذلك فإننا، ننتقل مع فهمي، لنرى ما الذي تزودنا به المصادر الأخرى. وهنا يصطحبنا فهمي مرة ثانية، وليست الأخيرة على كل حال، الى البرديات حيث يجد أن نوعين من السفن: دروموناريا dromonaria وأكاتيا acatia يرد اسمهما في سنتي ٩٦هـ/ ٧١٤م و٩٧هـ/ ٧١٥م لمناسبة الحديث عن سفن خفر السواحل على مصبات النيل في (الأولى) وهجوم تم في السنة الثانية. وينقل فهمي عن ثيوفانس أن دروموليات (عربية) كانت في عداد سفن الاسطول الذي حاصر القسطنطينية سنة ٩٩هـ/ ٦١٧م ويقبل فهمي استعمال ليون السادس لهذه الكلمة كاسم السفن الحربية، بقطع النظر عن نوعية السفن أو صنفها. ثم يقترح انها تقابل شلندية[٨١].

ويقع فهمي، في بردية أخرى، على اسم اكاتيناريا، acatenaria، وعندها يضع الأكاتيا والأكاتيناريا في صنف السفن التي رافقت الأسطول العربي في حصار القسطنطينية (٩٩هـ/ ٧١٧م) للحمل والنقل والخزن (مثل katinae). ويخمن أنها كانت تساوي الطريدة التي كان هذا شأنها[٨٢].

نود أن نقف هنا حتى لا نتوه في غياهب السفينة والبحرية التي يقودنا اليها فهمي. فقد أخذ على عاتقه تتبع أسماء السفن ووظائفها (ص ١٢٦ ـ ١٣٦) ثم نتبع أسماء السفن التي عرفها الأسطول الطولوني (١٤٩ ـ ١٥٤) وتلا ذلك تعريف بالسفن التي ورد اسمها عند المقدسي (ص ١٥٥ ـ ١٦٦).

ولا بد من القول هنا ان فهمي يتحدث عن الأسطول الإسلامي من القرن السابع الى القرن العاشر. فمن واجبه التعلق بهذه الأسماء يشرحها ويفسرها، وهو يقدم للدارسين معلومات جيدة. وعلى كل، فمن المرجح ان الأسطول العربي عرف، في ايامه الأولى، الشلنديات والشواني، بين السفن الكبرى، ذات الصفين من المجذفين، وكانت بين سفنه مراكب أصغر للنقل السريع وحمل المؤن الى الوحدات الكبرى.

والسفن الحربية كانت فيها أشياء أربعة مهمة: أولها الكلاليب الضخمة التي كانت تلقى على سفن الأعداء فتلقطها وتجرها نحو السفن العربية، وعندها ينتقل المقاتلون الى المركب المقابل، وتصبح المعركة معركة بالسلاح العادي. وقد تم القتال في معارك بحرية كثيرة على هذا النحو. والثاني ما تحمله من أبراج تلقى منها الحجارة وغيرها على العدو. وإلى جانب هذه الأبراج كانت تقوم ستائر وصناديق من الحديد، الأولى تحمي المقاتلين، والثانية تحمل رماة السهام والحجارة، وثالثها هو الكبش الضارب يقام في مقدمة السفينة لضرب السفينة المهاجمة. ورابعها أن الألواح الخارجية كانت تلف باللباد ثم تغطى بالجلود كي لا تتأثر هذه الألواح بعوامل الطقس المختلفة(٨٣).

والكبش الذي ذكرنا أنواع، فمنه الذي ينزل به إلى البر لمهاجمة الأسوار، ومنها الرؤوس التي كانت تستعمل في مهاجمة الأبراج في السفن.

وكان من الضروري أن تحمل السفن المقاتلة أو المؤازرة لها الأبراج والسلالم المنوعة. ومن الأبراج والسلالم كانت ترمى الحجارة والأسهم الحارة تطلق من الأقواس. وقد ضم النفط فيما بعد إلى ما يرمى من الأبراج والسلالم على الخصوم في المعركة أو في المدن.

ومن الطبيعي ان لا يتخلى المقاتل العربي، أكان قتاله في البر أم في البحر، عن أسلحته الشخصية المألوفة: السيوف والرماح والتروس والدروع والأقواس (للسهام)(٨٤).

وكان من الطبيعي ان تكون صناعة السفن الحربية، والسفن التي ترافق السفن الحربية والمعدة للمشاركة في القتال بأي من الطرق المقبولة، عملاً حكومياً. فالتخطيط لبناء أسطول شيء يصدر عن مركز من مراكز الحكم إما في المركز الرئيسي أو في الولايات، وتنفيذ ذلك يتم عبر وسائل الدولة. وان كانت أي سفن موجودة يمكن أن تسخر حين تعرض الحاجة لإتمام الترتيبات وتيسير الأمور.

ومن ثم فقد كان يترتب على مراكز الحكم ان تعنى بالحصول على المواد الخام اللازمة لبناء السفن. وهذه من حيث أصلها على ثلاثة أنواع: الأخشاب والمواد المعدنية ومواد أخرى مثل اللباد والجلود وزيوت الأسماك والخروع أو القار.

أما الأخشاب فتلزم لصنع جسر السفينة وألواحها، الداخلية والخارجية، والسواري والعوارض والمجاذيف. وكل من هذه بحاجة الى صنف من الأخشاب. وقد كان في متناول العرب في عصر الخلفاء الأول، المناطق التالية، لتزويد هذه الصناعة بحاجاتها من الأخشاب، وهي: مناطق سورية الشمالية، في جبال الأمانوس واللاذقية، التي كانت غنية بالصنوبر. وكان حصن التينات ميناء تصدير هذه الأخشاب الى مصر. كما كانت جبال لبنان وسفوح جبال لبنان الداخلية تزود الموانىء الشامية ومصر بأخشاب الأرز[٨٥]. وكانت حيفا وعسقلان غنيتين بأشجار النخيل والتين[٨٦]. أما في مصر فقد كانت أشجار اللبخ كثيرة في منطقة أنصنا (انتينوي القديمة) الواقعة في محافظة أسيوط حالياً. وكان اللوح الواحد من شجر اللبخ يساوي خمسين ديناراً[٨٧]. وكان السنط (الاكاسيا) يعتبر من عجائب مصر، وهو خشب صلب مكتنز أسود، وقد شبه بخشب الأبنوس[٨٨]. وكما كانت أشجار النخيل والتين توجد في فلسطين، كما في مصر. وكانت جذوع هاتين الشجرتين لازمتين لصنع السفن. وكانت مصر غنية بهذين الصنفين من الأشجار[٨٩]. ومن الأشجار التي كانت معروفة في مصر، وكانت تزود صنّاع السفن بالأخشاب، شجرة السدر[٩٠].

وكانت افريقية الشمالية، بعد ان وقعت في أيدي العرب، مصدراً رئيساً للأخشاب لدور الصناعة فيها ولتصدير الكثير من أخشابها إلى مصر. فقد ذكر ايكهوف ان المنطقة الممتدة من طرابلس الى طنجة كانت غنية بالغابات التي تزود دور الصناعة في بجاية وعنابة وتونس وغيرها بأخشاب الأرز والصنوبر والسنديان، فضلاً عما يصدر منها إلى مصر[٩١]. ولما وقعت صقلية تحت نفوذ العرب كانت غاباتها تزود صنّاع السفن بالأخشاب الجيدة الكثيرة[٩٢]. ومثل ذلك يقال عن إسبانية وغاباتها الكثيفة التي ظلت فترة طويلة مصدراً للأخشاب لدور الصناعة فيها وفي أقطار مجاورة[٩٣]. أما قبرص وطرسوس فقد كانتا مركزين لتجميع الأسطول للهجوم على البزنطيين وخاصة فيما بعد. وكان يستفاد من أخشاب الجزيرة، التي كانت تصلح للسواري والعرائض والدعامات[٩٤].

فصلاً عن هذا، فقد كان من الممكن للعرب ان يحصلوا على الأخشاب من ليكيا (جنوب آسية الصغرى) بطرق مختلفة، ومن البندقية. ومن رافنا شراء[٩٥].

ولمناسبة البحث عن مدينة البهنسا المصرية ورد في الموسوعة الإسلامية أن الأخشاب كانت كثيرة في مصر من قبل، ولكنها استنزفت في صنع سفن الأسطول المصري ايام الطولونيين وأيام الفاطميين خاصة[٩٦]. وهذا يتفق مع ما ذهب اليه ايكهوف بخصوص الشمال الافريقي واستهلاك غاباته في بناء الأساطيل العربية، والافريقية خاصة[٩٧].

لكن يبدو أنه حتى في الأوقات المبكرة من عهد الخلفاء، وفي عصر الأمويين بالذات، كانت تحدث أزمة في الحصول على الأخشاب اللازمة لبناء السفن. فقد أورد ابن عبد الحكم ان صنّاع السفن احتاجوا الى أخشاب لدار صناعة الروضة، ووجد مدبر الشؤون المالية في مصر، حيان ابن شريح، أنه من الممكن الحصول على هذه من جوائز عدد من الأبنية القائمة،

فاستأذن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ/ ٦١٧ ـ ٧٢٠م) في الأمر فسمح له بذلك على أن يدفع ثمنها لأصحابها، ففعل[٩٨].

وقد يكون التفسير المنطقي لمثل هذه الحادثة هو أنها كانت أزمة طارئة ـ أي إن نوعاً معيناً من الأخشاب كان لازماً ولم يمكن الحصول عليه وقتها.

وكانت صناعة السفن تحتاج الى مسامير ووصلات ومراس وسلاسل. والنوعان الأولان هما جزءان اساسيان من الصناعة من الداخل، أما الاثنان الآخران فهما من العدة اللازمة للسفن. وكان الحديد يلزم لصنع هذه الأصناف جميعها، الا أن السلاسل كانت تصنع من النحاس أيضاً. وقد تصنع حتى من القصدير[٩٩].

ومصادر المواد المعدنية كانت إما في داخل الامبراطورية العربية، أو أنها كانت خارجها؛ وعندها كان لا بد من ابتياع هذه المواد. اما المناطق التي عرف فيها عن وجود المعادن داخل الامبراطورية فهي: لبنان (الحديد)[١٠٠] والشمال الافريقي الذي كان يوجد فيه من المعادن الحديد والنحاس والفضة والرصاص[١٠١]. وكانت صقلية تزود حاجات دور الصناعة بكمية معقولة من الحديد[١٠٢]. وكانت قبرص، حتى منذ أقدم الأزمنة، المصدر الأول للنحاس[١٠٣]. فضلاً عن ذلك، فقد كان من الممكن، عند الحاجة، شراء بعض أنواع المعادن عن طريق بيزا والبندقية [١٠٤]. وقد نقل علي محمد فهمي عن قسطنطين أن بعض السفن كانت تغطي الأجزاء المغمورة بالماء منها، بالرصاص. على أن الإشارة الى هذا الأمر لا تدل على أنه كان أمراً عادياً بالنسبة لكل سفينة[١٠٥].

فضلاً عن الأخشاب والمعادن، كان ثمة أشياء أخرى تلزم للسفن، منها الحبال التي كانت تصنع من لحي النخل والبردي ومن نوع خاص من القنب يسمى الدقس كان من خير ما تصنع منه الحبال التي كانت تسمى القرقس[١٠٦].

وآخر ما كان يلزم لصناعة السفن الأشياء الصغيرة التي لا يتم الاعداد الا بها وهي الوسائد العادية والوسائد اللبادية والجلود والقماش اللازم للشراع. وجميع هذه كانت تستدعي دقة الصنع والعناية الخاصة بقماشها وخيوطها وضبط ربطها بالساري وبالعارضة[١٠٧].

٥ ـ ادارة الأسطول وعدته

كانت الحملات البحرية التي تقوم بها السفن العربية ضد البزنطيين ترسل عند الحاجة [مثل الحملة الأولى على قبرص والحملة على ارواد] أو عندما يشعر القائمون على الأمر بأن اعتداء بزنطياً قد تم [مثل الحملة على الاسكندرية] (٢٥هـ/ ٦٤٥م). لكن الأمر تبدل منذ حكم موسى بن نصير في افريقية وولاية قرة بن شريك في مصر. فقد أخرج أماري أن موسى بن نصير، لما تولى حكم شمال افريقية (٧٨ ـ ٩٥هـ/ ٦٩٧ ـ ٧١٣م)[١٠٨]، أخذ يبعث بحملات بحرية، تكاد تكون سنوية، ضد البزنطيين في غرب البحر المتوسط. وفي ولاية قرة بن شريك لمصر (٩٠ ـ ٩٦هـ/ ٧٠٩ ـ ٧١٤م) أصبح ارسال الحملات سنوياً أمراً ثابتاً. وكان من الطبيعي أن تتوجه الحملات أيضاً من مصر نحو المراكز الشرقية. وهذه الحملات، مع حصار

القسطنطينية وفتح الجزر الشرقية، هي التي دفعت بالامبراطورية البزنطية الى بناء اسطول قوي، تمكن من الوقوف في وجه الحملات المختلفة، بل انه أخذ يفرض السيطرة على أجزاء من البحر المتوسط، غرباً وشرقاً بين سنتي ٧١٦م ٧٤٧م[١٠٩]. ومع أن العرب كانوا أسبق بالعناية بالأسطول، وأقدر على التنظيم، فقد كان البزنطيون أسرع في تنظيم اساطيلهم لما انصرفوا الى شؤون البحر. ولعل السبب في ذلك يعود الى أن الامبراطورية البزنطية أعادت تنظيم الولايات ادارياً في مطلع القرن السابع، أيام هرقليوس (٦١٠ ـ ٦٤١م)[١١٠]، الأمر الذي ساعد على الربط بين الوحدة الإدارية ـ الولاية ـ والقطعة البحرية التابعة لها. كما ربط بين وحدات الجيش البرية والوحدات الإدارية من قبل. ومن هنا فان التنظيمات المتعلقة بالأساطيل البزنطية، على ما بلغته في القرن التاسع، هي أوضح منها عند العرب على ما عرفناه عنها أيام الأمويين. (حري بالذكر أن أيام الفاطميين مثلاً شهدت تنظيماً دقيقاً للأساطيل، ولكن هذا يخرج عن نطاق بحثنا)[١٠٩] [١١٠].

ونحن عندما نبحث عن الوحدات البحرية التي كانت تخرج من الموانىء أيام الأمويين، على ما انتهت اليه في آخر القرن الأول وبدء القرن الثامن، نجد أنها كانت تتألف من الأساطيل التالية:

أولاً، الأسطول المصري (أو أسطول الشرق كما كان البزنطيون يسمونه) ومن المرجح أن الاسكندرية كانت قاعدته، لكن دار الصناعة في بابليون (باب اليون) والجزيرة كانت تعنى بالسفن اللازمة له، صنعاً وصيانة ومؤونة[١١١]. أما دور دار صناعة القلزم فيرجح أنه كان تزويد البحر الأحمر بحاجته. ومع أن هذا هو الرأي المرجح فان علي محمد فهمي يذكّرنا بأن الأحوال لم تكن يومها تتطلب وجود أسطول مهاجم في البحر الأحمر[١١٢]. ولعلنا نستطيع أن نرى في القلزم دار صناعة مهيأة لتكون رديفاً للاسكندرية والجزيرة عند الحاجة. وكان ثمة وحدة بحرية أصغر من الأساطيل المهاجمة كان عملها حماية الموانىء القريبة من مصبات النيل. هذه أصبح وجودها ضرورياً بعد أن هاجمت السفن البزنطية الاسكندرية سنة ٢٥هـ/ ٦٤٥م[١١٣].

ثانياً، اسطول شمال افريقية، وكانت تونس وبرقة مركزيه الأصليين، وفي كل منهما دار صناعة[١١٤]. ومع انتشار العرب في اسبانية وصقلية قامت لهم دور صناعة كبيرة في صقلية وموانىء الأندلس، وكانت هذه الوحدات البحرية لها، فيما تلا من الأيام، اساطيل قوية خاضت معارك بحرية مهمة[١١٥].

ثالثاً، الأسطول الشامي وقد أسهمت الموانىء الواقعة على البحر المتوسط في إعداد السفن واصلاحها وتطوير بنائها، وعلى تعاقب السنوات، في عكا وصور وبيروت وطرابلس[١١٦] واللاذقية. فقد نقل ايكهوف أن اللاذقية قدّمت ٧١٤ سفينة من نوع الدرومنين العربية للأسطول. ويبدو ان اسطول طرسوس الذي كان أصلاً جزءاً من الأسطول الشامي، انفرد بالأمرة والعمل منذ أوائل القرن التاسع[١١٦] [١١٧]. وقد عرف أسطول طرسوس باسم «ذعر البحر الأيجي»[١١٨].

والأمر الذي لم يأخذ به العرب في تنظيمهم لأساطيلهم هو وجود اسطول يتبع الخليفة مباشرة، على نحو ما فعل البزنطيون لما نظموا شؤونهم البحرية من حيث توزيع الأساطيل. فقد كان هناك الأسطول القيصري، اذا جاز التعبير، التابع للامبراطور ادارة وسلطة، وكان مركزه القسطنطينية[١١٩]، فيما كانت اساطيل الولايات تتزود بحاجاتها من الولايات. وهذه كانت ثلاث وحدات: واحدة لآسية الصغرى وكانت تتبع الولايات الواقعة على ساحل الأناضول الغربي والجنوبي الغربي، على مقربة من الغابات الغنية، ومركزها كان اتاليا (اطاليا)؛ والثانية كانت تدور حول جزيرة ساموس ويدخل في اطارها عدد من الجزر المجاورة؛ والثالثة كانت الوحدة الايجية ومركزها جزيرة خيوس (كيوس)[١٢٠].

أما الأسطول الامبراطوري الذي كانت القسطنطينية مقره، فقد كانت سفنه افضل إعداداً من حيث الصناعة وكذلك من حيث تدريب الرجال، الذين كانوا أحسن من العاملين في أساطيل الولايات[١٢١].

ونحسب أن السبب الرئيسي في أن الأساطيل العربية، ايام الأمويين (وأيام العباسيين ايضاً) لم يكن لها أسطول رئيسي هو ان العاصمة لم تكن ميناء؛ فلا دمشق ولا بغداد يمكن ان تقابل بالقسطنطينية من هذه الناحية.

كانت نفقات الاحتفاظ بالسفن الحربية صالحة للعمل كبيرة. فقد نقل علي محمد فهمي ان نفقة الأسطول بلغت سبعة آلاف دينار سنوياً في ايام الخليفة يزيد (٦٠ ـ ٦٤هـ/ ٦٨٠ ـ ٦٨٣م)، ولكن في القرن الثالث/ التاسع بلغت نفقة حملة واحدة مائة ألف دينار. ونفقات الأساطيل أو الحملات البحرية في ايام الأمويين ومطلع العصر العباسي، كانت تتبع خطى البزنطيين توزيعاً وادارة؛ ومن ثم فقد كانت المخصصات التي تجمع تحتسب في نوعين اساسيين: الأول هو العادي وهو العام أيضاً، والثاني الاضافي أو الآني أي الذي تقتضيه الضرورة. والنوع الأول، أي العادي أو العام كان بعضه يدفع نقداً والبعض الآخر حبوباً (وهو الذي كان يعرف باسم امبولا Embola في العالم القديم). كان المال يدفع الى الخزينة في الفسطاط وهذه كانت، في غالب الحالات، تحول المبلغ المطلوب الى الموظفين المسؤولين للانفاق. أما الحبوب فقد كان منها ما يحمل الى المستودعات الرسمية في الفسطاط، ومن هناك يرسل جزء منها الى القبائل العربية لتوزع عليها، ويحفظ الباقي كي يعطى منه للموظفين ما يقوم بأودهم[١٢٣].

أما النوع الثاني وهو الذي كان يجمع عندما تقتضي الضرورة ذلك، فيمكن دفعه إما نقداً أو نوعاً. والذين يتقاضونه هم الموظفون والعرب المقيمون على أنه علاوات اضافية لمهمات خاصة، والعمال والملاحون الذين تصرف لهم أزوادهم. فضلاً عن ذلك فقد ينفق من هذا المال، الذي يجمع في هذه الحالات الخاصة، على الانشاءات والمواصلات البحرية[١٢٤]. الى جانب هذا كله كانت ثمة خدمات شخصية تتطلبها الحكومة من الأفراد، على أنها واجبات يقتضي عليهم القيام بها، وهي أقرب ما يكون الى السخرة[١٢٥]. وقد كان

المتبع في مصر أن تكون الأعمال الصناعية، مثل الأراضي، وراثية، بحيث يكون ابن الملاح ملاحاً وابن الحداد حداداً وهكذا دواليك. وكان طلب الحكومة للعمل من أولئك الأشخاص يعتبر «تجنيداً» لا «سخرة» تماماً، إذ كان اولئك المطلوبون يتناولون أجراً، عندما يعملون بعيداً عن بيوتهم، وخاصة في شؤون البحر أو صناعة السفن (ولو ان هذا لم يراع دوماً). وكانت النساء خاضعات للتجنيد لأعمال الحكومة كما كان الرجال[١٢٦].

يتضح من هذا أن السكان كانوا يدفعون الأموال لقضاء حاجات معينة أو يزودون السفن بالمؤن. الا أنهم كانوا يكلفون ان يقدموا للسفن مواد أخرى مختلفة الأصناف عندما يطلب منهم ذلك. وكان على السكان أن يزودوا الأسطول بالملاحين اللازمين له. وقد أخرج علي محمد فهمي أن الملاحين كانوا يفرضون، بالنسبة لمصر، على سكان مصر كلها، لا على سكان المدن الساحلية فحسب. وكان الوالي يكتب الى حاكم الكورة المحلي Pagarch مبيناً العدد المطلوب من منطقته الإدارية، معيناً حصة كل بلدة أو قرية أو حتى دير من هؤلاء الرجال المطلوبين للعمل. وعندها ينتقي الموظفون المحليون الرجال المكلفين. وهناك ما يدل على أن الاختيار هذا قد يكون على أساس سجل يحتفظ به الإداريون المسؤولون ويبين فيه اسماء الأشخاص الذين يمكن ان يكلفوا بالأعمال المختلفة. وقد جاء مثل هذه التعليمات في رسالة بعث بها قرة بن شريك والي مصر سنة ٩٢هـ/ ٧١٠م الى باسيليوس الذي كان الحاكم المحلي في كورة افروديتو (كوم اشكوه الحالية في مصر العليا)، يؤكد فيها وجوب دفع الضرائب العامة (العادية) والاضافية، وجمع الرجال المطلوبين للأسطول. ومن الطريف ان الحكومة كانت تأمر الذين يطلبون للخدمة أن يأتوا بمن يضمن حسن سيرتهم والتزامهم بالعمل ما داموا مكلفين به[١٢٧].

وقد حددت الرسائل البردية التي عثر عليها في افروديتو والتي تعود الى أيام قرة بن شريك، الأسلوب الذي اتبع في الحصول على الرجال اللازمين. فإما ان تقدم البلدة (أو القرية أو حتى الدير) العدد المطلوب من الرجال، أو إذا لم يكن ثمة ما يكفي، من حيث العدد، يمكن استئجار العدد اللازم من مكان آخر، على أن يتولى سكان المكان الأول انفسهم دفع أجور هؤلاء الرجال[١٢٨]. وكان هذا يسمى البدل Adaeratio.

كان الملاحون في غالبيتهم، وفي مصر خاصة، من الأقباط والروم، أما في بلاد الشام فقد كان الملاحون في غالب الحالات، من سكان البلاد الأصليين، وكان الروم قلة بينهم، لأن عدداً كبيراً من الروم رحل عن البلاد أثناء الفتح وفي أعقابه. لكن المحاربين/ المقاتلين كانوا من العرب أصلاً وبعضهم من أبناء المهاجرة الأولين، الا أن اكثرهم كان ممن هجر بلده وانضم الى الذين أقاموا في الأمصار، مثل الفسطاط والقيروان والبصرة والكوفة. وهذه أصبحت، كما نعرف، منطلقات للقتال أو مراكز تجمع للجيوش أو نقاط اراحة لها. وهؤلاء المقاتلة كانوا يفيدون من العطاء الذي أفاد منه الناس عند انشاء الديوان الخاص بذلك. وكان العطاء رزقاً من الحبوب أو مالاً. وقد نقل علي محمد فهمي عن بكر backer رأيه في أن العطاء كان يشمل أشياء أخرى مثل القماش[١٢٩].

وكان بين المقاتلة الموالي، وهم الذين اعتنقوا الاسلام من سكان البلاد، ولم يكونوا عرباً أصلاً، لكنهم أُلحقوا بقبائل عربية، وخدموا في الأسطول مقاتلة. وثمة أكثر من إشارة الى أن هؤلاء الموالي كانوا يتلقون رزقاً وعطاء، ولم نجد ما يدل على أن عطاء الموالي كان دون عطاء المهاجرين(١٣٠).

وقد كان المقاتلة العرب، أول أمرهم، مقاتلة بر لا مقاتلة بحر. ومن هنا نرى أن الخطوة الأولى التي كانت القيادة العربية تخطوها في معركة بحرية هي جر سفن العدو الى مراكبها ثم الانقضاض على الأعداد ومقاتلتهم على ظهر السفن كما لو كانت المعركة برية.

ثم ان دور الصناعة بحاجة الى أعداد كبيرة من مهرة الصناع ـ نجارين وبنائين وحدادين وقلفاطيين. وقد كان الحصول على هؤلاء الصنّاع يجري على الأسلوب نفسه الذي كان يتبع للحصول على الملاحين. فكان يلجأ الى ارغام بعض الفئات على العمل في مصانع السفن، كما كان يطلب من فئات أخرى أن تدفع مبالغ معينة من المال لاستئجار العمال اللازمين، وإلا عوقبوا. وقد أورد علي محمد فهمي خلاصات لرسائل بردية تعود إلى أيام الخلفاء يزيد من معاوية (٦٤ ـ ٦٨هـ/ ٦٨٢ ـ ٦٨٣م) وسليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ/ ٧١٥ ـ ٧١٧م) وأبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥م)(١٣١). ومن الطريف أن الرهبان كانوا موضع الاهتمام الأول في هذه الرسائل. فهل كان ذلك لأنهم كانوا ماهرين في هذه الصناعات، لأنهم كانوا يبنون الأديرة، مع كل ما تحتاج اليه من مهارة صناعية، بأنفسهم؟

وهذه رسالة (بردية) من قرة بن شريك والي مصر الى بسيل (باسيليوس) حاكم افروديتو (كوم اشكوه/ اشقوه) مؤرخة في ربيع الأول ٩١هـ (٧ كانون الثاني/ يناير الى ٥ شباط/ فبراير ٧١٠م).

١ ـ [بسم] الله الرحمن الرحيم
٢ ـ من قرة بن شريك الى بسيل
٣ ـ صحب اشقوه فاني أحمد
٤ ـ الله الذي لا اله إلا هو
٥ ـ أما بعد فانه قد ذهب
٦ ـ من الزمن ما قد علمت
٧ ـ وقد استأخرت الجزية
٨ ـ وحضر عطاء الجند و
٩ ـ عطاء عيالهم وخروج الجيوش
١٠ ـ ان شاء الله فاذا جاءك
١١ ـ كتبى هذا فخذ فيما على أرضك
١٢ ـ من الجزية وعجل بالأول
١٣ ـ فالأول مما جمعت
١٤ ـ ولا أعرفن ما أخرت

١٥ ـ ما قبلك ولا كان له حبس
١٦ ـ فان أهل أرضك
١٧ ـ قد فرغوا من زراعهم
١٨ ـ (ثم ان) الله معينهم على
١٩ ـ ما كان عليهم من حق أمير
٢٠ ـ المؤمنين فلا يكونن في أمرك
٢١ ـ عجز ولا تأخير ولا
٢٢ ـ تحبساً بما قبلك فانه لو
٢٣ ـ قد [لو قد] اجتمع عندي مال
٢٤ ـ قد أعطيت الجند
٢٥ ـ عطاهم إن شا الله فاكتب
٢٦ ـ الي بما اجتمع عندك
٢٧ ـ مما جبيت من الجزية
٢٨ ـ وكيف فعلت في ذلك
٢٩ ـ والسلم على من اتبع الهدى
٣٠ ـ وكتب جرير في شهر ربيع١[١٣٢]
٣١ ـ لأول سنة احدى وتسعين

وحري بالذكر أنه كان ثمة تشابه بين مقدار ما كان يجمع من الضريبة، وأسلوب جمعها بين التنظيمين العربي والبزنطي. فالمال المخصص للأسطول القيصري أو المركزي كان يجمع من موارد ثابتة ومستمرة أساسها: (أولاً) أن يدفع كل بيت قائم في الموانىء أو السواحل دينارين سنوياً؛ (ثانياً) أن تخصص رسوم ميناء اتاليا (اطاليا) في آسية الصغرى لهذا الغرض (وقد وصل المبلغ الذي تدفعه سنوياً ٣٠٠ رطل من الذهب). والأموال التي تجمع من هذين المصدرين كانت تنفق على إعداد السفن والعناية بها، ودفع أجور الملاحين المتميزين، الذين يعملون باستمرار والذين يدعون في الملمات.

أما ملاحو الأساطيل التي كانت تتبع الولايات فكانوا يؤخذون من الذين تقع عليهم الخدمة العسكرية، وهي مثل الأقطاع والمهنة شيء كان الابن يرثه عن الأب، حقاً وواجباً[١٣٣].

يتبقى علينا أن نشير إلى ما كان يطلب من السكان أن يقدموه للأسطول من مواد بنائية وسفينية ومواد تموينية. وقد ذكرنا الأولى (الأخشاب والحديد والنحاس والحبال والوسائد والقماش) من قبل؛ أما الآن فتعنينا المواد الغذائية وهذه تشمل القمح والخبز والسمن والخل والزيت والملح؛ وقد كانت بالطبع لازمة لصمود الملاحين والعمال. وكان القمح ينقل من مستودعات تحفظ فيها الحبوب التي يقدمها السكّان على أنها فريضة عليهم (امبولا Embola).

وقد كانت السلطات ترفض قبول البدل المالي مقابل ما يترتب على المنطقة من مواد غذائية، الا في الحالات الخاصة، أي عندما يعجز المطالب بالمواد عن توفيرها[١٣٤]. والذي نراه هو أن السبب في هذا يعود اما الى صعوبة الحصول على كميات كبيرة من المواد الغذائية باستمرار، أو الى تقلب الاسعار، الأمر الذي لا تستطيع الخزينة متابعته، أو إلى الأمرين معاً.

أورد علي محمد فهمي (ص ١٠٩ ـ ١١١ من كتابه) في فصل تنظيم الأسطول Naval Organization نماذج مفصلة لأجور الصناع، وأسعار بعض المواد الغذائية، وهي منتزعة من برديات مختلفة وأغلبها يعود الى السنوات ٨٠ ـ ٩٨هـ/ ٦٩٩ ـ ٧١٩م: وها نحن نلخص هنا قلة منها لنعطي للقارىء فكرة عن الأجور والأسعار عن النفقات اللازمة للأسطول:

الأجور	بحار	٢/٣ ـ ١ صوليدي
	نجار	١/٢ ـ ١ صوليدي (تقريباً)
	صانع في بناء السفن	٢ صوليدي
	قلفاطي	١١/٢ صوليدي
	حداد	٢ صوليدي
الأسعار	القمح نحو ١٤ اردباً	ثمنها صوليدي واحد
	السمن المكيال الواحد	(؟) ١ ١/٦ صوليدي
	الزيت المترون الواحد	١/٢ صوليدي
	الخل المترون الواحد	٢/٩ صوليدي
	الملح	١٢ كولاتا (collatha) بصوليدي واحد

الصوليدي (Solidus) هو نقد ذهبي يعود في قيمته النهائية الى أيام قسطنطين الكبير (٣٢٤ ـ ٣٣٧)، ويساوي ١/٧٢ من رطل (باوند) الذهب أي ما يعادل ٥ ر٦ غرامات تقريباً. وكان يسمى البيزانت/ bezant أيضاً في الدولة البزنطية. والذي آل اليه الأمر فيما يتعلق بتطور الدينار والدرهم في أيام الأمويين يمكن تلخيصه بما يلي: كان وزن الدينار ـ ذهباً ـ ٤ر٢٥ غراماً ووزن الدرهم ـ فضة ـ ٢,٨٧ درهماً. وكانت النسبة في القيمة بين الدينار والدرهم هي سبعة الى مئة، أي أن سبعة دنانير تساوي مئة درهم [١٣٥].

ليس في المصادر ما يشير تماماً الى التنظيم الذي اتبع في ادارة الأسطول ايام الأمويين. لكن هناك معلومات كثيرة متأخرة عن التراثية والرؤساء وكيف يعهد بقيادة الأسطول الى رئيس واحد والى غير ذلك من معلومات كثيرة لا نرى هنا أن نستشهد بها لأنها خارجة عن نطاق العصر الذي ندرسه[١٣٦].

يجدر بنا الآن أن نلتفت الى الأسلحة التي كانت توضع في أيدي المقاتلة. وبهذه المناسبة فان علي محمد فهمي يذكرنا بأن المؤرخين المسلمين لا يتحدثون عن القتال البحري لا من حيث العدة تماماً ولا من حيث الاشتباكات[١٣٧]. فيما نجد عند البزنطيين أدباً يصح تسميته أدب القتال البحري الذي يتمثل في غير كتاب واحد. صحيح أن هذه تعود الى

القرن العاشر، لكنها على كل حال تضع بين أيدينا أساساً للحديث[١٣٨]. فقد وضع الامبراطور ليون السادس (٨٨٦ ـ ٩١٢م) دليلاً حربياً بحرياً وضّح لنا أوضاع الدولة البزنطية وموقفها من أمور البحر. منه نعرف مثلاً، أن جميع العاملين على السفينة كانوا يعطون اللباس الذي يحصل عليه الجندي العادي. فالضباط وصف الضباط والملاحون الذين هم معرضون للخطر كان يعطى لكل منهم خوذة وصدرية من الزرد تلبس فوق قميص من اللبود وكفوف من الزرد وترس من المعدن. أما الجذّافون فكانت حصتهم أقل تعقيداً وأيسر للعمل إذ كان فيها جاكتة من الجلد المقفى باللبود؛ وفيما كان الجذافون العاملون على السطح الأعلى يعطون خوذاً، كان الذين يعملون في أسفل السفينة يلبسون طاقيات من القماش. وكان ثمة عدد كبير من التروس الخفيفة المصنوعة من الجلد الملبس على أطر من الخشب والمربوط بقطع الحديد موجودة في كل سفينة. وينقل علي محمد فهمي عن غيبون رأيه في أن الخوذ والدروع والتروس التي عرفت في القرن العاشر. فهي لم تكن تختلف عما كان عند قدامى اليونان[١٣٨].

يقول ليون السادس إن العدة التي كانت توجد على الدروموني كانت غنية. فقد كان في كل منها «مجموعتان كاملتان من العدة بما في ذلك السكان (الدفة) والمجاذيف والمسامير والحبال والبكرات والمكعبات والقلوع والسواري وكل عدة تلزم للسفينة. كذلك يجب ان تحمل هذه السفينة الأخشاب والألواح والقنب والزفت والقطران. ويجب أن يكون أحد المجذفين صانعاً ماهراً مدرباً وأن يكون في عهدته عدة كاملة من الأدوات اللازمة بما في ذلك السكينة (القاطعة) والمثقاب والمسحاة (فأرة النجار). وإذا عدنا الى الوصف الدقيق للحملة التي اعدت لاسترجاع جزيرة كريت سنة ٩٤٩م وجدنا أن عدة الدروموني كانت تشمل مئة سيف، وثمانين رمحاً، ومئة سيف قصير، وخمسين قوساً، وعشرة آلاف سهم؛ فضلاً عن ذلك فقد كان هناك عشرون فروعة (بلطة) لضرب الجوانب وأنابيب طويلة لقذف المواد الحارقة ورماح طويلة لضرب المجذفين خلال النوافذ التي تبدو منها المجاذيف[١٣٩]. وهنا ينقل فهمي عن غيبون ملاحظته بأن الأسلحة العربية الإسلامية كانت شبيهة بالأسلحة البزنطية[١٤٠].

يقول جرجي زيدان حول الأسلحة في المراكب الحربية العربية الإسلامية: «وكان من معدات السفن الحربية عندهم الزرد والخوذ والدرق والتراس والرماح والقسي والكلاليب والباسليقات، وهي سلاسل في رؤوسها رمانة حديد، والعرادات. وكانوا يجعلون في أعلى السواري صناديق مفتوحة من أعلاها يسمونها التوابيت يصعد اليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم حجار صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق. فيرمون العدو بالأحجار وهم مستورون بالصناديق. وقد يكون مع بعضهم بدل الحجارة قوارير النفط للاشعال؛ أو جرار النورة وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ، يرمون بها في مراكب الأعداء فتعمي الرجال وقد تلتهب عليهم إذا تبددت. أو يرمون عليهم الحيات والعقارب أو قدور الصابون اللين فانه يزلق أقدامهم. وكانوا يعلقون حول المركب من الخارج الجلود أو

اللبود المبلولة بالخل أو الماء والشّبّ والنطرون لدفع أذى النفط. وقد يحتاطون لذلك بالطين المخلوط بالبورق والنطرون أو الخطمي المعجون بالخل؛ فان هذه المواد تقاوم فعل النفط»(١٤١). ومن المؤسف أن جرجي زيدان لا يضع بين أيدينا مصادره لهذه المعلومات المركزة في رأيه. والذي نحسبه انه انتزعها من هنا وهناك. ولكن الأمر المهم هو أن هذه المعلومات تخص فترة متأخرة عن أيام الأمويين.

والأمر الآخر الذي تبدى لنا هو التشابه بين وسائل القتال وعدته وعدده ومواده عند العرب والبزنطيين. وقد يتميز فريق على الآخر بأمر لبعض الوقت كالنار اليونانية التي خدمت البزنطيين. لكن العرب الذين شغلوا بالكيمياء استطاعوا أن ينجزوا أمرين: الأول ان يخففوا من خطر النار اليونانية. والثاني ان يكتشفوا مادة حارقة، ولو أنها أقل فاعلية من النار اليونانية(١٤٢).

يجدر بنا أن نقف هنا لنتدبر أمر هذا التفوق البزنطي الذي انتهى النزاع العربي ـ البزنطي اليه اعتباراً من سنة ٧٤٧م. يرى ارشيبالد لويس أن هناك أربعة أسباب كانت وراء هذا التفوق البزنطي وهي: جغرافية الدولة البزنطية، والنار اليونانية، وتوفر الأخشاب في الدولة البزنطية وهي أمر هام جداً بالنسبة لبناء السفن، والتنظيم البحري الذي أدخلته تلك الدولة لترتيب الأساطيل وأعمال القتال. ولسنا بحاجة إلى التحدث عن هذه الأسباب فهي واضحة(١٤٣).

٦ ـ الحرب الاقتصادية ودور الأساطيل فيها

نحسب أننا لا نخرج عن موضوعنا إذا نحن تناولنا الحرب الاقتصادية التي قامت بين العرب والبزنطيين خلال الفترة التي نحن معنيون بها، وذلك بسبب الترابط الذي وجدناه بين تطور القوتين البحريتين وتطور الطرق التجارية والتنقل التجاري.

الأمر الذي يلاحظه الباحث في تاريخ هذه الفترة هو الاستمرار الذي شمل اكثر من ناحية من الحياة في الجانبين العربي والبزنطي في الفترة التي عقبت الفتوح العربية، والتي امتدت حتى حوالى سنة ٧٠٠م. ولعل الوجه الأهم في هذا كله هو أن العرب، لما فتحوا بلاد الشام ومصر احتفظوا بالإدارة التحتية والسجلات كما كانت وباللغة اليونانية أو القبطية في البلدين، كما ظلوا يستعملون النقد البزنطي نفسه وهو الدينار الذهبي. ونحن إذا استثنينا عدداً من الروم تركوا بلاد الشام مع الجيش البزنطي المنسحب، وفريقاً آخر خرج من شمال افريقية الى صقلية، فاننا لا نجد ان توزيع السكان وتجمعهم تأثرا بالفتوح العربية الى درجة تستحق الذكر(١٤٤).

بل إن بعض الاحتكارات الصناعية التي كانت بزنطية تمارسها في بلاد الشام ومصر، اعتبرتها الدولة الأموية أمراً يصح أن يستمر بإشرافها، ومنها صناعة الأقمشة (الطراز) وصبغها، خاصة بالأرجوان، وصناعة البردي.

وإذا نحن اخذنا بعين الاعتبار بعض التغييرات التي حدثت بين الفتح العربي ونهاية

القرن السابع وجدنا أن آثارها كانت في مصلحة الفريقين، من حيث تقوية التجارة وتنشيط الصناعة. فالقمح الذي كان يرسل من مصر الى القسطنطينية منع عنها بطبيعة الحال، لكنه أصبح يرسل الى الحجاز، وهذا كان تنشيطاً لتجارة مصر مع الجنوب والجنوب الشرقي من العالم العربي الاسلامي. وكان جستنيان قد فرض في القرن السادس قيوداً على التصدير والاستيراد، بالنسبة لما كان يأتي عبر الحدود الفارسية (الساسانية)، وعلى المراكز التي يسمح بمرور البضاعة عبرها. وإذ لم يعد لهذه أيّ حاجة بعد أن أصبح الملك الساساني بأجمعه جزءاً من الدولة الأموية، فقد ألغيت عملياً، وأصبحت التجارة حرة من أيّ قيود. صحيح أن احتكار الحرير الأرجواني ظل موضوع اهتمام وعناية في القسطنطينية، لكن هذا كان صنفاً واحداً من المتاجر[١٤٥]. وهذه الحرية التجارية هي التي تفسر الثراء الذي استمتعت به مصر حتى آخر القرن السابع، بل ومطلع القرن الثامن [١٤٦]. ومما يدل على ثراء مصر ما ذكره اركولف الذي زار الاسكندرية حوالى سنة ٦٧٠م ووصف اتساعها وتجارتها ومتاجرها التي كانت تأتيها من كل مكان[١٤٧].

لم يقتصر الازدهار على مصر بل شمل بلاد الشام الداخلية أيضاً، اذ أفادت هذه من تحرر التجارة الشرقية من القيود السابقة[١٤٨]. وكذلك ظلت قبرص على درجة من الثراء. فقد كانت تدفع جزية مزدوجة للأمويين والبزنطيين على السواء، وكانت قيمتها لكل منها ٧ر٢٠٠ دينار. أما منطقة شمال افريقية فقد عاد اليها الكثير من اتجارها مع المناطق الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى، ومن ثم فقد كانت هذه أيضاً تتمتع بالثراء. كان الذهب وزيت الزيتون والحبوب والخيول والإبل من المواد الموجودة في البلاد، وقد ذهل أهل دمشق لما وصلتهم الغنيمة التي بعث بها موسى بن نصير من شمال افريقية بعد انتصاره على الجزء الغربي منها، وكان فيها، فضلاً عما ذكر، الزرابي (البسط الصوفية) الجميلة المصنوعة هناك[١٤٩].

وحتى أطالية ظلت، على ما يبدو، على شيء كثير من النشاط التجاري مع البلاد الشرقية عبر القسطنطينية والاسكندرية[١٥٠].

والمنطقة الوحيدة التي شهدت، خلال النصف الثاني من القرن السابع، نوعاً من الجمود الاقتصادي هي منطقة اسبانية وفرنسة. فقد اختل تنظيم الملاحة التي كانت تنقل المتاجر بين الموانىء الشامية وفرنسة، فاختل التعامل التجاري تبعاً لذلك. فضلاً عن ذلك، فان واحدة من السلع الرئيسة التي كانت فرنسة تتاجر بها، وهي الرقيق السلافي، قل الطلب عليها في بلاد الخلافة. ذلك بأن الأسواق الشرقية غمرت بالرقيق التركي والافريقي، بسبب الفتوحات العربية التي اتجهت نحو أواسط آسية وحوض السند في العهد الأموي[١٥١].

والذي يمكن ان يستنتج من هذا هو أن الفتوح العربية لم تؤد الى توقف أساسي في العلاقات التجارية. فلا المعارك البحرية المتعاقبة التي قام بها الفريقان، ولا الحروب البرية المتلاحقة على الحدود العربية البزنطية أدت الى مثل هذا التوقف. ولكن الذي نجده هو أن النصف الأول من القرن الثامن شهد تعطيلاً للعلاقات التجارية بين أنحاء البحر المتوسط. إذ

اننا نلاحظ حوالى سنة ٧٥٠م تقريباً، أي عند انتهاء الدولة الأموية، اضطراباً في مصر وفوضى في سورية وشمال افريقية واسبانية وضموراً اقتصادياً في فرنسة. وأكثر ما يلفت هو انقطاع التجار الشاميين عن فرنسة، وضرب النقود الفضية فقط في كل من فرنسة واسبانية. والمناطق الثلاث التي ظل لها نشاط اقتصادي، وخاصة في المجال التجاري، هي بزنطية وايطالية وبلاد الخزر. وهذا الذي حدث لا يمكن تفسيره على أساس الحروب التي كانت تقوم بين العرب والبزنطيين، إذ إن هذه لم تكن مستمرة ولا شاملة بحيث تحول دون العمل التجاري[١٥٢].

هنا يدخل التفسير الاقتصادي على الخط. ان الحرب بين العرب والبزنطيين اتخذت، منذ حوالي سنة ٧٠٠م، اتجاهاً اقتصادياً. فالذي نعرفه هو أن عبد الملك بن مروان بدأ العمل بنقد عربي اسلامي، كما أنه عرّب الإدارة. وهذا التعريب في النقد والإدارة وما اليهما ـ استمر في ايام ابنيه الوليد وهشام.

ففي السنة ٧٢هـ/ ٦٩٢م سك عبد الملك في دمشق أول دينار ذهبي وأول درهم فضي عربيين[١٥٣] من حيث أنه أزال عن الدينار الأثر البزنطي المسيحي ووضع مكانه لا اله الا الله. وكان ثمة فرق بين الدينار الذهبي العربي الجديد والدينار الذهبي البزنطي من حيث وزنه ومن ثم من حيث قيمته. فكان هذا ايذاناً لا بالتعريب فحسب، ولكن بإيجاد نظام نقدي خاص بالدولة الجديدة. فان استعمال الدينار البزنطي في دولة الأمويين كان معناه وحدة النظام النقدي بين العالمين. أما الآن فقد أصبح من الضروري أن ينظر في أمر المقارنة بين قيمتي الدينارين من أجل التعامل التجاري، وما كان مثل هذا الأمر ليسير سبل التعامل.

كان بين الأمويين والبزنطيين، لما بدل عبد الملك النقد، هدنة، وكان على عبد الملك ان يدفع مبلغاً سنوياً لبزنطية كجزء من اتفاقية الهدنة. هذه الهدنة عقدت سنة ٦٩هـ/ ٦٨٩م مع الامبراطور جستنيان الثاني (٦٨٥ ـ ٦٩٥م ثم ثانية ٧٠٥ ـ ٧١١م)، ولما آن للمال أن يرسل الى القسطنطينية بعث عبد الملك بالدنانير الجديدة، فأثار هذا الأمر حفيظة جستنيان، فبدأ حرباً ضد الأمويين، لكنه لم ينجح فيها. ويرى لويس أنه بدأ نوعاً من توقيف التجارة مع خصومه[١٥٤]. وينقل لويس أن تصدير ورق البردي من مصر الى القسطنطينية وإلى الغرب توقف حول هذه الفترة[١٥٥]. ولم تكن الولايات في آسية الصغرى التي تستفيد من التجارة مع مصر بتصدير الأخشاب لها، موافقة على سياسة جستنيان. وهذا يفسر إقلاع اسطول كيبرهايوت Kibyrrhaeot نحو القسطنطينية لخلع خليفة جستنيان[١٥٦]. كما يفسر الدور الذي قامت به رافينا الايطالية، التي كانت تصدر الأخشاب من شمال حوض المتوسط الى مصر، في القضاء على جستنيان بالذات [١٥٧]. وهذا العمل العدائي الذي قام به جستنيان حاول خليفتاه وخاصة طيباريوس الثالث (٦٨٩ ـ ٧٠٥م) أن يخففا من آثاره بحيث أن فترة قصيرة مرت من دون ضغوط اقتصادية من دمشق[١٥٨]. لكن جستينيان عاد الى السلطة (٧٠٥ ـ ٧١١) وعادت معه الخصومة الى عنفها. فهاجم مصر سنة ٧٠٩، ولو ان الحملة كانت

عديمة الأثر. وفي الوقت ذاته أخذ الوليد بن عبد الملك نفسه باتمام الدور الذي بدأه أبوه من حيث تعريب الدواوين، وهو الأمر الذي استمر حتى تم، على شكل لا يستهان به، في خلافة هشام.

وإلى هذا الوقت يعود إدخال نظام المراقبة على تنقل المواطنين في مصر، سواء في ذلك التنقل الداخلي أم الخروج من القطر. وطوّر الخلفاء نظام البريد الذي بدأه معاوية، بحيث أصبحت الأخبار تصل العاصمة بسرعة. وقد أطلق أرشيبالد لويس على نظام البريد اسم «المخابرات»(١٥٩).

هذه هي السنوات، من ٧٠٥م وما بعدها بقليل، التي تفقد الحركة التجارية فيها حريتها التي تمتعت بها بعد الفتح العربي، وعادت المراقبات وما الى ذلك. فقد أقام البزنطيون الرقابة على اشكال جديدة. منع البزنطيون من الخروج من الامبراطورية الى بلاد العرب. كما أعاد أباطرة هذه الفترة (النصف الأول من القرن الثامن م) نظام مراقبة التجارة الذي كان جستنيان الأول وخلفاؤه قد فرضوه على التجارة مع الامبراطورية الساسانية. وخلاصة هذه الترتيبات هي اعتبار التجارة الخارجية، مادة وأسلوباً، جزءاً من استراتيجية الدفاع من الامبراطورية. وقد أضيف الأسطول الى وسائل المراقبة الآن. فأصبحت التجارة مع الخزر جميعها تمر (منذ سنة ٦٨٧م) بمدينة كرزون (سفا ستبول) في القرم، ومن هناك تنقل الى القسطنطينية(١٦٠).

وقد كان من الطبيعي ان تنتشر وسائل المراقبة على نقل المتاجر الى الغرب. وعندنا على ذلك مثلاً جنوا، التي كانت بسبب موقعها واتصالها شمالاً وشمالاً بغرب وشرقاً وجنوباً بالمراكز التجارية الهامة والموانىء التجارية الكبرى في البحر المتوسط مدينة متقدمة وغنية تجارياً. وفي سنة ٦٤٢م احتل اللومبارديون جنوا والمنطقة الساحلية المحيطة بها. وعندها خسرت جنوا والبلاد المحيطة بها أهميتها التجارية، وأصبحت منطقة زراعية. وصارت لوني ـ التي كانت خاضعة لبزنطة ـ وهي مدينة بحرية قليلة الأهمية نسبياً، ميناء مهماً ونعمت بثراء كبير. ويعود ذلك الى ان القسطنطينية قطعت تجارتها عن جنوا، الخارجة عن سلطانها، وحولتها الى لوني، الخاضعة لنفوذها؛ أي انها حولت التجارة لمصلحتها. كما أن كوماكيو، سلف البندقية، أصبحت، منذ حوالى ٧١٤م ميناء حوض البو للتجارة مع بزنطة. ولم تلبث القسطنطينية أن منعت تجارتها عن أراضي الدولة الأموية، وجعلت الأسطول حامياً لهذا المنع. وبهذه الوسائل وغيرها أقفلت القسطنطينية الأبواب في وجه التجارة التي لا تتبع الطرق، ولا تهبط الموانىء، التي تقبل هي بها(١٦١).

الا ان العرب ظلوا ينقلون، عن طريق الخليج العربي والبحر الأحمر، كثيراً من السلع والمتاجر التي لا غنى للقسطنطينية وامبراطوريتها وحلفائها عنها، وأهمها التوابل والطيوب والحجارة الكريمة. وفضلاً عن ذلك، فقد كان في المصانع العربية سلع كثيرة تحتاجها البلاد الغربية، وفي مقدمتها الزجاج. لذلك كان لا بد من تنظيم التجارة بين البزنطيين والعرب.

والذي نعرفه من بعض ما ورد في كتب الجغرافيين العرب مثل المسعودي (المروج) أن طرابزون أصبحت ، في القرن التالي، ميناء العبور، بالنسبة للتجارة العربية، الى بزنطة[١٦٢].

ويرى أرشيبالد لويس أنه من الممكن أن تكون طرابزون قد احتلت مثل هذا الموقف منذ أوائل القرن الثامن، أو على الأقل منذ سنة ٧١٦م[١٦٣]، وتتلخص الفائدة التي عادت على القسطنطينية من الاعتماد على طرابزون في أنها وضعت، تحت تصرف التجار البزنطيين، ميناء على البحر الأسود بعيداً عن متناول الأسطول الأموي، وفي أن تجارة الحرير والتوابل أصبحت بعيدة عن متناول الموانىء المصرية والشامية، وهي الموانىء التي تسيطر عليها الدولة الأموية.

وهنا نتساءل ـ ماذا كان مدى نجاح هذا الحصار التجاري ـ اذا صحت تسميته كذلك ـ الذي فرضته القسطنطينية على الأمويين؟ وما هي العوامل التي كانت تساند هذا النجاح، بقطع النظر عن مداه؟

يبدو أن البزنطيين نجحوا في السيطرة على تجارة البحر المتوسط لفترة لم تكن طويلة، إذ إن الدول العربية الاسلامية التي قامت في حوضه فيما بعد ـ من الطولونيين الى الفاطميين فالموحدين وكذلك أمويّي الأندلس ـ كان لها دور في السيطرة على التجارة. الا أنه يتوجب علينا أن نذكر أننا نتحدّث الآن عن النصف الأول من القرن الثامن بشكل خاص. وفي هذه الفترة أتيح للبزنطيين درجة كبيرة من النجاح في ضبط التجارة. وقد أعانتهم على ذلك القوة البحرية البزنطية التي نظمت بين ٧٠٥م و٧٤٧م والتي سيطرت على البحر المتوسط بعد ذلك لبعض الوقت. فضلاً عن ذلك فان احتفاظ القسطنطينية بالسيطرة على بعض الجزر، أو استعادتها، وهي البليار وسردينية وكورسيكا، مكّن للبزنطيين من الافادة منها حاجزاً يمنع شمال افريقية واسبانية من التوسع التجاري العربي القوي الى الشمال منها.

وحريّ بالذكر أن الطريق البحري الساحلي من مصر الى بلاد المغرب العربي كان خطراً على السفن في انتقالها غرباً أو شرقاً. فلم تكن فيه كتل برية مرتفعة، مثل الجبال وسلاسل التلال، التي يمكن ان تخفف من حدة الرياح الشمالية العاتية التي تهب من المناطق الألبية. والذي يعرف هذا الساحل الممتد من الاسكندرية غرباً الى طرابلس، كما أعرفه أنا، يستطيع ان يدرك معنى هذا بالنسبة للسفن التي كانت تستعمل يومها[١٦٤].

من هنا، فاننا نجد أن الطريق البحري العادي المتجه من الغرب الى الشرق كان يحاذي كريت وقبرص وسواحل آسية الصغرى الجنوبية ثم يتجه الى الموانىء الشامية والمصرية، ولو أن بعض السفن كانت تتجه من كريت الى الاسكندرية رأساً. والأسطول البزنطي، إبان تنظيمه وقوته، يستطيع ان يحول بين الاتجار لا مع الغرب فحسب، ولكن حتى بين مصر وبلاد الشام والشمال الافريقي. وهذا الذي كاد يحدث، ولو أن الحراسة البحرية لم تكن دائمة.

واذا تذكرنا أن أوروبة الغربية كانت في هذه الفترة منطقة زراعية (واستمرت على نحو قرنين من الزمان) وأنها لذلك كانت بحاجة الى مصنوعات شرقية كثيرة مثل الأقمشة

والزجاج؛ وأن ما كانت المصانع البزنطية تنتجه لم يكد يكفي أسواقها؛ وأن التاجر البزنطي كان يريد أن ينقل هو السلع المشرقية الى الغرب؛ إذا تذكرنا هذا جميعه، قد لا نستغرب قيام ثورات وعصيان في بعض املاك بينزطة. ولنمثل على ذلك بالثورة التي قام بها حاكم صقلية (٧١٨م) وثورة الأسطول الذي كان مختصاً بالجزر الهلينية والواقعة عند مدخل البحر الأيجي (٧٢٨م) وحت لوني عصت على القسطنطينية والتحقت باللومبارديين (٧٢٨م) وكذلك فعلت رافنا (٧٣٥م)[١٦٥].

في سنة ١٩٣٧ م نشر هنري بيرن في بروكسل كتابه محمد وشارلمان Henri Pirenne, *Mahomet et Charlemagne* (وكان قد نشر من قبل مقالات حول الموضوع خلال بضع السنوات السابقة) وتقدم بنظرية تتلخص في أن فتح العرب لأجزاء من حوض البحر المتوسط أدى الى انشطار هذا البحر اقتصادياً، ثم ثقافياً، الى قسمين انقطع بينهما الاتصال تماماً، وخاصة بعد سنة ٧١٥م، ومعنى هذا أن التبدل الذي طرأ على العالمين العربي والأوروبي منذ أوائل القرن الثامن هو نتيجة هذه الفتوح، وأن هذا التبدل كان سلبياً بالنسبة لأوروبة.

مر على صدور هذا الكتاب زهاء نصف قرن، وخلال هذه الفترة كانت نظرية بيرن موضع نقاش وبحث عند عدد من مؤرخي التطور الاقتصادي وفي العصور الوسطى بشكل خاص. ويمكن القول اجمالاً إن الكثيرين من الباحثين يتفقون على أن هذا المؤرخ إما أنه اخطأ، أو أنه على الأقل بالغ، في تعليله للتأخر الاقتصادي الذي أصاب أوروبة في الفترة الممتدة من أوائل القرن الثامن الى القرن العاشر، إذ عزاه للفتوح العربية أصلاً.

كان لا بد للفتوح العربية من أن يكون لها أثر، وكان لا بد من أثر في النهاية لقيام عالمين متباينين حضارياً، وكان لا بد من أن يكون ثمة فرق، وفرق كبير، بين مجتمع يتقدم نحو استكمال حضارته وثقافته بسرعة، وهو المجتمع العربي الاسلامي، ومجتمع فقد، ولو موقتاً، صلته بمناهل الحضارة والثقافة، وهو العالم الأوروبي.

والفرق بين هذين العالمين ظهر في شؤون كثيرة من نواحي الحياة المختلفة، وفي مقدمتها، ولا شك، الشؤون الاقتصادية، إذ إن هذه بما تعنى به من زراعة وصناعة وتجارة، انما هي الأساس الذي تقوم الحضارة عليه، وتبنى المعطيات الأخرى على ما تقدمه. فثراء المجتمع الذي هو بعض ديناميكيته، والذي هو حافز أيضاً للتقدم في نواح حضارية أخرى، يميز مجتمعاً عن آخر إذا كان اقتصاده فقيراً متأخراً. ولكن الانقسام الاقتصادي الذي مر بعالم البحر المتوسط بشطريه ـ الجنوبي والشمالي ـ والذي كان مظهراً مهماً في تلك الأزمنة، لم يكن كبيراً. فلم تكن الهوة واسعة بالقدر الذي يتصور ـ أي إنه لم يكن هناك عالمان واحد غني ثري والآخر فقير مدقع. كان هناك خلاف بين المستويين.

لكن لماذا حدث هذه الانقسام الاقتصادي؟ وهل كان «قطعاً» تاماً للصلات التجارية بين القسمين؟ فالصلات التجارية هي التي تتأثر في مثل هذه الحالة.

رأينا في بعض الملاحظات التي ذكرناها أن تأخراً اقتصادياً شمل بلاد الشام ومصر كما أصاب بلاد الغال الأوروبية منذ ثلاثينات القرن الثامن، وأنه بلغ حداً أكبر منذ حوالى سنة ٧٥٠م. ومعنى هذا أن التأخر الاقتصادي في بعض الولايات الأموية (والعباسية فيما بعد) لا يمكن أن يتأتى من عمل تقوم به الدولة العربية الاسلامية. فضلاً عن ذلك فان الاداة الرئيسة «لقطع» العلاقات التجارية في المجال البحري هي الأسطول. والأسطول البزنطي كان الأقوى بعد سنة ٧١٧. بل ان الأسطول الأموي تراجع كثيراً بعد تلك السنة. فقد استنزفت الحملة الأخيرة على القسطنطينية قواه. كما ان الخليفتين اللذين توليا السلطة بين سنتي ٩٩ و١٠٥ (٧١٧هـ/ و٧٢٤م)، وهما عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك، لم يهتما بالأسطول؛ وانتشال هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣م) للأسطول لم يكن كافياً من جهة، ولم يتبعه أي اهتمام جدي بعد ذلك.

هذا من حيث أداة «القطع» التجاري. أما المواد التي بحث بيرن أمر منع نقلها من العالم العربي الى العالم الأوروبي، وهذا المنع هو الذي أدى الى تأخر هذا العالم اقتصادياً كما يرى، فهي أربع: النقد الذهبي والبردي والحرير العادي والمصبوغ بالأرجوان والتوابل والبهارات الشرقية. والأنواع الثلاثة الأول منها كانت مما احتكرت الدولة البزنطية الاتجار به، إذ كانت كلها تحمل الى القسطنطينية أولاً، ومنها تنقل الى الغرب. والقسطنطينية هي التي كانت تمنع وصول هذه الأشياء الى اللومبارديين والكارولنجيين في المنطقة الايطالية الشمالية والفرنسية[١٦٦].

وقد تبين أن الانقطاع الذي تم بين العرب وأوروبة كان سببه أصلا الموقف البزنطي[١٦٧]. ويشير أيكهوف في هذا المجال الى أن العرب في الأندلس كانت لهم علاقات تجارية مباشرة مع القسطنطينية، التي كانت تمنع سلعها عن أجزاء أوروبية لأنها لم تكن تابعة لها. فقد كان هناك على ما يبدو جالية تجارية من الأندلس في عاصمة البزنطيين[١٦٨].

إذن كانت القسطنطينية هي التي تعتبر التجارة سلاحاً استراتيجياً تستعمله في خصومتها، لمحاربة الأقوياء، كالأمويين والعباسيين، ولإخضاع المناطق التابعة لها، ومعاقبة الذين يخرجون عنها وينضمون الى اللومبارديين أو الكارولنجيين. يقول ارشيبالد لويس: «ان الذين دمروا وحدة البحر المتوسط القديمة هم البزنطيون وليسوا العرب. ان بزنطية في حربها الضروس ضد الأمويين لجأت الى الوسائل البحرية والاقتصادية للظفر بالنصر وذلك في الفترة الممتدة من ٧١٥م الى ٧٥٢م. وهي التي أزالت من الوجود الصيغة الاقتصادية السابقة للبحر المتوسط، وهيأت المسرح لقيام صيغة جديدة[١٦٩]. ولنضف انه لم تكن الصيغة الجديدة بالضرورة ضارة بشكل تام للغرب الأوروبي.

وفي الختام، لعل أبرز ما اتضح لنا من هذه الدراسة، بالنسبة للمكان، أي حوض البحر المتوسط، وللزمان، أي العصر الأموي، هو هذا الارتباط الوثيق بين العناصر الجغرافية والأعمال الحربية البحرية. فقد تبين لنا ان انكشاف الموانىء العربية الرئيسة من طنجة الى

تونس الى طرابلس الى الاسكندرية الى عكا وصور وبيروت والسويدية (ميناء انطاكية) جعلها في متناول الاساطيل البزنطية، فيما كانت القسطنطينية وعدد من الموانىء البزنطية بعيدة عن مرامي الأسطول العربي. والقسطنطينية بالذات كانت تقوم في حمى عدد من الجزر التي تجعل الوصول اليها صعباً. ومع ذلك فقد وصلها العرب الأمويون ثلاث مرات، لكن العوامل الجغرافية الأخرى، المناخية والموقعية كانت تحول دون الاستيلاء عليها.

هذه ناحية. والناحية الثانية هي أن الشمال الافريقي، كما رأينا، لم تكن تحيط به سلاسل جبال تحميه من الرياح العاتية. لذلك لم تكن الطرق البحرية التي تحاذيه مأمونة، فكان على السفن أن تنحو شمالاً لتفيد من جزيرتي كريت وصقلية في سيرها نحو فرنجة (كما يسميها جغرافيو العرب).

والجزر القائمة في البحر المتوسط كانت موضع حملات كثيرة من الفريقين ـ العربي والبزنطي. فهي إما أنها غنية بالأخشاب والمعادن (صقلية وقبرص) وإما أنها نقط دفاع وهجوم (سردينية ومالطة والجزر الأيجية). وقد أنفق الفريقان الكثير من الجهد في سبيل الاستيلاء على الجزر، والحفاظ عليها بعد ذلك. وقد كانت أبعد عن القواعد العربية منها عن المراكز البزنطية. فصقلية كانت الحملات الأولى عليها من الموانىء المصرية والشامية قبل أن تتقوى دار الصناعة في تونس وتتمكن السفن المنشأة هناك من احتلال الجزيرة نهائياً.

ومما هو جدير بالملاحظة أن العرب، مثل الرومان قبلهم، كانوا أهل معارك برية. لكن الرومان قضوا مدة طويلة [زهاء قرنين من الزمان] حتى أتموا احتلال سواحل البحر المتوسط. أما العرب فقد اندفعوا في فتوحهم على أساس المعارك البرية. وقد كان هذا صالحاً في ديار الشام وفي مصر (وفي السند والهند فيما بعد مثلاً)، لكن الحملات التي كانت تندفع في شمال افريقية لم يكن بينها وبين أعمال الأسطول أي تنسيق. وقد تنبه الى ذلك أنيس صايغ فقال: «فالعرب لم يختبروا من قبل هذا العهد (الأموي) أي حرب برية ـ بحرية في آن واحد. لذلك انصرفوا الى الميدان الواحد دون الآخر، وقلما نجحوا في اجراء التناسق التام بين الميدانين. وكانت حروب البر تجري في منعزل عن معونة الأسطول، وغزوات البحر تجري دون أي مساعدة من المشاة أو الفرسان العاملين في البر. وكان شمال افريقية مقبرة للجيوش مدة أربعين عاماً متواصلة، لعدم وجود تناسق بين فتوحات تلك الجيوش وجهود الأسطول الأموي. فكان القائد الأموي يسير غرباً في طريق (بري) ضيق حتى يصل الى نقطة بعيدة معزولة لا يستطيع الانسحاب منها والعودة برجاله الى قواعده سالمين، إذ يكون الأسطول البزنطي وجنوده قد قطعوا عليه طريق الرجعة وحالوا دون اتصاله بمركز انطلاقه[١٧٠]». صحيح أن الأمويين احتلوا شمال افريقية في النهاية، لكن الثمن كان باهظاً.

والأمر الثاني الذي اتضح لنا من هذه الدراسة هو أن الثقافة البحرية المتأصلة في تقاليد أهل الساحل من الشاميين كان لها أثر كبير في إتقان العمل البحري ـ بناء سفن وشحنها وقيادتها. وهذا ينطبق على السواحل المصرية وعلى تونس. فهذه جميعها (من

طرابلس وبيروت الى الاسكندرية وتونس) هي خليفة للمدن البحرية التي كانت تقاليدها وتعاملها مع البحر تعود الى قرون طويلة. لكن الشيء الذي يجب ان يذكر هو أن هؤلاء القوم لم يكونوا يومها مخططين أو مسيرين للأمور أي إنهم كانوا أصحاب الخبرة التقنية، لكنهم لم يكونوا في صميم الإدارة. والذي أنقذ الموقف أول الأمر هو أن معاوية كان يعرف كيف يفيد وينظم، ومثل ذلك يقال في عبد الله ابن أبي سرح. لكن هذين الرجلين كانا قلة بين أهل البر الذين أدركوا سر البحر.

ومع كل هذا، ومع ما مر بنا من أن العناية بالبحر لم تكن سياسة ثابتة، فان العرب كان لهم في أيام الأمويين اسطول قام بحملات بحرية متعددة، وكان له فيها، ما يمكن أن يكون للجميع، من انتصار وانكسار.

ملحق ـ ملاحظات حول كتابي الدكتور فهمي

في سنة ١٩٤٨ نشر علي محمد فهمي في لندن كتابه الموسوم «تنظيم الأسطول الاسلامي» *Muslim Naval Organization* (والذي طبع ثانية في القاهرة سنة ١٩٦٦)، كما نشر في القاهرة، وفي السنة ١٩٦٦ أيضاً، كتابه الآخر «القوى البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط» *Muslim Sea- Power in the Eastern Mediterranean*.

والكتابان يعنيان بالفترة الممتدة من القرن السابع الى القرن الحادي عشر الميلادي.

وقد كتب فهمي مقدمتين، واحدة لكل من الكتابين، تناول فيهما مصادره. وأود قبل كل شيء أن أقول إن العمل الذي قام به المؤلف ممتاز. لقد سد في تاريخ البحرية الاسلامية فراغاً كبيراً، وبغاية ما يمكن من الدقة العلمية. والذي أعرفه أن عمله لم يظهر ما يماثله.

والذي أريد أن افعله هنا أن ألفت بشكل خاص الى دراسة المصادر التي قدم بها لكتابه الأول. والذي أود أن أقف عنده هو هذا العرض المفيد المقتضب لأهمية الوثائق البردية بالنسبة لشؤون البحر في العهد الأموي. ذلك بأن الظروف ألقت بين أيدي الباحثين عدداً كبيراً من البرديات المكتوبة باليونانية أو القبطية أو العربية (وقد يكون بعضها مزدوج الكتابة). وهذه البرديات التي يعود بدء الاهتمام بها الى سنة ١٨٢٥، إذ عثر في تلك السنة على برديتين، زادت عدداً مع الوقت، وكثر الاهتمام بها. وقد كان لاكتشاف برديات الفيوم، في أواخر القرن الماضي، ثم العثور على برديات البهنسي، وهو أمر لا مثيل له، ما شغل عدداً من العلماء في شؤون هذه البرديات، منهم هوغارت وغرنفل وهنت ثم بل. وكان لهؤلاء اهتمامات مختلفة، لعلها تسمح لهم بإعطاء البرديات العربية الجهد الكافي. وجاء دور غرومان، الذي يعتبر أكبر باحث في البرديات العربية في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، إذ انصرف اليها انصرافاً تاماً.

وبرديات الفيوم وافروديتو وضعت بين أيدي الباحثين رسائل رسمية من ولاة مصر، وخاصة قرة بن شريك، الى حكام الكور (الأقضية) فيها طلبات معينة لتحقيق أهداف محدودة. فهناك طلبات بوجوب إرسال المال المقرر على أهل القضاء، أو بوجوب

إرسال الرجال المطلوبين للعمل ـ في الأسطول، وهذا الذي كان يهم فهمي يومها. (راجع: *Naval Organization*) (ص ١ ـ ٨).

أما ما تبقى من مقدمة الكتاب الأول (ص ٩ ـ ٢٢) وجميع مقدمة الكتاب الثاني *Sea-Power* (القوة البحرية) (ص ١ ـ ٤٠) فهو دراسة نقدية للمصادر الجغرافية والتاريخية العربية والأجنبية القديمة التي اعتمدها المؤلف رأساً أو بالواسطة.

فهمي لم يكتف بأن وضع كتابين قيمين، بل وقدم لهما بمقدمتين جيدتين أيضاً. أرجو أن يفيد الباحثون من الكتابين بكاملهما كما أفدت أنا، وكما يبدو من هذه الدراسة.

الهوامش

(١) تراجع الكتب التالية التي استفدت منها في وضع المقدمة:
Bell, Donner Holt, Hunt, Lewis, Lombard, Mez, Runciman, Shaban, Watson, Wiet.

(٢) ابن عبد الحكم ٥٧، ٥٨، ٧٦؛ البلاذري ١/ ١٦٦ ـ ١٧٠؛ حتي ٢٢٥.
Donner, 148ff; Eickhoff, 14; Lewis; 54-6.

(٣) البلاذري ١/ ١٨١؛ حتي ٢٥٤.

(٤) البلاذري ١/ ٢٦٠؛ راجع أيضاً ابن عبد الحكم ١٧٥ ـ ١٧٨.

(٥) البلاذري ١/ ١٥٢.

(٦) ابن عبد الحكم، ١٣١ و١٩٢.

(٧) صايغ، ٢٨.

(٨) البلاذري ١٣٩/١ ـ ١٤٠.

(٩) البلاذري ١٨١/١.

(١٠) حتي ٢٢٥.

(١١) Eickhoff, 15.

(١٢) ١٤١-١٤٢.

(١٣) البلاذري ١٨١/١ ـ ١٨٢.

(١٤) البلاذري ٢٧٨/١؛ Eickhoff, 16-17.

(١٥) Eickhoff, 17.

(١٦) حتي ٢٢٤ ـ ٢٢٥

(١٧) حتي ٢٦٣.

(١٨) البلاذري ١/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(١٩) البلاذري ١/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩؛ Kennedy, 87.

(٢٠) ابن عبد الحكم ١٨٩ ـ ١٩١؛ Eickhoff, 18-21.

(٢١) Eickhoff, 20, n.20.

(٢٢) Eickhoff, 19.

(٢٣) ابن عبد الحكم ١٩٠.

(٢٤) البلاذري ١/ ١٩٠؛ حتي ٢٦٥؛ Runciman, 35-36.

(٢٥) البلاذري ١٨٩/١؛ حتي ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٢٦) Lewis, 70.

(٢٧) العبادي وسالم، ٣١ ـ ٣٢؛ صايغ ١٠٩ ـ ١١١.

(٢٨) حتي ٢٦٢، العبادي وسالم، ٣٢؛ Eickhoff 22-23.

(٢٩) حتي ٢٦١ ـ ٢٦٣؛ صايغ ١١٢ ـ ١١٤؛ عبادي وسالم ٣٢ ـ ٣٣؛ Shaban, 81.
(٣٠) حتي ٢٦٣ ـ ٢٦٤؛ *Cambridge History of Islam*, I; 79-81.
(٣١) حتي ٢٦٤؛ العبادي وسالم ٣٤ ـ ٣٦؛ صايغ ١٢٧ ـ ١٣٠؛
Eickhoff 31-36, Lewis, 66, Fahmy, *Sea-Power*, 91-105.
(٣٢) حتي ٢٦٤؛ العبادي وسالم ٣٦.
(٣٣) البلاذري ١٨٣/١؛ Lewis 68, citing Theofanes 623.
(٣٤) Lewis, 68-69.
(٣٥) البلاذري/ ١٨٣. راجع ص ١٨٣ ـ ١٨٦ حيث يورد البلاذري الفتاوى التي وضعها نفر من الفقهاء لما استفتاهم والي الثغور في أمر قبرص وأهلها.
(٣٦) Lewis, 69.
(٣٧) Lewis 69, Fahmy, *Sea-Power*, 120, 124; El *Dar al Sina'a*, II, 129-131.
(٣٨) راجع عن الحملات إجمالاً: Lewis, 70 Fahmy, *Sea-Power*, 80-139.
(٣٩) Lewis, 69-70 Fahmy, *Sea-Power*, 62 n.7 63, 124, 138 Eickhoff, 83, 257 ff.
(٤٠) Eickhoff 36-39.
(٤١) ابن عبد الحكم ١٦٥. Lewis, 75, Fahmy, *Sea-Power*, Fahmy, *Naval* Organization, 23-26.
(٤٢) El *Dar II*, 129-131.
(٤٣) هناك دور صناعة أخرى عرفتها مصر لكن عدد من هذه تم اعداده وتنظيمه ايام دولة بني طولون (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥) أو حتى بعد ذلك. فالروضة التي عرفت باسم جزيرة الصناعة أو صناعة الجزيرة كانت تختص بصناعة الشلنديات والحربيات كما كانت دار صناعة الفسطاط تعنى بصناعة سفن الدولة وبالشواني. فضلاً عما ذكر، فقد كان هناك دور صناعة في دمياط ورشيد وتنيس. ولعل هذه من الدور التي بدت أهميتها فيما بعد. ولجميع دور الصناعة أدوار كبيرة وخاصة أيام الفاطميين.
(٤٤) ابن عبد الحكم ١٢٤؛
Lewis, 75; Fahmy, *Naval* 35-42; Eickhoff, 126, El *Dar al Sina'a*, 11, 129-131.
(٤٥) البلاذري ١٤٠/١؛ E12, Bahnasa1, 341, Fahmy, *Naval*, 52.
(٤٦) البلاذري ١/ ١٤٠.
(٤٧) Lewis, 75; Eickhoff, 130-131; Fahmy, *Naval*; Wiet, 175-176.
(٤٨) Vasiliev I, 259.
(٤٩) البلاذري ١/ ١٤٠ و١٦٩ ـ ١٧٠. Fahmy, *Naval*; 53;
(٥٠) البلاذري ١/ ١٦٩.
(٥١) البلاذري ١/ ١٦٩؛ Fahmy, *Naval*, 53,77, *El IV*, 660, *El II*, 129-131.
(٥٢) البلاذري ١٤٠١.
(٥٣) البلاذري ١/ ٢٠٠؛ Fahmy, *Naval*, 56 ff, 63.
(٥٤) Fahmy, *Naval*, 64-65.
(٥٥) Fahmy, *Naval*, 68-69.
(٥٦) حتي، ٢٧٦؛ Eickhoff, 27-28, Fahmy, *Naval*, 69-70.
(٥٧) Eickhoff, 28-29 Fahmy, *Naval*, 68.
(٥٨) راجع مناقشة فهمي للمكان الذي انشئت فيه دار الصناعة في تونس في:
Lewis, 76; Fahmy, *Naval*, 70 Fahmy, *Naval*, 71-72.
(٥٩) ابن خلدون **المقدمة** (بيروت، ١٩٦١) ٤٤٨ ـ ٤٤٩.
(٦٠) المقدسي ١١٧.
(٦١) نقلا عن: Fahmy, *Naval*, 127.
(٦٢) المقدسي ١٧٧.
(٦٣) الطبري: 111, 1417, 1418.

(٦٤) Fahmy, *Naval*, 130.
(٦٥) Eickhoff, 135.
(٦٦) Eickhoff, 136-137.
(٦٧) Fahmy, *Naval*, 137.
(٦٨) Eickhoff, 135-137; *Cambridge Med. History II*; P. 149.
(٦٩) Eickhoff, 137-138.
(٧٠) *Cam. Med. History*, Ibid; Eickhoff,137 . يرى بعض الباحثين أن البامفيليا كانت أصغر من الدروموني.
راجع: Eickhoff, 136, n.2.
(٧١) Eickhoff, 136-137.
(٧٢) *C.M.H.* ibid; Eickhoff, 136-138.
(٧٣) راجع: Fahmy, *Naval*, 69-70.
(٧٤) Fahmy, *Naval*, 116 n.2.
(٧٥) Bellock, 340.
(٧٦) نقل فهمي وصفاً لطريقة صنع السفن الشرقية عن المسعودي وماركو بولو يمكن الرجوع اليه في:
Fahmy, *Naval*, 80-81.
(٧٧) Fahmy, *Naval*; 120 Hasan and Hill, 123-124, 130; Eickhoff; 151ff.
(٧٨) Bellock, 340.
(٧٩) Hasan and Hill, 123.
(٨٠) ابن عبد الحكم ١٩٠؛ Fahmy, *Naval* 125 and no 2-9.
(٨١) Fahmy, *Naval*, 125-126. (ومصادر برديانه في الهوامش ١ و٢ و٣)
(٨٢) Hasan and Hill, 130-131; Fahmy, *Naval*, 126.
(٨٣) Fahmy, *Naval*, 84-85.
(٨٤) صايغ ٥٤ ـ ٥٥.
(٨٥) Fahmy, *Naval*, 79; Eick, 130-131.
(٨٦) Fahmy, *Naval*, 79.
(٨٧) Fahmy, *Naval*, 76.
(٨٨) Fahmy, *Naval*, 76-77.
(٨٩) Fahmy, *Naval*, 77-78.
(٩٠) Fahmy, *Naval*, 78.
(٩١) Eickhoff, 119.
(٩٢) Eickhoff, 97, 111.
(٩٣) Eickhoff, 293-294.
(٩٤) Eickhoff, 133-134.
(٩٥) Eickhoff, 271; Lewis, 89-90; Fahmy, *Naval*, 79.
(٩٦) *EI, I*, 926-927 (Bahnasa).
(٩٧) مثلاً: Eickhoff, 119, 124.
(٩٨) ابن عبد الحكم ٩٠.
(٩٩) Fahmy, *Naval*, 83,84.
(١٠٠) Fahmy, *Naval*, 82.
(١٠١) Eickhoff, 124-125; Fahmy, *Naval* 82-83.
(١٠٢) Eickhoff, 97; Fahmy, *Naval*, 83.
(١٠٣) Fahmy, *Naval*, 83.
(١٠٤) *EI, II*, 19; Eickhoff 271; Fahmy, *Naval*, 83.

(١٠٥) Fahmym *Naval*, 85.
(١٠٦) Fahmy, *Naval*, 84.
(١٠٧) Fahmy, *Naval*, 87. من المهم مراجعة المصادر التي استعملها فهمي وخاصة البرديات.
(١٠٨) Eickhoff, 36 ff, Fahmy, *Naval*, 87.
(١٠٩) Eickhoff, 31-41.
(١١٠) C.MED. Hist. Vo II, PI, II, 35ff.
(١١١) راجع: Eickhoff, 56ff, 296-315.
(١١٢) Eickhoff, 129.
(١١٣) Fahmy, *Naval*, 90.
(١١٤) Fahmy, *Naval*, 91.
(١١٥) Fahmy, *Naval*, 91.
(١١٦) Fahmy, *Naval*, 91.
(١١٧) Eickhoff, 173 ff.
(١١٨) Fahmy, *Naval*, 91. راجع أيضاً صايغ ٦١ ـ ٦٢.
(١١٩) Eickhoff, 131.
(١٢٠) Eickhoff, 133.
(١٢١) Fahmy, *Naval*, 61.
(١٢٢) Eickhoff, 81.
(١٢٣) Eickhoff, 83-84.
(١٢٤) C. Med. Hist. II; ph II, 45-49.
(١٢٥) Fahmy, *Naval*, 95. راجع أيضاً ص ٩٥ حيث يورد فهمي نفقات الأسطول البزنطي.
(١٢٦) Fahmy, *Naval*, 96.
(١٢٧) Fahmy, *Naval*, 97. المتطلبات من مصر من حيث تاريخها.
(١٢٨) Fahmy, *Naval*, 98.
(١٢٩) Bell, 118-119, 120-121; Fahmy, *Naval*, 99-100. راجع أيضاً فهمي ص ١٠٣ ـ ١٠٢ حيث توجد أسماء الضامنين.
(١٣٠) Fahmy, 100-101. على ان الحكومة كان بامكانها رفض البدل (adaeratio) والاصرار على الحصول على الرجال المطلوبين. يروي فهمي ص ١٠٢ ـ ١٠١ حكاية لمثل هذا الرفض عن احدى البرديات.
(١٣١) Fahmy, *Naval*, 104.
(١٣٢) Fahmy, *Naval*, 104.
(١٣٣) Fahmy, *Naval*, 106.
(١٣٤) Fahmy, *Naval*, 106-107.
(١٣٥) Grohman, 104-5; Fahmy, *Naval*, 107.
(١٣٦) Eickhoff, 88 ff.
(١٣٧) Fahmy, *Naval*, 107, 109, 125.
(١٣٨) Fahmy, 126.
(١٣٩) EB, Numismatics.
(١٤٠) المسعودي، **مروج**، ١/ ٢٨٢.
(١٤١) اخرج فهمي (*Sea-Power*, 107) عن ابن ثغري بردي ان ابن دينار (او ابن أبي دينار) كان والياً لدمشق سنة ٨٤/ ٢٢٥. ولعله هو نفسه أبو دينر الوارد اسمه في المصادر البزنطية.
ديوان البحتري ج ١/ ٢٥٨؛ Fahmy, *Naval* 139. الطبري ٣/ ١٥٨٢ والنص هو: ولخمس بقين من صفر (لسنة ٢٥١) دخل من البصرة عشر سفائن بحرية تسمى البوارج، في كل سفينة اشتيام وثلثة نفاطين ونجار وخباز وتسعة وثلثون رجلاً من الجذافين والمقاتلة. فذلك في كل سفينة خمسة وأربعون رجلاً.

(١٤٢) Fahmy, *Sea-Power*, 149.
(١٤٣) Fahmy, *Sea-Power*, 149-150.
(١٤٤) Fahmy, *Sea-Power*, 150.
(١٤٥) Fahmy, *Sea-Power*, 150.
(١٤٦) زيدان، التمدن، ج١ ط ٢، (١٩١٤) ص ٢٠٠.
(١٤٧) راجع عن النار اليونانية: EB, Greek Fire.
Runciman, 153-154, Fahmy, *Sea-Power* 153-160; Eickhoff, 22 ff, 142 ff, 154.
(١٤٨) Lewis, 70-75.
(١٤٩) Lewis, 78-79, 80.
(١٥٠) Lewis, 82-83, *El Tiraz*.
(١٥١) Lewis, 83.
(١٥٢) نقولا زيادة، **رواد الشرق العربي**.
Arculf in Wright, 10-11.
(١٥٣) حتي ٢٩٤ ـ ٢٩٥؛ Wiet. «عمل الوشي الجيد في أيام سليمان بن عبد الملك في اليمن والكوفة والاسكندرية» المسعودي، مروج ٢/ ١١٦ ، المطبعة الأزهرية ١٣٠٣.
(١٥٤) Marcais Berberie, 22-26.
(١٥٥) Lewis 85.
(١٥٦) Lewis, 86-87.
(١٥٧) *Cam. Med. Hist.* IV, Pt I, d 40-44 C; Lewis 88-90.
(١٥٨) Eickhoff, 266 El, art. Abdul Malik-Dinar.
(١٥٩) Leuis, 89 نقلاً عن:
Zonas ed. Bonn XIV, 229-31.
(١٦٠) Lewis, 89.
(١٦١) Lewis, 89.
(١٦٢) Wiet, 47-49; Lewis, 89-90.
(١٦٣) Wiet, 64-46; Lewis, 90.
(١٦٤) Wiet, 45-46; Lewis, 90.
(١٦٥) حتي ٢٥٥، قابل أيضاً ص ٣٨٨ ـ ٣٩١؛
Wiet; 163-164, Lewis, 19.
(١٦٦) Lewis, 92-93.
(١٦٧) Lokez, Speculùm (1945), Runcineman, 167 XX, 26-27.
(١٦٨) راجع أيضاً هامش رقم ١٥٢.
(١٦٩) Lewis, 93.
(١٧٠) Lewis, 93-94.
(١٧١) Lewis, 95.
(١٧٢) Eickhoff, 266-267.
(١٧٣) Lewis 97.
(١٧٤) Runciman, 166-167, Lewis, 97.
(١٧٥) صايغ ٨٥ ـ ٨٦.

مراجع البحث

الكتب العربية

- ابن جعفر، قدامة: كتاب الخراج (بريل، ليدن ١٨٨٩)
- ابن خلدون: المقدمة (بيروت، ١٩٦١)
- ابن عبد الحكم: فتوح مصر: تحقيق تشارلز قوري (ليدن، ١٩٢٠)
- البحتري: ديوان (مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ١٣٠٠هـ)
- البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان: تحقيق صلاح الدين المنجد ٣ ج (القاهرة، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧)
- حتي، فيليب وادورد جرجي وجيرائيل جبور: تاريخ العرب المطول ط٧ (بيروت، ١٩٨٦)
- زيادة، نقولا: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى ط٢ (بيروت، ١٩٨٦)
- زيدان، جرجي: التمدن الاسلامي ج ١ ـ ٥، ص ٢ (القاهرة، ١٩١٤)
- صايغ انيس: الأسطول الحربي الأموي في البحر المتوسط (بيروت، ١٩٥٦)
- العبادي، أحمد مختار والسيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام (بيروت، ١٩٧٢)
- متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة (بيروت، ١٩٦٧)
- المقدسي: أحسن التقاسيم (ابريل، ليدن، ١٩٠٦)

الكتب الأجنبية

- Travels of Bishop Arculf in the Holy Land towards. A.D. 700 in Wright, Th. (ed). *Early Travels in Palestine*, (London, 1948).
- Bell, H. Idris, *Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest*, (Oxford, 1948)
- Belleck, H, *Stories*, Essays and Poems, (Lodon, 1938)
- Bury, J.B., *History of the Late Roman Empire*, 2 vols. (London, 1889)
- *Cambridge History of Islam*, 2 vols, (Cambridge, 1970)
- *Cambridge Medieval History*, V.2 (Cambridge 1913, reprint 1975)
- *Cambridge Medieval History*, Vol IV, 2nd ed. (Cambridge, 1966)
- Donner, Fred McGraw, *Early Islamic Conquests*, (Princeton, 1981)
- El, and El2
- Eickhoff, Ekkehard, *Seekrieg und Seepoalitik zuruchen Islam und Abendland*, (Berlin, 1966)
- Fahmy, Ali Mohammad, *Muslim Naval Organization in the Eastern Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century A.D.* (Cairo, 1966).
- Grohmann, Adolf, *From the World of Arabic Papyric*, (Cairo, 1952)
- Hasan, Ahmad Y. and Donalk R. Hill, *Islamic Technology*, (Paris, 1986)
- Hunt, David (ed.), *Footprints in Cyprus*, (London, 1982)
- Kennedy, Hugh, *The Prophet and the Age of the Caliphates*, (London, 1986)
- Lewis Archibald, *Naval Power and Trade in the Mediterranean A.D. 500-1100*, (Princeton, 1951)
- Lombard, Maurice, *L'Islam dans sa première grandeur*, (VII-XI siecle) (Paris, 1971)
- *Les Métaux dans les Anciens monde du V an XI siecle*, (Paris, 1947)

- Marcais, Georges, *La Berbene Musulmane et L'Orient Latin au Moyen Age*, (Paris 1947)
- Runciman, Steven, *Byzantine Civilization*, (London, 1937, reprint 1948)
- Shaban, M.A., *Islamic History 622-750*, (Cambridge, 1971)
- Vasilie, A.A., *History of the Byzantine Empire*, (2 vols) (Madison, 1928-9)
- Waston, Andrew M., *Agricultural Innovations in the Islamic World*, (Cambridge, 1983).
- Wief, Gaston, *L'Egypte Arabe*, (Paris, 1937)

التجارة

التجارة الإسلامية من القرن الثاني الى السابع هـ

المقدمة ـ الخلفية السياسية[1]

- ١ -

كانت نتيجة الفتوح العربية الإسلامية في أيام الراشدين وأيام الدولة الأموية، قيام دولة الخلافة المركزية بعاصمتها المدينة المنورة أولا، ثم الكوفة في ايام علي بن ابي طالب، ثم دمشق في ايام الأمويين. وكانت الدولة مركزية السلطة. فالعاصمة هي التي تقرر والولايات تقبل الأمر. هذا، مع العلم بأن ثورات عنيفة قامت ضد الحكم الأموي في المشرق وفي شمال افريقية.

وبعد قيام الدولة العباسية (١٣٢هـ/ ٧٥٠م) انفصلت الاندلس عنها في إمارة أموية، وتحررت بعض الأجزاء عن دولة الخلافة، خاصة في المغرب العربي، وأقامت لنفسها حكماً ذاتياً أو حتى مستقلاً. وبين سنتي ٣٢٢ و٤٤٧هـ/ ٩٣٤ ـ ١٠٥٥م قامت حكومات بويهية متعددة، وتشجعت بعض جهات من دولة الخلافة وأعلنت نفسها مستقلة استقلالاً تاماً عن الدولة الأم. كما انه في الفترة الممتدة من ٤٤٧هـ الى أواخر القرن الخامس (٩٣٤م ـ القرن الحادي عشر م)، ظهرت في المشرق الدولة السلجوقية (٤٢٩ ـ ٥٩٠هـ/ ١٠٣٨ ـ ١١٩٤م) وما تفرع عنها.

على كل، فان القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، شهد تطوراً جديداً في الدولة الإسلامية. فقد اصبح لدينا ثلاث دول للخلافة: إذ قامت الخلافة الفاطمية في المغرب (٢٩٧هـ/ ٩٠٩م) وكانت القيروان (رقادة) عاصمتها الأولى، ثم بنيت المهدية لتكون عاصمة خاصة بالدولة الجديدة. وانتقل الفاطميون الى مصر، فاحتلها قائدهم جوهر الصقلي (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م) وانتقلوا هم الى العاصمة الجديدة القاهرة (٣٦٢هـ/ ٩٧٣م). فلما أهلّ القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م كانت دولتهم قوية، وكان نفوذهم قد وصل الى بلاد الشام. وظلت الخلافة قائمة الى ان قضى عليها صلاح الدين (٥٦٧هـ/ ١١٧١) وخلفتها الدولة الايوبية.

وقد اتخذ عبد الرحمن الأندلسي (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦٢م) لقب الخلافة. لكن هذه لم يطل امدها. فقد بلغت من الضعف حداً كبيراً، ولم تلبث ان انتهى أمرها (٤٢٢هـ/ ١٠٣١م) وخلفها ملوك الطوائف، وكان هؤلاء يخسرون أجزاء من البلاد تدريجاً أمام القوى الاسبانية المختلفة.

ولنعد الى الخلافة الثالثة، الاقدم عهداً، وهي الخلافة العباسية. وقد ذكرنا من قبل ان هذه الخلافة تعثرت فقامت في اطارها دويلات كثيرة.

وقبل ان نستمر في عرضنا للخلفية السياسية، نود ان نقف عند بضعة أمور هامة:

أولاً: ان الدويلات التي قامت في ظلال الخلافة كانت متنوعة من حيث العناصر الحاكمة فيها. فهناك الفرس والترك والاكراد والعرب. وكانت هذه الدويلات تختلف من حيث طبيعتها بين الدولة المستقرة التي تعتمد على الزراعة، والدويلة البدوية التي قد تكون لها عاصمة معروفة، لكنها تظل بدوية في علاقاتها قبلياً وعشائرياً.

ثانياً: كانت هذه الدويلات متابينة من حيث العقيدة ـ فدويلة سنية وأخرى شيعية وثالثة اباضية ورابعة اسماعلية.

ثالثاً: ان السواد، وهو الجزء الخصب الغني من بلاد العراق، دمرّت ترعه وموارده الزراعية ـ نتيجة الثورات والحروب، فأدى ذلك الى تدهور العراق اقتصادياً. وأصبحت دولة الخلافة فارغة المركز. ولذلك، فقد هاجر مواطنو السواد الى مناطق أخرى مثل مصر وإيران والشمال الافريقي. وحل محل النخبة الاصلية اكراد زغروس وديلم ساحل بحر قزوين الجنوبي، ولعل فريقاً من بربر افريقية وصل اليها.

رابعاً: يجدر بنا ان نذكر ان رقعة دولة الخلافة كانت متسعة جداً، وكانت تختلف سطحاً وتضاريس. هذا كان احد العوامل الرئيسة لما اصاب دولة الخلافة من تفرد امراء الاطراف بالسلطة، فأدى ذلك الى انشطار وتقسم في البلاد بمجملها. وكان اصحاب الحل والعقد في هذه المناطق النائية يعتمدون على الجنود المرتزقة (إذ لم يكن جميع الجند رقيقاً) الذي لم تعُن لهم وحدة دولة الخلافة أي شيء.

خامساً: شغل الأمويون بالفتوح والادارة وبعض الحروب الاهلية، وكانت فترتهم قصيرة، لذلك لعلهم تركوا جانباً العلاقة العضوية التامة بين الدولة والاسلام. أما العباسيون فقد قامت دولتهم معتمدة الاسلام اساساً. فكان حكامها يحاولون خلق بناء حكومة خُلُقية ضمن تعاليم الإسلام. فلم يكن همهم ان تكون دولتهم اسلامية اسماً، بل اسلامية بمعنى الكلمة الكامل. وقد كانت هذه المحاولة جادة يوليها العباسيون حكاماً، وخصومهم العلويون ثواراً ودعاة حق، أهمية كبرى. ولكن يبدو ان كل ما تم، حتى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي هو التوصل الى القواعد الاساسية الدينية (الاسلامية) التي يجب ان تسير الدولة عليها. لكن الحكم لم يسر عليها، مع انه قبلها. ولنذكر هنا ان الدولة الفاطمية كانت تعنى بهذه الناحية عناية كبيرة.

لكن حكام الدويلات لم يعنوا بذلك، أي لم يكونوا يهتمون بأن يؤسسوا حكمهم على مثل هذه القواعد. ولذلك فقد قبلوا بأن يكون الاسلام ـ بشرعه وتفسيره وفقهه ـ هو الذي يقبله الناس وتسير عليه الاحكام. فكانوا ينظرون الى الدولة ـ دولتهم ـ على انها اداة لحفظ النظام بحيث تتمكن اجهزتها ـ على تنوعها ـ من جمع الضرائب والمكوس التي فرضتها على السكان ـ مباشرة أو تلزيماً أو إقطاعاً. وكل اسلوب يحتاج الى آلة خاصة به تمكنه من القيام بعمله.

فالعلاقة التي أراد حكام دولة الخلافة أن يقيموا عليها كيانهم هي الاسلام؛ والدويلة لم

تُعن بذلك مبدئياً. ولكن ماذا كان موقف الناس في بقاعهم المتباعدة والمتنوعة من الإسلام؟ الناس قبلوا الاسلام عقيدة وعبادة ومعاملات. ولعل هذه جميعها كانت بحاجة الى مؤسسات ومنظمات تشرف على تطبيقها. ولكن الذي دخل في تفكير المسلمين هو ان الاسلام كان هويتهم، ومن ثم فان المسلم ـ بقطع النظر عن موطنه ـ كان يشعر ان هذه الرقعة الواسعة هي وطنه وأن هؤلاء المسلمين هم اهله، وأن الدولة، حيث كانت ، وكيفما حكمت، انما هي رمز للإسلام. وليختلف الحكام في ما بينهم، فالمهم ان يحفظوا الأمن ـ إذا استطاعوا الى ذلك سبيلاً ـ كي يستمر المواطن في القيام بعمله فلاّحاً أو صانعاً أو تاجراً أو شيخاً أو معلماً؛ وكي يستطيع تأمين العيش له ولأسرته؛ وكي يتمكن من السفر والتنقل إما لأداء فريضة الحج أو لطلب العلم أو للتجارة.

وبدا واضحاً لهم عملياً، ولنا تاريخياً، أن الحكومة المركزية لم تكن حاجة لا بد منها، وأن الدويلة تستطيع ان تسيِّر الأمور، بل وان الدويلات (أو الإمارات) البدوية التي لم تكن لها حدود معروفة كانت تحافظ على الطرق وتؤمن التنقل والسفر وتحول، في احيان كثيرة، دون النهب والسلب.

وفقدت دولة الخلافة العاصمة الكبرى التي كان يتم فيها كل شيء، ويتخذ فيها كل قرار، ويصدر عنها كل أمر لأنها المدينة الكبرى. وظلت لبغداد اهميتها وظل لها اسمها الكبير وبهاؤها. لكن الفترة التي نتحدث عنها كان فيها عشرات من المدن ـ العواصم للدويلات الكثيرة ـ التي كانت تنتشر (مع الزمن) من مراكش في اقصى المغرب الى نيسابور وفرغانة وسمرقند وبخارى وهراة في اقصى الشرق. وكل منها مر بها وقت كانت فيها عاصمة ومدينة علم وسوقاً كبيرة ومعرض ابنية ومتحف فنون، وهذا هو الذي جعل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي والنصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي فترة نضج الحضارة العربية الإسلامية في جميع نواحيها الشرعية والنفعية والفكرية البحتة.

سادساً: أشرنا الى السلاجقة من قبل. ودولتهم الكبيرة اشتهر منها، فضلاً عن مؤسسها طغرل بك، الب ارسلان وملك شاه (٤٤٥ ـ ٤٨٥هـ/ ١٠٦٣ ـ ١٠٩٢م). وقد استولت فروعها فيما بعد على المنطقة الممتدة من إيران الى آسية الصغرى وبلاد الشام.

كان السلاجقة قد اعتنقوا الاسلام قبل دخولهم دولة الخلافة، وكانوا سنّة، لذلك بدوا وكأنهم أرادوا أن ينقذوا الخلافة السنّية من السيطرة الشيعية (بني بويه). على ان الذي مكّن لهم من التفوق على جيوش سامانية أولاً ثم بويهية وغزنوية فيما بعد، هو الصفات القتالية التي كان الجنود يتمتعون بها، وفي مقدمتها حرية التحرك العسكري والسرعة في التنقل والتحلل من الارتباطات المحلية التي تشل، في احيان كثيرة، النشاط العسكري وتمنع الجنود من العمل السريع. ولأن هذه الجماعات كانت تأتي بأعداد كبيرة نسبياً، وكان فيها الكثير من التراص، فان انتصارها كان كبيراً. ولنذكر انها كانت فتية تدخل مناطق قد ثقل فيها على الناس القتال وآثروا العافية. وإذا تذكرنا ان هذه الهجرات قد استمرت زمناً طويلاً، أدركنا

الأسباب التي أدت الى نجاح السلاجقة عسكرياً. وقد انتهى الأمر بهم أن تبدلت التركيبة الاثنية لمناطق معينة من الرقعة التي استولوا عليها، مثل آسية الصغرى.

سابعاً: ان الشمال الافريقي اصبح، في العصور التي تلت الفتح العربي الإسلامي، منطقة مزدهرة اقتصادياً. وقد عاد هذا الى العناصر التي انتقلت الى تلك الديار من المشرق - وهي عربية وفارسية وتركية. والمؤرخون يروون اخبار هؤلاء المهاجرين الذين بلغوا قمة النجاح في القرن الرابع هـ/ العاشر للميلاد، إذ اصبحت منطقة الشمال الافريقي هي التي تزود الجوار بحاجاته من الحبوب والأقمشة وما الى ذلك. فضلاً عن ان مدن الساحل هناك اصبحت نقط انطلاق تجاري بالنسبة لاسبانية وموانىء أوروبة الجنوبية والاسواق الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى.

ثامناً: كان القائمون على شؤون الدولة الفاطمية يدركون أهمية التجارة وطرقها، لذلك فانهم عنوا عناية خاصة بأن تكون الطرق التي تخرج من بلاد النوبة عبر الواحات المجاورة لمصر والتي يقع بعضها في برقة، تحت نفوذهم، كي يفيدوا من إعادة تصدير السلع من موانئهم في شمال افريقية، وكانت المهدية إحداها. ومن هنا كانت هذه الحملات التي شنها الفاطميون ضد هذه المناطق (٣٠١ ـ ٣٠٢هـ/ ٩١٣ ـ ٩١٥م؛ ٣٠٧هـ/ ٩١٩م؛ ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م) المحاذية لمصر أو حتى ضد مصر بالذات. وقد كان الرأي السائد عند المؤرخين، ولا يزال الكثيرون يقولون به، هو ان هذه الحملات كانت موجهة ضد مصر نفسها، وأن الجيوش الفاطمية لم تنجح في مهمتها، لأن جيشاً اخشيدياً تركياً يقوده مؤنس الخادم جاء (في المناسبتين الأوليين) لنصرة الفرق المصرية وأخرج المهاجمين. لكن محمد عبد الحي شعبان هو الذي نقل الفكرة من كون الهجوم كان محاولة لفتح مصر من أجل ضمان السيطرة الفاطمية على الطرق التجارية: النوبة ـ الواحات ـ برقة ـ تونس.

على ان التجربة أثبتت للفاطميين خاصة، للمعز ووزيره يعقوب بن كليس، أن السيطرة على الطرق التجارية بكاملها هي الاصح، ومن هنا جاء الفتح الفاطمي لمصر ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م.

وبسبب الدور الذي كانت بلاد الشام تؤديه في العلاقات التجارية بين الأقطار الاسلامية شرقاً وغرباً، يترتب علينا أن نضع أمام القارىء جدولاً بأهم الدول التي قامت فيها في القرنين الرابع والخامس هـ/ العاشر والحادي عشر م.

١ ـ الحمدانيون: في الموصل أولاً ثم في حلب.

٢ ـ المروانيون: قامت دويلتهم في ديار بكر. وهم اكراد اصلاً.

٣ ـ العقيليون: تركزت قواتهم في جزيرة ابن عمر ونصيبين وبَلَد والموصل وفي تكريت.

٤ ـ المرداسيون: عرب من بني كلاب. هاجروا من العراق الى ديار حلب، مع عدد كبير من القبائل التي تنقلت في ذلك الوقت.

- ٢ -

يجدر بنا الآن أن ننتقل الى الميدان البزنطي لنرى ما الذي تم على يد القوم في القرن الرابع هـ/ العاشر م. وما بعد. ذلك ان الدولة البزنطية عاد اليها شيء كثير من النشاط الإداري والعسكري، فأصبح باستطاعتها ان تجند اعداداً كبيرة في جيوشها قد يبلغ عددها، عند الحاجة ٢٠٠ ألف جندي. ومن هنا جاءت هذه الحملات التي شنتها بزنطة على المناطق الجبلية من جنوب الاناضول، طوروس، وما يقع جنوبها. وقد بدأ العمل الحربي هناك سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م.

كان ثمة مساجلات حربية بين الحمدانيين والبزنطيين. ففي الفترة بين سنتي ٣٢٧ و٣٢٩هـ/ ٩٣٨ و٩٤٠م قامت حملات من هنا وهناك قاصدة بلد الآخر، وقد استولى سيف الدولة على عدد من المدن والحصون وحاصر البعض الآخر وأحرق بعض الرساتيق وسلب الضياع المتعددة في تلك النواحي.

تجدد القتال سنة ٣٢٧هـ/ ٩٤٨م ثم في السنة التالية. على ان الحملات البزنطية اصبحت اقوى وأبعد أثراً بعد سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م، ذلك بأن الأباطرة الذين تولوا العرش البزنطي بين ٩٥٩ و١٠٢٥ كانوا اكثر مراساً بشؤون القتال والحرب وكانوا اكثر مقدرة على تنظيم الجيش وتحضير الاعداد الكبيرة من الجنود، في الوقت الذي لم يكن فيه الأمير الحمداني، وسيف الدولة بالذات، يستطيع ان يدفع إلا بنحو ٣٠٫٠٠٠ من الجنود الى الميادين. فضلاً عن ذلك، فان المدد الخارجي للدفاع عن منطقة العواصم والثغور، الذي كان يأتي من العاصمة العباسية مثلاً، لم يكن له ايام هذا الهجوم الجديد وجود.

ولما انتصر البزنطيون واحتلوا مدن هذه المنطقة الجبلية (طوروس) وما اليها من السهول، هجّروا الكثير من السكان وأسكنوا مكانهم جماعات اثنية أخرى جيء بها من جهات مختلفة. ولعل مدينة مَلطيَة المثل الأكثر توضيحاً لهذا الذي حدث. فان نقفور (٩٦٣ ـ ٩٦٩) أجلى سكانها وجاء بفئات مسيحية من حيث شاءت، وكان على رأس المدعوين للاقامة فيها بطريرك انطاكية اليعقوبي (أي رئيس القائلين بالطبيعة الواحدة)، الذي كان يتخذ من الرقة أو حرّان مركزاً له. وقد اشار هيو كندي الى التوسع في التنظيم الكنسي في القرنين الرابع هـ/ العاشر م والخامس هـ/ الحادي عشر م، إذ إن الفترة عرفت إنشاء عشر اسقفيات جديدة حول ملطية وأربع حول مرعش وخمس في منطقة سُميساط، كما بني ستة وخمسون ديراً في المنطقة بأجمعها بين ٩٣٦ و١٠٤٧.

وقد كان من جراء هذه السياسة لتوطين أتباع الكنيسة اليعقوبية، وهي كنيسة غير مقبولة اصلاً في الدوائر البزنطية، إثارة مشكلات لهؤلاء، بحيث ان البطريرك اليعقوبي ديونوسيوس الرابع فضل الانتقال الى آمد ليعيش في ظل حاكم مسلم، وذلك في الثلاثينيات من القرن الحادي عشر.

على أن التقدم البزنطي لم يقتصر على الحملات البرية. ذلك بأن الاسطول البزنطي

نجح في البحر أيضاً. فقد ضم البزنطيون، عن طريق الحملات البرية والحصار البحري، المنطقة الساحلية الممتدة من ساحل الرملة الى انطاكية الى املاكهم. فهذه البلاد، وحتى أرض الرافدين، لم تحظ بقوة مركزية ذات نفوذ وقوة وسطوة للدفاع عنها امام القوى المهاجمة. وحتى دمشق، التي لم تحتل، دفعت جزية كي يبتعد القوم عن حصارها أو اخذها. وطرابلس كانت المدينة الساحلية الوحيدة التي مكنها وجود الاسطول الفاطمي وأسوارها الحصينة من الصمود. على ان هذا الاحتلال البزنطي لسورية كان موقتاً، ذلك بأنه في سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م كانت الأجزاء السورية حتى انطاكية قد عادت اليها القوات الفاطمية، ولو ان عودتها لم تكن قوية أو مستمرة.

لكن النجاح البحري البزنطي كان في احتلال كريت وقبرص ٣٥٠هـ/ ٩٦١م.

- ٣ -

في الوقت الذي كان البزنطيون يقومون فيه بأعمالهم العدوانية في الشمال، كان الفاطميون يحاولون الاستيلاء على بلاد الشام لتثبيت أقدامهم في المنطقة، ولضمان حدود مصر الشمالية، التي هي في واقع الأمر، تقع عند جبال طوروس في أقصى شمال بلاد الشام. وقد جرب الحكام السابقون لمصر، الطولونيون (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥م) والاخشيديون (٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م) القيام بمثل ذلك. وقد نجح الأولون في احتواء البزنطيين، أما الاخشيديون فلم يصلوا الى جبال طوروس، فتركوا الحمدانيين، دولة حامية بينهم وبين البزنطيين.

وكان الخليفة المعز الفاطمي (٣٤١ ـ ٣٦٥هـ/ ٩٥٣ ـ ٩٧٥م) وقائده جوهر الصقلي يدركان هذه الناحية، كما ادرك الخليفة العزيز (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ/ ٩٧٥ ـ ٩٩٦م) ووزيره يعقوب ابن كليس هذه القضية. ومن هنا، فقد كانت ثمة حملات فاطمية الى بلاد الشام.

١ ـ حملة جعفر بن فلاّح (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م) التي ارسلها جوهر. وقد هزم جعفر الأخشيد في الرملة واستولى على دمشق. لكن جنود جعفر أساءوا التصرف في دمشق، فاستنجد اهلها بالقرامطة الذين جاءوا من الخليج العربي وانتصروا على جماعة فلاّح، وقتل هذا. لكن الجيش الفاطمي بقيت منه جماعة في دمشق فأخرجها البتكين التركي (٣٦٤هـ/ ٩٧٤م) الذي احتل عكا وصور وبيروت وجبيل.

٢ ـ أرسل الخليفة العزيز حملة بقيادة جوهر نفسه فحاصر دمشق. فاستنجد ألبْتكين بالقرامطة ثانية، فجاءوا وأجلوا الفاطميين عن دمشق. وعقد بعد ذلك اتفاق بين جوهر وألبْتكين والقرامطة نص على ان تبقى غزة فقط للفاطميين، أما ما يقع من عسقلان شمالاً فليس لهم فيه موطىء قدم.

٣ ـ قاد الخليفة العزيز حملة بنفسه والى جانبه جوهر (المحرم سنة ٣٦٨هـ/ آب (اغسطس) ٩٧٨م). وفي معركة دارت رحاها قرب الرملة انتصر الفاطميون. لكن كان يجب ان يقصى الحسن القرمطي عن المنطقة. فاعترف بالخليفة الفاطمي لقاء عشرين ألف دينار

يقبضها سنوياً ما دام حياً. وكان في ذلك نهاية الدور القرمطي في بلاد الشام. أما ألبتكين فقد تألفه الخليفة العزيز وقاده معه الى القاهرة.

٤ ـ في سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩ ـ ٩٨٠م قاد سليمان بن جعفر بن فلاّح أربعة آلاف بربري الى دمشق. لكنه لم ينجح في حل أي من المشكلات. فأرسل الفاطميون حملة على رأسها قائد تركي هو بلّتكين (وهو من زملاء البتكين). تغلب هذا على الزعيم البدوي ابن الجراح (من قبيلة طي)، فاتجه هذا شمالاً يحتمي عند البزنطيين.

وعهد الى قائد تركي آخر هو بكّجور بأمر الاستيلاء على دمشق، ففشل. وأرسل الخليفة العزيز منجوتكين الذي قام بحملات (في السنوات ٣٨١ ـ ٣٨٤هـ/ ٩٩١ ـ ٩٩٤م). وبعد قتال طويل اضطر هذا الى الانسحاب من داخل البلاد، لأن الاسطول الفاطمي مني بخسارة كبيرة، فلم تصل المساعدات الى الجيش المقاتل.

ومع ان الدولة الفاطمية كانت قد استولت على المدن الساحلية من طرابلس الى الجنوب، ومع ان وضعها في دمشق كان قوياً بسبب تنظيم منجوتكين، فان بلاد الشام كانت موضع نزاع بين الفاطميين والبزنطيين وبين هؤلاء وأولئك من جهة وبين الزعامات المحلية التي كانت تظهر هنا وهناك؛ وهي اصلاً قبائل بدوية. وقد تم سنة ٤١٥/١٠٢٤ تحالف بين كبار الزعماء من البدو وهم صالح بن مرداس وسنان بن عليان الكلبي والحسن بن الجراح من طي على ان يعملوا ضد الفاطميين على أمل إخراجهم من البلاد. لكن انوشتكين الدزبري أُرسل الى دمشق وولي حاكمية بعلبك. وتولى سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م منصب حاكم فلسطين. وقد عهد اليه بقيادة ٧٫٠٠٠ جندي الى الرملة ثم الى القدس. وتجمع زعماء البدو ومعهم قواتهم، والتقاهم انوشتكين في الاقحوانة، على مقربة من بحيرة طبرية. وانتصرت القوات الفاطمية (٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م) وقتل صالح بن مرداس وتفرقت جموع البدو. وأصبح انوشتكين حاكم دمشق وسورية وظل في هذا المنصب حتى وفاته ٤٣٢هـ/ ١٠٤١م. كان حاكماً قديراً عاملاً على إحياء ما أتلفته ايدي الحدثان خلال هذه الفترة الطويلة من شؤون العباد وأمور البلاد ـ زراعة وتجارة وصناعة.

جاء الفاطميون الى مصر على أيدي جيش من كتامة، القبيلة البربرية المشهورة، فكان هؤلاء جيش الخليفة والدولة. ولكن الوضع لم يكن يسمح بأن يعتمد صنف واحد من الجند لتعبئة الجيش. وكان للسودان دور في جيش مصر ايام الطولونيين والاخشيديين، فضم هؤلاء وزيد عددهم باستيراد الرقيق السوداني القريب المتناول. لكن الجيش الفاطمي دخل فيه آخرون من صنهاجة والصقالبة واليونان وغيرهم. بل لقد نفذ بعض الاتراك الى جيش الخليفة. لكن إدخال ألبتكين وجنده الاتراك دفعة واحدة في الجيش الفاطمي كان تبديلاً من درجة كبيرة، وأصبح للترك دور كبير في الدولة الفاطمية، فدخل يومها «الغلمان» في النظام العسكري والاجتماعي والإداري.

يبدو من هذا أن الفاطميين لم يستطيعوا ان يستولوا على البلاد بأكملها رغم محاولاتهم

الكثيرة والمكلفة، بل ان حملاتهم كان اثرها ـ بسبب المقاومة البدوية لها ـ أن زاد فيها الاضطراب اضطراباً والخراب خراباً والقتل قتلاً وإتلاف الأرض اتلافاً.

وجاء السلاجقة بلاد الشام فاصطدموا بالفاطميين. وكانت الهجمة السلجوقية الأولى على البلد سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م وهي حملة الب ارسلان (٤٥٥ ـ ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣ ـ ١٠٧٢م).

وظل للفاطميين بعض النفوذ في الشام في الفترة الممتدة من ٤١١ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٢١ ـ ١٠٩٤م. لكن الخلافات والخصومات بين الجماعات الفاطمية امراء وجنوداً عادت الى ما كانت عليه، ولو ان الوزير اليازوري (٤٢٢ ـ ٤٥٠هـ/ ١٠٥٠ ـ ١٠٥٨م) كانت ايامه قوة للحكم الفاطمي في بعض أنحاء الشام.

ولنذكر انه بدءاً من الثلث الأول من القرن الخامس الهجري/ وأواسط القرن الحادي عشر الميلادي، دخل الاتراك في خدمة الزعماء الشاميين، وكان اتسز قد استولى على القدس ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م. ثم استولى على عكا ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م.

ولما تولى بدر الجمالي أمور الدولة الفاطمية انتظمت أمورها بعض الشيء، وعندها اتجه اتسز الى مصر لاحتلالها ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م لكن بدر الجمالي هزمه ورده عنها.

وأرسل السلطان السلجوقي ملك شاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ/ ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م) اخاه تُتُش غرباً واقطعه بلاد الروم وما يفتحه بتلك النواحي، وكان ذلك سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م. وقد فشل امام حلب، واكتفى بفتح البلدات المجاورة.

ووجد اتسز نفسه بين المطرقة والسندان؛ فبدر الجمالي كان قادماً الى دمشق (٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م) ومعه جيش من العرب والبربر والسودان وحتى من الغز (الاتراك) وتُتش كان قوياً، فوضع اتسز نفسه تحت امرة تُتش. ولما وصل الأخير دمشق ودخلها (٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م) قبض على اتسز وقتله. وكان هذا أول دخول سلجوقي الى مدينة دمشق، إحدى مدن الشام الرئيسة. وكانت هذه أيضاً مواجهة بين السلاجقة والفاطميين. وقد هاجم تُتش القدس لكنه لم ينل منها. وأخيراً دخلها أرتق. وقامت معارك بين تُتش والفاطميين في سبيل المدن الساحلية الشامية، إلا ان القتال لم ينته الى نتيجة حاسمة. وقد كان القتال يدور بين الزعماء على اختلاف اصولهم العرقية ـ سلاجقة اتراكاً كانوا أم ولاة فاطميين. واخيراً حاصر الأفضل بن بدر الجمالي القدس ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، ودخلها سلماً بعد ان خرج منها سقمان وايلغازي ابنا ارتق بك.

في هذا الوقت كانت الجيوش الصليبية قد دخلت بلاد الشام من الشمال واحتلت انطاكية واتجهت جنوباً. وفي سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م احتلت مدينة القدس.

بين سنتي ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩ وحول ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م كان الصليبيون، أو الفرنجة كما سماهم المؤرخون العرب قديماً، قد نجحوا في احتلال المنطقة الساحلية من بلاد الشام بدءاً من ساحل كليكيا (قيلقيا) الذي كانت طرسوس مركز تجارته وادارته، حتى جنوب سهل فلسطين الساحلي، وكانوا قد توغلوا داخلاً في منطقتين هما ادسا (الرها) والمنطقة الواقعة

شرقي نهر الأردن من بحيرة طبرية شمالاً وفي اتجاه جنوبي الى العقبة، فكانت منطقة الكرك، الواقعة شرقي البحر الميت ومنطقتا الشوبك والبتراء الممتدتان جنوبه جزءاً من املاك الصليبيين.

وكانت الرقعة التي استولى عليها الفرنجة بأجمعها مقسمة الى أربع وحدات سياسية أولاها مملكة القدس (اللاتينية كما نشير اليها اليوم) وكان حدها الشمالي على نقطة تقع شمال بيروت عند مصب نهر الكلب. يليها الى الشمال كونتية طرابلس التي يمكن القول إنها كانت تشمل القسم الشمالي من لبنان. وتأتي بعد ذلك إمارة انطاكية التي كانت تمتد شرقاً الى الغرب من مدينة حلب، التي استعصت على الفاتحين، وشمالاً كانت تتخطى جبال امانوس بحيث تكون سلسلة جبال طوروس حداً شبه طبيعي لها. وكانت كونتية ادسا (الرها) تجاور إمارة انطاكية في شمالها الشرقي.

على انه يجدر بنا ان نتذكر الأمور التالية:

١ ـ ان سهول كليكيا انتزعت من إمارة انطاكية قبيل سنة ٤٦٦هـ/١٠٣٧م.

٢ ـ ان مدينة الرها نفسها سقطت بيد عماد الدين زنكي (او زنغي) سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، فيما قضى الزنكيون على كونتية ادسا بكاملها بعد ذلك بسبع سنوات.

٣ ـ ان مملكة القدس خسرت املاكها في شرقي الأردن ثم في بعض فلسطين في أواخر القرن السادس الهجري/ القرن الثاني عشر الميلادي.

ان دولة السلاجقة الكبار، التي قامت في العراق وبلاد الفرس (٤٢٩ ـ ٥٩٠هـ/ ١٠٣٨ ـ ١٠٩٤م) تولى شؤون شمال سورية ودمشق من ابنائها تُتش، وخلفه ابناه رضوان في حلب ودقاق في دمشق، وانتهى الأمر بعدهما الى تولي اتابك كل منهما أمور الدويلة التي كان يديرها.

ونعنى هنا بالدولة الزنكية. كان اق سُنقر من غلمان ملك شاه السلجوقي، وقد ولاه قيادة الجند، وقد ولى السلطان السلجوقي محمود (٤٨٥ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٩٢ ـ ١٠٩٤م) عماد الدين ابن اق سُنقر أمر الموصل وجعله اتابكا (أي وصيا) على ولديه. فتصرف هذا ايام حكمه (٥٢١ ـ ٥٤١هـ/ ١١٢٧ ـ ١١٤٦م) تصرفاً مستقلاً، واخذ يتوسع غرباً من موقعه الأصلي في الموصل عبر الجزيرة الى شمال سورية، وحارب امراء وزعماء اعراباً واتراكاً، وقاتل الفرنجة. ولما استطاع ان يستعيد مدينة الرها (ادسا) من المحتلين سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، ارتفع نجمه على انه بطل من ابطال الجهاد. واستمر البيت في الحكم بعد وفاة عماد الدين زنكي، لكنه انقسم، فتولى نور الدين محمود أمر دمشق ثم حلب (٥٤١ ـ ٥٦٩هـ/ ١١٤٦ ـ ١١٧٤م) وحكم ابنه بعده سبع سنوات قبل ان قضى صلاح الدين على الزنكيين (٥٧٧هـ/ ١١٨١م).

لعل الدولة التي تركت اكبر الأثر في تاريخ بلاد الشام في الفترة الممتدة من أواسط القرن السادس الى أواسط القرن السابع هـ/ الثاني عشر ـ الثالث عشر م، هي الدولة الأيوبية بفروعها المختلفة. ذلك ان صلاح الدين الأيوبي، الذي قضى على الدولة الفاطمية (٥٦٧هـ/ ١٧٧١م) تولى الحكم باسم الملك الناصر سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م. وقد قامت دول ايوبية متعددة،

يهمنا منها: (١) في مصر حتى سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م. (٢) وفي حلب حتى سنة ٦٥٨هـ ١٢٦٠م (السنوات الأخيرة كان الملك فيها في دمشق). (٣) وفي ميافارقين حتى سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٦م. (٤) وفي بعلبك حتى سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. (٥) وفي حمص حتى سنة ١٦٦١هـ/ ١٢٦٣م. (٦) وفي الكرك حتى سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م. وفي حماه حتى سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م. (٧) ودولة دمشق الأيوبية انتهى أمرها مع الفتح المغولي (٦٥٨هـ/ ١٢٥٦م).

وحري بالذكر ان المماليك حكموا مصر وبلاد الشام منذ أواسط القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، وهم الذين أخرجوا الفرنجة من ديار الشام.

عوامل مؤثرة في التجارة

ان العلاقات التجارية بين المناطق الواقعة على سواحل البحر المتوسط والبلاد التي تمتد الى الشرق منها حتى المحيط الهادي (أي الصين) قديمة. وعلى كل، فقد أصبح هذا التواصل التجاري شيئاً قوياً وفعالاً في القرنين الأولين للميلاد. ولأن الحرير كان السلعة الرئيسة سمي هذا الطريق «طريق الحرير». وقد ظل هذا الطريق مستعملاً مدة طويلة. وكان يبدأ من هسيان ـ فو (بلاد الحرير في الصين) ويمر ببلاد سربَس وكشغر وسمرقند وبكترا (بلخ) ومرو واكبتانا (همدان). ومن جبال زغروس كان الطريق يمر بالمدائن الى دمشق وحلب.

ومن الطبيعي ان طريقاً برياً يزيد طوله على احد عشر ألف كيلو متر، ويجتاز انواعاً مختلفة من الأرضين، بين جبال شاهقة وصحارى محرقة، باستثناء واحات «قليلة»، ويتعرض لغزوات القبائل المختلفة ـ ان طريقاً من هذا النوع لا بد ان يتعرض لفترات تختلف امناً وسلامة، بحيث يتوقف السير فيه بالمرة، ولو لعقود قليلة. ومن هنا فقد قام في موازاة هذا الطريق البري، طريق بحري يصل موانىء البحر الأحمر وجزيرة العرب الجنوبية، مثل عدن وقنا (عش الغراب) ورأس فاتك، ورأس غودفروا في القرن الأفريقي وموانىء الخليج العربي بالموانىء الهندية الواقعة في الساحل الغربي لبلاد الهند مثل بربر يكون (باهاريبور)، وبريغازا (برواخ)، وموزيريس (كنغامور)، وبموانىء سيلان (سري لانكا).

في القرن السادس م نشطت التجارة في المحيط الهندي نشاطاً كبيراً. وكانت سيلان (سري لانكا) المركز الرئيسي للاتصال بين غرب المحيط الهندي وشرقه (ومن ثم الى اندونيسيا وجنوب الصين عن طريق بحري مباشر). وقد كان للساسانيين نوع من السيطرة أو الاشراف على هذه التجارة. والذي كان يهمهم بشكل خاص هو السيطرة على نقل الحرير. فالدولة الساسانية، التي كانت تعرف تماماً حاجة بزنطة للحرير واهتمامها به كانت حريصة على ان تحتكره سواء أتى براً أو بحراً. ويبدو ان اتفاقاً كان قائماً بين الساسانيين ودولة اكسوم الحبشية، وهي الدولة التجارية الكبرى في غرب المحيط الهندي (بعد ان ضعف مركز مصر التجاري في البحر الأحمر نسبياً)، على ان يظل الحرير حكراً ساسانياً، أي ان ينقل من سيلان عبر الخليج العربي فقط. فيما سمح لاكسوم وتجارها ان يعنوا بنقل الطيوب والافاويه والتوابل الى غرب المحيط الهندي والبحر الأحمر، بقطع النظر عن مصدرها (وكانت مصادر هذه يومها قد تعدت الهند الى اندونيسيا).

ونحن، عندما نحاول التعرف الى التحرك التجاري الذي عرفه العالم العربي الإسلامي في القرون العباسية الأربعة الأولى، يتوجب علينا ان نتنبه الى أمور متعددة في غاية الأهمية:

أولها: النمو السكاني الذي يعود الى عوامل مختلفة لعل أهمها انتشار الأمن والسلام فيها ولو نسبياً. ثم هناك الهجرات الكثيرة الى العالم العربي الإسلامي عبر هذه القرون الأربعة. فعندنا هجرة البدو من الصحراء الى الريف الأغنى والمدن الكثيرة. وأبرز مظاهر هذا الانتقال البدوي تلك التي عرفها الشمال الأفريقي الذي أقصي بعض أهله نحو الصحراء عند بدء الفتوح، لكن هؤلاء عادوا فيما بعد. ولعل القبائل التي كوّنت جيوش الفاطميين أوضح الأمثلة على ذلك. وفي المشرق تم من ذلك الكثير، ومع انه كان انتقالاً مستمراً. الا انه لا يخلو من فورات. ولم يكن تنقل بني عقيل وبني كلاب في أنحاء العراق والجزيرة وبلاد الشام إلا نموذجاً لهذه الهجرات. ومثل هذا يقال في الاكراد الذين تنقلوا بعض الشيء من جبال زغروس وجنوب شرق آسية الصغرى الى الجنوب والجنوب الغربي. وهناك الجند التركي الذي دخل المنطقة ايام المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) ومن خلفه، والذي استقر في سامراء لنحو ستة عقود قبل ان يحمل أفراده الى بغداد وضواحيها؛ ثم هناك الاتراك السلاجقة الذين دخلوا رقعة الدولة العربية الإسلامية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

ولنذكر الرقيق الذي حُمل الى الدولة العباسية، الأسود منه والأبيض، أي الأفريقي والصقلبي. وقد كان عدد الزنج في سواد العراق كافياً لأن تقوم في المنطقة ثورة كان القضاء عليها مما أنهك الدولة العباسية (٢٥٥ ـ ٢٧٠هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٨٣ م). هذا بقطع النظر عما إذا كان الزنج بالذات كلهم رقيقاً أم لم يكونوا. وقد كان الاتجار بالصقالبة مورد رزق كبير لتجار الرقيق الذين كثر عددهم في الدولة العباسية. وكان منهم الخدم والجواري.

ثانيها: تجمع السكان في المدن الكبيرة والبلدان الأصغر حجماً. ذلك بأن العرب بدأوا بتمصير الأمصار وبناء المدن ايام الخلفاء الراشدين؛ وسار الأمر كذلك ايام الأمويين. لكن انشاء المدن الذي عرفته رقعة الخلافة في القرون الأربعة الأولى من العصر العباسي كان أكبر وأعم. فعندنا على سبيل المثال بغداد بالذات، ولدينا القاهرة التي تلت زماناً ومكاناً الفسطاط والعسكر والقطائع. وشهد الشمال الأفريقي قيام مدن كثيرة، ونمو مدن أخرى في تلك الفترة مثل سجلماسة وتاهرت وتونس ثم مراكش.

ثالثها: وإذا تذكرنا انه منذ أيام الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩ م) أخذ بعض متنفذة الأطراف في الدولة يقيمون دويلات ظلت تحت راية الخلافة، وان كلا من هذه الدويلات كان لها عاصمتها وبلاطها. ولذلك فان الحياة المدنية تقوت ونضجت في هذه الفترة. ومن المدن التي نمت نمواً كبيراً في بلاد الشام في هذه الفترة دمشق وحلب والقدس، والموصل في الجزيرة، وطرطوس في الثغور، وطرابلس وصور واللاذقية وجبيل على الساحل الشامي.

وهذا كله كان يقتضي ان تلبى حاجات سكان المدن ـ القديمة والحديثة ـ إذ ان درجة

الحضارة التي تمتعوا بها في تلك الفترات كانت عالية. كان السكان قد عرفوا السلع الاستهلاكية من طيوب وعطور وتوابل وأقمشة حريرية وقطنية وكتّانية وازدادت حاجات الناس، وكان على التجار أن يلبوا مطالبهم. والتجار لا يتقاعسون عن ذلك مهما كانت الاخطار.

رابعها: ازدياد عدد الجند في دولة الخلافة وما تفرع عنها من دويلات. والجند يحتاجون الى اشياء في حياتهم وأعمالهم تختلف عن حاجات الناس العاديين. فهم يمتطون الجياد ـ على الأقل الفرسان منهم ـ ويقعقون بالسلاح، ويحملون التروس، لحماية أنفسهم، ويريشون السهام. وهذه جميعها أمور تحتاج الى الخيول والى مواد أولية كالحديد والجلود (للتروس). وكثير منها كان يستورد من خارج الدويلات احياناً وحتى من خارج العالم الإسلامي.

خامسها: وكان للاسطول دور لا يستهان به في تلك الفترة، وفي البحر المتوسط على وجه التخصيص. والسفن بحاجة الى الحديد والخشب وهذا كان قليلاً في بلاد الخلافة، والشرقية منها خاصة.

..... وأخيراً اقتضت إدارة الدولة الواسعة أن يعنى اولو الأمر بالطرق، عصب الإدارة القوي. لكن الطرق كانت موضع عناية لسبب آخر وهو الحج. فانتشار الاسلام في الجهات المختلفة أدى الى زيادة عدد الحجاج الذين كانوا يؤمون بيت الله الحرام لأداء الفريضة. والعناية بطرق الحج الرئيسة ـ من العراق والشام ومصر (وكل منها تجمع الحجاج الواقعة بلادهم وراءها) ـ الى مكة المكرمة والمدينة المنورة كانت موضع اهتمام كبير. وهذه العناية كانت تشمل حراسة الطرق وتأمينها؛ وإنشاء اماكن لإراحة المسافرين وتيسير الماء فيها[٢].

مناطق المحيط الهندي

كان العالم يتكون، حتى أواسط القرن الخامس عشر، من منطقتين تجاريتين رئيسيتين هما المنطقة الآسيوية القصوى، وتضم الصين وشواطىء المحيط الهندي الآسيوية؛ ومنطقة حوض البحر المتوسط. وقد كانت ثمة اتصالات تجارية قديمة بينها. ولما قامت دولة الخلافة أصبحت الطرق التي تصل بين الصين، عبر أواسط آسية وبلاد الساسانيين وأرض الرافدين وبلاد الشام ومصر تقع جميعها في إطار دولة واحدة، الأمر الذي يسّر التبادل التجاري بين المنطقتين، عبر الجسر البري ـ البحري الذي يشمل أرض الرافدين وبلاد الشام وأرض الكنانة والبحر الأحمر.

والمنطقة الآسيوية كانت تشمل الصين والهند وامتداد المحيط الهندي الى اندونيسيا عبر مضيق ملقا. ففي الصين كان الحرير المادة التجارية الأولى. ولكن شرنقة الحرير وصلت شرق البحر المتوسط في القرن السادس م ثم انتشرت، عبر دولة الخلافة العباسية وما تلاها، في حوض البحر المتوسط ـ الأوروبي منه والأندلسي. ومن هنا فقد أصبح من الممكن الحصول على الحرير، نسيجاً وخيوطاً، محلياً. إلا ان بعض الأقمشة الحريرية الصينية، ظلت

مطلب عدد كبير ممن يؤثرون الأصل النقي على ما ينتج محلياً.

على أن الطريق البرّي الذي يمتد من الصين الى المدن الشامية أفلت من أيدي الصينيين، فعوضوا عنه باستعمال الطريق البحري. وأصبحت السلع التي تحمل من الصين غرباً تشمل الصيني (البورسلين) والشاي، وذلك في ايام أسرة سونغ Sung التي حكمت بين سنتي ٩٦٠ و١٢٧٩م. وقد بني أول اسطول صيني في ايام هذه الدولة، وبين سنتي ١١٣٠ و١٢٣٧ ارتفع عدد وحداته من إحدى عشرة الى عشرين وحدة وأصبح يعمل فيه ٥٢ ألف بحار(٣).

يبدو انه من القرن الثالث هـ/ التاسع م بدأت الصين تصدّر الفخار الى الغرب. ويرى هدسن ان العالم الإسلامي اصبح يتشوق الى الحصول على البورسلين الصيني، بحيث انه وصل حتى المغرب. وهنا جاءت أهمية الطريق البحري. ان الحرير محدود في كميته، ولذلك كان يمكن ان يحمل على الجمل أو الحصان أو سواهما. أما البورسلين الصيني فقد كان بحاجة الى مساحة أوسع، ومن ثم فان السفينة كانت الوعاء المناسب. وكان التجار يقسمون المساحة الموجودة في السفينة بالقرعة. وعندها توضع البضاعة في أرض السفينة ويقيم التجار فوقها، وكانت الأدوات الصينية (البورسلين) توضع داخل الأواني الفخارية الكبيرة.

وكانت سلع كثيرة تنقل من الملايو وملقا والجزر الأبعد الى الصين، مثل الفلفل وجوزة الطيب وكبش القرنفل. وقد غلب على التجار الذين كانوا ينقلون السلع الى الصين انهم اجانب، وكان الغالبية بينهم من العرب والمسلمين.

أما السلع التي كانت نادرة في الصين، والتي كان الحصول عليها يكلف جهداً ونفقات، فهي اللبان والمر وهما من السلع العربية (التي تجمع من جنوب الجزيرة ومن القرن الأفريقي، خاصة الصومال) وكذلك العاج الأفريقي. وكان ثمة سلع تنقل الى الصين وهي من مصنوعات شمال غرب الهند وإيران والعراق وبلاد الشام وفي مقدمتها الزجاج السوري والمرجان من البحر المتوسط ولآلىء الخليج العربي والمنسوجات القطنية التي كانت تنتج في فارس وبلاد الصغد. وكانت القبائل التي تقطن منغوليا وآسية الوسطى تقوم بدور هام في مقايضة الفراء والخيول بالحرير الصيني، اقمشة وخيوطاً. ومثل ذلك يقال عن تجار بخارى وسمرقند الذين كانوا يحملون مصنوعات الصين المذكورة الى غرب آسية(٤). وكان دم الاخوين يصدر من جزيرة سوقطرى الى مناطق متعددة(٥). أما اللبان من الصنف الجيد فكان يحمل من حضرموت الى بالمنغ (في الجزر الأندنوسية) ومن هناك ينقل الى الصين، ومثل ذلك يقال عن الذَبَل (وهو غلاف السلاحف). والعنبر كان يجمع في شواطىء افريقية الشرقية والصومال خاصة وينقل الى البحار الشرقية. وكان كان العاج الأفريقي هو الأجود والأكثر طلباً، فقد كان قرن وحيد القرن الأفريقي المفضل للصناعات الدقيقة، وكان القرن الواحد يزن نحو ستة كيلوغرامات(٦).

وهناك موانىء شرق افريقية، وهي جزء من العالم الإسلامي، التي كان لها دور في حركة الاتجار والتنقل. فقد كانت المنطقة تستورد كميات كبيرة من الأواني الفخارية المزججة

والزجاجية من صنع سوسه الإيرانية والمدائن ونيسابور وسيراف. كما كان بعضها يحمل الى الصين. وقد كانت كِلْوة مركزاً لوصول البورسلين الصيني الى شرق افريقية. كما ان الخرز الزجاجي والأدوات النحاسية الدقيقة (مثل المِرود والمكحل) والنقود للزينة كانت تنقل الى شرق افريقية من المناطق العربية. اما الأخشاب الهندية فكان لها سوق مهمة في مدن الخليج. وكان الأرز يرسل من كلة الى عدن. ومن أهم السلع التي كانت تنقل من شرق افريقية الرقيق، وكان اكثره يبقى في ديار العرب.

فضلاً عن ذلك، فقد كان الحديد يصدّر الى الهند من مندي ومنبسّة وسفالة في شرق افريقية. وكانت سفن الزابج (من جزر اندونيسيا) هي التي تهتم بنقل هذه المادة[٧].

مر بنا ذكر أهم الموانىء الهندية التي كانت تتاجر مع الخليج العربي وموانئه، وهذه على الترتيب الزمني: سيراف (خلال القرنين الثالث والرابع هـ/ التاسع والعاشر م) وقيس اوكيش (التي عملت خلال القرون الخامس والسادس والسابع هـ/ الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر م) وهرمز (التي كانت المركز الرئيسي منذ القرن السابع هـ/ الثالث عشر م حتى وصول البرتغاليين)، وكان يغلب على سكان قيس العنصر العربي[٨].

أما الموانىء الواقعة في جنوب الجزيرة فهي عدن وقنا وصُحار ومسقط وظفار.

وكانت السفن التي تحمل السلع الآتية من الغرب الى انودنيسيا تقصد بالمانغ على أنها نقطة تبادل السلع والتجارات. ويبدو انه كان للعرب مستوطنة فيها[٩].

والميناء الذي يرد ذكره كثيراً بدءاً من القرن الثالث هـ/ التاسع م هو كلا، في الجهة الشرقية من بحر كندهر (خليج البنغال)، إذ كان المكان الذي تنتهي اليه سفن العرب والفرس لتسلم السلع الى السفن الهندية (والصينية فيما بعد)[١٠].

مرت بنا أسماء بعض الموانىء الهندية، ونرى هنا ان نضيف ثبتاً بأهم الموانىء التي كانت تقصدها السفن في المحيط الهندي. وإذا نحن بدأنا بالساحل الأفريقي قابلتنا مقديشو وملِندي ومنبسّة وكِلْوة وهي الأهم. أما في جنوب الجزيرة فكانت الموانىء الرئيسة، في الفترة التي نتحدث عنها، هي عدن وصحار وظفار وقلهات. ويمكن ان نضيف الى الموانىء الهندية المذكورة سابقاً كجرات وديو والديبل وقليقوط (كاليكوت) وكولام. ويمكن اعتبار سرنديب (سيلان أو سري لانكة) وذيبة المهل في الاطار الهندي. اما الموانىء الصينية هينان والزيتون (تشي تونغ) وخانفو (كنتون)، فهذه كانت محط رحال التجار العرب في وقت مبكرة[١١].

منطقة البحر المتوسط

إذا نحن بدأنا عرضنا لشؤون منطقة البحر المتوسط حول السنة ١٠٠٠م، واستمر حديثنا عن القرنين اللذين جاءا بعد ذلك، وجدنا انه في تلك السنة كانت القوة البحرية الإسلامية لها نفوذ في البحر المتوسط، لكنها كانت قد بدأت تتأرجح. في مقابل ذلك كان ثمة نشاط بزنطي، لكنه عجز عن الاستمرار. فمع اننا نعرف ان الاسطول البزنطي الذي احتل كريت سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م كانت فيه ألفا سفينة حربية، و١٣٦٠ سفينة تموين، وأن بعض السفن

الحربية بنيت بحيث كان باستطاعتها ان تنزل الجنود الى البر مباشرة، وهو أمر مهم بالنسبة للحملات البحرية، فان هذا النفوذ البزنطي الموقت في الشرق (من البحر المتوسط) كان يقابله فشل في محاولة بزنطية التغلب على القوى البحرية غرباً. ولعل مما أضعف الوضع الحربي للأسطول الامبراطوري هو ثورة الاساطيل المحلية الاقليمية على الدولة. ومع ان الأسطول الامبراطوري تغلب على الأساطيل الأقليمية (٣٧٩هـ/ ٩٨٩م) فان المهم هو ان الاسطول داخل تنظيمه ووحداته وروح المقاتلين فيه شيء من الوهن[١٢].

في مقابل هذا الضعف الطارىء على الاسطولين الإسلامي والبزنطي، كان هناك انتعاش وتنظيم في القوة البحرية في المدن الإيطالية الكبرى. فالبندقية كانت الطرق بينها وبين القسطنطينية مفتوحة، وقد بدأت في ذلك الوقت تظهر كقوة بحرية يحسب حسابها، وكان طريقها نحو الشمال مفتوحاً أيضاً. وكذلك كانت جنوى قد قوّت اسطولها ومثلها بيزا.

وإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على المدن الإيطالية التي كانت قد بدأت تتحرك تجارياً، وجدنا ان غيتا كانت على اتصال مباشر بالقاهرة وأن بافيا وميلان وسلرنو وأمالفي ونابلي وباري كانت قد اخذت تمخر عباب هذا البحر، على درجات مختلفة من النشاط.

والمدينة التي لم يكن لها مورد آخر سوى التجارة، هي البندقية، وذلك في القرن الحادي عشر الميلادي. وهذه المدن الإيطالية جمعاء كان لها علاقات تجارية، على درجات متباينة، مع القسطنطينية، لأن هذه كانت تصل اليها السلع والبضائع من الموانىء السورية والمصرية وتلك الآتية من العراق. هذا ينطبق على القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ومما يدل على أهمية القسطنطينية التجارية المعاهدات التي عقدت بينها وبين المراكز التجارية الكبرى كالبندقية (٩٩٢م) وكييف (٩٠٧ و٩١١، ٩٤٤م) وحلب (٣٦٠هـ/ ٩٧٠م)[١٣].

وليس المهم ان المدن الإيطالية ظهرت على مسرح البحر المتوسط التجاري، ولكن المهم ان هذه المدن سندها يومها (بعد ١٠٠٠م) تقدم اقتصادي أوروبي. هذا التطور يسر للأوروبيين فتح اسواقهم للسلع الشرقية، ومكّنهم من دفع ثمنها من نتاجهم الصناعي، بدل ان يدفعوا مقابل ما يستوردون ذهباً وفضة؛ وقد كان المعدنان قد اخذا يتناقصان في المنطقة.

ويمكن إجمال هذا التطور الاقتصادي الذي شهدته أوروبة في القرنين الخامس والسادس هـ/ الحادي عشر والثاني عشر م، في الأمور التالية: أولاً ـ تطورت الزراعة في فرنسة نوعاً وكمية واتساع أرض فتراكمت ثروة مكّنت للبلاد ان تدفع ثمن بعض ما تبتاعه عيناً من المنتوجات الزراعية. ثانياً ـ سك النقود مكّن للسلع ان تباع وتشترى في الأسواق. ثالثاً ـ كان هناك اهتمام كبير بالطرق. رابعاً ـ قامت في تلك الفترة حركة زيارات لبعض الأماكن التي ارتبطت ببعض القديسين في أوروبة. هذه الحركة الحجيجية، إذا صحت التسمية، أدت الى التنقل وحمل السلع الى الأسواق الكثيرة التي ظهرت في بعض المناطق الأوروبية. خامساً ـ

كان لنمو المدن في غرب أوروبة ثم في أواسطها وتركيز الصناعات والأسواق فيها أثر كبير في تنقل التجار إليها مع بضائعهم.

ولعل أهم ما تطور في أوروبة الغربية في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر هو التقدم الذي اصاب صناعة الأقمشة على اختلاف انواعها. وكانت الأقمشة الفرنسية والفلمنكية هي الرائجة شمالي الألب أولاً، ثم جاء التجار الايطاليون الى اسواق شمبانيا وحملوا هذه البضائع الى الموانىء الإيطالية (منذ الربع الثالث من القرن الثاني عشر) وعندها أصبح بإمكان أوروبة الغربية ان تدفع ثمن حاجاتها المحمولة من الشرق قماشاً، فضلاً عن الزجاج والخمور(١٤).

ويمكن القول بأن السفن الأوروبية، وفي مقدمتها سفن الإيطاليين، كانت تحمل الى موانىء المشرق العربي الأخشاب والحديد والسلاح والزجاج والخمور والأقمشة التي أخذت أوروبة الغربية تنتجها على نحو جيد ونافع.

وثمة أمر آخر حريّ باهتمامنا وهو ان اصناف التجارات تعددت وتنوعت كثيراً منذ أواخر القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م. فهناك مراسلات تدل على ان ثلاثة وثمانين صنفاً من السلع كانت تنقل في انحاء البحر المتوسط في ذلك القرن، لكن هذه يزداد عددها فتصبح على يد بيّعو لوتي مئة وثمانين صنفاً في القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م.

وقد نقل س. د. غويتين عن رسائل «الفنزة» التي عثر عليها في مصر (كما عثر في غيرها على رسائل تجارية) طلبات من تجار بعثوا بها الى وكلائهم، يطلبون سلعاً معيّنة. فهناك تاجر فارسي الأصل، على ما يبدو من اسمه، اسحق النيسابوري، مقيم في الإسكندرية (حول سنة ١١٠٠م) ، وكان يتعامل بالسلع التالية: المواد الدباغية (التي كانت تستورد من تونس مثل الزعفران) أو الخشب البربزوني (الذي كان يستورد من اندونسيا كي يرسل الى المغرب)، والمواد الطبية التي كانت مصادرها تتوزع على الأقطار الواقعة بين بلاد الشام وسوقطرى، والزجاج الشامي والمصري، والحرير، وهو المادة التي كانت الأكثر طلباً، وأقمشة من أنواع مختلفة وثياب مصنوعة منها مثل برانس الحمام والملافح، والمرجان المستخرج من مياه أواسط البحر المتوسط في الشواطىء الأفريقية والأوروبية (كان هناك مرجان كثير يأتي من المحيط الهندي، لكن مرجان بحرنا كان الأجود)، والطيوب ومنها العنبر الشمالي والسوقطري والمسك، والشمع الذي كان أجوده من تونس، ورحى الطواحين (الجيدة من سورية). وهناك مجموعة من الأقمشة والأدوات المنزلية والأشياء الصغيرة يرد ذكرها في رسائل هذا التاجر. ويبدو ان هذه كان القصد من شرائها تقديمها هدايا للأصدقاء(١٥) (أما هدايا أولي الشأن فكانت في الغالب الجواري والأقمشة الممتازة وما الى ذلك).

هذه بضائع ورد ذكرها في رسائل صاحبنا التاجر وهي رسائل من سنة واحدة. وقد نقل غويتين عن تاجر حفظت رسائله مع عملائه في الخارج لمدة نصف قرن (١٠٤٥ ـ ١٠٩٦م) وهو نهراي بن نسيم (من تجار القيروان). وقد تبين انه تعامل خلال هذه الفترة الطويلة

بالسلع التالية:

١ ـ القنب، الذي كان يصدّره الى تونس وصقلية.

٢ ـ الحرير الذي كان يستورده من اسبانية وصقلية. وهناك فضلاً عن الأقمشة الحريرية، الأقمشة القطنية الجيدة التي كانت تحمل من بلاد الشام أو بلاد الروم (البزنطيين)، ومن شمال افريقية الأقمشة اللبادية، وكذلك الثياب المختلفة الصنع من البرانس والقفاطين حتى مفارش النوم.

٣ ـ زيت الزيتون والصابون والشمع من تونس ومن فلسطين وسورية أحياناً. (ويجدر بنا ان نذكر ان استيراد الزيت معناه نقله في الخوابي الكبيرة، التي تصبح مادة للاتجار أيضاً ن. ز.)

٤ ـ التوابل (من الشرق) وأهمها الفلفل والقرفة والزنجبيل التي كانت تصل مصر من المنطقة الهندية الصينية وتحمل منها الى أوروبة.

٥ ـ المواد الصالحة للدباغة والصباغة مثل خشب البربزون والنيلة وغير ذلك (هذا كان يحمل من الشرق الى الغرب)؛ وهناك السماق (من سورية الى مصر)؛ والزعفران من تونس شرقاً.

٦ ـ المعادن ـ ومنها النحاس والحديد الخام والقصدير والزئبق والزنك وسبائك الفضة، وجميعها كانت تنقل من الغرب الى الشرق في القرن الحادي عشر م.

٧ ـ الكتب المختلفة. ومع ان اكثرها كان كتباً دينية يهودية تحوي التوراة والتلمود، فان عدداً كبيراً منها كان كتباً عربية، وهذه جميعها كان تنقلها شرقاً ـ غرباً، وغرباً ـ شرقاً.

٨ ـ الطيوب والصموغ مثل الصبرة والعنبر والكافور واللبان والصمغ العربي والمسك. هذه كانت في غالبها تستورد من الشرق البعيد وتمر بالأسواق المصرية والسورية وتنقل منها الى الغرب.

٩ ـ المجوهرات والحجارة (الشبيهة بالثمينة) مثل اللؤلؤ والجزع والتوركواز. ويمكن اضافة الأصناف الأخرى الأقل ثمناً مثل المرجان الهندي وبيت السلحفاة (الذبل) واليشب. ويبدو ان هذه كانت كثيرة بين سلعه، لأنها كانت أدوات الزينة للطبقة (المتوسطة!).

١٠ ـ المواد الكيماوية التي تستعمل في الصناعات المختلفة مثل القِلي والكحل والبوراكس والنفط (القطران) والكبريت والنشا.

١١ ـ المواد الغذائية مثل السكر الذي كان ينقل بكثرة من مصر ثم من بلاد الشام، والثمار المجففة التي كانت من اختصاص بلاد الشام.

١٢ ـ الجلود على اختلاف انواعها والفرو والأحذية. وجميع هذه كانت تنقل من الشرق (أو من الغرب ـ الفرو) عبر تونس وصقلية شرقاً وغرباً[١٦].

وفي مقابل هذا، كانت السفن تحمل من موانىء المشرق العربي القماش الكتاني والطراز والتوابل وفي مقدمتها الفلفل والسكر والعسل وزيت الزيتون والمصنوعات النحاسية

وأخصها الأدوات المنزلية أو الزخرفية من صنع دمشق، والأدوات القاطعة من صنع تنيس (مصر) وحجر الشب من المشرق العربي ثم من شواطىء آسية الصغرى الغربية. وقد كانت التجارة البحرية بيد الإيطاليين عامة منذ أواسط القرن الحادي عشر. أما التجار الشرقيون فقد كان دورهم قد أصبح محدوداً[١٧].

ولنتذكر ان البلاط الفاطمي، الذي اتخذ القاهرة مقراً له، كان مؤسسة كبيرة للاستهلاك. فالجيش وحده كان بحاجة الى كميات كبيرة من جميع اصناف السلع الضروري منها والكمالي (أو الاستهلاكي)، فضلاً عما يقتضيه الوضع الاجتماعي للمتصلين بالبلاط والعاملين فيه والساعين نحوه والمتحدثين بفضله والمادحين لسكانه، كبارهم وصغارهم.

دور الأندلس في تجارة البحر المتوسط

في الطرف الغربي للبحر المتوسط تطالعنا شبه جزيرة إيبرية، والتي كانت الأندلس الإسلامية الجزء الهام منها. ومنذ القرن الرابع هـ/ العاشر م كانت الأندلس نقطة انطلاق تجاري كبير ومركزاً للاتصال بين الأسواق الإسلامية في المتوسط وأسواق الشمال الإسباني وما وراءه من الغرب المسيحي.

فقد كانت السلع التي تنتج في بلاد الشام ومصر وشمال افريقية تنقل عبر الأندلس الى أوروبة. وكانت البضائع الأوروبية، في مقابل ذلك، تصل الى دار الإسلام. ولنذكّر انفسنا ثانية بأن القرن الرابع هـ/ العاشر م كان يمثل ذروة النشاط التجاري في المتوسط وشطآنه، الأمر الذي استمر مدة قرون ثلاثة. هذا مع العلم ان الخلافة الأندلسية انتهى أمرها في العقود الأولى من القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م وحلت مكانها ممالك الطوائف، التي كانت شديدة الخصومة فيما بينها. إلا ان احتلال المرابطين للأندلس في معركة الزلاقة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م أعاد الى المنطقة الأندلسية شيئاً من الاستقرار، الأمر الذي كان عوناً كبيراً على استمرار النشاط التجاري. وقد كان للحرير الذي تنتجه المناطق الأندلسية، والذي كان يصدر الى اسواق متعددة، وخاصة الى أوروبة، أثر كبير في تنمية الثروة المحلية. على ان ما كان يصل الى مصر من سلع المنطقة الصينية الهندية كان ينقل الى الأندلس، ومنها الى أوروبة، فيكوّن جزءاً من ثروة ملوك الطوائف، خاصة وان الأجزاء الأوروبية من البحر المتوسط كانت قد نشطت هي الأخرى على ما رأينا. ولم تكن المدن الأندلسية اسواقاً للتجارة الخارجية فحسب، بل كان لها نتاجها الذي كانت تصدره على ما سنرى.

ويمكن القول إجمالاً إن المنطقتين اللتين كانتا ملتقى للسفن الإسلامية والمسيحية هما موانىء الأندلس وموانىء صقلية ـ افريقية. وكانت موانىء الأندلس بأجمعها صالحة لرسو السفن الكبيرة، ومن ثم فقد كان مجال الخيار للتجار والسفن كبيراً، إذ إن كلا من الجزيرة (الخضراء) ومالقة والمريّة ومرسية وبلنسية ودانية مستعدة لذلك. وعلى الجهة الأطلسية كانت تقوم اشبيلية التي كان الوادي الكبير سبيلها الى البحر المحيط.

كانت المريّة تعتمد في ثروتها على التجارة وبناء السفن وإنتاج الحرير، وقد بلغت الذروة

في نشاطها التجاري في القرنين الخامس والسادس هـ/ الحادي عشر والثاني عشر م، وكانت السفن تأتيها حتى من الاسكندرية. أما مالقة فقد كانت موئلاً للسفن التي كانت تنتظر هبوب الرياح المناسبة. وكانت دانية مركزاً للاتجار مع جزائر البليار ومع شرق المتوسط. اما بلنسية فقد كانت نقطة تصريف النتاج الزراعي الذي كانت تغلّه المناطق الواقعة في الداخل. وأما في الداخل فقد كانت ثمة مراكز تجارية مهمة منها اشبيلية وقرطبة. التي كانت، على توسط موقعها، اقل اثراً في التجارة العالمية.

وكان من الطبيعي أن يسهم التجار الأندلسيون في النشاط التجاري الذي يسرته لهم موانئهم واتصالاتهم مع الموانىء الأخرى. فقد كانت السفن الأندلسية تمخر عباب البحر المتوسط إما وصولاً الى الموانىء الافريقية بما في ذلك الموانىء المصرية، أو لتبادل السلع مع بعض الموانىء الأوروبية في الجزء الأوسط من البحر المتوسط مثل مدن صقلية.

وقد كانت السلع التي تنقلها السفن الأندلسية تجد لها اسواقاً لا في الموانىء فحسب، بل وفي الداخل أيضاً: في فاس وتلمسان ومراكش وحتى في اوداغشت في الصحراء. كما ان البضائع كانت تنتقل الى الانحاء المسيحية من اسبانية، ولو الى درجة أقل.

إلا ان التاجر الأندلسي لم يحمل تجارته الى أوروبة المسيحية ـ لا التاجر المسلم ولا اليهودي. إن التواصل التجاري بين الأندلس والغرب اللاتيني كان يتم عن طريق التجار المسيحيين الذين كانوا يرتادون الأسواق والموانىء الأندلسية، وهم الذين كانوا يحملون منها السلع التي تملأ تلك الأسواق، والتي يكون الكثير منها قد وصلها من المحيط الهندي اصلاً.

وقد دلت الدراسات النمية (النومسماتيكية) على ان النقود الأندلسية والأوروبية كانت تنتقل من الجهة الواحدة الى الأخرى باستمرار بدءاً من القرن الثاني حتى أوائل الخامس هـ/ الثامن حتى اوائل التاسع م.

وحري بالذكر ان تجارة البحر المتوسط ظلت، حتى القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م، تجارة اسلامية. لكن منذ القرن السادس هـ/ الثاني عشر م، أصبحت التجارة المتوسطية العالمية مشتركة بين الأقطار الإسلامية والأقطار الأوروبية المسيحية، وتداخل النقل التجاري وتبادلت الأسواق والتجار السلع على نطاق أوسع. اما في القرن السابع هـ/ الثالث عشر م فقد رجحت كفة التجار الأوروبيين. وقد اشرنا الى ذلك قبلاً. فعلى سبيل المثال لم تعد أوروبة تستورد التوابل وما اليها عبر الأندلس (وهذه كانت كثيراً ما تحصل عليها عن طريق المغرب) بل اخذت السفن الإيطالية والبروفنسالية تحمل انواع البضائع من الاسكندرية رأساً.

أما ما كانت تستورده الأندلس من الجهات المختلفة، فيمكن إجماله في الأصناف الأساسية التالية:

١ ـ التوابل والطيوب ومنها القرفة وكبش القرنفل. المواد الطبية والمسك (المصطكى)

والكافور والعنبر والزعفران والرند وخشب الصندل وماء الورد والمر واللبان والمواد الصباغية والدباغية ومنها النيلة والقرمز.

٢ ـ الأقمشة الجاهزة والمواد الخام اللازمة لهذه الصناعة. ويبدو ان الاتجار في هذه الأصناف كان منظماً تنظيماً خاصاً. فكان القنب ينقل من مصر. فيصنع منه الكتان الجيد في مدن الأندلس. كما كانت اسبانية الإسلامية تستورد الصوف الخام، الذي كان يستخدم في صنع الأقمشة الصوفية.

٣ ـ المواد الغذائية وفي مقدمتها بطبيعة الحال الزيتون وزيته والقمح والخمور. هذه كانت تستورد لسد حاجات السكان.

٤ ـ البورسلين. يبدو ان الفخار والبورسلين الصيني وصلا الى العالم الإسلامي في عهد أسرة سونغ الصينية (٩٦٠ ـ ١٢٧٩م). وقد عثر في حفريات قرطبة والمرية على قطع منه تعود الى القرن الرابع هـ/ العاشر م. أما البورسلين المغربي والمصري فقد وجد طريقه الى أسواق الأندلس أيضاً.

٥ ـ المعادن والحجارة الكريمة. والمعادن كانت تنتقل من منطقة الى أخرى في البحر المتوسط. حسب حاجة الصنّاع. وكان يغلب على الحجارة الكريمة ان تأتي من الهند وما جاورها من بلاد الشرق الأقصى(١٨).

والحديث عن المعادن يؤدي بنا الى الحديث عن الذهب. فالذهب قد كثر في العالم العربي الإسلامي بين القرن الثاني والخامس هـ/ الثامن والحادي عشر م لأسباب عدة. أولها ان ما كان منه مخزوناً في قصور الأكاسرة وكنائس بلاد الشام ومصر واديارها قد أخرج من مخابئه. ونبشت، كما يبدو، بعض قبور الفراعنة. لكن المهم هو ان العالم الإسلامي اصبح يجذب اليه ذهباً جديداً من اماكن حديثة، منها مناجم جبال الطاي وجبال أورال والتبت والدكن (جنوب الهند) وارمينية والنوبة والعلاقي وشرق افريقية. لكن المناجم الرئيسة التي زودت المنطقة بكميات كبيرة منه كانت في السودان الغربي (السنغال وبركينا فاسو وجنوب مالي وغرب النيجر). كان طريق الذهب من مناجمه الى الأندلس ايام الخلافة الأموية والى مصر ايام الفاطميين عن طريق ورغلة. ولما زحف بنو هلال وبنو سليم الى المغرب واستقروا في أجزاء من ليبيا وتونس وشرق الجزائر، انقطع الذهب عن مصر وعن بلاد الشام. وإذ نشر المرابطون (٤٤٨ ـ ٥٤١هـ/ ١٠٥٦ ـ ١١٤٧م) والموحدون (٥٢٤ ـ ٦٦٧هـ/ ١١٣٠ ـ ١٢٦٩م) الأمن وأقاموا سلطة مركزية في المغرب والأندلس وما وصل إليه نفوذهم من أرض المغرب الأوسط، عاد الذهب سيرته الأولى في الاتجاه نحو الأندلس، معدناً ونقوداً. ومع ان الفضة كانت تصل دولة الخلافة من القوقاس وجبال البُرز وشمالي إيران وبلاد الفرنجة، فان كميتها لم تكن كبيرة، ولم تؤثر كثيراً في تطور النقد.

وهنا موضع التحدث عن النقود التي شاع استعمالها في العالم العربي الإسلامي بين القرن الثاني والسادس هـ/ الثامن والثاني عشر م. فالمعروف انه قبل قيام دولة الخلافة كان ثمة نقدان يستعملان في العالم المتحضر ـ الدينار الذهبي في دولة البزنطيين والدرهم الفضي في دولة الساسانيين. وقد استمر ذلك بعد الفتوح العربية الإسلامية في عهد الخلفاء

الراشدين والأمويين الى ايام عبد الملك بن مروان الذي سك النقد العربي الإسلامي. لكن الأساس ظل ذهباً في غرب الدولة وفضة في شرقها.

ونحن إذا نظرنا الى خارطة تظهر توزع النقود من حيث استعمالها في السوق، وفي حساب الدولة في القرنين الثاني والثالث هـ/ الثامن والتاسع م) وجدنا ان الدينار الذهبي ظل هو المستعمل في غربي الجزيرة العربية والأجزاء الشامية والمصرية والمغربية والأندلسية من الدولة؛ فيما كان للدرهم الفضي سوق رائجة في اقصى الأجزاء الشرقية من دولة الخلافة (شرق إيران وما جاورها شرقاً)؛ أما الأجزاء الوسطى أي اذربيجان وارّان والديلم وجرجان وطبرستان وشمال شرق الجزيرة العربية والعراق، فقد كانت الأسواق (والدويلات) تتعامل بالنقدين على السواء.

وقد حافظت العاصمة على الحق في سك النقود ايام الأمويين، إلا فيما ندر؛ لكن الأمر تبدل فيما بعد، فتعددت دور الضرب، وأصبح سك النقود الذهبية لا يخضع لمركزية إدارية. وبعد سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧ م أصبحت عاصمة كل دويلة تسك نقودها الخاصة بها، ولو انها تمسكت بالمحافظة على الدقة في الوزن.

وأدت كثرة الذهب الذي وصل عالمنا يومها الى نتيجتين مهمتين، الأولى: تدني قيمة المعادن الثمينة الذي تبعه ارتفاع في اسعار الحاجيات مما أدى الى التضخم المالي. والنتيجة الثانية: هي انخفاض قيمة الدينار الذهب في مقابل الدرهم الفضة. فقد كان الدينار، عند بدء قيام الخلافة، يساوي عشرين درهماً، فأصبح في النصف الثاني من القرن الثاني هـ/ الثامن م يساوي ستة عشر درهماً، في الولايات الشرقية؛ وكان الدينار يساوي خمسة عشر درهماً في مصر والمشرق في أواسط القرن الثالث هـ/ التاسع م؛ هذا، الى تبدل في وزن الدينار من الذهب. فقد كان، عند البدء في نشره وانتشاره، يساوي ٤٫٢٥ من الغرام، فأصبح الوزن في عصر الرشيد ثلاثة غرامات، وهو ما يعادل وزن الدرهم من الفضة. وهذه القضية اثارت مشكلات كبيرة في الأسواق المالية التي كانت موزعة في هذه الرقعة الواسعة والمتباعدة مكاناً وزماناً. لكن على ما يبدو كان بيد الجهابذة وكبار الصرافين، الذين كانوا يعمرون الأسواق الكبرى في العالم العربي الإسلامي، حلول لجميع هذه القضايا على أساس استعمال السفتجة لنقل قيمة الأموال اللازمة بعد إيداع الأصل عندهم.

وقد أصيب النقد الذهبي في المغرب بمثل هذا الأمر، لكن تدفق الذهب الأفريقي الى المغرب والأندلس ايام المرابطين، وانتظام أمور هؤلاء القوم، أدّيا الى تثبيت الدينار المرابطي، بحيث أصبح النقد المقبول في المغرب والأندلس وفي أوروبة، واستمر ذلك فترة طويلة، بدليل ما عثر عليه من محفوظ من هذه الدنانير. ومع التجار الإيطاليين انتقل الدينار المرابطي الى المشرق[١٩].

والأندلس كانت تصدّر، حتى أوائل القرن السادس هـ/ الثاني عشر م، أشياء كثيرة الى أنحاء البحر المتوسط والى أوروبة. وكانت الصادرات تشمل المواد الخام كما كانت تشمل مصنوعات متنوعة الأصناف.

كان للعنبر الأندلسي سوق رائجة في حوض البحر المتوسط، إذ إنه كان يدخل في صنع العطور. وكان للقرمز والزعفران دور كبير في الصباغة. وكان القرمز يكسب القماش اللون الارجواني. وكان يصدر الى تونس ومصر واسبانية المسيحية. والزعفران وصل الى الأسواق الأوروبية فضلاً عن الأسواق الشرقية.

وكان الحرير، قماشاً وخيوطاً، يحمل من الأندلس الى مصر وحتى الى خراسان. ومثل ذلك يقال عن أنواع الأقمشة الأخرى، الصوفية والقطنية. ولعل الطراز، الذي عرف طريقه الى بلاطات أوروبة كان أكثر الأقمشة الأندلسية تداولاً. وكانت السجاجيد والبسط (الزرابيات) مما يصنع في الأندلس ويشحن الى الأقطار الشرقية.

وكانت الأندلس تعنى بزراعة الزيتون وعصر زيته وتجفيف الثمار وصنع المربيات منها. ومثل ذلك يقال بالنسبة للكرمة. فالعنب ينقل الى مسافات قريبة نسبياً. لكن متى جفف بحيث يصبح زبيباً أو عندما يعصر خمراً، يمكن نقله الى مسافات بعيدة.

وقد كانت الأندلس غنية بالمعادن إذ كان فيها الذهب والفضة والرصاص والنحاس والحديد والزئبق والخارصين (الزنك) والكبريت والكحل. وهذه جميعها كانت سلعاً يحملها التجار الى الأسواق المختلفة. وكان الرخام الأندلسي المتعدد الألوان والمنوع الحبيبات من السلع التي راجت حتى في المشرق العربي.

والخزفيات الصينية (السيراميك) التي كان الأندلسيون يتفنون في صنعها، كانت تزيّن الكثير من البيوت والمساجد والكنائس.

ولا شك ان من أهم صادرات الأندلس منذ القرن الثاني هـ/ الثامن م هو الجلود على اختلاف انواعها إذ إنها كانت تستعمل في صنع أشياء كثيرة من أهمها تجليد الكتب.

ومن السلع المهمة التي كانت الأندلس تصدّرها خاصة الى أوروبية الورق. ويبدو ان خير الورق ما كان يصنع في شاطبة، مع ان ذلك لم يقتصر على هذه المدينة. وقد كان بعض الورق الذي تصنعه مدن الأندلس من النوع القوي الناعم اللماع، الذي يصمد لتقلب الحدثان.

كانت أخشاب الأندلس تقطع من غابات الصنوبر الكثيفة وكانت أخشاب الأندلس مرغوباً فيها في الأسواق الإسلامية في حوض البحر المتوسط، ذلك لصلاحيتها لأعمال النجارة المختلفة، ولكنها كانت تستعمل خاصة في بناء السفن. وقد كانت بعض الموانىء الأندلسية مثل المرية تصنع السفن وتبيعها جاهزة للتجار أو للمدن الأخرى، على نحو ما نعرف ان سفناً من صنع الأندلس تم شراؤها في موانىء الأندلس وشحنها بالسلع قبل إبحارها الى مصر (كان ذلك حول سنة ٤٣٢ هـ/ ١٠٤٠م).

ولنذكر ان المناطق التي كانت تزود حاجات الناس من الأخشاب هي، فضلاً عن الأندلس، المغرب الأقصى وجبال سورية الشمالية ولبنان. وعدا هذا فان حاجات المناطق الشرقية من العالم المتوسطي كانت تسد باستيراد الأخشاب من كريت وصقلية والمناطق الأوروبية.

وثمة سلع كانت تصدرها الموانىء الأندلسية، لكنها كانت تنقل من قبل الى الأندلس، وأهمها الفراء والرقيق. والفراء كانت تحمل من المناطق الاسكندنافية والروسية وحتى من أواسط آسية، بطريق شمالي كان يمر بالفولغا ومناطق بولاندا. ويبدو ان هذه التجارة قلت منذ القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م. ونرجح ان السبب يعود الى ان الفراء التي كانت تأتي من أواسط آسية وشرق روسيا اصبحت تصل عن طريق اسهل منالاً وأيسر اتصالاً[٢٠].

وكان التنقل التجاري في حوض المتوسط بحرياً، ومواعيده الربيع والخريف. أما في الشتاء فكانت القافلة هي الأساس. وقد نقل ابن خرداذبه اخبار فئتين من التجار الذين كان لهم نفوذ خاص في الطرق البرية. الفئة الواحدة كانت من التجار الروس، لكن الغالب ان مدبري أمرهم كانوا من اليهود. وقد قال عنهم ابن خرداذبة: «فان الخارج منهم يخرج من الأندلس أو فرنجة (بلاد الغال أو فرنسة) فيعبر... الى طنجة ثم الى أفريقية (تونس) ثم الى مصر ثم الى الرملة ثم الى دمشق ثم الى الكوفة ثم الى بغداد (أو المكان البديل فيما بعد) ثم الى البصرة (أو سيراف فيما بعد)... وبعد ذلك يمر التجار ... بكرمان ثم يذهبون الى السند». وكان متاعهم التجاري فيه جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف.

أما التجار الآخرون وهم الأكبر نفوذاً والأوسع مدى في تنقلهم وتنوع متاجرهم فهم التجار اليهود الراذانية، ويقول عنهم: «مسالك التجار الراذانية الذين يتكلمون بالعربي والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية، والصقلبية، وانهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق براً وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف. ويركبون من فرنجة في البحر الغربي (المتوسط) فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم (قرب السويس) وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً. ثم يركبون البحر الشرقي (الأحمر) من القلزم الى الجار وجدة، ثم يمضون الى السند والهند والصين؛ فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعون الى القلزم. ثم يحملونه الى الفرما (مركز التجارة البحرية بين مصر وبلاد الشام) ثم يركبون في البحر الغربي (المتوسط)؛ فربما عدلوا بتجارتهم الى القسطنطينية، فيبيعونها للروم، وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك... وان شاؤوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي، فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل... ثم يركبون في الفرات الى بغداد، ثم يركبون في دجلة الى الابلة ومن الابلة الى عمان والسند والهند والصين. كل ذلك متصل بعضه ببعض»[٢١].

وهناك فئة ثالثة من التجار سيطرت على التجارة المصرية فيما بعد هم تجار الكارم أو الكارمي. وقد كانت لهم مؤسسات تجارية كبيرة تسيطر على تجارة مصر. خاصة وكان لهؤلاء التجار مراسلون ووكلاء في عدن وفي قاليقوط وغيرها من موانىء الهند وفي شرق افريقية ووصل تجارهم الى الصين.

والذي نراه هو ان تجار الكارم كانوا خلفاء التجار الراذانية، ولكنهم كانوا اكثر احتفالاً بتجارة البحر الأحمر. وكانت جدة واحدة من مراكزهم الكبرى[٢٢].

تجارة الصحراء الكبرى[٢٣]

بين حوالى سنتي ٣٠٠ و٩٠٠ هـ/ ٩٠٠ و١٥٠٠م كانت القوافل التجارية تجتاز الصحراء الكبرى ناقلة سلع أوروبة ومدن الشمال الأفريقي الى السودان. وخصوصاً السودان الغربي، وعائدة من هناك بما كانت تلك المنطقة تنتجه الى موانىء المغرب العربي. كانت أهم الطرق التي تعبر الصحراء من الشمال الى الجنوب أربعة هي:

أولاً: الطريق الموصل بين موانىء المغرب الأقصى (طنجة وأصيلا والعرائش) عبر فاس وسجلماسة الى وَدَان واوْدَاغُشت ثم الى مالي.

ثانياً: الطريق الذي يبدأ بوَهْران ويمر بتلمسان وسجلماسة أيضاً ثم يسير الى تَغازَى فإلى وَلاطَة وينتهي بتُمبكتو.

ثالثاً: كان هناك طريق يصل تونس بغُوا ماراً بالقيروان وورْغَلَة وتَدْمكَة.

رابعاً: الطريق الذي يبدأ بطرابلس ويتجه الى غَدامِس ثم الى غُوا.

فضلاً عن هذه الطرق الشمالية الجنوبية كانت هناك أربعة طرق تجتاز الصحراء الكبرى من الغرب الى الشرق. وهي: الأول، الطريق الساحلي الشمالي من فاس الى تلمسان فتونس فطرابلس الى القاهرة (اما رأساً أو عن طريق الاسكندرية). والطريق الثاني، هو الذي كان يوازي الهضاب الشمالية بدءاً من مدن جنوب المغرب الأقصى الى تونس عن طريق فاس والقيروان. والثالث هو طريق القصور من نول (لمتا) الى سجلماسة ثم الى وَرْغَلَة وقابس ونفوسة. وهناك الطريق الرابع، الذي يحاذي اطراف الصحراء في الجنوب مجتازاً مناطق الساحل الصحراوي. هذا الطريق كان يبدأ من أوُليل (فيمر بتكرور وغانة أو كومبي صالح) أو قد يبدأ من ارْغُوين (فيمر بوَدان) وفي الحالين يتجه الى ولاطة ثم الى تمبكتو فغاو ومن هذه يتجه الى مصر إما بطريق تاكده أو غات.

ومن المناسب ان نلاحظ ان هذه الطرق كان لها تفرعات تصلها بمدن أخرى. فطريق القصور بشكل خاص كانت تخرج فروع منه من سجلماسة الى فاس وتاهرت والقيروان؛ ومن قابس الى القيروان.

كانت القوافل تحمل من السودان الغربي الذهب والرقيق وريش النعام، كما كانت تنقل الى مدنه وبلدانه الزجاج والثياب والأقمشة والتمور والزيوت والملح (من الصرا) والمصنوعات المعدنية والأسلحة.

كانت رحلة القافلة تستغرق سنتين بين خروجها من مدينة في الشمال واجتيازها المسافة ومبادلتها السلع في الأسواق التجارية على الطريق، ثم القيام ببيع ما تحمله الى الجنوب وجمع ما يمكن من سلع الجنوب والعودة الى الشمال. وهذه الطرق كانت طرق الحاج الافريقي الذي يخرج من أي صقع من الاصقاع متّبعاً الطريق الذي يلقي به الى فاس أو تونس

أو طرابلس حيث يتكامل الجمع وينتقلون الى الفسطاط (أو الى القاهرة بعد بنائها في القرن العاشر الميلادي).

على ان استعمال هذه الطريق لم يسر على وتيرة واحدة. ذلك بأن مثل هذا الأمر ـ أي اجتياز هذه الطرق ـ يخضع لعوامل متعددة متنوعة. منها الطبيعي ويدخل في عداده التضاريس الرئيسة ونوع التربة فيها. فالأرض ذات الرمل الناعم الذي تسفعه الرياح وتنقله من مكان إلى آخر، قد يبلغ من الحدة والشدة أن يدفن قافلة بكاملها. وقد قيل إن الذي يرشد الى طرق القوافل أكثر من أي شيء هو الجثث الملقاة على جوانبها. ومواقع الماء هي في غاية الأهمية في مثل هذه الاسفار. وما اكثر ما روي عن جماعات هلكت ونفقت الدواب التي تحملها لأنها لم تعثر على الماء الذي قد يكون على مسيرة يسيرة من حيث هلكت.

وعندما تخف شدة العوامل الطبيعية، فقد يكون فعل البشر عائقاً كبيراً للتنقل، وذلك عندما تعمد القبائل البدوية، وهي هناك منوعة الأعراق متعددة الأصول، لكنها جميعها تعمد، حين تركبها الحاجة، الى السلب والنهب، وعندها يشل واحد من الطرق أو اكثر. فالأمن الصحراوي أمر اساسي للتجارة عبر الصحراء.

هذا فيما يخص داخل الصحراء؛ أما فيما يتعلق بخارجها فثمة أمور ثلاث يجب ان تتوافر في البلاد الواقعة الى الشمال من الصحراء ـ المغرب العربي ـ والى الجنوب منها، وهي المنطقة المعروفة بالسافانا من حيث طبيعة نباتها؛ وتعرف بالساحل أيضاً لأنها، في نظر جغرافيّي العرب، ساحل الصحراء الذي يرتاح المسافر عند الوصول اليه شأن المسافر بحراً إذ ينزل الى الشاطىء؛ والتي اصطلح على تسميتها بالسودان الغربي. وأما الأمور الثلاثة فهي: استقرار سياسي، ولو نسبيّ، في المنطقتين؛ وتجمعات سكانية «مدنية» ثرية تنتج ما تبيعه، وتحتاج الى ما ينتجه غيرها؛ فضلاً عن ذلك، فان وجود أسواق مجاورة لواحدة من المنطقتين تساعد الحركة التجارية.

وحري بالذكر ان تاريخ المغرب في الفترة الممتدة من منتصف القرن الثالث هـ/ التاسع الى اوائل القرن العاشر هـ/ السادس عشر م هو، من حيث الاجمال، تاريخ خصومات ومنازعات ومفارقات ومنافسات. فهناك الخلاف بين البداوة والحضارة ـ البداوة التي يمثلها البربر اصلاً، وسكان الصحراء طبعاً، وقبائل بني هلال وبين سليم التي وصلت المنطقة اواسط القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م. وهناك الخصومة بين البربر والعرب، إذ نظر الأولون الى الآخرين نظرة محتل متجبر، فكانت ثمة ثورات متعددة. وهناك الخصومة والخلاف بين سكان المناطق الجبلية وسكان السهول، والسهول الساحلية خصوصاً، إذ كان الأولون يهبطون الى مناطق الآخرين حيث الخصب والثراء الزراعي الذي يفتقده الجبليون. وكان هناك خلاف وخصومة وحروب بين مؤيدي السنة والجماعة والفئات الخارجة عليها أخوارج كانت أم اباضية. وكانت هذه ناحية مهمة من الحروب التي قامت في المغرب العربي بين الفئات التي خالفت السنة والجماعة، أي الخلافة (الأموية أولاً، والعباسية فيما بعد)

وثارت على السلطة المركزية وأنشأت لها دويلات مستقلة في الربوع المغربية.

هذه الخلافات والخصومات والمنافسات والمنازعات كان لها تأثير كبير في نشوء الدول والدويلات ـ إما تحت جناح العباسيين كالاغالبة ـ أو مستقلين عن بغداد كالرستميين وبني مدرار والأدارسة. ويمكن القول اجمالاً بأنه خلال القرن الثالث هـ/ التاسع م نعم المغرب العربي، في نصفه الغربي على الأقل، بكثير من الأمن والنظام تحت حكم الأدارسة والرستميين والاغالبة، وذلك بعد حروب وثورات عاصفة في عصر الولاة. وهذه الدول شجعت التجارة الصحراوية كما شجعها الفاطميون. فقد كان النافذون هم الأباضيون. وكان هؤلاء يتمركز نشاطهم في اغمات وسجلماسة وتاهرت في الشمال، ومنها يسيّرون القوافل محملة بالسلع المغربية والأندلسية (والأوروبية الى درجة اقل) ومنها التمر والحبوب والإيزارات القطنية، وأساور النحاس وخواتمه وخلاخله والمرجان والودع (الذي كان يستعمل نقوداً وظل على ذلك قروناً عديدة). كما كانت القوافل تنقل معها الملح (من تغازي) والنحاس الخام (من تادمكّة). وكما كانت سجلماسة بوابة الصحراء في الشمال كانت أوْداغُشْت مركزاً رئيسياً للمناطق الجنوبية الغربية، مع ان هذه المدينة كانت حديثة العهد، إذ إنها بنيت في منتصف القرن الثامن م. وكانت القوافل التي تخرج من الشمال الأفريقي حاملة السلع اكثر مما يحتاجه نقل الذهب الى الشمال. لذلك كانت الابل تباع في السودان الغربي.

ثم قدم المغرب العربي بنو هلال (وبنو سليم). بدأ انتقالهم الى المغرب العربي أواسط القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م واستمر ذلك بضعة عقود من السنين. وكانت آثار هذه الغزوة كبيرة في ربوع المغرب العربي، حتى غرب الجزائر. فقد دُمرت مدن كثيرة وأتلفت مزارع واسعة وتعطلت الصناعة وكسدت التجارة بالنسبة الى ليبيا ومصر وبقية اقطار المشرق العربي. ذلك بأن الهلاليين ومن معهم اقاموا لهم ما يشبه الحكومة في شريط يكاد يشمل تونس وبعض الجزائر في اتجاه شمالي جنوبي، فتعطل نقل الذهب والرقيق الى مصر وبلاد الشام في القرنين الخامس والسادس هـ/ الحادي عشر والثاني عشر م فنقل الكثير من الذهب الى غرب أوروبة (في تلك الفترة) عن طريق الأندلس.

وبعد ان استقر هؤلاء القادمون في المنطقة وأعادوا اليها الكثير من بداوتها، عاد النظام والحكومة إليها، فقامت دولة المرابطين ثم الموحدين في المغرب ودولة الحفصيين في تونس. وكان من الطبيعي أن ينشط التجار ويفيدوا من الأحوال الجديدة، فتعود القوافل تذرع الصحراء جيئة وذهاباً. واحتل المرابطون سجلماسة وأوداغُشْت وغانة (كومبي ـ صالح)، ومع انهم خربوا فيها كثيراً فقد حموا القوافل وطرقها في هذه الأماكن.

ومما تجب ملاحظته هنا هو ان القرنين الحادي عشر والثاني عشر م عرفا توسعاً في صناعة الأقمشة في أوروبة، ثم طرأ على الصناعة على تنوعها توسع كبير في القرنين الثالث عشر والرابع عشر م، فعنيت المدن التجارية الأوروبية بالتوسع التجاري، وازدادت حاجتها الى الذهب الذي كان يصل اليها في مقابل مصنوعاتها. فقد كان الذهب يباع في اسواق السودان

سبائك لا بالوزن الدقيق. وكان كثيراً ما يقايض بالملح وزناً بوزن. وقد تنبه مؤرخو أوروبة الاقتصاديون الى ان سك النقود الذهبية في المدن التجارية في صقلية وفرنسة وانكلترا ومدينتي جنوا وفلورنسة قد ظهر في اواسط القرن الثالث عشر م. ويلاحظ أيضاً ان البيوت التجارية الأوروبية بدأ تأسيسها في موانىء المغرب العربي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر م، وقد كان تجار جنوا وقطلانية البادئين ثم لحق بهم البيزيون وتجار البروفنسال. اما المدن التي أقيمت فيها هذه البيوت التجارية بشكل دائم فانها تشمل تونس وعنابة (بون) وبجاية والجزائر ووهران.

وهنا يجب ان نتذكر ان عدد السكان ازداد في القرون الثلاثة: الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر م في أوروبة وشمال افريقية والسودان الغربي. وكان هذا، بحد ذاته، ما ينشط التجارة. ومع هذه الزيادة في السكان جاء قيام تجمعات مدنية هي التي اصبح سكانها المستهلكين للكثير من سلع الحضارة القادمة من الشمال.

لم يكن قيام المدن غريباً على الشمال الأفريقي. فقد عرفت البلاد ذلك منذ اقدم الأزمنة. والمدن التي عمرت من جديد كانت كثيرة، وحتى المدن الجديدة قامت على مقربة من مدن كانت هناك ثم عفت. وقد تبدلت العواصم قرناً بعد قرن لكن المدن الأصلية، حتى ما تهدم منها، حافظت، في اغلب الحالات، على أسس كان من اليسير ان يبنى عليها مثل تونس خليفة قرطاجة وفاس خليفة وليلي. والمهم الذي يجب ان لا يغيب عن البال هو ان الحضارة كانت مجذّرة في المغرب العربي، ولو ان البداوة المختلفة الاعراق والأصول كانت أيضاً حاضرة هناك بقوة.

أما في السودان الغربي، فالتجمع المدني وقيام الدول كانا حديثي العهد هناك. فالتطور الزراعي واستعمال الحديد هما اللذان مهدا للتجمعات المدنية. وجاء ضغط الصحراء سكانياً وتجارياً ليقوي الشعور بوجوب قيام المراكز الصالحة لإراحة الإبل والتجار ولتبادل السلع. ولعل أهم عامل ضاغط في هذا التطور كان حاجة السكان الى الملح الذي كان يحمله التجار من شمال الصحراء ومن غربها، والذي كانت السوق دوماً جاهزة له.

والدول، ومن ثم عواصمها ومراكز الحركة التجارية فيها، التي عرفها السودان الغربي هي، على التوالي الزمني، قبائل السنغال التي تكتلت حول العاصمة تكرور (حوالى ٢٣٥هـ/ ٨٥٠ م). وقد كانت الأسرة الحاكمة في تكرور أول أسرة سودانية تعتنق الاسلام. وقد استمر وجود دولة تكرور (السنغالية) على تداور بين القوة والضعف الى حوالى اواسط القرن السابع هـ/ القرن الثالث عشر م. إذ قضت دولة مالي عليها. لكن السنغاليين انفسهم ظلوا، حتى بعد القضاء على دولتهم، أصحاب نفوذ من حيث انتشار لغتهم من شواطىء المحيط الأطلسي الى اقليم دارفور في السودان؛ وفضلاً عن ذلك، فقد كان لهم يد في نشر الإسلام في تلك الجهات.

وكانت دولة غانا، التي قامت في «الساحل» حوالى سنة ٢٣٥هـ/ ٨٥٠ م أيضاً، الثانية

زمناً من حيث بلوغها درجة الدولة المنظمة. وكان قيام هذه الدولة يعتمد على تجارة الصحراء، لذلك احتلت أوداغشت سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م. ويبدو ان العاصمة انتقلت يومها الى كومبي صالح. وتم للمرابطين القضاء على دولة غانا ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م (وكانوا قد احتلوا أوداغشت سنة ٧٤٤هـ/ ١٠٥٤ ـ ١٠٥٥)، وفرضوا الإسلام على السكان. ومع ان هذه الدولة عادت فاستقلت الا انها لم تقو على عوادي الزمن، فانتهى أمرها حوالى سنة ١٢٤٠، ثم انحلت كدولة، ولو ان السكان ظلوا يقيمون في مناطقهم، لكن اكثرها تصحّر مع الزمن.

وكانت نواة دولة مالي قد نشأت في القرن الثالث هـ/ التاسع م، لكن الدولة لم تكتسب شخصيتها الا في القرن التالي. وقد بلغت مالي شأوا كبيراً في القرن السابع هـ/ الثالث عشر م، وهي التي قضت على غانا نهائياً. وأدى أحد ملوكها الكبار منسى موسى (١٣٠٧ ـ ١٣٢٢) فريضة الحج، إذ ان مملكته امتدت من حدود تكرور غرباً الى دندي في المشرق، ومن ولاطة واروان وتادمكّة شمالاً الى فوت جالون جنوباً. وقد انفق المال الكثير في رحلته وحجه، خصوصاً في البقاع المقدسة ومصر. الا ان هذه الدولة دب الوهن في كيانها بعيد وفاته؛ وفي نهاية القرن الثامن هـ / الرابع عشر م كانت الدولة خبراً يروى.

وجاء دور حوض النيجر كي تقوم حول الانحناءة الكبرى فيه بلدان تجارية هي غوا وغُنغيا (كوكيا؟) وكاوكاو واتخذت أسرة زا (او ديا) هذه عاصمة أولاً، ثم بعد ان اعتنقت الأسرة الحاكمة الإسلام نقلت العاصمة الى غوا. وقامت دولة سونغي تحت نفوذ أسرة زا (ديا؟) ثم توسعت على يد سني علي (أو شي علي) في النصف الثاني من القرن التاسع هـ/ الخامس عشر م فشملت تقريباً كل الأراضي التي قامت عليها الدول الثلاث السابقة. لكن هذه الدولة، مثل عدد كبير من الدول الأخرى، كان يعوزها البنى الإدارية الرئيسة، لذلك تضعضعت أحوالها. وأخيراً أرسل المنصور الذهبي سلطان المغرب حملة الى تلك الجهات قضت عليها.

كان ثمة مدن قامت على ايدي التجار من دون ان تكون عاصمة حتى لدويلة. فمدينة ولاطة انشأها تجار خرجوا من غانا لمّا احتلها المرابطون (٤٦٩هـ/ ١٠٧٧م) واتخذوها مركزاً لأعمالهم. وجني، في حوض النيجر، بدأت مركزاً تجارياً قبل ان تكون جزءاً من الدولة التي احتضنتها.

وكان لقيام الدولة السعدية في القرن الخامس عشر وسيطرتها على منطقة واسعة من المغرب الأقصى، ولقيام دولة سونغي في حوض النيجر في الفترة نفسها أثر كبير في تقوية التجارة. وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر استولى البرتغاليون على الموانىء الأطلسية الواقعة بين رأس بوجادور ومصب نهر الكونغو، وتبعهم اهل قستيلة (قشطالة). وهنا قام طريق بحري صرف لنقل المتاجر من السواحل الاطلسية الى شمال المغرب وأوروبة.

وكان التجار البرتغاليون يبحثون عن طريق جديد الى الهند، لكنهم كانوا، في الوقت ذاته يسعون لتحويل تجارة الذهب والرقيق من السودان الغربي لمصلحتهم. لذلك سعوا جهدهم لتحويل التجارة السودانية عن الطرق الصحراوية وجذبها نحو الموانىء، بحيث يمكن نقل

السلع الى بلادهم رأساً. ولعل هذا التطور هو الذي حمل المنصور، ملك المغرب، على ارسال الحملة الى تمبكتو عام ١٥٩٠[٢٤].

وشهد القرن العاشرهـ/ السادس عشر م ظهور قوة جديدة في شمال افريقيا هي الدولة العثمانية، التي نجحت في ضم ليبيا وتونس والجزائر الى املاكها. وامتنعت بلاد المغرب عليها.

الحروب الصليبية وتجارة البحر المتوسط[٢٥]

في غمرة النشاط التجاري الذي يمثله القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م بالنسبة الى حوض المتوسط، قامت الحروب الصليبية. وكانت هذه نقطة انطلاق اقتصادية تجارية مهمة بالنسبة لأوروبة. ذلك بأنه لما اطلق البابا اربانوس الثاني الدعوة الى الحملة الصليبية كان هؤلاء التجار ـ أي أبناء المدن الايطالية ـ على اتم الاستعداد للتقدم، وعلى الأصح يمكن القول انهم ظهروا على المسرح من أول الأمر. فقد اعانت وحدة بحرية جنوية في حصار انطاكية (٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م) والقدس في السنة التالية. ولم يكن قد مر على احتلال القدس سوى شهرين وبضعة ايام حتى كان اسطول من بيزا يجوب المياه الشامية. وفي السنة التالية جاء البنادقة وتلا ذلك، بعد سنة، قدوم الجنويين. وهؤلاء اتوا السواحل الشامية سنة ١١٠٤م أيضاً.

من الواضح أنه لولا البحرية التي ساندت الصليبين ما كان احتلال المدن ممكناً. لكن السؤال الذي يخطر للباحث هو: لماذا اندفع «التجار» الإيطاليون بمثل هذه القوة والسرعة نحو شرق المتوسط؟ لعل البعض تأثر بدعوة البابا، لكن الأمر الذي قد يكون أهم بالنسبة إلى هؤلاء القوم بالذات، هو الفرص الجديدة التي كانت ستتاح لهم كتجار! فهناك ـ في شرق المتوسط ـ كانت الأسواق التي يمكن ان تزود هؤلاء التجار بالسلع الآتية من الشرق البعيد كي تنقل الى أوروبة وأسواقها.

وقد اشتركت بيزا في مساعدة الحملة الصليبية الأولى، لكنها لم ترسل السفن حالاً، بل تلكأت نحو ثلاث سنوات. إلا ان سفنها وصلت يافا وغودفري لا يزال على حصار القدس. ومع ان البحارة اضطروا الى التخلي عن بعض السفن، فقد نجحوا في نقل معدات عسكرية ومواد غذائية الى المحاصرين للمدينة المقدسة.

إلا ان المدينة التي كانت سيدة الموقف وزناً ومقدرة فهي البندقية. ففي حصار يافا (٤٩٧هـ/ ١١٢٣م) وضعت مئتي سفينة الى جانب المقاتلين من الصليبين. وفي سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م وقعت معركة بحرية على مقربة من عسقلان كان فيها ١٥٫٠٠٠ محارب بندقي وثلاثمئة سفينة من المدينة نفسها، منها مئتان وعشرون سفينة من الحجم الضخم. وقد قاد المعركة دوج البندقية بنفسه. وانتهت المعركة بالقضاء على الاسطول المصري. وتبع هذه المعركة سقوط صور بأيدي قوة بندقية أيضاً (٥١٨هـ/ ١١٢٤م).

وما الذي حصلت عليه المدن الايطالية في فلسطين خاصة مقابل هذه المساعدات؟

١ ـ أسهم الجنود الإيطاليون مباشرة في عمليات السلب والنهب التي كانت تلي الاستيلاء على المدينة البحرية (قيسارية ٤٩٤هـ/ ١١٠١م)، طرابلس (٥٩٣هـ/ ١١٠٩م).

ولما نهبت قيسارية (٤٩٤هـ/ ١١٠١م) منح القباطنة والضباط الجنويون ١٥٪ من الغنيمة، وقسم الباقي على ٨٫٠٠٠ بحار وجندي فكانت حصة كل واحد منهم ٤٨ ديناراً ذهبياً ورطلين (باوند = ٤٥٤ غراماً) من الفلفل.

٢ ـ لكن هذه المكافآت الآنية لم تكن المقصودة بالذات، بل كان هناك، على المدى البعيد أمور أخرى، أهم بكثير. منها مثلاً ان السفن المختلفة أصبحت تحمل المحاربين بحراً وذلك لقاء أجور يدفعها هؤلاء. وهذه عملية مربحة جداً. وكانت المدن الإيطالية خاصة تمنح أحياء في المدن ومخازن للمتاجر واسواق للاتجار وكنائس، فضلاً عن امتيازات تجارية وسياسية خاصة.

ولنضرب الآن أمثلة على الامتيازات التي حصلت عليها المدن الإيطالية مقابل هذه الخدمات العسكرية. كانت جنوا أول من أعان الصليبيين، وقد أعطيت مقابل ذلك كنيسة وسوقاً وثلاثين بيتاً في انطاكية. وقد نالت كل من بيزا وامالفي مثل ذلك في أماكن أخرى.

أما البندقية فقد استخدمت قوة كبيرة من السفن والرجال، وعلى فترات متتالية. لذلك فقد كانت حصتها في المملكة اللاتينية حيّاً بالقدس وربع ميناء عكا و١/٣ كل من مدينتي صور وعسقلان (لما احتلت سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م). وقد منح التجار البنادقة حق الاتجار بحرية في المملكة اللاتينية، واعفوا من دفع ضريبة البيع في الموانىء والأسواق.

وقد أصبحت هذه الأحياء التي منحها التجار مناطق خاصة داخل المدن، خاصة في القرن السادس هـ/ الثاني عشر م، وصار سكانها يدير شؤونهم قناصل تبعث بهم المدينة الأم للقيام بهذه المهمات. وكان للبندقية محاكم خاصة للنظر في قضايا رعاياها.

والمهم هو ان مواطني المدن الإيطالية المختلفة كانوا يعتبرون أنفسهم تجاراً ـ هذا مع ان الحالة كانت حالة حرب. فكانت لهم جاليات في الاسكندرية وفي دمياط، وقد استقر بعض سكان بيزا في القاهرة.

وكانت السفن البندقية، مثل غيرها، تقوم بدور سفن النقل التجاري بين القسطنطينية وعكا وصور والاسكندرية. وقد استمر هذا خلال القرن السادس هـ/ الثاني عشر م بالرغم من التوتر والانتفاضات التي كانت تعتور البلاد.

ومثل هذا كان ينطبق، على ما يبدو، على الطرق البرية. فقد كتب ابن جبير في رحلته (في أواخر القرن السادس هـ/ الثاني عشر م) انه قد يقع المصاف بين المتحاربين ـ أي المسلمين والفرنجة ـ ومع ذلك فان القوافل تنتقل بين بلاد الفريقين وليس من يعترضها.

ولعل خير (أو شر) ما يمثل دور البندقية هو انها حملت حملة صليبية كاملة تنتقل من حملة لانقاذ الأراضي المقدسة الى حملة مأجورة لمصلحة المدينة الإيطالية، وهي الحملة الرابعة التي انتهت باحتلال القسطنطينية (١٢٠٤) بدل الوصول الى فلسطين.

وليس في الإشارة الى ما جناه التاجر الأوروبي من احتلال الصليبيين للسواحل الشامية أيّ تجن عليه. ذلك بأن الوثائق التي حفظت عن تلك الفترة في سجلات المدن الإيطالية

وغيرها، توضح ذلك بشكل بيّن. فهناك اتفاقات تجارية عقدتها جنوة مع الدويلات القائمة في بلاد الشام؛ وثمة تشريع بحري يعود الى سنة ١٢٣٢ ـ خاص بالبندقية وأسطولها؛ وعندنا كشوف بالمكوس التي كان يتوجب دفعها الى السلع المستوردة من الموانىء الشامية. وقد عثر على نص جمركي يعدد نحو مئة صنف من السلع التي تباع في اسواق عكا والتي يتوجب ان تدفع عنها رسوم جمركية.

ونحن، ولو اننا اشرنا الى ذلك اكثر من مرة، نود ان نضع هنا ثبتاً بما كان التاجر الأوروبي يحمله من بلاد الشام من السلع: السكر من فلسطين، وقد ازدادت زراعة القصب يومها. وكان الفلفل في مقدمة ما يطلبه الأوروبي، بحيث كاد ان يصبح نقداً يتعامل به في بعض الأماكن. وهناك الزنجبيل وجوزة الطيب وكبش القرنفل وحب الهال والقرفة. وهذه، على ما يرى بعض الباحثين، كانت تستعمل مطيبات للطعام الأوروبي البعيد عن الذوق. وقد يكون هذا صحيحاً بالنسبة لبعض الأماكن التي تعرفت الى المطبخ الشامي اثناء الحروب الصليبية. لكن الذي نراه نحن هو ان هذه، والفلفل بصورة خاصة، كانت تطلب لحفظ اللحوم. ذلك ان القوم لم يكونوا قد اهتدوا الى طريقة لحفظ الأعشاب بحيث يمكن ان تطعم بها الحيوانات شتاء. فكان لا بد من ذبح عدد كبير من الأغنام والأبقار في مطلع الشتاء والاحتفاظ باللحوم واستهلاكها في الموسم. فجاءت التوابل، وعلى رأسها الفلفل، تعينهم على حفظ اللحوم من التلف!

وهناك الطيوب مثل المسك والعطور؛ وهناك اللبان (والمر) الذي كان ضرورياً للخدمة الكنسية. فضلاً عن ذلك فهناك الطلب على مواد الدباغة والصباغة (مثل الصبرة وخشب الصندل) والصمغ، كما كان ثمة اهتمام كبير بالحصول على المواد الطبية. والأقمشة الدمقسية والموصلينية والحلبية التي كانت مثل اقبية تنيس المصرية مرغوبة غرباً وشرقاً. والجماعات التي اخذت بصنع الأشياء الفنية، علباً وبراويز مرايا وصناديق وطاولات، كان يهمها ان تزخرف ذلك بالعاج ـ الهندي، والعاج الأفريقي كان الأفضل.

يبدو من الذي عرضناه ومن أمور أخرى نعرض لها هنا، أن الاتصال التجاري بين أوروبة (المدن الإيطالية ومرسيليا خاصة) الذي كان قد اتخذ شكله وسبيله في القرن الحادي عشر استمر ايام قيام الدويلات الصليبية في البلاد الشامية. كل ما هناك انه ازداد وتقوّى. صحيح ان التجار الأوروبيين كانوا يستطيعون ان يطمئنوا الى سلامتهم على شكل أكبر في الموانىء المحتلة ـ وأهمها انطاكية وطرابلس وصور. لكن ذلك لم يعن انهم لم يكونوا من قبل يحصلون على امتيازات. لكن مما لا شك فيه انه عندما يكون للتاجر مستقر وخان وسوق، وكلها مضمونة، فانه يشعر بأن عمله التجاري أصبح أكثر فائدة له.

أما الأمر الذي يجب ان نذكره دوماً، فهو ان تجارة بلاد الشام الساحلية (وسنشير الى التجارة الداخلية حالاً) أصبحت موجهة نحو الحاجة الأوروبية. فالمصنوعات الشامية كانت على وجه العموم تنقل الى أوروبة كي يستفيد منها أولئك الناس.

لكن التوجه نحو أوروبة تجارياً كان ذا وجهين: ذلك بأن أوروبة نفسها اخذت تعنى بتصدير ما تصنعه الى الشرق عن طريق الموانىء الشامية (والمصرية أيضاً). فكانت السفن الأوروبية التي تحمل ما ينقل من الشرق من سلع تعود حاملة اليه ما في بلادها. فضلاً عن ذلك فان الفرنجة المقيمين في بلاد الشام كانوا بحاجة الى مصنوعات بلادهم، وخاصة بعض أنواع الأقمشة والثياب التي ألفوا استعمالها هناك. فالأقبية وثياب المناسبات الاجتماعية والبزات الفرسانية كانت تأتي من الغرب.

والذي نود ان نذكّر انفسنا به هنا هو ان مناطق ومدناً معينة في بلاد الشام الساحلية، التي كانت لها صناعات معروفة من قبل، استمرت في هذا الانتاج الصناعي. فطرابلس قيل عنها إنها في الفترة الصليبية، كان فيها أربعة آلاف حائك يعمل اكثرهم في حياكة الحرير، وكانت بيروت تليها في هذه الصناعة. ونقل عن عكا وطبرية انهما كانتا تزودان الأسواق والتجار بالخيوط القطنية وان الرملة والجوار كانت فيها صناعة للأقمشة الصوفية. وكانت النيلة تجمع من مزارعها في وادي الأردن، وكان البلسم مما تنتجه أريحا. أما الزفت فكان يجمع من البحر الميت. وكان الزجاج يصنع في صور. اما زيت الزيتون والسيرج (الشيرج) فكانا ينتجان في انحاء مختلفة. والخمور كانت موضع اهتمام وعناية في المنطقة بأكملها. ويستنتج من مجموعة الوثائق التجارية المختلفة المحتوى بضعة أمور تستحق التسجيل هنا.

١ ـ ان تجارة أوروبة مع موانىء شرق المتوسط الشامية في النصف الأول من القرن السادس هـ/ الثاني عشر م كانت أكبر من مجموع التجارة بين أوروبة وبين بزنطة ومصر مجتمعتين.

٢ ـ هذا كان المقصود به القيمة (المالية) لا الحجم.

٣ ـ لأن عدداً من السلع ـ الحديد والأخشاب والقصدير ـ كان تصديرها من أوروبة الى مصر ممنوعاً، فانها لم تكن تسجل في الاتفاقات التجارية.

٤ ـ لأن السلع التي كانت ترسل الى مصر كانت ضخمة في حجمها، فقد احتاجت السفن الى سفرات أكبر عدداً من تلك التي كانت السفن تقوم بها الى الموانىء الشامية.

٥ ـ ان الوضع التجاري العام، من حيث المواد المتبادلة تجارياً، لم يتبدل حتى الربع الثاني من القرن الثالث عشر[٢٦].

الجسر البري ـ البحري

آن لنا ان نتحدث عن هذا الجسر البري البحري الذي كان يصل بين منطقتي التجارة الكبيرتين ـ المحيط الهندي وما بعده والبحر المتوسط وما حوله. هذه كانت تشمل الخليج العربي وأرض الرافدين وبلاد الشام والبادية الشامية ووادي النيل والبحر الأحمر. وقد ألممنا، هنا وهناك ببعض ما كان من دور لبعض هذه المناطق، لكننا الآن ننوي ان نعالجها مجتمعة.

بلاد الشام جسر يصل البحر المتوسط غرباً بأرض الرافدين شرقاً، وهضاب آسية الصغرى وجبالها شمالاً بالجزيرة العربية جنوباً. ومن ثم فان كل ذاهب أو آيب شمالاً أو جنوباً، وكل رائح أو غاد شرقاً أو غرباً، لا بد له من ان يعبر هذا الجسر، سواء في ذلك التاجر

والجندي والحاج والرحالة والمغامر. ومع اننا في هذا البحث سنخص التاجر بعنايتنا، فاننا لن نترك الآخرين، والحاج بشكل خاص، وشأنهم: فالطريق للمسافرين، والاتجار للكل، والاطمئنان على الروح والمتاع، في الإقامة والرحيل، مطلب الجميع.

حبت الطبيعة بلاد الشام أشياء كثيرة يسرت لها ان تقوم بدورها التجاري خير قيام؛ فالموانىء التي تقع على ساحل المتوسط، والتي تستقبل السفن وأحمالها، تنتهي كل منها عند ممر يصلها بالداخل: فالسويدية (سلوقية) لها منفذ الى انطاكية وحلب؛ واللاذقية يطل عليها ممر الى سهل الغاب وحماة؛ وطرابلس لها معبر الى حمص؛ وبيروت منفذها الى البقاع؛ وصيدا هي ميناء دمشق وحوران، وعكا تتحكم بمرج بن عامر، ومن ثم بالغور الأردني وما خلفه؛ وتبعث يافا بما يصلها الى القدس؛ وسهل غزة هو طريقها (فضلاً عن سيناء) الى جنوب الأردن فالحجاز. كان هذا في البدء، ولا يزال. كان يوم ركب الناس الحمار والحصان ونقلوا متاعهم عليهما، ويوم اعتلوا ظهر الجمل الى جانب متاجرهم، ويوم ركبوا القطار وأودعوا سلعهم بطنه، ويوم استقلوا السيارة وضمنوا ثيابهم وحاجاتهم صندوقها. الطريق هو الطريق: تبدلت الوسيلة، واختصر معها الوقت اللازم لقطع المسافة.

وكما اخترقت ممرات عديدة بلاد الشام من الغرب الى الشرق، فقد فتحت سلاسل الجبال، الممتدة من الشمال الى الجنوب، فجوات كثيرة متسعة فيما بينها، فأصبح الانتقال من حلب الى حماة وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية واللد وغزة، ومن ثم مصر، يسيراً. ولكل من هذه الطرق، وغيرها التي ضربنا صفحاً عن ذكرها، تفرعات تصل بينها وبين المناطق التي تحتاج اليها: إما بائعة لما يتجمع فيها من سلع، أو مشترية لما ينتج فيها من بضائع.

وبلاد الشام تكثر فيها، إلا في أطراف البادية، المناطق التي تنتج الاعلاف لدواب النقل، وأماكن تجمع المياه اللازمة للقوافل التي تجتازها، ناقلة متاجر الجهات المختلفة. وإذا اخذ الواحد منا خارطة تبين اماكن الأسواق ومواقع الخانات ونقط الاراحة، لوجد ان بلاد الشام هي من اغنى الجهات في مثل هذه الأمور.

كانت بلاد الشام، في ايام الأمويين، دار الخلافة ومستقر شؤون الدولة. وكانت دمشق العاصمة، على الأقل من الناحية الرسمية، إذ كان للخلفاء الأمويين اماكن يقيمون فيها مدداً متفاوتة في الطول، ويديرون شؤون الدولة منها. من هذه الأماكن: القدس، ايام عبد الملك بن مروان، والمفجر شمال اريحا للشتاء في عهد هشام بن عبد الملك، والصنبّرة محمية الوليد بن يزيد، والرملة منشأة سليمان بن عبد الملك، والرصافة التي بناها هشام بن عبد الملك، وحران مأوى مروان بن محمد.

وهذا معناه انه فضلاً عن البلاط الرئيسي في دمشق قامت في بلاد الشام بلاطات أخرى. والبلاط له مبانيه ومغانيه، وله الرجال الذين يحيطون بالخليفة مستشارين أو مساعدين لما ينتدبون له، أو رواد أدب وشعر وقصص وتاريخ، أو ندماء في ساعات اللهو والفراغ، أو حرساً يدفعون عنه السوء والشر. ولم يكن عدد هذه الفئات مجتمعة بالقليل. هذا

الى عواصم الولايات والمدن الكبيرة التي لم تفقد سكانها ومكانتها. ومجالس البلاط، على تنوعها، لا بد لها من هيئة خاصة، تظهر في اللباس وتبدو في الاثاث وتبين في الآلات المختلفة للمناسبات المتعددة. ووجود البلاطات هذه أدى الى قيام طبقة أو فئة من الناس كان لا بد لهم ان يجاروا صاحب السلطة في لباسه وطعامه ومجلسه وهيئته. وقد وجد المال بين أيدي الناس. فهناك الفيء والمغانم التي انتهى امرها الى رجال الحكم أولاً والى غيرهم ممن منحوا العطاء أو عملوا في التجارة أو الزراعة أو في الخدمة. ولا يجوز ان ننسى الجند، الذين كان لهم دور كبير والفتوحات جاءت في اواسط عهد الدولة الأموية على أشدها وأوسعها. ونحسب انه من نافلة القول ان نشير الى ان مستوى المعيشة كان مرتفعاً. فالذين ألفوا الحياة الطيبة من قبل استمروا فيها وأضافوا إليها، والذين دخلوا هذا المجال مجدداً، سرعان ما جاروا الأولين.

وفي الحجاز قامت قصور فخمة، وهذه القصور وسكانها، مثل قصور الشام وسكانها، كانت بحاجة الى البنّاء الماهر والنجار الحاذق والى القماش المنوع الاشكال والألوان للسجوف ولتغطية الجدر، والأقمشة الناعمة تتخذ منها النساء ثيابها، والحلي الأنيق وكل هذا كان باهظ الثمن، لكن يبدو ان فئة لا يستهان بها من أهل الحجاز كانت تستطيع ان تدفع، وبشيء من اليسر، المبالغ الطائلة ثمناً لهذه الأشياء. ففضلاً عن الفيء والهبات والعطاء، كان هناك موسم الحج، الذي كان بركة ونعمة على الحجاز. من أهل الحجاز كانت تستطيع ان تدفع وبشيء من اليسر، المبالغ الطائلة ثمناً لهذه الأشياء. ذلك بأن الخلفاء والأمراء والأثرياء كانت لهم من مظاهر العظمة والبهجة ما يسر، ومن الانفاق ما ينعش الصانع وصاحب الخان ومهيّىء الطعام ومطوف الانام. كل هذه كانت سبيلاً للانفاق. لذلك فقد كانت السوق في ايام الحج تنتعش، وتنتعش معها النفوس ايماناً وإفادة.

والى الشمال من بلاد الشام كانت القسطنطينية، عاصمة الدولة البزنطية، تحتاج الى كميات كبيرة من العطور والطيوب والتوابل والبخور والمواد الطبية والأخشاب المعطرة والحجارة الكريمة. وهذه سلع كانت تصل الى المنطقة، عبر بلاد الشام إما عن طريق الحجاز وشمال الجزيرة العربية أو عن طريق الخليج العربي ثم عبر البصرة وأواسط العراق الى شماله حيث تنقل الى بزنطة في الغالب، عبر الطرق التي تجتاز طورس (الشامية والاناضولية). وفي طريقهم كان التجار يفيدون من الثغور الشامية والعواصم اراحة وتبادل سلع: من ملطية شرقاً الى انطاكية غرباً.

هذه ثلاث مناطق كبيرة، وخلفها سواها قوم يعيشون في مستوى رفيع، ويستطيعون ان ينفقوا في سبيل ذلك. ولنكتف بهذه المناطق، ولننتقل الى اماكن الانتاج لنعين موقعها، ثم ننقل سلعها الى الأسواق، على ان نركز على الكبير منها بشكل خاص. ولن نتحدث عن دولة الخلافة بكليتها بل نختار منها بلاد الشام ومصر وفارس ونضيف اليها بزنطة، وهي من المناطق التي تؤثر مباشرة في الأسواق التي ذكرنا، وتكفينا مؤونة التفصيل.

كتب مؤلفو القرنين الثالث والرابع هـ/ التاسع والعاشر م عن هذه المسائل. فالاصطخري (الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع هـ/ العاشر م) يجمل ما يصنع في خوزستان وفارس من القماش الجيد الذي يغلب خيط الحرير على القطن في الديباج (في تُسْتَر) والخزوز وطراز السلطان (في سوس وقرقوب) والطراز الموشى بالذهب في (فِسا) والقز الموشى بالشعر (قرقوب) والثياب الكتانية (في سينيز وجنّابة وكازرون وتوج) والبطائن في (زَرَند).

وقد أورد ابن الفقيه الهمذاني (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) ان بلاد الروم (البزنطيين) تنتج الأبقار والخيول والخراف وينمو فيها الميعة styrax والمصطكي ويظهر المرجان الأحمر في شواطئها ويصل اليها الرقيق الصقلبي (والخصيان بشكل خاص) وتصنع البروكار الرومي الممتاز. وهذه هي السلع المطلوبة[٢٧].

وسنؤثر الأقمشة الدمشقية بكلمة اضافية. ذلك ان دقة الصانع الشامي وذوقه الفني كان لهما أثر كبير في التفنن في صنع الأقمشة، والحريرية منها بشكل خاص، وهذه هي التي كانت مطمح السيدة الأنيقة والجارية اللعوب والراقصة الطروب، ولم يكن الرجل يمتنع عن اتخاذ ثوب من الحرير المطرز أو اعتمار عمة من القماش الدقيق الرقيق. فإذا كان من أهل المجون كعمر بن أبي ربيعة وصحبه، وضع لغطاء رأسه زينة من القماش المذهب، أو لف نفسه في عباءة من البروكار المقصب.

وقد كانت دمشق تنتج من الأقمشة الحريرية اصنافاً كثيرة، فمنها الساميت وهو الذي تدخل في حياكته ونسجه ستة خيوط ملونة، وان كان يغلب عليه اللون الأخضر. كما كانت انطاكية قد نبغت في صنع الحرير المزخرف بأشكال الورود والزهور، فيما كان الحرير المطرز بخيوط ذهبية من انتاج صور. فلم يكن غريباً، والحالة هذه، ان يغوي الحرير الشامي حسان الحجاز وسواهن، فإذا لبسنه كنّ غواية للآخرين[٢٨].

بلاد الشام كانت فقيرة في المعادن. فالحديد موجود بكميات محدودة في لبنان وفي جبال الشراة على مقربة من البتراء وعلى مقربة من بصرى. وهذه المعادن كانت قد استهلكت من قبل، فلم يكن في البلاد ما يكفي للصناعة التي عرفتها دمشق، وهي صناعة الأسلحة والسيوف خاصة. وكان الحديد يصلها من مرعش، وهي أقرب معادن الحديد اليها، ثم من ارمينية واذربيجان الغنيتين به. الا ان دمشق كانت تستورد، عن طريق الخليج العربي والعراق، الفولاذ من الهند، وهو معد من حديد خام نقل الى الهند من شرق افريقية. هذه صناعة عرفتها دمشق قديماً واشتهرت بها من ايام الرومان، واستطاعت ان تحافظ عليها وتنميها بسبب امكان الحصول على المادة الأصلية اللازمة لها[٢٩]. وقد كانت مصانع دمشق تزود المناطق والقبائل المجاورة بالسيوف. والذي يصدر ـ الى اماكن بعيدة نسبياً ـ هو النصل فقط ـ أما الجفن والممسك فقد كانا يصنعان في اماكن أخرى، وغالباً ما يكون ذلك محلياً.

وكانت دمشق مشهورة بصنع الأدوات النحاسية، وكان النحاس الموجود في لبنان هو

اساس الصناعة الدمشقية وهو قليل. فكانت دمشق تستورد النحاس من معدن ارجانا في اعالي بين النهرين، ومعدن الخابور ومن قبرص، ثم تقوم بصنع الأبواب والأواني والدلاء وغيرها من الأدوات النحاسية[٣٠]. وكانت سلع دمشق النحاسية تصدّر الى مصر. فقد روى ناصر خسرو أنه يوجد في مدينة الفسطاط خمسة آلاف قدر من النحاس، يسع كل منها ثلاثين منّا (نحو خمسين ليتراً) من الماء، وهي من صنع دمشق. واضاف أن هذه كانت تملأ يومياً بالماء[٣١].

وكان الذهب يأتي الى بلاد الشام ومصر والعراق، من اماكن قاصية على ما مر بنا. ويمكن القول إجمالاً إن ذهب السودان (الغربي) وتبره هما اللذان كانا قوام صياغة الذهب، من نقود وحلي، في الفترة الممتدة من القرن الثالث هـ/ الثامن م الى الخامس هـ/ الحادي عشر م. وكان هذا الذهب، على ما مر بنا، ينقل من مواطنه الى الشمال الافريقي عن طريق سجلماسة وورغلة الى فاس والقيروان وتاهرت. ثم يوزع في مراكز كبيرة منها الى صقلية والأندلس. أما السوقان الرئيستان للذهب ولتوزيعه في الشرق، فهما البصرة وخوارزم. ويمكن القول اجمالاً ان هذه الأسواق الأربع المذكورة (الأندلس وصقلية والبصرة وخوارزم) كانت تتعامل بالذهب الخام. اما اماكن صنعه في المشرق، فقد كان أهمها الفسطاط في مصر، ودمشق في بلاد الشام، وبغداد في العراق. وفي هذه الأماكن كانت تصنع الحلي المتنوعة التي ترسل الى الأسواق القريبة والبعيدة[٣٢].

يرى متز ان اللباس كان عند أهل الشرق الأدنى أهم المطالب الثلاثة الأساسية التي يحتاج اليها جسم الإنسان وهي: الطعام واللباس والمسكن؛ وكانت صناعة الأقمشة والملابس أرقى الصناعات. وكان أهم ما يعتبر ترفاً هو ان يكون الإنسان حسن اللباس. وكان جمال المسكن يتلخص في ان تكون جدُره معلقاً عليها السجوف والستور الجميلة، وان تكون أرضه مفروشة بالبسط[٣٣].

ومن هنا كان القماشان اللذان سادا في المنطقة في الزمن الذي نتحدث عنه، فضلاً عن الحريريات، الكتان والقطن، من حيث انهما الأكثر شيوعاً. وقد كان القطن يزرع في شمال سورية في المنطقة الممتدة من انحناء الفرات حتى مدينة حلب، وهذه المنطقة هي امتداد لمنطقة الخابور. فضلاً عن ذلك، فان القطن زرع في غور الأردن وفي الواحات المحيطة بدمشق وفي كليكيا وفي جهات الرملة. وكان القطن يصدر الى مصر ليحاك هناك. وكانت بلاد الشام تستورد من مصر، مقابل ما تصدره لها من القطن، الأقمشة الكتانية[٣٤]، التي كانت مصر مشهورة بها (منذ ايام الفراعنة).

وثمة الأقمشة الحريرية المصبوغة بمختلف الألوان، وإن كان الارجوان سيدها. كانت بلاد الشام قد فقدت الكثير من اهميتها في صنع الأقمشة الحريرية وصبغها ايام جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) بسبب القيود التي فرضها على هذه الصناعة لتمكين الاحتكار الرسمي من السيطرة التامة على كل ما يمنتج منها. لكن القرن الرابع هـ/ العاشر م شهد عودة النشاط الى

صناعة الأقمشة الحريرية في بلاد الشام. فتدفقت الحرائر على بلاد الروم من انطاكية والاسكندرية[٣٥].

وكان لبعض الأقطار اختصاص بصنف معين من القماش. فبلاد الشام، ودمشق خاصة، كانت تنتج الحرير المصبوغ، فيما كانت الأبلة والبصرة تنتج في القرن الرابع هـ/ العاشر م مثلاً، الخز الجيد. فكان المشتري يجد مصنوع أي من المدينتين في اسواق المدينة الأخرى، كما كان يحدث، على سبيل المثال، في تصدير اقمشة من دلتا مصر الى الشام وبالعكس[٣٦].

وما دمنا قد تحدثنا عن الأقمشة والثياب، فلنشر هنا الى الأصبغة النباتية وأهمها النيلة والقرمس (القرمز) والزعفران، وكانت هذه تستعمل للتلوين بالأزرق والأحمر والأصفر على التوالي. وكانت النيلة تزرع ـ في بلاد الشام ـ في زُغَر (وقد ورد اسمها صغر أيضاً) في فلسطين، وكان العصفر أو الزعفران (وعرف باسم الورس أيضاً) يزرع في الشام، أما القرمس (أو القرمز) فكان ينمو في أرمينية ومنها كان يحمل الى بلاد الشام لاستعماله في تلوين الأقمشة الصوفية[٣٧].

وعرفت بلاد الشام ثلاثة انواع من الحبوب لصنع الخبز: هي: الحنطة والشعير والذرة (البيضاء). وقد دجنت هذه في أنحاء مختلفة من العالم القديم. فالحنطة يبدو انها فلسطينية (اريحا)، والشعير آسيوي (؟)، والذرة هندية أو على الأقل وصلت المشرق من الهند عن طريق الخليج العربي. وكانت أراض كثيرة في بلاد الشام تصلح للحنطة، بحيث ان البلاد كانت تصدرها الى العراق. وقد ازدادت حاجته الى الحنطة بعد ان تلفت أراضي السواد بسبب حرب الزنج والحروب الاهلية المتعددة في القرن الرابع هـ/ العاشر م. وكانت الحنطة تنقل من شمالي سورية الى انحناء الفرات، حيث تحمل من هناك نهريا الى بغداد والمدن الأخرى. وكانت بلاد الشام تصدر الحنطة الى بلاد العرب براً. وكان الشعير يستعمل في صنع الخبز احياناً، والذرة كانت تزرع في بلاد الشام في منطقة حلب في القرن السابع هـ/ الثالث عشر م ولكنها عرفت قبل ذلك في تلك المنطقة وسواها[٣٨].

ويبدو ان الأرز كان معروفاً في فلسطين في فترة تمتد من القرن الثالث الى القرن الثامن للميلاد، ومن المرجح انه زرع يومها في غور الأردن. وقد ذكر المقدسي (القرن الرابع هـ/ العاشر م) ان الأرز كان يزرع في منطقة بيسان في الغور[٣٩]. وكانت شجرة النخيل قد وصلت الى فلسطين قبل الفتح العربي، ولكنها بعد الفتح انتشرت في شمالي سورية. ولكن تمور بلاد الشام ما كان لها ان تزاحم تمور الحجاز أو العراق لا نوعاً ولا كماً[٤٠].

إلا ان نوعين من الفاكهة كان لبلاد الشام قصب السبق فيهما في المشرق ـ العنب والتفاح. فالمقدسي يتحدث عن الاعناب والكروم في الجليل (شمالي فلسطين) ثم يعود فيفصل ذلك من حيث مشتقات العنب كالزبيب والخمور، فيشير الى ذلك بالنسبة لجبل عاملة (جبل عامل) والخليل وعسقلان. وقد كانت خمور بلاد الشام تصدر من اللاذقية وتنقل بحراً الى الهند[٤١]. وكان احسن التفاح في ذلك العصر تفاح الشام وقد كان مضرب المثل في الجودة[٤٢].

وشهرت بلاد الشام بقصب السكر بعيد الفتوح العربية، إذ جاءت زراعته من بلاد فارس التي وصلتها ايام الساسانيين. وقد شاعت زراعته في انحاء كثيرة من بلاد الشام ـ في غور الأردن بين بيسان وأريحا وغوطة دمشق ثم السهل الساحلي من انطاكية جنوباً. وتركزت صناعة السكر في طرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا. وقد ذكر المقدسي ان كابل (وهي قرية الى الشمال من عكا) كان ينتج فيها سكر فائق[٤٣]. وقد وصلت أول شحنة سكر من بلاد الشام الى البندقية سنة ٩٩٦م.

كانت بلاد الشام معدن الزيتون وزيته في المشرق، وهو أجود انواع الزيت. وكانت المدن الشامية المختلفة تبعث الى مصر والعراق وبلاد العرب حاجتها من زيت الزيتون ايام الأمويين والعباسيين. وكانت صناعة الصابون، التي تعتمد على الزيت، من صناعات بلاد الشام الرابحة، وكان الصابون يصدر جنوباً وشرقاً[٤٤].

روى المسعودي عن الاترج والنارنج أنهما جلبا من أرض الهند بعد سنة ٣٠٠ هـ فزرعا بعمان ثم نقلا الى البصرة والعراق والشام حتى كثرت زراعتهما في دور الناس بطرسوس وانطاكية وساحل الشام وانطاكية وفلسطين ومصر. والمقدسي يقول انهما تزرعان في فلسطين[٤٥].

يقول موريس لومبار: «ان الفترة الممتدة من القرن الثالث الى القرن الخامس هـ (من القرن الثامن الى القرن الحادي عشر م) شهدت نقلة كبيرة في تاريخ الغلات الغذائية (في المشرق العربي) سواء لجهة الأصناف التي وصلت حديثاً (إلى المنطقة) أو لجهة تقنية الانتاج. ونحن إذا تصفحنا ورقات المقدسي وابن حوقل والمسعودي (في مروج الذهب مثلاً) وجدنا اسماء نباتات من خضار وفواكه لم تكن معروفة قبل ان تتيح لها احوال العالم الإسلامي الجغرافية والتجارية ان تنقل من اقاصي شرق آسية الى المشرق العربي، مثل القلقاس والسبانخ والأثمار الحمضية»[٤٦].

وكان الجمل النجدي، أي ذو السنام الواحد، هو المعروف في المشرق. فقد انتشرت تربية الابل في شمال سورية والجزيرة الفراتية. لكن لم نقع على خبر تصدير الجمال من تلك البقعة إلى الخارج. أما الخيل فقد كانت أنواعاً، منها الخيول القادمة من آسية الصغرى والخيول السورية، التي نشأت في بلاد الشام منذ ايام الرومان، ولعلها كانت نتيجة تهجين نوعين من الخيل الواحد من إيران والثاني شمالي وصل البلاد مع التجار. وهذا الحيوان (الفرس السوري) كان ينمو في مراعي بادية الشام، وكان له سوق في شمال الجزيرة العربية، إلا اننا نرجح انه كان يضاف الى قافلة الخيول التي كانت تصدر سنوياً من عمان الى الهند، والتي قد يبلغ عددها خمسة آلاف في السنة الواحدة. فقد كان امراء الهنود وأثرياؤهم حريصين على استعمال الخيول في مواكبهم الرسمية، لكن هذه الخيول لم تكن تصلح للتوليد هناك، وإذا ولدت فإن المهر منها كان صغيراً وضعيفاً. ومن ثم فقد كان على القوم ان يستوردوا الخيول سنوياً. وكانت موانىء الجزيرة الواقعة في جهات عمان هي المراكز لتصدير

الخيول، الى موانىء الهند. وقد ذكر المقدسي ان الخيول كانت تصدّر أيضاً من جزيرة ابن عمر، ولعلها كانت ترسل الى العراق وبلاد الشام، ومن هذه للتجارة[٤٧].

ومن الحيوانات التي نقلت الى سورية من الهند الجاموس. وقد ارتؤي ان الجاموس وصل العراق مع الغجر (الزط أو النوَر)، ومما ساعد على انتشاره في سواد العراق في ايام بني امية، ازدياد البطائح في تلك المنطقة. وقد روي أيضاً ان انتشار المستنقعات في شمالي بلاد الشام أدى الى وجود السباع بكثرة هناك. ولما كان الجاموس أكبر عدو للسباع، فقد نقلت أربعة آلاف منه لمقاومة السباع؛ والمهم ان الجاموس تأقلم في سهل الغاب الذي كان مغموراً بالمستنقعات[٤٨].

ونشطت تجارة الرقيق في العصور العباسية المبكرة، وانفتحت أمام تجارها اسواق جديدة للحصول على الرقيق واسواق كبيرة لامتصاصه. أما الأسواق التي كانت تزود العالم الإسلامي بالرقيق السوق الصقلية (الأوروبية) والسوق التركية (الشرقية) والسوق الأفريقية (السوداء). وقد زاد في نشاط تجارة الرقيق اتخاذ الغلمان جنوداً في ايام بني طولون في مصر وبني حمدان في شمالي بلاد الشام وبني بويه وقد زاد هذا بعد اتخاذ المعتصم الاتراك جنداً له. ويرى البعض ان مزارع قصب السكر في السواد احتاجت الى اليد العاملة، فسد الرقيق الافريقي من منطقة الزنج في شرق افريقية الحاجة. وكان ثمة رقيق افريقي ينقل من السودان الغربي الى مصر.

كان طريق الرقيق الصقلبي الى سورية من بزنطة اقله ومن مصر أكثره، أما الرقيق التركي فكان يصل مصر عن طريق بلاد الشام. والرقيق الأفريقي كان يصل من السودان الغربي ومن الحبشة عن طريق مصر. لكن الرقيق الأفريقي الآتي من شرقي القارة فكان نقله يتم عن طريق جزيرة سوقطرى فعدن ثم براً من زبيد الى دمشق. ومن دمشق كان ينقل الى بغداد (أو سامراء لما كانت سوقاً وبلاطا). وقد كان ثمة مراكز لخصي الرقيق (على اختلاف أنواعه). أما المراكز الرئيسة فهي قرطبة وفردان وبراغ وأرمينية وخوارزم وأسوان[٤٩].

وكانت الأخشاب دوماً قليلة في المشرق العربي. صحيح ان مصر كانت فيها غابات في الجنوب، لكن هذه اجتثت بسبب بناء السفن الحربية في مصر أيام ابن طولون وأيام الفاطميين خاصة. وظل المصدر الرئيسي للأخشاب، منطقة جبال امانوس في شمال غرب بلاد الشام وجبال لبنان، وجبال النصيرية (أو الانصارية) فيما بينهما. وهذه المناطق كانت تزود بلاد الشام ومصر وبين النهرين بالأخشاب منذ القدم، واستمرت على ذلك. لكن الحاجة الى الخشب لبناء السفن وما اليها كانت تسد بالاتجار مع الهند وأوروبة، وكانت بلاد الشام ومصر تعتمد على المنطقة الثانية في استيراد اكثر الأخشاب اللازمة لها[٥٠].

وكان البردي والرق وسيلتي الكتابة والتدوين والمراسلة حتى مطلع العهود العباسية الأولى. لكن الورق، وكان يسمى الكاغد (وهو اسمه بالتركية الآن) وصل العالم العربي الإسلامي في القرن الثاني هـ / الثامن م. والرواية التي تناقلها الكتّاب العرب هي ان معركة

نهر طلس، التي وقعت بين العرب وبين جيش صيني سنة ١٥٣هـ/ ٧٥١م على مقربة من طشقند، والتي انتهت بانتصار العرب، ادت الى وقوع عدد من الأسرى الصينيين بأيدي العرب المنتصرين وكان بينهم صناع الورق. وقد اسكن هؤلاء الأسرى مدينة سمرقند، وهم الذين علموا المنتصرين صناعة الورق (الكاغد). وهذه الرواية فيها بذرة التاريخ، لكنها تظل قصة، فيما نرى. فقد كان الورق، من حيث انه مادة للكتابة، معروفاً بعض الشيء في سمرقند وما اليها قبل معركة طلس.

والمهم ان سر الصنعة انتقل من الصين، التي عرفت الورق على الأقل منذ القرن الثاني للميلاد، الى العالم العربي الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني هـ/ الثامن م. وانتشرت صناعته انتشاراً سريعاً. ومن حسن حظ الكتاب والمؤلفين في العالم العربي الإسلامي ان جاء الورق في وقت كان هؤلاء في اشد الحاجة الى مادة للكتابة أيسر امتلاكاً وأسهل استعمالاً وأرخص منالاً من البردي القليل الوجود والصعب التعامل معه.

وقد أُنشئت أول مصانع للورق في بغداد حوالى سنة ١٧٩هـ/ ٧٩٥م. وانتشرت الصناعة بعد ذلك غرباً. فالمقدسي يحدثنا عن مصانع الورق التي وجدت في طبرية ودمشق في بلاد الشام. ويروي ناصر خسرو، الذي مر ببلاد الشام في أواسط القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م انه شاهد مصانع الورق في طرابلس، وحري بالذكر ان البردي المؤرَّخ ينتهي استعماله في عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م، أما الوثائق المدونة على الورق (الكاغد) فيبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢م[٥١].

وكان الاتجار بالمواد الطبية من الأمور البالغة الأهمية في العالم العربي الإسلامي. فهناك أولاً البلاط الخلافي ثم البلاطات الأصغر التي كان سكانها يعنون بصحتهم. وكان هناك مئات الألوف من التجار وغيرهم من أهل الثراء الذين كانوا كذلك يعنون بأجسامهم. فضلاً عن ذلك فان المستشفيات التي بنيت في طول البلاد وعرضها كانت بحاجة الى عقاقير وأدوية، وكانت صيدلياتها تعنى بتحضير هذه الأشياء، وإجراء التجارب على مواد جديدة. وقد كان للعالم العربي الإسلامي مصدران للحصول على المواد الاصلية أو الخام لصنع العقاقير والدهون وهما: الصين براً والهند واندونيسيا بحراً (عن طريق الخليج العربي خاصة). ولم يقصر القوم في استيراد ما يحتاجون.

وكان لبلاد الشام دور في استيراد الكافور وخشب الصندل والزيوت النباتية العلاجية. وكانت تشارك في انتاج بلسم مقدسي. وقد أورد لومبار شيئاً سماه ترياق القدس، كان يستعمل ضد لدغ الأفعى (ولعله كان موضعي الاستعمال). والاهليلج هو ثمر جاف وحب قابض الخاصية، وكان يجلب من الهند بكميات تجارية كبيرة، مع ان اسمه يوناني الأصل. وكان يستعمل في طبخ العقاقير وتركيب التوابل في كثير من الصيدليات والمستشفيات[٥٢].

اشرنا، في غير مكان من هذا البحث، الى الطرق البرية والطرق البحرية، وقد آن لنا ان نشير الى الملاحة النهرية بالنسبة لبلاد الشام وجوارها.

كان العراقيون يستفيدون من نهري دجلة والفرات في نقل السلع من جهة الى جهة. وقد اشار المقدسي الى ان الجزيرة الفراتية، وهي الاقليم الذي سماه اقور، هي واسطة بين العراق والشام. وتبدو صحة هذا الحكم عندما نتذكر هذا القوس الذي يحيط ببادية الشام، والذي يمتد من ايلة (العقبة) الى البصرة، وتكون بالس، على الفرات، نقطة نصف الدائرة (التقريبية) في الشمال. وأهمية الجزيرة في هذه الوساطة هي ان الكثير من غلات الأجزاء الشمالية من بلاد الشام ومحصولاتها ومصنوعات مدنها كانت تنقل الى الموصل براً، ومن هناك تحمل نهرياً الى بغداد وغيرها من المدن العراقية، من ذلك: زيت الزيتون من الشام، وأخشاب البناء من أرمينية(٥٣).

هذا فضلاً عما كان يرتفع من الجزيرة الفراتية ويرسل الى العراق من حبوب وشحوم وعسل وجبن وقصب وسماق وفاكهة طازجة ومجففة منها السفرجل؛ ومن قطن وحديد وفحم وقير؛ ومن اساطل وسكاكين ونشاب؛ وموازين ودوايات وصابون؛ وثياب الصوف والكتان؛ وفي مقدمة ما كان يصدر من الجزيرة هي الخيل الجياد.

إلا ان الملاحة النهرية كانت تتعرض للصوص، أو لقرصان النهر إذا صحت التسمية. ولأن دجلة والفرات يجتازان مناطق تقيم فيها قبائل بدوية وكانت موارد رزقها شحيحة نسبياً، فان التجار البريين أو النهريين، كانوا معرضين للغزو في أي وقت. فضلاً عن ذلك فان المنطقة الإيرانية العراقية الشامية كانت تعاني في القرنين الرابع والخامس هـ/ العاشر والحادي عشر م، من حروب متنوعة بين الدويلات المتركزة في تلك الرقعة، وبين الدويلات والقبائل، وفيما بين القبائل بالذات. فكل حرب، مهما كانت العناصر المشتركة فيها والقائمة بها، تؤدي الى فوضى ولصوصية ونهب(٥٤).

على ان بعض مدن الشام، التي كانت ذات أهمية تجارية أضرّ بها اللصوص الرسميون كما يسميهم متز، ويخص منهم بني حمدان. وقد وقع غضبهم على بالس وتجارها(٥٥). فالمدينة التي كانت تقوم على شط الفرات من غربيه، وهي أول مدن الشام من العراق، كان الطريق اليها عامراً، ومنها الى مصر وغيرها سابلاً.

وكانت فرضة لأهل الشام على الفرات فعفت آثارها ودرست قوافلها وتجارها بسبب عمل سيف الدولة الحمداني (٣٣٣ ـ ٣٥٦هـ/ ٩٤٥ ـ ٩٦٧م)، ذلك انه عند انصرافه من لقاء صاحب مصر، وقد هلك جميع جنده، انفذ اليها (بالس) المعروف بأبي الحسين القاضي فقبض من تجار كانوا بها معتقلين عن السفر، فأخرجهم عن احمال بز واطواف زيت الى ما عدا ذلك من متاجر الشام في دفعتين، بينهما شهور قلائل وايام يسيرة، وصادر منهم ألف ألف دينار. ثم أتلف المدينة وخربها.

ومصر كانت معدن صناعة الأقمشة الكتانية، فضلاً عن الحبوب المختلفة الأنواع التي كانت البلاد تنتجها، والسكر الذي كان يصنع فيها. وقد أوجز المقدسي ذكر تجارات مصر فقال انه يرتفع منها اديم (جلد) جيد والبطائن الحمر، والأرز والصوف والتمور والخل والزبيب

والثياب الملونة والقفاف والحبال والحصر ودهن الفجل والزنبق والبلسان والخل الجيد والموز. وتكثر في مصر الأبقار والحمر(٥٦).

أما الحجاز فالطائف فيها زبيب جيد والتمور كانت بدرية، ووادي القرى كان عامراً كثير التجار والأموال، والعويند كثيرة العسل. هذا الى ما كان يحمل اليه من اليمن، وهنا تدخل الطيوب والتوابل والافاويه وشيء من البخور والحجارة الكريمة، أي ما كان يحمل اليه من الهند واندونيسيا والقرن الأفريقي(٥٧).

نماذج من ثروات الجسر البري البحري

«[ثروة مصر] وتصنع في مصر كل أنواع القيشاني فتصنع المزهريات والكؤوس والصحون وغيرها من الأوعية وتزخرف هذه بألوان تشبه تلك التي تلون بها اقمشة الابوقلمون، بحيث تتغير انعكاساتها بتغيير المكان الموضوع فيه المزهرية. وتصنع فيه كؤوس شفافة صافية كأنها الزمرد وتباع بالدرهم (وزناً) بحيث يبلغ ثمن الدرهم الواحد منها، على ما روى لي الثقات، ثلاثة دنانير مغربية. والبيع في مصر بالسعر المحدد، فإذا غش بائع شهر به على جمل. والبائع، سواء في ذلك البقال أو العطار أو بائع الخرضوات، يعنى بوضع ما يبيعه في الوعاء المناسب له سواء اكان ذلك كأساً أو آنية أو ورقا، فلا يضطر المشتري الى تحضير الوعاء. ويستخرج من بزر الفجل واللفت زيت يسمى الزيت الحار. والسمسم ليس كثيراً في مصر وزيته غالٍ والتجارة بزيت الزيتون مرابحها كبيرة. وقد رأيت في مصر خانا اسمه دار الوزير تقوم فيه تجارة القصب. ففي الطبقة السفلى منه الخياطون وفي الطبقة العليا العمال. فسألت الأمين عليه عن اجرته فقال انها كانت عشرين ألف دينار في السنة لكنها الآن اثنا عشر ألفاً لأن جزءاً منه متهدم. وقد اكد لي العارفون ان بمصر عشرة خانات بعضها مثل هذا وبعضها أكبر منه.» (ناصر خسرو)(٥٨).

نود ان نضع بين أيدي القارىء بعض ما وصلنا من وصف لبعض المدن الداخلية في بلاد الشام.

«**حلب**: وأما البلد فموضوعه ضخم جداً حفيل التركيب بديع الحسن واسع الأسواق، كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة الى أخرى الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية. وكلها مسقف بالخشب فكأنها في ظلاف وارفة فكل سوق منها يقيد الأبصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً. واما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالاً مطيفة بالجامع المكرم لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها، ولو كان من المرائي الرياضية. واكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع النقش والصنعة، قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللها شرف بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها اجمل منظر وكل سماط منها يتصل بباب من ابواب الجامع المكرم. وقراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضاً وطولاً. وخانات هذه الطريق كأنها القلاع امتناعاً وحصانة وابوابها حديد. وهي من الوثاقة في غاية. (ابن جبير)(٥٩).

«**المعرة**: وبلاد المعرة سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وانواع الفواكه ويتصل التفاف بساتينها وانتظام وقراها مسيرة يومين. (ابن جبير).

«**حماة**: هما حماة العليا وحماة السفلى. وكلتا المدينتين صغيرتان، وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العالي الجبلي ويطيف بها، وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب، لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج الى سور. وعلى النهر جسر كبير معقود بصم الحجارة يتصل من المدينة السفلى الى ربضها. وربضها كبير فيه الخانات والديار وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته الى ان يفرغ بدخول المدينة. واسواق المدينة العليا احفل واجمل من اسواق المدينة السفلى. فهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات وموضوعها حسن التنظيم بديع الترتيب والتقسيم. ولها جامع أكبر من الجامع الأسود ولها ثلاث مدارس ومارستان على شط النهر. (ابن جبير)[٦٠].

وعندنا وصف **لدمشق** من قلم ابن جبير نجتزىء منه بما يخص الاتجار يقول:

«والبلد ليس بمفرط الكبر، وهو مائل للطول، وسككه ضيقة مظلمة، وبناؤه طين وقصب، طبقات بعضها فوق بعض، ولذلك كثيراً ما يسرع الحريق اليه، وهو كله ثلاث طبقات، فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن، لأنه اكثر بلاد الدنيا خلقاً، حسنه كله خارج لا داخل. واسواق هذه البلدة من احفل اسواق البلاد، واحسنها انتظاماً، وابدعها وضعاً، ولا سيما قيسارياتها، وهي مرتفعات كأنها الفنادق، مثقفة كلها بابواب حديد كأنها ابواب القصور. وكل قيسارية منفردة بضبتها واغلاقها الجديدة. ولها أيضاً سوق، يعرف بالسوق الكبير، يتصل من باب الجابية الى باب شرقي»[٦١].

وقد لفتت المدينة أيضاً نظر بنيامين الططيلي، الذي زارها سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م وكتب عنها: «ان المدينة كبيرة وجميلة يدور بها سور، ويحيط بها ريف جميل يمتد الى نحو خمسة عشر ميلاً في حدائق وبساتين من اغنى ما عرف، بحيث انه لا مثيل لها على سطح الأرض، لا من حيث عددها ولا من حيث جمالها. هنا يجري نهرا ابانا وفرفر اللذان ينبعان من الجبل التي ترتكز المدينة عليه، وابانا يخترق دمشق، وثمة قساطل تحمل ماءه الى الشوارع والأسواق. وفيها يجتمع التجار من جميع اقطار الدنيا حيث يتبادلون السلع على مقياس واسع. وفرفر يمر بالبساتين والحدائق في الضواحي ويرويها»[٦٢].

وسورية وأجزاء أخرى من بلاد الشام بلاد غنية ـ كانت كذلك ايام المقدسي في القرن الرابع هـ/ العاشر م، وظلت على ذلك رغم ما عمها من اضطراب وفوضى اثرت بعض الشيء على الأراضي المزروعة.

لكن دمشق ظلت لها صناعاتها الكثيرة، «فقد كانت تنتج السكر والنقولات وتصنع المنسوجات القطنية والحريرية والزجاج والخزف والفخار والمزخرفات الحديدية والكاغد والصابون والعطور وماء الورد وماء الزهر والشموع والأحذية. وكانت المدينة مشهورة أيضاً بصياغة الذهب والفضة. وكانت تقرن بالقاهرة، وكان بعض الأوروبيين يفضلونها على باريس وفلورنسة».

ثمة فئة من الرحالين الأوروبيين مثل نيكولو البوغبونصي وليوناردو فرسكوبالدي وجورجو غوتشي وسيمون سيولي وفون سوخم الذين زاروا الأراضي المقدسة في القرنين السابع والثامن هـ/ الثالث عشر والرابع عشر م.

وقد ضممت هنا رواياتهم بعضها الى البعض الآخر، فيما يتعلق بدمشق، فتم لي من ذلك وصف جيد لأحوال مدينة دمشق في تلك الفترة.

«ان ما يصنع في دمشق، من أي نوع كان، كبيراً كان أو صغيراً، هو اكثر مما يصنع في أي مكان آخر في الدنيا، سواء في ذلك الأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية، والذهب والفضة والنحاس من جميع الاصناف، والزجاج من جميع الأنواع. فقد حذق الصناع ذلك كله، وكان منهم مهرة الصناعة في كل فن. وعندهم الى ذلك غالب اصناف الفواكه التي يحفظونها من سنة الى سنة تالية.

«اما متاجر دمشق، فهذه لا يصدق وصفها الذي لم يرها بأم عينه، وذلك بسبب كثرة التجار والصناع في المدينة باجمعها، داخلها وخارجها. لا يمكن تصور شيء غير موجود في الضواحي. فأجمل ما في الدنيا وانبله واشده اتقان صنعة موجود هناك. فلو انك سرت متفرجاً لرأيت المصنوعات الرائعة الأنيقة الدقيقة التي تغريك، بحيث لو انك كنت تخفي نقودك في قصبة رجلك لما ترددت في كسرها واخراج النقود لشراء بعض ما هناك. فان خيالك لن يمكنه ان يتصور شيئاً وبأي شكل كان الا وجدته هناك. فالأقمشة الحريرية الكثيرة من أي نوع أو لون تجدها هناك على افضل واجمل ما يعرفه العالم. وثمة كميات كبيرة من الأقطان، من اجمل ما في العالم، بحيث لو شاهدها احد الناس، ولم يكن خبيراً، لحسبها حرير لما هي عليه من النعومة واللمعان والدقة والجمال. والبروكار أيضاً متوفر في الأسواق. وما اكثر ما يصنع هناك من طسوت النحاس واباريقه التي تبدو كأنها من الذهب، وكلها مزخرفة بنقوش من الأشكال والأوراق، كما يصنع من الفضة أشياء فنية جميلة تسر العين لرؤيتها.

«وهكذا فالمصنوعات جميعها كانت من عمل مهرة الصناع وأقدرهم، هذا الى ما كانوا يتحلون به من نظام جميل، ونبيل أيضاً. إذ انه إذا كان الأب صائغاً فان ابناءه لا يجوز لهم ان يتعلموا غير صناعته، وبذلك توارث الناس الصناعة جيلاً بعد جيل وترتب على ذلك انهم بلغوا الغاية في المهارة الصناعية في فنونهم. وحوانيتهم مرتبة أنيقة نظيفة، بحيث ان مشاهدتها كانت باعثاً على السرور، وجميعها تملأها المتاجر. وكانت الحوانيت تمتلىء بنفس السرعة التي تباع السلع بها، إذ انه كان لديهم مستودعات كبيرة كما ان بيوتهم كانت تملأها البضائع.

«والواقع ان محاولة وصف المتاجر الكثيرة الموجودة في دمشق قد تربك الكاتب، ولكن قد يقع الذي لم يرها في ارتباك وحيرة اشد. وحتى لو رغب الواحد في تعداد الصناعات واصناف الأشياء الموجودة، لاضطر الى الاطالة الى ما لا قبل له به. إذ إنه فضلاً عما ذكر فان اسواق دمشق فيها الحجارة الكريمة والجواهر والافاويه التي تأتيها من الهند. وقد قال

المسيحيون العارفون بهذه الأمور بان ما في دمشق من المتاجر يكفي حاجات العالم المسيحي سنة كاملة. ولك ان تتصور جمال هذا كله عندما تقع العين عليه: اما اللسان فيعجز عن القول، كما يعجز العقل عن التصور»(٦٣).

ولننقل، على سبيل المقارنة، ما ذكره ابن سعيد (من أهل القرن السابع هـ/ الثالث عشر م) عن **الفسطاط** التي ظلت، حتى بعد بناء القاهرة المعزية، العاصمة التجارية لمصر الى ان كبر حجم السفن المصنوعة في مصر، فانتقل المركز الى الاسكندرية، وهذه كانت محط رحال سفن التجار الأوروبيين، كما كان يصل اليها بعض ما ينقل عبر البحر الأحمر الى القلزم (السويس الحالية).

قال ابن سعيد، وقد وصل الفسطاط في انتقاله من القاهرة؛ «ثم انفصلنا من هناك الى ساحل النيل فرأيت ساحلاً كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض. الا انه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب واصناف الأرزاق التي تصل من جميع أقطار النيل. ولئن قلت اني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فاني اقول حقاً.

«والحال ان أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازحة والألفة، ما يطول ذكره. واما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني والبحر الحجازي فانه فوق ما يوصف، وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة، ومنها يجهز الى القاهرة وسائر البلاد. وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجري هذا المجرى. لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند كما ان جميع زي الجند بالقاهرة اعظم منه بالفسطاط. وكذلك ما ينسج ويصاغ، وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية والحراب في الفسطاط كثير. والقاهرة أجد وأعمر وأكثر زحمة باعتبار انتقال السلطان اليها وسكنى الأجناد فيها.

«والفسطاط أكثر أرزاقاً وأرخص اسعاراً من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط، والمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه يبعد عن المدينة. والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط، لأنها أجمل مدارس واضخم خانات، وأعظم دياراً بسكنى الأمراء فيها، لأنها المحفوفة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها. فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر ويباع فيها الطراز وسائر الأشياء التي تتزين بها الرجال والنساء. ومطابخ السكر والمواضع التي يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة. والمعايش فيها متعذرة نزرة لا سيما لأصناف الفضلاء، وجوامك المدارس قليلة كدرة. والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته!!»(٦٤).

تجارة الجسر البري

الاتصال بين منطقة المحيط الهندي وبلاد الشام، عن طريق الخليج العربي وجنوب العراق والبادية هو السبيل الى دمشق وشمال العراق في رفقة دجلة والفرات وصولاً الى الموصل فحلب، معروف أمره.

وقد آن لنا ان نصل مدن الشام الداخلية بموانئه الساحلية، كي تتم لنا صورة الانتقال التجاري ـ تجاراً وسلعاً بين منطقة الهند والصين من جهة ومنطقة البحر المتوسط من جهة ثانية.

وهذا يقتضينا النظر الى الأمر في فترات ثلاث: الأولى تشمل الفترة من القرن الثالث الى الخامس هـ/ التاسع الى الحادي عشر م. والثانية هي الفترة التي كانت فيها الأجزاء الساحلية من بلاد الشام تقع تحت نفوذ الدويلات الصليبية، بما في ذلك المملكة اللاتينية. أما الفترة الثالثة فتشمل، في سبيل استتمام الحديث، ايام الدولة الأيوبية والمملوكية في أولها.

الفترة الأولى: ان الفتوح العربية الإسلامية أدت الى اضطراب في التنقل التجاري لبعض الوقت، لكن ذلك لم يطل أمده. ذلك بأن الناس لا يمكن ان يستغنوا عن الحاجات الاساسية في الحياة، ولما اطمأن الناس الى شيء من الأمن وامتلأت جيوبهم، اصبحت حتى السلع الاستهلاكية حاجة ضرورية. والتاجر سرعان ما يلبي طلب الناس ومطاليبهم. فضلاً عن ذلك فقد نشأت الآن حاجة ماسة جداً لطريق ممهد مأمون يصل بلاد الشام وغيرها بالحجاز تيسيراً للناس للقيام بفريضة الحج الى بيت الله الحرام.

وقد عُني أولو الأمر من الخلفاء اصلاً حتى الولاة تبعاً، بطريق الحج. وقد اخرج صالح درادكه أن الخلفاء الأمويين وخاصة الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز عنوا بالطريق من حيث حفر المياه والآبار وتسهيل الثنايا وبناء الخانات، حتى وبناء المستشفيات(٦٥). وكانت هذه الطرق، بطبيعة الحال، يسلكها رجال الإدارة والبريد والجنود وكل من تحدثه نفسه بالرحلة والتنقل بقطع النظر عن السبب.

ونرى ان نفصل هنا أخبار الطرق التي كانت تصل بلاد الشام بالحجاز، وما وراءها.

أولاً: كانت المناطق الممتدة بين دمشق وجنوب الأردن مأهولة؛ وقد استمرت اقامة الأهلين هناك من ايام الرومان الى العصر الأموي. وكانت الأرضين مستغلة زراعياً استغلالاً جيداً، أما تجمعات السكان فقد تنوعت من القرية الى القصر الى الحصن الى البلدة الكبيرة، وهذا كله يعين التجار والتجارة.

ثانياً: التجمعات السكانية التي تعود الى العصر الأموي، سواء منها القديمة أو الحديثة، كثيرة. وقد اخذ رفش رجال الآثار ومعولهم يكشفان اللثام عنها، ومن هنا معرفتنا. ولنذكر على سبيل المثال: ام الجمال (ولعلها كانت البلدة الرئيسة في شمال الأردن) وجرش واربد (ابيلا؟) وفحل (بلا) وعمان ومادبا ومعين وحُسبان وام الرصاص.

ثالثاً: كان قصر المقَوِّر، على الراجح، نقطة التقاء طرق تتجه شرقاً وغرباً للوصل بين الطرق الشمالية الجنوبية.

رابعاً: كان الأزرق نقطة انطلاق لطريق وادي السرحان في اتجاه جنوبي شرقي الى تيماء والجوف (دومة الجندل). وهذا الطريق كان مهماً بالنسبة لتجارة الشام منذ ايام الكلدانيين فكان استعماله قد يقل أو يتوقف، لكنه كان يرجع. وقصر الحلابات يشاطر الأزرق بعض واجباته(٦٦).

خامساً: ومن المشكلات التي شغلت الباحثين خلال العقود الأخيرة القصور الأموية في البادية. فقد كان الرأي الشائع انها كانت اماكن ينتجع فيها الخلفاء الراحة بعيداً عن ضوضاء المدن. على ان هذا الرأي الذي ساد مدة طويلة صرف النظر عنه أو كاد، لأن الدراسات واعمال التنقيب الأثري أدت الى تبديل في النظرة. والشيء المقبول نسبياً الآن هو الرأي الذي ابداه فواز احمد طوقان (من الجامعة الأردنية) وخلاصته ان اكثر القصور كان من نوع الحائر لتيسير الصيد على هواته[٦٧]. هذا الى آراء أخرى ليس الحديث عنها هنا مما يخصنا.

لكننا بعد ان قمنا بزيارات لهذه القصور سنة ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨، وبعد امعان النظر في الأمر كتبنا يومها: «ولكن لماذا بنى الخلفاء الأمويون أو امراؤهم مثل هذه القصور؟ المشتّى والخرّانة والحلابات وقُصير وعمرة وحمام الصرح (أو الصرخ) والطوبة، هذا الى الحير الغربي والحير الشرقي. إذ انه من الثابت الآن انها أموية ـ إما بناء اصلاً أو اصلاحاً أو توسيعاً... يقول اكثر الدارسين لهذه الظاهرة ان سببها رغبة الأمويين في العودة الى الصحراء... ويضيف آخرون بأن الأمويين كانوا يحبون الاتصال بالقبائل عن كثب... وهناك من يرى أن الأمويين. اقاموا تجمعات سكانية زراعية في طبيعتها في اقطاعاتهم، فبنوا القصور ليكونوا قريبين من مزارعهم. وقد يكون هذا كله صحيحاً منفرداً أو مجتمعاً، ولكنه لا يفسر الظاهرة، بل لا بد من أمر آخر يربط الأفكار والآراء بعضها بالبعض الآخر. ولذلك يجب ان نفتش عن مواقع هذه القصور وارتباطها بالطرق التجارية المؤدية الى تيماء أو الى الجوف (دومة الجندل) أو سواهما. لعل الدولة الأموية لم تحتج الى اقامة حصون وقلاع في كل موضع قصر، ولكن الحاكم اليقظ لا يمكنه ان يتخلى عن مورد رزقه. والتجارة كانت مورد رزق كبير للأمويين. ولعل بعض هذه القصور كانت قد بنيت لا لحماية التجار من الناس، بل لحماية الناس من التجار، ممن قد يكونون متآمرين على الدولة الأموية. والواقع أنه لا يمكن النظر الى القصور الأموية من دون الأخذ بعين الاعتبار ما الذي كان الناس ـ حكاماً وأهلين ـ يفعلونه في تلك المنطقة في العصر الأموي. وعندها تبرز قضية الطرق التجارية كعنصر هام، ولو انه ليس الأهم أو الأوحد».

يتضح من هذا الذي بسطناه اننا نجد سوقاً تتطلب انواعاً مختلفة من السلع، يتفق كل نوع منها مع حاجة الناس أو ذوقهم أو مستوى المجتمع الذي هم اعضاؤه، ونجد اماكن تنتج حاجات السوق؛ كما نرى ان الطرق كانت مأمونة بحيث يمكن نقل الحاجات والمتاجر والبضائع من المنطقة المنتجة الى المنطقة المستهلكة ـ الى السوق.

إذاً، فلن يكون غريباً ان تنقل الحنطة من بلاد الشام الى الجزيرة العربية، في حجازها أو غيره. ويكون طبيعياً أن يحمل الزيتون والزيت والصابون من مصانعه في بلاد الشام ـ وقد أشرنا إليها ـ الى حيث يستعمل ولا يصنع ـ في الجزيرة. وإذن فالاتجار مع الجنوب كان قائماً باستمرار.

أما الفترة الثانية، وهي الفترة التي كانت السواحل الشامية فيها تحت نفوذ الفرنجة

فتقتضي منا ملاحظة بضعة أمور كي تتضح اساليب التبادل التجاري بين الداخل والساحل، ومن ثم بين المناطق الأبعد والأوسع.

١ ـ ان قيام الدويلات الصليبية على الساحل الشامي قطع الاتصال بين الشام ومصر عبر الطريق الساحلي (وهو الذي اسماه الرومان via maris)، وعبر تفرعاته الداخلية. ومن هنا فان الاتصال الرئيسي بين دمشق والقاهرة كان يسير على سيف الصحراء السورية الأردنية الى الشرق من الكرك والشوبك اللتين كانتا مركزين للفرنجة.

٢ ـ وهذا الطريق لم يكن طريق تجّار فحسب، بل كان طريق الحج، إذ كان الحجاج المسلمون يجتمعون من شمال بلاد الشام وأنحاء العراق الشمالية في دمشق ويتجهون الى الجنوب الى الأراضي الحجازية. وكان التجار يستعملون هذا الطريق في موسم الحج أو في قوافل تجارية خاصة. هذا الطريق يكاد يكون مطابقاً لطريق سكة حديد الحجاز التي بنيت في مطلع هذا القرن والتي وصل أول قطار عليها من دمشق الى المدينة المنورة في شهر ايلول/ سبتمبر ١٩٠٨.

٣ ـ من المهم ان نتذكر ان القتال بين الدويلات الصليبية والأمراء المسلمين في المنطقة لم يكن أمراً مستمراً. ذلك انه بعد مرور وقت كان القتال فيه مريراً، ألف الفريقان ـ عملياً لا نظرياً ـ هذا الوجود. فكان القتال والمصاف يقعان عندما يقوم في أي من الجبهتين زعيم ينوي التوسع (من فريق الفرنجة) أو يعتزم دفع الموجودين عن البلاد (في الجهة الوطنية). ونحن إذا استعرضنا تاريخ الدويلات في المواقع والهجمات والحصارات وسواها نجد ان الغالب عليها ـ بعد الفورة الغربية الأولى ـ محاولة الالتفات الى شؤونهم الداخلية، والعناية بالتجارة البحرية التي كانت تعود على تلك الدويلات بأرباح كبيرة.

٤ ـ يحدثنا ابن جبير عن شيء اسمه التمكيس يقع في حصن كبير من حصون الأفرنج هو تبنين (في جنوب لبنان) حيث كانت القبائل تمكس. وعبارة ابن جبير تستحق ان تنقل بكاملها لما فيها من الدلالة، قال:

«التمكيس: واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين (في جنوب لبنان اليوم) بواد ملتف الشجر، وأكثر شجره الرند. بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوي تلتقي حافتاه ويتعلق بالسماء اعلاه يعرف بالأسطبل لو ولجته العساكر لغابت فيه، ولا منجى ولا مجال لسالكه عن الطالب فيه. المهبط اليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان فعجبنا من أمر ذلك المكان. فأجزناه ومشينا عنه يسيراً وانتهينا الى حصن كبير من حصون الأفرنج، يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القبائل، وصاحبته تعرف بالملكة وهي أم صاحب عكة. فكان مبيتنا اسفل ذلك الحصن ومكس الناس تمكيساً غير مستقص، والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس. ولا اعتراض على التجار لأنهم يقصدون موضع الملك وهو محل التعشير. والضريبة هي قيراط من الدينار، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً. واكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم»(٦٨).

يبدو واضحاً من هذا الكلام ان نقل السلع كان أمراً مقبولاً. وان ابن جبير كان ينتقل في

قافلة، لعلها لم تكن كبيرة، لكنها كانت من الأمور التي ألفها الناس ونظموا انتقالها وتمكيسها.

٥ ـ اشرنا من قبل الى قول ابن جبير ان المصاف قد يقع بين أهل الداخل ومحتلي الساحل، ومع ذلك فإن تبادل التجارة يكون قائماً. وبسبب ما تحويه عبارة رحالتنا فاننا نرى نقلها هنا كاملة إذ ان النظر فيها بدقة يؤيد ان الحرب أو الحروب بعد ايام العنيف الأول لم تكن تمنع هذا الاتصال. يقول ابن جبير: «ومن أعجب ما يحدث به ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان منهم ويقع المصاف بينهم الذي كان في شهر جمادى الأولى. من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عساكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز، والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشق قليلاً وهو سرارة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر انه ينتهي الى اربعمائة قرية. فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره. واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك. وتجار النصارى أيضاً لا يمنع ولا يعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الامنة على غاية، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم. والاتفاق بينهم الاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية والدنيا لمن غلب.

«وهذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين امراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً. شأن هذه البلاد في ذلك أعجب من ان يستوفى الحديث عنه»[٦٩].

٦ ـ ومن الملاحظ انه عندما تعقد هدنة أو يوقع صلح بين أي من الجماعات المتقاتلة في الجهة الواحدة مع الجهة الأخرى، فان الناس يتنقلون بإذن عام. ففي صلح الرملة الذي عقد بين صلاح الدين والصليبيين سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، نادى المنادي بالناس ان قد تم الصلح، وليتجه كل فريق الى الجهة التي يريد، فذهب البعض الى يافا والبعض الآخر الى القدس وغيرهما.

الفترة الثالثة: ان تقلص المملكة اللاتينية بعد صلح الرملة (سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) وقيام الدولة الأيوبية في مصر (٥٦٤ هـ/ ١١٦٩م) ثم قيام دولة المماليك في مصر (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) وامتدادها الى بلاد الشام أدّيا الى القضاء على الوجود الصليبي في تلك الديار نهائياً (٦٩١هـ/ ١٢٩١م). ومن ثم فقد عادت الطرق سيرتها الأولى، وعاد الاتصال المباشر بين دمشق وغيرها من المدن الداخلية بالموانىء الشامية والمدن المصرية.

كانت الأسواق المصرية المهمة بالنسبة للتجارة الأوروبية، بدءاً من القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م هي الاسكندرية ودمياط. لكن المركز التجاري الرئيسي في مصر كان الفسطاط. وقد خلف الرحالة والزوار الأخبار الكثيرة عن هذه الأسواق المصرية، وها نحن ننقل هنا ما ذكره ودونه أولئك الذين زاروا مصر في الفترة التي نتحدث عنها، فان في ذلك

ايضاحاً لما كانت عليه الحالة. وهذا ناصري خسرو يتحدث عن الفسطاط «في مصر (الفسطاط) بيوت من أربعة عشر دوراً وبعضها من سبع طبقات. وقد سمعت عمن يوثق به، ان ثمة رجلاً انشأ حديقة على سطح بيت ذي سبعة أدوار... وغرس فيه البرتقال الحلو والموز وغيرهما من الأشجار المثمرة والرياحين والزهور... وفي مصر دور كبيرة للتأجير تتسع الواحدة منها لثلثمائة وخمسين شخصاً. وبعض أسواق مصر وشوارعها تضاء فيها المصابيح باستمرار وذلك لأنها مسقوفة فلا يصل اليها نور الشمس[٧٠].

«ومن الغريب أيضاً في احوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل تصرفهم بالنهار في جميع احوالهم، وهو أكثر بلاد الله مساجد حتى ان تقدير الناس لها يطفف فمنهم المكثر والمقلل. وبالجملة فهي كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة في موضع. وربما كانت مركبة وكلها بأيمة مرتبين من قبل السلطان فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية في الشهر»[٧١].

وكان بنيامين الططيلي ممن زار الاسكندرية في القرن السادس هـ/ الثاني عشر م، وهو معاصر لابن جبير، وقد قال عنها:

«والمدينة التجارية وأسواقها تتسع لجميع الأمم. فيأتيها التجار من بلنسية وتسكانيا ولومبارديا وابوليا وامالفي وصقلية وقطالونيا واسبانيا والمانيا وسكسونيا والدنيمرك وانكلترا وفلندرة وفرنسة ونورماندیا وبرغنديا وجنوة وبيزا وغسقونيا ونافار. كذلك يأتيها تجار المسلمين من الأندلس وافريقية وبلاد العرب. كما يصل اليها قوم من الهند والحبشة والنوبة واليمن والعراق. وتستورد من الهند جميع أنواع التوابل التي يبتاعها التجار الأوروبيون. ولكل أمة في المدينة فندقها الخاص بها»[٧٢].

وكان ابن جبير دقيق الملاحظة، لذلك فان ما رواه عن تجارة عيذاب والبحر الأحمر والجلاب (أي المراكب) المستعملة فيه حرية باهتمامنا.

«ورمنا في هذا الطريق احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة سلع الهند الواصلة الى اليمن ثم من اليمن الى عيذاب. واكثر ما شاهدنا من ذلك احمال الفلفل. فلقد خيل الينا لكثرته انه يوازي التراب قيمة. ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء انك تلتقي بقارعة الطريق احمال الفلفل والقرفة وغيرها من السلع المطروحة لا حارس لها تترك بهذه السبيل اما لاعياء الأبل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار. وتبقى بموضعها الى ان ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار عليها من اطوار الناس.

«تجارة البحر الأحمر: عيذاب وهي مدينة على ساحل بحر جدة غير مسورة اكثر بيوتها اخصاص وفيها الآن بناء مستحدث بالجص. وهي من احفل مراسي الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائداً الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة. وهي في صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء الا مجلوب. لكن اهلها، بسبب الحجاج، تحت مرفق كثير، ولا سيما مع الحاج لأن لهم على كل حمل طعام يجلبونه ضريبة معلومة خفيف المؤونة،

بالإضافة الى الوظائف المكوسية والتي كانت قبل اليوم التي ذكرنا رفع صلاح الدين لها. ولهم أيضاً من المرافق من الحاج اكراء الجلاب منهم وهي المراكب فيجتمع لهم في ذلك مال كثير في حملهم الى جدة وردهم وقت انفضاضهم من اداء الفريضة وما من اهلها من ذوي اليسار الا من له الجلبة والجلبتان فهي تعود عليهم برزق واسع»(٧٣).

وفي آخر ما كتب عن القاهرة، وهو كتاب اندريه ريموند واسمه القاهرة (باريس ١٩٩٣)، ثمة فصل يلخص فيه مؤلفه دور الفسطاط الاقتصادي في ايام الفاطميين. وسنكتفي هنا بالإشارة الى النقاط الأساسية التي يثيرها هذا المؤلف الذي شغلت القاهرة نفسه وملأت شغاف قلبه، فهو يكتب عنها بالعلم الموثق والحب المؤثل.

وهذه النقاط يمكن تلخيصها فيما يلي:

١ ـ ان الفسطاط كانت نقطة الارتكاز الاقتصادي في مصر في تلك الأزمنة، لا الاسكندرية. فالسفن التي كانت تبحر من صور الى دمياط كانت تدخل الفرع الشرقي من النيل الى الفسطاط، وتخرج من الفرع الغربي نحو رشيد، ومن ثم تتابع ابحارها نحو الاسكندرية أو طرابلس أو المهدية.

٢ ـ وعلى نحو ما نعرف من رسائل نهراي بن نسيم كانت مصر تصدّر الصوف الى صقلية وتونس، وتتلقى حرير اسبانية وصقلية. ويتضح من مراجعة رسائل الغنيزة وسواها من مصادرنا ان الصناع كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر بسبب ما كان يتيسر لهم من ظروف مناسبة للعمل. فقد عرفنا منها مثلاً ان الصناع الذين عرفتهم مصر في الفترة التي نتحدث عنها جاءوها من اسبانيا والمغرب وبزنطة وفلسطين ولبنان والعراق وحتى من تفليس (القفقاس). وكانت اصناف من المصنوعات وخاصة الأقمشة، تنتقل مع هؤلاء الصناع. فالقماش السوسي هو من صنع مدينة سوسة اصلاً، لكن صناعته انتشرت في مصر وسواها، واحتفظ القماش باسمه. ومثل ذلك السجادة الطبرية واصل صناعتها من طبرستان.

٣ ـ وقد نقل اندريه ريموند ان الفسطاط كان فيها الكثير من مصانع للسكر وللورق وللحصر المقصبة (هذه كان عددها كبيراً حسب رواية عبد اللطيف البغدادي)(٧٤).

ما دمنا قد تناولنا موانىء مصر بالوصف نقلاً عن رحالي القرنين الخامس والسادس هـ/ الحادي عشر والثاني عشر م، فلننتقل الى الموانىء الشامية، ولنفعل بها الشيء نفسه. والمهم ان بيروت وعكا وصور لفتت نظر الرحالين الثلاثة ثيودورتش الالماني وفوكاس اليوناني وابن جبير العربي وهم متعاصرون.

«(**بيروت**): بيروت مدينة غنية وحصينة وكبيرة ومزدحمة بالسكان (فوكاس) ميناؤها جميل اتقنته يد الصانع الماهر، يحيط بالمدينة كالهلال، ويقوم في كل من طرفيه برج تسحب بينهما سلسلة تحمي السفن الموجودة في الميناء في الليل. (ثيودوريتش)(٧٥).

«(**صور**): هي انظف من عكة سككا وشوارع، واهلها الين في الكفر طبائع وأجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع. فخلائقهم اشجع ومنازلهم أوسع وافسح واحوال المسلمين بها

اهون واسكن. وعكة اكبر واطغى.. واما حصانتها ومنعتها فاعجب ما يحدث به وذلك انها راجعة الى بابين احدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها الا من جهة واحدة. فالذي في البر يفضي اليه بعد ولوج ثلاثة ابواب أو اربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب. واما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البلاد اعجب وضعاً منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الرابع جدار معقود بالجص. فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها. وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها. وعلى ذلك الباب حراس وامناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على اعينهم. فشأن هذا الميناء شأن عجيب في حسن الوضع. ولعكة مثلها في الوضع والصفة، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وانما ترسي خارجها، والمراكب الصغار تدخل اليها فالصورية اكمل واجمل واحفل. (ابن جبير)[٧٦].

«(**عكا**): تزيد عن غيرها (من مدن بلاد الشام الساحلية) في عدد السكان. تأوي اليها جميع السفن التجارية ويجتمع فيها الحجاج الآتون في البحر والمسافرون براً... وتكثر فيها الأوبئة بسبب كثرة الواردين عليها»[٧٧]. (فوكاس) «مدينة كبيرة كثيرة السكان... حيثما ينزل الحجاج، فأنهم مضطرون بعد انتهاء الحج الى الاجتماع في عكاء ليحملوا منها الى بلادهم.. وقد عددنا في يوم الأربعاء من اسبوع الفصح ثمانين سفينة في الميناء. (ثيودوريتش)[٧٨].

وزبائن الاتجار في السلع التي كانت اسواق سورية ومصر وتونس وصقلية تحتفظ بها كانوا من الروم (أي البزنطيين والايطاليين) وغيرهم. والمهم هو ان التجار الأوروبيين هم الذين كانوا يقصدون الموانىء العربية، سعياً وراء سلعها وتجاراتها. ولم يعرف ان تجار العرب المشارقة، في هذه الفترة، كانوا ينقلون تجاراتهم الى الموانىء الأوروبية.

من السلع التي كانت تنقل من أوروبة الى مصر خاصة الاخشاب وهذه كانت من اختصاص تجار البندقية وجنوة وامالفي. اما بزنطية فكانت تصدر الأقمشة والمواد الطبية الى الموانىء شرق المتوسط وغيرها[٧٩].

السفر والتنقل

يلاحظ غويتين ان هناك سلعاً لم يرد لها ذكر في المراسلات الغنزية مثل الحبوب (القمح والشعير والأرز) والأبل والخيل والحمير والأغنام والأبقار. ولكن الدجاج كثير وروده. وتجارة الرقيق التي كانت من اختصاص التجار اليهود حتى القرن الثالث هـ/ التاسع م، لا يرد لها ذكر خاص. ومثل ذلك يقال عن تجارة الأسلحة. لكن ذلك لا يعني ان هذه لم تكن سلعاً للنقل والتجارة، بل لعلها انتقلت على أيد أخرى، فلم يرد لها ذكر، إلا نادراً، في أخبار رسائل الغنيزة.

والتنقل التجاري في حوض المتوسط كان بحراً، ومواعيده الربيع والخريف. أما في الشتاء والصيف فقد كانت القافلة هي الأساس. ومن المتعارف عليه بين الباحثين ان قوافل شتوية منتظمة تقريباً كانت تسير من القيروان شرقاً. ومن الطرق الداخلية للقوافل طريق كان

يتجه من ليبيا الى الاسكندرية عبر الواحات المصرية وقد احتاجت احدى القوافل ستة اشهر في قطع هذه المسافة. ولم يكن هذا أمراً إدّا.

وقد كان السفر البري أكبر نفقة من السفر البحري. وعلى سبيل المثال فإن نقل الرجل من طرابلس (ليبيا) الى قابس (تونس) كان يكلّف ثلاثة دنانير مرابطية (مغربية). وكان انتقال الرجل من بلبيس (وهي آخر محطة على طريق القاهرة الشام البري) الى دمشق يكلّف الراكب دينارين (لكن ثمن الطعام كان داخلاً في المبلغ). وكان المبلغ الذي يدفع لنقل حمل جمل من الورق من دمشق الى القاهرة بين خمس قطع ونصف القطعة وبين ست قطع من الذهب. فضلاً عن ذلك فقد ترتب على التاجر ان يدفع ثُمن (١/٨) دينار للحراسة. وقد دفع التاجر نفسه خمسة دنانير أجرة نقل الحمل الواحد من خمسة احمال من الدراق (المجفف طبعاً) من عكا الى الفسطاط (كانت الأجرة خمسة دنانير لكل خمسين كيلوغراماً). وعندما تكون قافلة حجاج في طريقها من البحر الأحمر الى القاهرة وفيها «٥٠٠» جمل، يمكن ان يتصور المرء النفقات والاخطار والمصاعب والمتاعب في طريقها. ولم تنظر طرق قوافل بعيدة المسافة كأن تقوم قافلة من سجلماسة (في المغرب) الى الاسكندرية رأساً. كانت طرق القوافل تقتصر على أجزاء معينة، كأن تكون من سجلماسة الى القيروان. ولعل هذا كان انسب للأسواق والتجار ودواب النقل[٨٠].

على انه منذ العقود الأولى من القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م كان هناك انتقال، بشكل عام، من تجارة البر الى تجارة البحر. ولعل احد هذه الأسباب هو ان السفن ادخل على بنائها تحسينات جعلتها تحمل كميات اكبر كما اصبحت اكثر مقدرة على مقاومة الأمواج العاتية.

وفي سبيل اعطاء فكرة عن المدة التي كانت السفينة تحتاجها لاجتياز المسافة بين ميناء متوسطي وميناء متوسطي آخر نضع بين أيدي القراء نماذج لذلك:

من الاسكندية الى ألمرية (الأندلس) (سفينة صغيرة)	٦٥ يوماً
من مرسيليا الى الاسكندرية	٢٥ يوماً
من بلرمو (صقلية) الى الاسكندرية	٥٠ يوماً
(بسبب هبوب ريح شرقية لمدة	٢٠ يوماً)
المهدية الى الاسكندرية	٣٥ يوماً
تنيس (مصر) الى عسقلان	٧ أيام
الاسكندرية الى طرابلس (لبنان)	٧ أيام
عكا الى يافا	٥ أيام[٨١]

هذه كانت منافذ للتجار يحملون منها سلعهم وبضائعهم التي كانت تنقل اصلاً بين المحيط الهندي والبحر المتوسط في اتجاهين متعاكسين. والى الشرق من المدن الداخلية كانت، ولا تزال، تمتد رقعة هي بادية الشام أو البادية السورية (والى الجنوب منها بادية

العرب). هذه المنطقة كان سكانها بدوا، على اختلاف درجات البداوة. وهؤلاء كانوا، بطبيعة موقعهم وحاجاتهم، هم الذين يسهلون للتجار الانتقال أو يعرقلون تنقلهم. وكل ما في الأمر ان التاجر الحكيم أو الواحة المنتظمة الاحوال (مثل البتراء وتدمر) تم لهما اكتشاف السبيل. التجار أرضوا زعماء القبائل فيسّروا لهم الأمر. والمدينة الحكيمة قامت بضمان أمن القوفل الى مسافات طويلة وتقاضت جعلها مقابل ذلك.

إذا تدبرنا هذا كله ادركنا كيف كانت بضائع الهند وسلع الصين وبهارات اندونيسيا تتكدس في اسواق دمشق وحلب وتصل الى الموانىء الساحلية لتنقل الى أوروبا، ولما أُخرج الصليبيون من البلاد عادت الطرق سيرتها الأولى.

ذكرنا فوق نموذجاً عن الأيام التي تقضيها السفن، أو بعضها، في انتقالها من الموانىء الشامية الى بعض الموانىء الأوروبية، والآن ننقل نموذجاً للاسفار البحرية في المحيط الهندي:

من (مضيق) ملقا الى اشين	١٠ أيام
من اشين الى سيلان (سري لانكه)	٢٦ يوماً
من سيلان الى قليقوط (كاليكوت)	٨ أيام
من قليقوط ال هرمز	٣٤ يوماً
المجموع:	٧٨ يوماً(٨٢)

وإذا عدنا الى الأرقام التي نقلناها فوق عن بعض المدد اللازمة للتنقل بين موانىء البحر المتوسط واخذنا المدة من طرابلس (لبنان) الى الاسكندرية فمرسيليا مثلاً على ذلك، لوجدنا ان المدة هي ٣٢ يوماً.

ومعنى هذا انه لو ان شحنة مرسلة رأساً (وهذا لم يكن يحدث يومها) من ملقا الى مرسيليا، لاحتاجت ٧٨ + ٣٢ = ١١٠ أيام (وهذا دون حساب المدة اللازمة لاجتياز الجسر البري من هرمز الى ميناء شامي). وإذا تذكرنا الصعوبات المختلفة ـ عواصف البحر وزوابع البر ـ ومعارك الخصوم وخلافات افراد العائلة الواحدة ـ وبدو وغيرهم؛ وكل هذا يعترض طريق التاجر. أدركنا الأخطار التي يتعرض لها. لكن التاجر هو دوماً تاجر.

الهوامش

(١) فضلاً عن المظان الأصلية فقد رجعت الى الكتب التالية في وضع هذه الخلفية السياسية.

(٢) ابن خرداذبة، **المسالك والممالك** (بريل، ليدن ١٨٨٩)، ص ٩٢؛ ابن حوقل، **صورة الأرض** (ليدن ١٩٣٨)، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ لسترانج، غ.ج، **بلدان الخلافة الشرقية**، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص ٢٥، ١١٣، ١٥٨ آدم متز، **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري** (ترجمة عبد

الهادي ابو ريدة، بيروت ١٩٦٧)، ج٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩، ٣٧٢.

(٢) نقولا زيادة، «**تطور الطرق البحرية والتجارة بين البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي**»، في دراسات الخليج والجزيرة العربية السنة الأولى، العدد ٤، ص ٨٣ ـ ٨٧.

- Lucy Boulnois, *The Silk Road.* (New lok 1966) 60-73, 85-88, 137 ff, 142-6.
- A.R. Leuwis, *Naval Power and Trade in the Mediterranean* (Princeton, 1951) 41-50, 133-4.
- M. Lombard, *L'islam dans sa première grandeur* (VIIIe- XIe Siècle- (Paris, 1971) 198-200.
- M. Lombard, *Monnaie et Histoire d'alexandre au Mahomet* (Paris. la haye, 1971), 175.
- C.G.F. Simkin, *The Traditonal Trade of Asia* (Oxford, 1968) 28-35, 38)45, 54-72, 85f.
- Donald F. Lach, *Asia in The making& Europe vol I*, Chicago 1965 p.81.

(٣) سيد مقبول أحمد، **العلاقات العربية الهندية**، ترجمة نقولا زيادة، (بيروت، ١٩٧٤)، ص ١٢٢ ـ ١٢٨

Simkin, Traditional Trade, 97.

(٤) G.F. Mudson, *"The medieval trade with china"*, in Islam and the trade of Asia (ed. D.S. Richard) Bruno, Cassieres, Oxford, 1970), 160-164.

(٥) CHAU JU-KUA, New York 1966 (reprint), 24.

(٦) JU - KUA, 25, 26, 195 -7, 238.

(٧) N. Chittick, *East African Trade with the Orient in Islam and the trade of Asia*, (ed. R,S. Richards), (Oxford Bruno Cassireu, 1970), 98-103.

(٨) R. R. Di Meglio, *Arab Trade With Indonesia and the Malay Peminsula from the 8 th the 16 th century in islam and the trade of Asia* (ed. D.S. Richards), (Bruno Cassirer, Oxford, 1970), 105 -106.

(٩) Ibid, 111.

(١٠) Ibid, 109 -111.

(١١) شوقي عبد الغني عثمان، **تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية**، ٤١ ـ ٩٠٤هـ/ ٦٦١ ـ ١٤٩٨م (الكويت، ١٩٩٠)، ١٦٣ ـ ٢٠٣.

(١٢) A.R. leuris, *Naval Power and Trade in the mediterranean*, (Princeton, 1951) 189 ff.

(١٣) - Robert S. Lopez and Irving Raymond, *Medieval Trade in the mediterranean World* (New York, 1955), 33-4, 79-80, 239-44.
- J.M. Hussey (ed), *The Byzantine Empire*, II, 261, 271, 505-7, 632, 639, 643-9.

(١٤) - Robert, Henri Bautier,*The Economic Development of Medieval Europe* (London,1971), 79-96.
- Douglas C. North, Robert Paul Thomas, *The Rise of the Western World* (Cambridge,1973), 25-70.
- Herbert Heaton, *Economic History of Europe* (New york, 1964), 130 -144.

(١٥) D.S. Goitein, *A Mediterranean Society*, Vol. I, Economic 70 Foundations, (Berkely and Los Angeles, 1967), 153.

(١٦) Ibid, 153-4

على انه عندما نعود الى بعض المظان الأصلية نجد ان أنواع السلع وأصنافها بلغت أعداداً كبيرة. فقد ورد ان أصناف التوابل والأفاويه والطيوب والاصبغة التي تعامل بها التجار في تلك الأزمنة بلغت ٢٨٣ صنفاً. راجع:

Lopez aud Raymond, *Medieval Trade*, 108 -114.

(١٧) Lopez and Raymond, *Medieval Trade*, 74 -115.

(١٨) Olivia Remie Constable, *Trade and Traders in Muslim Spain*, (Cambridge, 1994), CC 102,

pp. 149-168.

(١٩) نقولا زيادة، «**تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر العباسي**»، ١٣٢ ـ ٤٥١هـ/ ٧٥٠ ـ ١٠٥٩م) في: محمد عدنان البخيت ومحمد يونس العبادي (محرران) **بلاد الشام في العصر العباسي** (١٣٢هـ/ ٧٥٠م ـ ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م) ـ (لجنة تاريخ بلاد الشام، عمان ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٢٠) Constable, *Trade and Traders*, 169 -208.

(٢١) ابن خرداذبة، **المسالك**، ص ١٥٤ ـ ١٥٥؛ زيادة، **تجارة بلاد الشام**، ص ٣١٣؛ زيادة، «**الاسطول العربي في أيام الأمويين**» في بحوث في تاريخ بلاد الشام (بلاد الشام في العصر الأموي)، تحرير محمد عدنان البخيت ومحمد يونس العبادي، ص ٨٠ ـ ٨٢.

(٢٢) Rita Rose Di Meglio, *"Arab Trade With Indonesia and the Malay Peninsula from the 8 th to the 16 th, century"*, in D.S. Richards (ed), (Cassirer, Oxford, 1970), 108.

(٢٣) نقولا زيادة، **افريقيات** (الريس للكتب، لندن، ١٩٩١)، ص ٤٩ ـ ٥٣.

(٢٤) نقولا زيادة، **المغرب والسودان في ايام المنصور الذهبي**، (الجامعة الاميركية، بيروت، ١٩٦٧) ـ خلال الكتيب.

- Elias N. Saad, *Social History of Tumbaktu*, (Cambridge, 1983), 1-14, 26-34.

- Munwick, J.O. *"Religion and State in the Songhy empire 1464-1591"*, in Islam in Tropical Africa (ed.) M. leuris, Oxford 1966, 296-317.

(٢٥) نقولا زيادة، «**الحروب الصليبية: النواحي الاقتصادية**» **في يوم القدس**، (بيروت ١٩٩٢)، ص ١٣٣ ـ ١٤٦؛ ميخائيل زابوروف، **الصليبيون في الشرق** (موسكو، ١٩٨٦)، ص ٢١٤ ـ ٢٧٩؛

- Jashua Prawer, *The Latin Kingdom of jerusalem*, (London, 1972), 392-402,

- Aziz S. Atiya, Cusade, *Commerce and Culture*, (Bloomington, 1962), 55-91, 162-204; Maya Shatzmiller (ed.), *The Crusaders and Muslims in the Twelfth century*, (Leiden, 1993) 1-17, 65-83, 112-132.

(٢٦) Prawer, 494-5.

(٢٧) زيادة، **العصر الأموي** (الاسطول العربي في عصر الامويين)، ص ٣١١ ـ ٣١٤؛ زيادة، **عربيات** (بيروت، ١٩٩٤)، ص ١٤٠ ـ ١٤٢ (مع الاهتمام بالهوامش ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٢٧، ٣٠، (في، ص ١٤٠ و١٤١، ١٤٣).

(٢٨) Boulnois, *The Silk Road*, 182-5.

(٢٩) متز، **الحضارة** ، ج ٢، ص ٣٢٤.

(٣٠) Maurice, Lombard, *Les Métaux dans l'Ancien Monde du Ve au XIe Siécle*, (Paris, La Haye, 1974), 65 ff.

(٣١) ناصر خسرو (توفي ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م) **سفرنامه** (رحلة ناصر خسرو) ترجمة يحيى الخشاب (بيروت ط٢، ١٩٧٠)، ص ١٠٤.

(٣٢) Lombard, *Les Métaux*, 211-222.

(٣٣) متز، **الحضارة**، ج ٢، ص ٣٥٠.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١. راجع أيضاً المقدسي، **أحسن التقاسيم**، (ليدن ١٩٠٦)، ص ١٠٨ و٢٠٣.
Andrew M. Watson, *Agricultural Innovation in the Early Islamic World*, (Cambridge, 1983), 31-41.

(٣٥) موريس شهاب، **دور لبنان**، ص ٢١؛ Boulnois, *The Silk Road*, 181-4.

(٣٦) Maurice Lombard, *L'islam dans sa Première Grandeur (VIIIe-XIe siècle)*, (Paris, 1971), 185.

(٣٧) ابن حوقل، ص ١٢٤؛ المقدسي، ص ١٧٤؛ متز، ج ٢، ص ٣١٤ ـ ٣١٧؛ Lombard, *L'Islam*, 184.

(٣٨) المقدسي، ص ١٦٠؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٥ ج (دار صادر بيروت، ج ٢، ص ٢٨٢ ـ ٢٩٠ (مادة

حلب) متز، ج ٢، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣؛ Lombard, *L'Islam*, 163-4.

(٣٩) المقدسي، ص ١٨٠. Walson, Agricultural Lombard, *L'Islam*, 164.

(٤٠) ابن حوقل، ص ١٦٠؛ المقدسي، ص ١٨٦.

(٤١) المقدسي، ص ١٦٠؛ ١٨٠؛ متز، ج ٢، ص ٣٠٩؛ Lombard, *L'Islam*, 166.

(٤٢) متز، ج ٢، ص ٣٠٩.

(٤٣) ابن حوقل، ص ٢٥٠ و ٢٥٤؛ المقدسي، ص ١٦٢ و١٨٠؛ متز، ج ٢، ص ٣١١.
Lombard, *L'Islam*, 167, Watson, 24-30.

(٤٤) المقدسي، ص ١٦٢ و١٧٤ و١٨٠.

(٤٥) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ٩ ج، تحقيق باربيه دو منيار وباوه دى كورتل، (ط طهران ١٩٧٠)، ج ٢، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩؛ المقدسي، ص ١٦٦ ـ ١٨١.

(٤٦) المقدسي، ص ٢٠٣؛ متز، ج ٢، ص ٣٠٣؛ Lombard, *L'Islam*, 168-70.

(٤٧) المقدسي، ص ١٤٥؛ متز، ج ٢، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨؛ Lombard, *L'Islam*, 168-70.

(٤٨) متز، ج ٢، ص ٣٤٦؛ Lombard, *L'Islam*, 172.

(٤٩) لسترانج، بلدان، ص ٤٧١ و٤٨٠ ـ ٤٨١ و٥٠٢؛ متز، ج ٢، ص ٢٩٦ـ ٣٠٣؛ Lombard, *L'Islam*, 194-202.

(٥٠) الاصطخري، ص ٦٣؛ زيادة، الاسطول العربي، ص ٧٤ ـ ٧٨. Lombard, *L'Islam*, 176.

(٥١) المقدسي، ص ١٨٠ ـ ١٨١؛ ناصر خسرو، ص ٤٨؛ متز، ج ٢، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٧.
Lombard, *L'Islam*, 190-192.

(٥٢) لسترانج، ص ٣٨٨ (هامش ١٨)؛ Lombard, *L'Islam*, 193-5.
Watson, Agricultural, 15 (note 6), 24 (notes 526), 31 (note 4), 42 (note 2), 155 (note13).

(٥٣) المقدسي، ص ١٣٦؛ متز، ج ٢، ص ٣٩٥.

(٥٤) المقدسي، ص ١٤٥؛ محمد الأزدي، **حكاية ابي القاسم البغدادي**، (مصورة عن طبعة هيدلبرغ ١٩٠٧) ـ **أنواع السفن النهرية**، ص ١٠٧.

(٥٥) ابن حوقل، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ (وبالس هي بارابلسس الرومانية Barabalissus) متز، ج ٢، ص ٤٠٠ ـ ٤٠١.

(٥٦) المقدسي، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٥٧) المقدسي، ص ٧٩ ـ ٨٣.

(٥٨) نقولا زيادة، **رواد الشرق العربي**، (بيروت ط ٢ منقحة ١٩٨٦)، ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٥٩) زيادة، **رواد**، ص ١٦٥.

(٦٠) زيادة، **رواد**، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٦١) نقولا زيادة، **دمشق في عصر المماليك**، (بيروت، ١٩٦٦)، ص ٧٥.

(٦٢) زيادة، **دمشق**، ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٦٣) زيادة، **دمشق**، ص ١٠٤ ـ ١٠٨.

(٦٤) زيادة، **رواد**، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٦٥) محمد، عدنان البخيت (محرر)، **بلاد الشام في العصر الأموي**، صالح درادكة، «**طرق الحج الشامي في العهد الأموي**»، ص ٤٣٧ ـ ٤٣٩.

(٦٦) زيادة، **عربيات**، ص ١٤٣.
Nicola Ziadeh, *Urban Life in Syria under the Early Momluks* ,(Beirut,1953),49-72,131-149.

(٦٧) فواز أحمد طوقان، **الحائر**، (عمان.....) تناول هذا الموضوع بكامله.

(٦٨) زيادة، **رواد**، ص ١٨٣.

(٦٩) زيادة، **رواد**، ص ١٨٣ ـ ١٨٤.
(٧٠) زيادة، **رواد**، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.
(٧٢) زيادة، **رواد**، ص ١٥٩.
(٧٣) زيادة، **رواد**، ص ١٦١ ـ ١٦٢.
(٧٤) André Raymond, *Le Caire*, (Paris, 1993), 38-121.
(٧٥) زيادة، **رواد**، ص ١٦٦.
(٧٦) زيادة، **رواد**، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.
(٧٧) زيادة، **رواد**، ص ١٦٧.
(٧٨) زيادة، **رواد**، ص ١٦٧.
(٧٩) Goitein, *med. Society*, 209-214.
(٨٠) Goitein 278-81.
(٨١) تجدر العودة الى ص ٢٧٣ ـ ٣٥٢ من كتاب غويتاين إذ يتناول فيه قضايا الأسفار ومشكلاتها. بتفصيل مفيد.
(٨٢) Goitein, 325-6.
Simkin, *Traditional*, 143-4.

مراجع البحث

الكتب العربية

ـ البخيت محمد عدنان ومحمد يونس العبادي (محرران)، **بلاد الشام في العصر العباسي** (١٣٢ ـ ٤٥١هـ/ ٧٥٠ ـ ١٠٥٩م) (عمان ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).
ـ حتي، فيليب وادورد جرجي وجبرائيل جبور، **تاريخ العرب** (مطول) (ط ٧ منفتحة، بيروت، ١٩٨٦).
ـ زامباور، **معجم الانساب والاسر الحاكمة في التاريخ الاسلامي**، اخراج زكي محمد حسن وحسن احمد محمود (بالاشتراك مع آخرين) (بيروت، ١٩٨٠).
ـ زاربورف، ميخائيل، **الصليبيون في الشرق** (دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦)
ـ زويد، محمد احمد، **حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني وحتى نهاية العصر الفاطمي** (بيروت، لا. ث.)
ـ زيادة، نقولا، **شاميات** (رياض الريس للكتب لندن، ١٩٨٩)
ـ زيادة، نقولا (اشراف)، **من رحلات العرب** (بيروت، ١٩٧٤).
ـ عباس، احسان، **تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي** (عمان، ١٩٩٢)
ـ عبد الغني، عبد الرحمن محمد، **موقف البزنطيين والفاطميين من ظهور الاتراك السلاجقة**.
ـ (حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، رقم ١٥، ١٤١٥/ ١٩٩٤).
ـ عثمان، شوقي عبد القوي، **تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية** (٤١ ـ ٩٠٤هـ/ ٦٦١ ـ ١٤٩٨م) (الكويت، ١٩٩٠).
ـ فرح، نعيم، **تاريخ بزنطة** (دمشق ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦) ١٤٠٥ ـ ١٤٠٦هـ.
ـ كاشف، سيدة اسماعيل، **مصر في عهد الاخشيديين** (القاهرة، ١٩٨٩).

الكتب الأجنبية

- Baynes, Norman H.& Moss St. L.B., *Byzantium*, (London, 1948), esp. pp. 1-70- 308-325.
- Bosworth, C.E, *The Islamic Dynasties*, (Edinburgh, 1967).
- Cahen Claude, Orient et Occident au temps des Croisades, (Paris, 1983)

- Cahen, Claude, *Points de Vue Sur la Révolution Abbaside*, (Revue Historique, 1963).
- Chejne, Amuar G, *Muslim Spain* (Miniapolis, 1974)
- Dachraoui, Farhat, *Le Califat Fatimide au Maghreb, 296-362/ 909-973*, (Tunis, 1981)
- Aaftary, Farhad, *The Ismailis* (Cambridge, 1992) esp. pp. 144-255
- Donner, F.M., *The Early Islamis Conquest*, (Princeton, 1981).
- France, John, *Victory in the East: A Military History of the First Crusades*, (Cambridge, 1994).
- Frye, R.N., *Bukhara*, (Norman, 1965).
- Hill, D.R., *The Termination of Hostilities in the Early Arab Conquests*, (London, 1971).
- Halt, P.M., *The Age of the Crusades*, (London, 1986).
- Hourani, Albert, *A History of The Arab Peoples*, (London, 1991) esp. pp. 22-58, 83-97
- Hussey, Jean, (edit), The Byzantine Empire, *Cambridge Medieval History*, Vol IV (in 2 parts) Second Edition, (Cambridge, 1967).
- Hunt, David, ed., *Footprints in Cyprus*, (London, 1982).
- Irwin, Robert, *The Middle East in the Middle Ages*, (London and Sidney, 1986).
- Kaegi, Walter E., *Byzantium and the Early Islamic Conquests*, (Cambridge, 1992).
- Knabloch, Edgar, *Beyond The Oxus*, (London, 1972).
- Labib, Subhi Y, *Handelsgeschichte Agytens in Spatmi helalters*, (Wies-baden 1965) esp. pp. 7-12.
- Morgan, David, *The Mongols*, (Blackwell, Oxford, 1986).
- Shaban, M.A,. *Islamic History: A New Interpretation, 2, A.D. 750-1055* (A.H. 132-448), (Cambridge, 1976).
- Smail, R.C., *The Crusades*, (London, 1973).
- Wiethoff, Bodo, *Introduction to Chinese History*, (Translated from the German), (London, 1975).
- Fischel J.W. *Jews in The Economic and Political Life of Medianal Islam* (London, 1937).

تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر السلجوقي

القسم الأول ـ الخلفية السياسية

- ١ -

ان الموضوع الذي ننوي معالجته في هذه الدراسة هو تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر السلجوقي، أي في القرنين الخامس والسادس للهجرة/ الحادي عشر والثاني عشر للميلاد.

ونرى انه جدير بنا ان نرسم لوحة مختصرة الخطوط للحياة السياسية التي كانت تسود العالم الإسلامي عامة، كي تتضح لنا المعطيات الأساسية التي كانت تتحكم في طرق التجارة والأسواق والمتاجر والسلع في تلك الفترة.

إذا نحن ألقينا نظرة عامة شاملة على هذه الرقعة الواسعة في مطلع القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م اتضح لنا انه كانت هناك ثلاث دول للخلافة، وهو الأمر الذي شهد القرن السابق ابتداءه، إذ قامت الخلافة الفاطمية في المغرب العربي سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م. وكانت القيروان وجوارها عاصمتها الأولى، ثم بنيت المهدية فكانت عاصمتها الخاصة. ثم انتقل الخلفاء الفاطميون الى مصر فاحتلوها سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م. فلما اهلّ القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م كانت خلافتهم قوية، وكان نفوذهم قوياً حتى انه وصل بلاد الشام. وظلت الخلافة قائمة حتى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م لما قضى عليها صلاح الدين، وخلفتها الدولة الأيوبية.

وكانت الأندلس قد اتخذ ملوكها لقب الخلافة في ايام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١م). لكن هذه الخلافة لم يطل امدها. فقد اصبحت هشة الى درجة كبيرة في مطلع القرن الخامس هـ/ الحادي عشر، ولم تلبث ان ذابت سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١، وخلفها ملوك الطوائف. هؤلاء كانوا يخسرون اجزاء الأندلس تدريجاً للأسبان.

اما دولة الخلافة الثالثة، وهي الأقدم، فهي خلافة بني العباس التي كانت بغداد عاصمتها (باستثناء فترة سامراء). لكن هذه الخلافة كان قد ضعف شأنها لمّا تولى الأمر فيها بنو بويه (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، بحيث ان سلطان الخليفة كاد، منذ ذلك الوقت، ان يقتصر على بغداد. وحتى هذا اصبح اسميا لما جاء السلاجقة ودخلوا العاصمة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)، وأصبحوا اصحاب الحل والعقد.

حريّ بالذكر ان الترك، على اختلاف في اصولهم الجغرافية والعرقية، كانوا معروفين رقيقاً ينقل الى الأسواق العباسية عن طريق ما وراء النهر وخراسان وطريق جنوب شرقي بحر قزوين وطريق القفقاس (الخزر). ومع ان البعض كان يقوم بأعمال منزلية وأعمال عادية في

الحمامات وما اليها، فان العدد الأكبر من هؤلاء الأتراك كانوا يستخدمون في الجيش. ومع ذلك فان هذا الاختراق التركي لأمور الدولة، الذي كان الخلفاء وأمراء الأطراف يشجعونه، لم تدخل فيه أعداد ضخمة من هذه الجماعات. لكن القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م شهد هجرات تركية على مستوى القبائل، الأمر الذي أدى الى قيام دويلات تركية في الأجزاء الشرقية من دولة الخلافة العباسية مثل القراخانيين في ما وراء النهر (٣٨٢ ـ ٦٠٧هـ/ ٩٢٢ ـ ١٢١١م).

إلا ان الجماعة التي دخلت دولة الخلافة واستولت على بغداد (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) كانت القبائل السلجوقية. فهذه لم تكتف ببغداد وما حولها بل انها أقامت لها دولة السلاجقة الكبيرة ايام طغرل، والتي بلغت عزها ايام الب ارسلان وملكشاه (٤٥٥ ـ ٤٨٥هـ/ ١٠٦٣ ـ ١٠٩٢م)، والتي استولت فروعها فيما بعد على المنطقة الممتدة من إيران الى آسية الصغرى والأقطار العربية الواقعة الى الشرق من مصر.

كان السلاجقة قد اعتنقوا الاسلام قبل دخولهم دولة الخلافة، وكانوا سنّة، لذلك بدوا وكأنهم أرادوا أن ينقذوا الخلافة السنية من السيطرة الشيعية (بني بويه). على ان الذي مكّن لهم من التفوق على جيوش سامانية أولاً ثم بويهية وغزنوية فيما بعد، هو الصفات القتالية التي كان الجنود يتمتعون بها، وفي مقدمتها حرية التحرك العسكري والسرعة في التنقل والتحلل من الارتباطات المحلية التي تشل، في احيان كثيرة، النشاط العسكري وتمنع الجنود من العمل السريع. ولأن هذه الجماعات كانت تأتي بأعداد كبيرة نسبياً، وكان فيها الكثير من التراص، فان انتصارها كان كبيراً. ولنذكر انها كانت فتية تدخل مناطق قد ثقل فيها على الناس القتال وآثروا العافية. وإذا تذكرنا ان هذه الهجرات قد استمرت زمناً طويلاً، أدركنا الأسباب التي أدت الى نجاح السلاجقة عسكرياً. وقد انتهى الأمر بهم ان تبدلت التركيبة الاثنية لمناطق معينة من الرقعة التي استولوا عليها، مثل آسيا الصغرى.

وقد كان لمجيء هذه الأعداد الكبيرة وانتصارها وإقامتها دولاً ودويلات أثر في تغيير ملكية الأرض (من حيث الاقطاع) وفي الحياة الثقافية والاجتماعية. وسنرى، فيما بعد، تأثير هذه الدول في تطور بلاد الشام التجاري.

ولنتذكر ان الشمال الأفريقي أصبح في العصور التي تلت الفتح العربي الإسلامي، منطقة مزدهرة اقتصادياً. وقد عاد هذا الى العناصر التي انتقلت الى تلك الديار من المشرق ـ وهي عربية وفارسية وتركية. والمؤرخون يروون أخبار هؤلاء المهاجرين الذين بلغوا قمة النجاح في القرن الرابع هـ/ العاشر للميلاد، إذ اصبحت منطقة الشمال الأفريقي هي التي تزود الجوار بحاجاته من الحبوب والأقمشة وما الى ذلك. فضلاً عن ان مدن الساحل هناك أصبحت نقط انطلاق تجاري بالنسبة لاسبانيا وموانىء أوروبة الجنوبية والأسواق الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى.

كان القائمون على شؤون الدولة الفاطمية يدركون أهمية التجارة وطرقها، لذلك فانهم

عنوا عناية خاصة بأن تكون الطرق التي تخرج من بلاد النوبة عبر الواحات المجاورة لمصر والتي يقع بعضها في برقة، تحت نفوذهم، كي يفيدوا من اعادة تصديرها من موانئهم في شمال افريقية، وكانت المهدية احداها. ومن هنا كانت هذه الحملات التي شنها الفاطميون (٣٠١ ـ ٣٠٢هـ/ ٩١٣ ـ ٩١٥؛ ٣٠٧هـ/ ٩١٩م؛ ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م) على هذه المناطق المحاذية لمصر أو حتى لمصر بالذات. وقد كان الرأي السائد عند المؤرخين، ولا يزال الكثيرون يقولون به، هو ان هذه الحملات كانت موجهة ضد مصر نفسها، وان الجيوش الفاطمية لم تنجح في مهمتها، لأن جيشاً اخشيدياً تركياً يقوده مؤنس الخادم جاء (في المناسبتين الأوليين) لنصرة الفرق المصرية وأخرج المهاجمين. لكن محمد عبد الحي شعبان هو الذي نقل الفكرة من كون الهجوم كان محاولة لفتح مصر الى انه كان لضمان السيطرة الفاطمية على الطرق التجارية النوبة ـ الواحات ـ برقة ـ تونس.

على ان التجربة أثبتت للفاطميين، خاصة للمعز ووزيره يعقوب بن كليس، ان السيطرة على الطرق التجارية بكاملها هي الأصح، ومن هنا جاء الفتح الفاطمي لمصر ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م.

والدولة التي ورثها الفاطميون في مصر هي دولة الاخشيديين (خلفاء الطولونيين). وقد دامت هذه الدولة من سنة ٣٢٣ الى سنة ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م. وأدرك الاخشيديون، كما أدرك حكام مصر من قبل ومن بعد، أن خطوط الدفاع عن مصر الشمالية البرية لا تقع في صحراء سيناء، ولا حتى في منطقة الكرمل ـ الرملة في فلسطين، ولا في دمشق وامتدادها غرباً وشمالاً في غرب. ان خطوط الدفاع عن مصر شمالاً هي جبال طوروس. ومن هنا فقد كان من الأمور التي تجلت فيها عبقرية كافور الاخشيدي (وصياً على عليّ أولاً وحاكماً فيما بعد لمدة مجموعها ٣٤٩ ـ ٣٥٧هـ/ ٩٦٠ ـ ٩٦٨م) هو انه استطاع ان يوقف بني حمدان في ديارهم في شمال سورية، وأن ينظم الدفاع عن مصر غرباً.

لعله من المناسب هنا ان نضع أمام انفسنا خلاصة لما كانت عليه بلاد الشام في القرن الرابع هـ/ العاشر م ولو على حساب بعض الاطالة (بعض الدويلات التي قامت استمرت حتى القرن التالي).

١ ـ كان الحمدانيون اصحاب الأمر في الموصل أولاً ثم فيها وفي حلب. وقد دام سلطانهم نحو قرن من الزمان (٢٩٣ ـ ٣٩٤هـ/ ٩٠٥ ـ ١٠٠٤م). وهم من قبيلة تغلب، إلا انهم تحالفوا مع بني كلاب ونمير. على ان جيش سيف الدولة كان قوامه تركا وديالمة (الديلم) وفئة من القرامطة وجماعة من الأكراد. هذا هو الجند الذي كان يعمر الأسواق بسبب انسياح فئات من أواسط آسية نحو الغرب ـ نحو المشرق العربي. وقد قضى على البيت الحمداني لؤلؤ ثم جاء الفتح الفاطمي فقضى على الدولة.

٢ ـ المروانيون أقاموا لهم دويلة في ديار بكر (٣٧٢ ـ ٤٧٨هـ/ ٩٨٣ ـ ١٠٨٥م)، وهم اكراد اصلاً. وقد تولوا الموصل لبعض الوقت. كما انهم دفعوا الجزية للصقليين المواصلة.

وكان نصر الدولة أحمد (أو لعله محمد) بن مروان حاكماً لمدة طويلة (٤٠١ ـ ٤٥٣هـ/ ١٠١١ ـ ١٠٦١م). وقد ازدهرت مدن آمد وميافارقين وحصن كيفا في ايام المروانيين اقتصادياً وعمرانياً.

وقضى السلاجقة على هذه الدويلة.

٣ ـ العقيليون الذين كان لهم ثلاثة مراكز رئيسة في جزيرة ابن عمر ونصيبين وبَلَد أولاً، والموصل وجزيرة ابن عمر ونصيبين وبلد ثانياً وفي تكريت ثالثاً. ودامت سلطتهم مجتمعة ومقسمة من حول ٣٨٠ الى ٤٨٩هـ/ ٩٩٠ ـ ١٠٩٦م. وكان ثمة خمسة فروع صغيرة قامت في عانة والحديثة وقلقة جعبر وعُكبره وهيت (وأكثر هذه كانت في بلاد الرافدين).

وقد انتهى أمرهم اصلاً لما احتل تُتُشُ السلجوقي منازلهم الأصلية.

٤ ـ المرداسيون عرب من بني كلاب، وقد هاجروا، مع من هاجر من القبائل العربية، من منطقة الحلة في العراق الى ديار حلب. ويبدو أن هذه الهجرة كانت جزءاً من انتقال كبير لقبائل عربية الى أطراف العراق والشام، في القرنين الرابع والخامس هـ/ العاشر والحادي عشر م. ولعل اضطراب الاحوال في البادية السورية هو الذي حفز هذه القبائل على الهجرة. وقد دامت دولة المرداسيين في حلب وشمال سورية من سنة ٤١٤ الى ٤٧٢هـ/ ١٠٢٣ ـ ١٠٧٩م، وقضى عليهم العقيليون.

كان المرادسيون بين مطرقتين: الفاطمية التي توصلت الى السيطرة (ولو لمدة قصيرة نسبياً) على شمال سورية؛ والبزنطية التي خرج اصحابها من حالة ركود وشبه فوضى وقد وعوا الأمر واستعادوا نشاطهم العسكري.

وقد نجح الفاطميون، عبر قائدهم التركي أنوشْتغين والي دمشق، في الاستيلاء على حلب نفسها مرتين، واستبدلت، في المرة الثانية بعكا وبيروت وجبيل.

وأخيراً استولى مسلم بن قريش العقيلي على الأمر، وعوض الأسرة المدراسية عن ملكهم بأماكن متفرقة في سورية. وكان ذلك سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م.

فضلاً عن هذه الدويلات التي أشرنا اليها، فقد قامت في بلاد الشام قوى قبلية بدوية مثل بني الجراح (من طيء) في الرملة وبني نمير في حران والرها.

ولعله لا يضيرنا ان نضع امام القارىء بضع ملاحظات توضح أموراً قد تختفي خلف الأحداث.

أول هذه الملاحظات هي هذا الاندفاع البدوي ـ القبلي من البادية السورية وشمال الجزيرة العربية نحو أرض الرافدين وبلاد الشام الذي عرفه القرن الرابع هـ/ العاشر م والقرن الخامس هـ/ الحادي عشر. ولعل هذا الاندفاع كان هرباً من حالة نقص في المواد الغذائية في تلك المناطق، فخرج الناس يبحثون عن اماكن ينالون فيها ما يحتاجون. ومن الطريف ان هذا يحدث بعد نحو خمسة قرون من الفتوح العربية. وإذا نحن عدنا القهقرى في

التاريخ، لاحظنا ان شيئاً مثل هذا الخروج من الجزيرة وما اليها كان يتم في فترات تفصل بينها قرون خمسة أو ما اليها. هذه ظاهرة تغلب على الشعوب التي عرفناها تاريخياً منذ ايام الأكديين (الأكاديين) القدامى.

والأمر الثاني الذي نود ان نسجله هو ان اكثر هذه القبائل لم تستقر استقراراً تاماً في المنطقة التي وصلت اليها، بل ظلت على بداوتها ولو انه كان لها «دويلة»، ويستثنى من ذلك الحمدانيون، الذين أقاموا ملكاً وبنوا قصوراً وكانت لهم حكومة مركزية ذات أجهزة معينة. والى جانب هؤلاء نجد ان العقيليين والمرانيين كانت لهم حكومة، بالمعنى المفهوم لتلك الكلمة يومها. أما بنو كلب وبنو نمير وبنو الجراح فلم يكن لهم سوى تنظيم قبلي يتبع الأسلوب المعروف في مثل هذه الأحوال. وبعبارة أخرى فان «الادارة» انتقلت من المدينة الى المخيم البدوي.

وترتب على هذا الذي ذكرنا ان القبائل التي ظلت على البداوة كانت تعيش على أمرين: مد اليد الى ما عند سكان الأماكن المستقرة من فلاّحين وصناع جمعاً لاتاوات تفرض آنيا ومن دون أي اعتبار اقتصادي، لأن ذلك لم يكن في مقدورها. والأمر الثاني هو توسيع الرقعة التي كانت ترعى فيها أنعامهم وأبقارهم وبقية حيواناتهم على حساب الزراعة، وهي قوام الحياة والعنصر الأساسي من حيث مورد الرزق للناس. وتلا ذلك كله تخريب «المدينة» من حيث هي مركز حضارة: صناعة وتجارة وبناء ومجتمعاً. ومن شر الامثلة على ذلك الرملة التي أصبحت، على أيدي بني الجراح خواء تصفر فيه الرياح.

ونجد أنفسنا، ونحن نعد هذه الملاحظات، أننا وصلنا الى الرابعة منها، وهي انه منذ أوائل القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م اخذت قبائل من التركمان والغزّ تطرأ على بلاد الشام. وهذه ظلت أيضاً بدوية في الروح، وان كان الباحثون يرون فرقاً بين البداوة القادمة من الشرق والبداوة التي كانت اصيلة في المنطقة. وبهذه المناسبة فان البربر، الذين طرأوا من الغرب، وخاصة ايام الفاطميين، كانوا يختلفون عن الفئتين الأخريين. لكن هذه الفروق كلها ليست بذات قيمة عندما يدور الحديث حول أثر هذه الجماعات البدوية في الأرض والعباد وأعمالهم، كانت تخرب وتتلف وتهدم اكثر مما تحافظ على الأشياء، ولنترك قضية البناء جانباً.

ومما يدخل في تصرف القبائل البدوية، رغبة منها في الحصول على المال، هو أعمال النهب الكبرى التي كانت تتم على يديها. مثل ذلك ان بني كلب، ومعهم قبائل أخرى، قد نهبوا حوران وطبريا (٢٩٣هـ/ ٩٠٦م)، ولو ان محاولتهم نهب دمشق لم تنجح يومها. ومثل ذلك يقال عن نهب قافلة الحج (٢٩٤هـ/ ٩٠٧م).

نأتي هنا الى ملاحظة أخرى حرية باهتمامنا ـ ولو انها لم تغير في طبيعة العمل البدوي ـ وهي ان هذه القبائل المختلفة في مناطق السكن والمتفقة على التنقل والنهب، جاءها عامل هام كان بمثابة جامع منشط لها وهو القرامطة، الذين دخل دعاتهم بين هذه

القبائل ونقلوا الكثيرين من زعمائها الى المذهب القرمطي الشيعي مبدئياً. ولأن القرامطة انفسهم كانوا قبائل بدوية، فان دخول آرائهم بين بدو ديار الشام لم يغير من الأمر شيئاً، الا إذا كان قد منحهم، أي بدو الشام، عنصر نشاط للنهب والسلب.

وما دمنا قد أشرنا الى القرامطة، فلنذكر انهم سنة ٣١٧هـ/ ٩٣٠م هاجموا قافلة الحج ودخلوا الحجاز واستولوا على مكة وحملوا الحجر الأسود الى البحرين (الاحساء)، حيث احتفظوا به الى سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥١م؛ يومها أعادوه لأن الاخشيديين قبلوا ان يدفعوا لهم اتاوة سنوية مقدارها ٣٠٠ر٠٠٠ (ثلاثمئة ألف) دينار. لكن موقف القرامطة من السلطات والقوى التي كانت تظهر في بلاد الشام كان موقفاً عدائياً اصلاً، على ما يبدو من تعدد الغزوات القرمطية للبلاد. ويرى هيو كندي ان القرامطة كانوا يعتبرون سورية محمية قرمطية، إذا جاز استعمال كلمة «محمية» لتلك الأزمنة.

- ٢ -

يجدر بنا الآن ان ننتقل الى الميدان البزنطي لنرى ما الذي تم على يد القوم في القرن الرابع هـ/ العاشر م. ذلك ان الدولة البزنطية عاد اليها شيء كثير من النشاط الإداري والعسكري فأصبح باستطاعتها ان تجند أعداداً كبيرة في جيوشها قد يبلغ عددها، عند الحاجة (٢٠٠ر٠٠٠) جندي. ومن هنا جاءت هذه الحملات التي شنتها بزنطية على المناطق الجبلية من جنوب الأناضول، طوروس، وما يقع جنوبها. وقد بدأ العمل الحربي هناك سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م.

كان ثمة مساجلات حربية بين الحمدانيين والبزنطيين. ففي الفترة بين سنتي ٣٢٧ و٣٢٩هـ/ ٩٣٨ و٩٤٠م قامت حملات من هنا وهناك بالهجوم على بلد الآخر، فاستولى سيف الدولة على عدد من المدن والحصون وحاصر البعض الآخر وأحرق بعض الرساتيق وسلب الضياع المتعددة في تلك النواحي.

وتجدد القتال سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م ثم في السنة التالية. على ان الحملات البزنطية اصبحت أقوى وأبعد أثراً بعد سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م، ذلك لأن الأباطرة الذين تولوا العرش البزنطي بين ٩٥٩ و١٠٢٥ كانوا أكثر مراساً بشؤون القتال والحرب، وكانوا أكثر مقدرة على تنظيم الجيش وتحضير الأعداد الكبيرة من الجنود، بحيث انه كان من المستطاع ان يبلغ الجيش البزنطي ٢٠٠ر٠٠٠ جندي على ما ذكرنا، في الوقت الذي لم يكن الأمير الحمداني، وسيف الدولة بالذات، يستطيع ان يدفع إلا بنحو ٣٠ر٠٠٠ من الجنود الى الميادين. فضلاً عن ذلك، فان المدد الخارجي للدفاع عن منطقة العواصم والثغور، الذي كان يأتي من العاصمة العباسية مثلاً، لم يكن له ايام هذا الهجوم الجديد وجود.

على اننا نود ان نشير الى قضية أخرى ذات أهمية كبيرة بالنسبة للقتال في هذه المناطق ونقصد القتال ضد البزنطيين، وهي الرباطات التي عرفتها المنطقة وخاصة رباط طرسوس. هذه الرباطات، مثل عشرات منها، كانت تقوم على حدود دولة الإسلام في الشرق

والغرب، وكان يقيم فيها قوم نذروا انفسهم للقتال والدفاع عن بيضة الاسلام. بعض هؤلاء كانوا يقيمون دوماً، والبعض الآخر كان يأتي لوقت محدود. والمهم ان رباطات هذه المنطقة كان يؤمها مقاتلون من المشرق الإسلامي، لا من المنطقة فحسب.

ولما انتصر البزنطيون واحتلوا مدن هذه المنطقة الجبلية (طوروس) وما اليها من السهول، هجّروا الكثير من السكان. وأسكنوا مكانهم جماعات اثنية أخرى جيء بها من جهات مختلفة. ولعل مدينة مَلطْية المثل الأكثر توضيحاً لهذا الذي حدث. فان نقفور (٩٦٣ ـ ٩٦٩) أجلى سكانها وجاء بفئات مسيحية من حيث شاءت، وكان على رأس المدعوين للاقامة فيها بطريرك انطاكية اليعقوبي (أي رئيس القائلين بالطبيعة الواحدة)، الذي كان يتخذ من الرقة أو حران مركزاً له. وقد أشار هيو كندي الى التوسع في التنظيم الكنسي في القرنين الرابع هـ/ العاشر م والخامس هـ/ الحادي عشر م، إذ ان الفترة عرفت انشاء عشر اسقفيات جديدة حول ملطية وأربع حول مرعش وخمس في منطقة سُميساط، كما بني ستة وخمسون ديراً في المنطقة بأجمعها بين ٩٣٦ و١٠٤٧.

كان من جراء هذه السياسة لتوطين أتباع الكنيسة اليعقوبية، وهي كنيسة غير مقبولة اصلاً في الدوائر البزنطية، اثارة مشكلات لهؤلاء، بحيث ان البطريرك اليعقوبي (ديونوسيوس الرابع) فضل الانتقال الى آمد ليعيش في ظل حاكم مسلم، وذلك في الثلاثينيات من القرن الحادي عشر.

وكان بين المسيحيين الذين انتقلوا أو نقلوا الى هذه المنطقة التي وقعت تحت نفوذ البزنطيين، جماعات جاءت من مصر ايام الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٤١١هـ/ ٩٩٦ ـ ١٠٢١م) ومن فلسطين ايام سيطرة بني الجراح (من بني طي) في الرملة وجوارها.

ولعله من حقنا ان نتساءل عن أولئك الذين كانوا يأتون من المشرق ليعمروا الرباطات ـ هل انقطع سيلهم؟ والجواب قد يكمن في ان الفقر الذي انتشر في مناطق العراق وخاصة شمالها وفي بلاد الشام بسبب الحروب والغارات وتدمير المدن وتقليص المناطق الزراعية مقابل توسيع مناطق الرعي، كان يحول دون اقامة اعداد كبيرة فيما تبقى من هذه الرباطات.

وهكذا، فقد تبدل السكان في هذه المنطقة، ولما عادت المنطقة الى حظيرة الاسلام فيما بعد، سكنتها اقوام جديدة، لذلك فان الجزء الأكبر منها أصبح تركي العنصر واللغة.

ومع ذلك، فان البزنطيين لم يقضوا على الدولة الحمدانية: حافظوا عليها واعتبروها محمية تابعة لهم وترسا ضد الجنوب.

على ان التقدم البزنطي لم يقتصر على الحملات البرية. ذلك بأن الأسطول البزنطي نجح في البحر أيضاً. فقد ضم البزنطيون، عن طريق الحملات البرية والحصار البحري، المنطقة الساحلية الممتدة من ساحل الرملة الى انطاكية الى املاكهم. ذلك بأن هذه البلاد، وحتى أرض الرافدين، لم تحظ بقوة مركزية ذات نفوذ وقوة وسطوة للدفاع عنها أمام القوى المهاجمة. وحتى دمشق، التي لم تحتل، دفعت جزية كي يبتعد القوم عن حصارها أو اخذها.

وطرابلس كانت المدينة الساحلية الوحيدة التي مكّنها وجود الأسطول الفاطمي وأسوارها الحصينة من الصمود. على ان هذا الاحتلال البزنطي لسورية كان موقتاً، ذلك بأنه في سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م كانت الأجزاء السورية حتى انطاكية قد عادت اليها القوات الفاطمية، ولو ان عودتها لم تكن قوية أو مستمرة.

لكن النجاح البحري البزنطي كان في احتلال كريت وقبرص ٣٥٠هـ/ ٩٦١م.

في سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٠م دخل الجيش الفاطمي مصر. وكان بقيادة جوهر (ولم يصل الخليفة المعز البلاد إلا سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م). وليس لدينا شك في ان جوهر والمعز كانا يدركان، على الأقل قبيل دخول مصر بمدة وجيزة، أن الإقامة بمصر لا يمكن ان يُطمأن اليها ما لم تملك نقاط الدفاع عنها. فهي معرضة لهجوم من الشمال الشرقي عبر بلاد الشام وسيناء. ولكن اين تقع النقاط الأساسية التي تعتبر نقاط دفاع حقيقية قوية؟ الاسلاف القريبون للفاطميين في مصر ـ الطولونيون (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥م) والاخشيديون (٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م) ـ ادركوا السر في الأمر، لذلك حاول الأولون امتلاك بلاد الشام، وبذلك نجحوا في احتواء البزنطيين الى درجة كبيرة. اما الاخشيديون فلم يصلوا الى جبال طوروس ـ الحد الطبيعي والحصن الأكيد لحماية مصر ـ بل تركوا الحمدانيين (لعلهم لم يقدروا عليهم). «دولة حامية» بين القوتين البزنطية والإخشيدية.

المعز وجوهر كانا يدركان هذه القضية. لذلك لم يكد جوهر يستقر في مصر حتى ارسل جعفر بن فلاّح على رأس جيش لانتزاع بلاد الشام من الأخشيد. وقد نجح ابن فلاّح في هزم الاخشيد في الرملة والاستيلاء عليها، واحتلال دمشق. لكن جند فلاّح، وهم من كتامة في غالبهم، اساءوا التصرف في البلد نهباً وسوء أدب وغلاظة وتدميراً بحيث أن أهل المدينة ضاقوا بهم ذرعاً. واستنجد أهل البلد بالقرامطة الذين جاءوا من الخليج العربي وانتصروا على البربر، وقتل جعفر بن فلاّح. لكن ذلك لم يخرج الفاطميين من البلد. بل انهم ظلوا فيها حتى دخلها البُتكين التركي (٣٦٤هـ/ ٩٧٤م)، بطلب من أهل دمشق ورغبتهم، وأخرج منها واليها الفاطمي. وكما دعي للخليفة للفاطمي لما دخل ابن فلاّح المدينة، فقد اعيدت الخطبة للخليفة العباسي لما استقر فيها البُتكين. ويبدو ان هذا القائد التركي احتل جبيل وبيروت وصيدا وعكا وأخرج القوات الفاطمية منها.

لم يرق هذا الأمر للخليفة الفاطمي الجديد، العزيز (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ/ ٩٧٥ ـ ٩٩٦م)، الذي خلف اباه المعز، فأرسل قواته الى بلاد الشام وأوكل أمرها الى جوهر الصقلي. فوصل هذا دمشق وضرب الحصار عليها وفيها القائد التركي ويناصره أهل المدينة. لكن قوة جوهر كانت أكبر من أن يقف الدمشقيون والبُتكين أمامها، فاستنجد هذا بالقرامطة أيضاً، فجاءوا، وأجلوا الفاطميين عن دمشق ولحقوهم جنوباً حتى حصروهم في عسقلان. وأخيراً عقد اتفاق بين القرامطة وجوهر والبُتكين يتلخص في ان تبقى غزة فقط للفاطميين، أما ما هو من عسقلان فشمالاً، فليس للفاطميين فيه شيء.

هذه الفترة التي دارت فيها المعارك بين الفاطميين ومن كان في بلاد الشام الجنوبية والقرامطة، وهي قصيرة إذ لم تتجاوز السنوات السبع، كانت سنوات عجافاً على البلاد والعباد، فالمعارك من الجهة الواحدة والتهديم والحرائق من الجهة الثانية قضت على العمران، والنهب والسلب جرد الناس من سبل المعيشة، والقتل افرغ اماكن كثيرة من القوى الفاعلة. وعلى كل، فلم يكن هذا كل شيء، فقد ظل هناك فصول أخرى.

ما كان العزيز ـ ولنذكر ان العزيز كان لا يزال يرجع الى يعقوب بن كلس في شؤون الدولة ـ ليقبل بأن يقف جيشه عند غزة، بحيث يمكن لأي قوة تتجمع، حتى في فلسطين فقط، من ان تضربه أو تزعجه على الأقل. ومن هنا أقنع الوزير الخليفة بوجوب القيام بحملة يقودها بنفسه، والى جانبه القائد المجرب جوهر. وكان هذا في المحرم من سنة ٣٦٨هـ (آب/ اغسطس ٩٧٨م). والتقى الجيشان (ومع البُتكين حلفاؤه القرامطة) قرب الرملة وانتصر الفاطميون. لكن بعد النصر تمت ترتيبات كان لها في الأوضاع السياسية والعسكرية تأثير خاص. من الواضح ان الفاطميين استعادوا شيئاً من اهميتهم بهذا النصر. ولعل وجود الخليفة على رأس الجيش كان له أثر في ذلك. لكن الحسن القرمطي كان رجلاً يجب ان يقصى عن الميدان، وقد تم ذلك إذ وعده الخليفة الفاطمي العزيز بتعويض مالي مقداره، على ما روي، عشرون ألف دينار سنوياً ما دام حياً، على ان يبتعد عن أرض المعركة كلها وأن يعترف بالخليفة الفاطمي. ويمكن اعتبار قبول الحسن بذلك وانسحابه الى الاحساء نهاية الدور القرمطي في المشرق العربي.

لم يفت العزيز، ولا جوهر قبله، أن البُتكين لقطة عسكرية مهمة. ومع انه أسر في المعركة فقد تألفه الخليفة وعاد الى القاهرة في ركابه، وأصبح مع جنده، جزءاً من الآلة العسكرية الفاطمية.

ولعل هنا المكان الذي يصح الوقوف عنده للتحدث عن الجيوش الفاطمية. جاء الفاطميون الى مصر على أيدي جيش من كتامة القبيلة البربرية المشهورة، فكان هؤلاء جيش الخليفة والدولة. ولكن الظرف بمجمله كان يقتضي ان لا يركن الى صنف واحد من الجند لتعبئة الجيش. وكان للسودان دور في جيش مصر ايام الطولونيين والأخشيديين، فضم هؤلاء وزيد عددهم باستيراد الرقيق السوداني القريب المتناول، ولعله كان رخيصاً. لكن الجيش الفاطمي دخل فيه آخرون ـ رقيقاً أو غير رقيق ـ من الصنهاجة والصقالبة واليونان وغيرهم. بل لقد نفذ بعض الأتراك الى جيش الخليفة. لكن إدخال البُتكين وجنده الأتراك دفعة واحدة في الجيش الفاطمي كان تبديلاً من درجة كبيرة. ومع ان القائد نفسه توفي بعد دخوله القاهرة بمدة قصيرة، فقد بقي للترك دور كبير في الدولة الفاطمية. فقد دخل يومها «الغلمان» في النظام العسكري والاجتماعي والاداري. وكان دورهم واضحاً بشكل خاص في أمور بلاد الشام.

في سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩ ـ ٩٨٠م ارسلت حملة الى بلاد الشام بقيادة سليمان بن جعفر بن

فلاّح على رأس ٤٫٠٠٠ من البربر، لكنها لم تنجح في حل أيّ مشكلة، ان لم تكن قد عقّدت الوضع بسبب التصرف السيىء الذي كان البربر يظهرونه نحو السكان والمكان دوماً. وكانت الحملة الفاطمية التالية بقيادة قائد تركي هو بلتكين، وهو من زملاء البُتكين. وقد كانت هذه المرة الأولى التي قاد فيها تركي جيشاً فاطمياً الى بلاد الشام. وكانت ناجحة بشكل واضح. فقد تغلبت على ابن الجراح الزعيم البدوي من طي، وحملته على الاتجاه شمالاً الى حمى البزنطيين، كما انها أرغمت القسام، الذي كان قد تمركز في دمشق على ان يظل في المدينة، التي تولى حكمها، نظرياً، أحد زعماء البربر.

وكان تركي آخر قد تولى أمر حمص. هذا عرض على الفاطميين ان يحكم دمشق للفاطميين. وقبل الخليفة به، مع ان يعقوب بن كليس كان يميل الى ان يتولى الأمر بلتكين. وهكذا فقد عهد الى بكُجور بالأمر. ويبدو ان بكُجور لم يتمكن من الوفاء بوعده، فأزيح (سنة ٣٣٧هـ/ ٩٨٩م) وعهد بالأمر الى أحد غلمان يعقوب الوزير وهو يعقوب الصقلبي. لكن وفاة يعقوب بن كليس في ذلك الوقت أتاح الفرصة للعزيز أن يتبع سياسة توسع خاصة به في بلاد الشام. فانتدب لذلك واحداً من غلمانه هو منجوتكين؛ وقد قاد هذا حملات في بلاد الشام في السنوات ٣٨١ و٣٨٢ و٣٨٣ و٣٨٤هـ (٩٩١ ـ ٩٩٤م) نجح خلالها في احتلال حمص ومدن أخرى صغيرة، لكنه فشل امام حلب. وبعد قتال بين الفريقين اضطر منجوتكين الى الانسحاب الى دمشق. وأراد الخليفة العزيز ان يقود الجيش بنفسه، لكنه توفي قبل ان ينفذ مخططه. وبسبب الخسائر التي مني بها الأسطول الفاطمي، لم تصل المساعدات من الرجال والأسلحة والأغذية إلى الفاطميين في بلاد الشام، فانسحب الفاطميون ثانية.

ومع ان الدولة الفاطمية كانت قد استولت على المدن الساحلية من طرابلس الى الجنوب، ومع ان وضعها في دمشق كان قوياً بسبب تنظيم منجوتكين، فإن الأمر ظل موضع تجاذب كبير، ليس بين الفاطميين والبزنطيين فحسب، ولكن بين هؤلاء وأولئك من جهة وبين الزعامات المحلية من جهة أخرى، وهي التي كانت تظهر هنا وهناك؛ وهي اصلاً قبائل بدوية. وقد تمّ سنة ١٠٢٤/٤١٥ تحالف بين كبار الزعماء من البدو وهم صالح بن مرداس وسنان بن عليان الكلبي والحسن بن الجراح بن طي، على أن يعملوا ضد الفاطميين على أمل اخراجهم من البلاد. لكن انوشتكين الدزبري، وهو تركي من بلاد ما وراء النهر، وبعد حياة في الرق والأسر، وصل دمشق في أيام الحاكم بأمر الله (سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠١٠م). وبعد سنوات ثلاث وصل القاهرة مع جماعة من الغلمان ليتدرب في البلاط الفاطمي. وفي سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م ارسل الى دمشق وولي حاكمية بعلبك. ووصل في سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م الى منصب حاكم فلسطين. ومع ان الرجل اعيد الى القاهرة بسبب سعايات قامت ضده، فانه عهد اليه بقيادة ٧٫٠٠٠ جندي وأرسل الى الرملة ثم الى القدس. وتجمع زعماء البدو المذكورون قبلاً ومعهم قواتهم، والتقاهم انوشتكين في الاقحوانة، على مقربة من بحيرة طبرية. وانتصرت القوات الفاطمية (٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م)؛ قتل صالح بن مرداس وتفرقت جموع البدو. وعهد الى

الدزبري بحكم دمشق وسورية وظل في هذا المنصب حتى وفاته ٤٣٢هـ/ ١٠٤١م. وقد كان حاكماً قديراً عارفاً بحاجات الناس عاملاً على احياء ما اتلفته ايدي الحدثان خلال هذه الفترة الطويلة من شؤون العباد وأمور البلاد ـ زراعة وتجارة وصناعة.

وحري بنا ان نشير هنا الى ان الاضطراب الذي كان يلف المدن الشامية، وخاصة دمشق وما يماثلها، أدى الى قيام تنظيم محلي هو «الأحداث». ولعله من حسن حظنا الآن ان كلمة ميليشيا دخلت في قاموسنا، فاصبحنا نعرّف الأحداث بأنها ميليشيات محلية كانت غايتها إدارة المدينة والدفاع عنها في ساعات الخطر وأيامه ولياليه. (راجع عن الأحداث: محمد أحمد زيود: حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني وحتى نهاية العصر الفاطمي، دار الفكر، لاتا ص ٤١ ـ ٤٨).

والذي نود ان نخلص اليه، من محاولتنا التحدث عن الفاطميين وعلاقتها ببلاد الشام هو انهم لم يستطيعوا ان يستولوا على البلاد بأكملها رغم محاولاتهم الكثيرة والمكلفة، بل ان حملاتهم كان أثرها ـ بسبب المقاومة البدوية ـ أن زاد فيها الاضطراب اضطراباً والخراب خراباً والقتل قتلاً وإتلاف الأرض اتلافاً.

وجاء السلاجقة بلاد الشام والفاطميون يحاولون العودة الى المدن الشامية، وكانت الهجمة السلجوقية الأولى على البلاد سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م وهي حملة الب ارسلان (٤٥٥ ـ ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣ ـ ١٠٧٢م).

وحريّ بالذكر ان وجود الجرجرائي وزيراً وانوشتكين والياً في الشام، مكّن للفاطميين بعض النفوذ في أواخر ايام الخليفة الظاهر (٤١١ ـ ٤٢٧هـ/ ١٠٢١ ـ ١٠٣٦م) وأوائل عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤م). فمن ذلك ان انوشتكين احتل حلب. لكن بعد وفاة الوزير والوالي عادت الخلافات والخصومات بين الجماعات الفاطمية امراء وجنوداً الى ما كانت عليه، ولو ان الوزير اليازوري (٤٢٢ ـ ٤٥٠هـ/ ١٠٥٠ ـ ١٠٥٨م) كانت ايام تقوية للحكم الفاطمي في بعض انحاء الشام.

ولنذكر انه بدءاً من الثلث الأول من القرن الخامس الهجري/ وأواسط القرن الحادي عشر الميلادي، دخل الأتراك في خدمة الزعماء الشاميين، ومن هؤلاء ابن خان والافشين وصندق. ولكن اقوى هؤلاء نفوذاً وأبعدهم اثراً كان اتسز الذي اتجه نحو القدس واستولى عليها ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م، ثم استولى على عكا ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م.

ولما تولى بدر الجمالي أمور الدولة الفاطمية انتظمت أمورها بعض الشيء، وعندها اتجه اتسز الى مصر لاحتلالها ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م لكن بدر الجمالي هزمه ورده عنها.

ويبدو ان السلطان السلجوقي ملك شاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ/ ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م) لم يعجبه وضع اتسز الضعيف، لذلك أرسل اخاه تُتش غرباً وأقطعه بلاد الروم وما يفتحه بتلك النواحي، وكان ذلك سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م. وقد حاصر حلب لكنه لم ينل منها بغيته، واكتفى بفتح البلدات ما بين ديار بكر وحلب. وقد نهب وقتل بما فيه الكفاية.

وجد اتسز نفسه بين المطرقة والسندان؛ فبدر الجمالي كان قادماً الى دمشق (٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م) ومعه جيش من العرب والبربر والسودان وحتى من الغز (الأتراك) وتُتش كان قوياً، فوضع أتسز نفسه تحت أمرة تُتش. ولما وصل الأخير دمشق ودخلها (٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م) قبض على اتسز وقتله. وكان هذا أول دخول سلجوقي الى مدينة دمشق، احدى مدن الشام الرئيسية.

ومعنى هذا ان السلاجقة ممثلين بأخي السلطان (وهو تُتش) ووقفوا وجهاً لوجه مع الفاطميين. وقد هاجم تُتش القدس لكنه لم ينل منها، وأخيراً نجح أرتق في دخولها معوضاً على اقارب اتسز اقطاعات في اماكن أخرى من الشام.

قامت معارك بين تُتش والفاطميين في سبيل المدن الساحلية الشامية، لكن لم ينته القتال الى نتيجة حاسمة. ومن الأحداث الهامة في تلك الفترة قيام حلف بين أرتق بك وتُتش ومسلم العقيلي (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)، لكن لم ينتج عنه أيّ أمور مهمة، خاصة وان مسلم قتل بعد فترة قصيرة.

في سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م قتل تُتش إثر محاولة للاستيلاء على السلطنة بعد وفاة ملك شاه، فتولى ولداه رضوان ودقاق الأمر، لكنه لم يثبت لهما.

وقد كان القتال يدور بين الزعماء على اختلاف اصولهم العرقية ـ سلاجقة اتراكاً كانوا أم ولاة فاطميين. وأخيراً حاصر الأفضل بن بدر الجمالي القدس ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، ودخلها سلما بعد ان خرج منها سقمان وايلغازي ابنا ارتق بك.

في هذا الوقت كانت الجيوش الصليبية قد دخلت بلاد الشام من الشمال واحتلت انطاكية واتجهت جنوباً. وفي سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م احتلت مدينة القدس.

- ٣ -

بين سنتي ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩ وحول ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م. كان الصليبيون، أو الفرنجة كما سماهم المؤرخون العرب قديماً، قد نجحوا في احتلال المنطقة الساحلية من بلاد الشام بدءاً من ساحل كليكيا (قليقيا) الذي كانت طرسوس مركز تجارته وإدارته، حتى جنوب سهل فلسطين الساحلي، وكانوا قد توغلوا داخلاً في منطقتين هما أدسا (الرها) والمنطقة الواقعة شرقي نهر الأردن من بحيرة طبريا شمالاً وفي اتجاه جنوبي الى العقبة، فكانت منطقة الكرك، الواقعة شرقي البحر الميت ومنطقتا الشوبك والبتراء الممتدتان جنوبه جزءاً من املاك الصليبيين.

وكانت الرقعة التي استولى عليها الفرنجة بأجمعها مقسمة الى أربع وحدات سياسية أولاها مملكة القدس (اللاتينية كما نشير اليها اليوم) وكان حدها الشمالي على نقطة تقع شمال بيروت عند مصب نهر الكلب. يليها الى الشمال كونتية طرابلس التي يمكن القول إنها كانت تشمل القسم الشمالي من لبنان. وتأتي بعد ذلك امارة انطاكية التي كانت تمتد شرقاً الى الغرب من مدينة حلب، التي استعصت على الفاتحين، وشمالاً كانت تتخطى جبال امانوس بحيث تكون سلسلة جبال طورس حداً شبه طبيعي لها. وكانت كونتية ادسا (الرها) تجاور امارة انطاكية في شمالها الشرقي.

على انه يجدر بنا ان نتذكر الأمور التالية:

١ ـ ان سهول كيليكيا انتزعت من امارة انطاكية قبيل سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٣٧م.

٢ ـ ان مدينة الرها نفسها سقطت بيد عماد الدين زنكي (أو زنغي) سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، فيما قضى الزنكيون على كونتية ادسا بكاملها بعد ذلك بسبع سنوات.

٣ ـ ان مملكة القدس خسرت املاكها في شرقي الأردن في أواخر القرن السادس الهجري/ القرن الثاني عشر الميلادي.

أما في داخل البلاد الشامية فقد قامت دول ودويلات متعددة خلال هذه الفترة المعاصرة، أي السادس الهجري والثاني عشر الميلادي. ولعلنا نحسن صنعاً ان نحن ألقينا نظرة عامة على هذه الدول تمهيداً للحديث عن دورها في التجارة، والتجارة الخارجية خاصة.

١ ـ ان دولة السلاجقة الكبار، التي قامت في العراق وبلاد الفرس (٤٢٩ ـ ٥٩٠هـ/ ١٠٣٨ ـ ١١٩٤م) تولى شؤون شمال سورية ودمشق من ابنائها تُتش، وهو أخو ملك شاه، وذلك بين ٤٧١ و٤٨٨هـ/ ١٠٧٨ و١٠٩٥م وخلفه ابناه رضوان في حلب بين ٤٨٨ و٥٠٧هـ/ ١٠٩٥ و١١١٣م؛ ودقاق في دمشق ٤٨٨ ـ ٤٩٧هـ/ ١٠٩٥ و١١٠٤م. وانتهى الأمر بعدهما الى تولي اتابك كل منهما أمور الدويلة التي كان يديرها.

ويهمنا من هاتين الدولتين، الزنكية. كان أق سُنْقُر من غلمان ملك شاه السلجوقي، وقد ولاه قيادة الجند. وقد ولى السلطان السلجوقي محمود (٤٨٥ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٩٢ ـ ١٠٩٤م) ابنه عماد الدين أمير الموصل واتابكا (أي وصيا) على ولديه، فتصرف هذا أيام حكمه الذي دام ٥٢١ ـ ٥٤١هـ/ ١١٢٧ ـ ١١٤٦م تصرفاً مستقلاً، واخذ يتوسع غرباً من موقعه الأصلي في الموصل عبر الجزيرة الى شمال سورية، ووقع مع امراء وزعماء اعراب واتراك، وقاتل الفرنجة، ولما استطاع ان يستعيد مدينة الرها (ادسا) من المحتلين سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، ارتفع نجمه على انه بطل من ابطال الجهاد. واستمر البيت في الحكم بعد وفاة عماد الدين زنكي، لكنه انقسم، فتولى نور الدين محمود أمر دمشق ثم حلب (٥٤١ ـ ٥٦٩هـ/ ١١٤٦ ـ ١١٧٤م) وحكم ابنه بعده سبع سنوات قبل ان قضى صلاح الدين على الزنكيين في دمشق ٥٧٧هـ/ ١١٨١م).

أما البيت الجزري (الأصلي) فقد استمر الى سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م، إذ قضى عليه الوزير بدر الدين لؤلؤ.

ولعل الدولة التي تركت أكبر الأثر في تاريخ بلاد الشام في الفترة الممتدة من اواسط القرن السادس الى اواسط القرن السابع هـ/ الثاني عشر ـ الثالث عشر م، هي الدولة الأيوبية بفروعها المختلفة. ذلك ان صلاح الدين الأيوبي، الذي قضى على الدولة الفاطمية (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) تولى الحكم باسم الملك الناصر سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م (وقد ظل صلاح الدين، وهو صاحب مصر منذ ٥٧٤ هـ يعترف بتبعية لنور الدين محمود زنكي حتى وفاة الأخير سنة

٥٦٩هـ). وقد قامت دول أيوبية متعددة، يهمنا بالنسبة لموضوعنا:

١ ـ في مصر حتى سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م.

٢ ـ وفي حلب حتى سنة ٦٥٨هـ ١٢٦٠م (السنوات الأخيرة كان الملك فيها في دمشق).

٣ ـ وفي ميافارقين حتى سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٦م.

٤ ـ وفي بعلبك حتى سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م.

٥ ـ وفي حمص حتى سنة ١٦٦١هـ/ ١٢٦٣م.

٦ ـ في الكرك حتى سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م. وفي حماه حتى سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م.

وقد كانت الدولة الأيوبية في دمشق تدور حولها أمور كثيرة، وذلك بسبب أهمية هذه المدينة بالنسبة لبلاد الشام؛ وهذه انتهى أمرها سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م مع الفتح المغولي.

وحري بالذكر ان المماليك حكموا مصر وبلاد الشام منذ اواسط القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، وهم الذين أخرجوا الفرنجة من ديار الشام.

من هذه الخلاصة التي وضعتها امام القارىء يتضح لنا ان بلاد الشام لم تنعم كثيراً بالهدوء والإدارة الجيدة خلال القرون الرابع الى السادس هـ/ العاشر الى الثاني عشر م. والتمزيق الذي اصابها مس الحياة بجميع نواحيها ومجالاتها.

في هذا الجو الذي شمل بلاد الشام وجوارها القريب، والمناطق البعيدة عنها نسبياً، ما الذي تم على أيدي التجار، على اختلاف اصولهم وانتماآتهم وتنظيماتهم؟

التاجر عمله أصلاً أن يوصل السلع المطلوبة الى السوق التي تريدها. وقد يكون من واجبه ان يروج للبضاعة أو يعلن عن سلعة معينة، ولكن هذا هو عمل الاعلان والدعاية في الأزمنة الحديثة. أما في الأيام التي نتحدث عنها ـ أي في القرون الخامس والسادس والسابع للهجرة/ الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر للميلاد، فلم يكن فن الاعلان قد نشأ. المهم ان يطلب السوق ـ أي المستهلك ـ السلعة حتى يقوم التاجر بالحصول عليها ونقلها.

القسم الثاني ـ التجارة وطرقها

ـ ٤ ـ

ونحن نود ان نقف هنا عند السنة ١٠٠٠م، ونود ان نعنى بالبحر المتوسط أولاً. ذلك بأن التجارة كانت دوماً تعتمد على ايصال السلع من المحيط الهندي الى البحر المتوسط وبالعكس. ولنرقب ما الذي آل اليه الأمر خلال قرنين من الزمان بدءاً من السنة ١٠٠٠م.

وأول ما يستحق الذكر في هذه القضية هو انه في تلك السنة كانت القوة البحرية الإسلامية لها نفوذ في البحر المتوسط، لكنها كانت قد بدأت تتأرجح. في مقابل ذلك كان ثمة نشاط بزنطي، وهو لم يكن في وضع يمكنه من الاستمرار في النشاط. فمع اننا نعرف ان الاسطول البزنطي الذي احتل كريت سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١ م كانت فيه ألفا سفينة حربية، و١٣٦٠ سفينة تموين، وان بعض السفن الحربية بنيت بحيث كان باستطاعتها أن تنزل الجنود الى البر مباشرة، وهو أمر مهم بالنسبة للحملات البحرية، فان هذا النفوذ البزنطي الموقت في الشرق

(من البحر المتوسط) كان يقابله فشل في محاولة بزنطية التغلب على القوى البحرية غرباً. ولعل مما أضعف الوضع الحربي للأسطول الأمبراطوري هو ثورة الاساطيل المحلية الاقليمية على الدولة. ومع ان الاسطول الامبراطوري تغلب على الاساطيل الاقليمية (٣٧٩هـ/ ٩٨٩م)، فان المهم هو ان الاسطول داخلَ تنظيمه ووحداته وروح المقاتلين فيه شيء من الوهن.

في مقابل هذا الضعف الطارىء على الاسطولين الإسلامي والبزنطي، كان هناك انتعاش وتنظيم في القوة البحرية في المدن الايطالية الكبرى. فالبندقية كانت الطرق بينها وبين القسطنطينية مفتوحة، وقد بدأت في ذلك الوقت تظهر كقوة بحرية يحسب حسابها. كما ان طريقها نحو الشمال كانت مفتوحة أيضاً.

ومثل ذلك، ولو الى درجة اقل، يقال عن بيزا وجنوى. ذلك بأن جنوى كان اسطولها قد قوّي ونظّم ومثلها بيزا بحيث انهما تمكنتا من الهجوم على المهدية ومحاصرتها، وكانت القوة محمولة على ٤٠٠ سفينة. وقد حصل المهاجمون على غنائم كبيرة؛ ولم تقف امام المهاجمين سوى القلعة التي افتديت بفدية نقدية كبيرة وبوعد من تميم الزيري (٤٥٤ ـ ٥٠١هـ/ ١٠٦٢ ـ ١١٠٨م) ان لا يتعرض هو ورجاله للسفن الايطالية في المياه الافريقية. وقد كان للحملة وللاتفاق الذي تلاها دلالة بالنسبة لهاتين المدينتين الايطاليتين.

وإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على المدن الايطالية التي كانت قد بدأت تتحرك تجارياً، وجدنا ان غيتا كانت على اتصال مباشر بالقاهرة وان بافيا وميلان وسلرنو وامالفي ونابلي وباري كانت قد اخذت تمخر عباب هذا البحر، على درجات مختلفة من القوة.

على ان المدينة التي لم يكن لها مورد آخر سوى التجارة، والتجارة فقط، هي البندقية، وذلك في القرن الحادي عشر الميلادي. وهذه المدن الايطالية جمعاء كان لها علاقات تجارية، على درجات متباينة، مع القسطنطينية، خاصة وان طريق القسطنطينية ـ البحر الأسود قد ضعفت يومها وأصبحت العاصمة البزنطية هي المركز الذي تصل إليه السلع والبضائع من الموانىء السورية والمصرية والتي قد مرت بالعراق. هذا ينطبق على القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ومما يدل على اهمية القسطنطينية التجارية المعاهدات التي عقدت بينها وبين المراكز التجارية الكبرى البندقية (٩٩٢م) وكييف (٩٠٧ و٩١١، ٩٤٤م) وحلب ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م.

وليس المهم ان المدن الايطالية ظهرت على مسرح البحر المتوسط التجاري، ولكن المهم ان هذه المدن سندها يومها (بعد ١٠٠٠م) تقدم اقتصادي أوروبي. هذا التطور يسر للأوروبيين فتح اسواقهم للسلع الشرقية، ومكّنهم من دفع ثمنها من نتاجهم الصناعي، بدل ان يدفعوا مقابل ما يستوردون ذهباً وفضة؛ وقد كان المعدنان قد اخذا يتناقصان في المنطقة.

ويمكن اجمال هذا التطور الاقتصادي الذي شهدته أوروبة في القرنين الخامس والسادس هـ/ الحادي عشر والثاني عشر م، في الأمور التالية:

أولاً: تطورت الزراعة في فرنسة نوعاً وكمية واتساع أرض أدى الى تراكم ثورة مكّنت

للبلاد ان تدفع ثمن بعض ما تبتاعه عيناً من المنتوجات الزراعية.

ثانياً: سك النقود مكن للسلع ان تباع وتشترى في الأسواق ـ بدل ان تعتمد المقايضة العينية. وبعض السلع كانت ثقيلة الحمل كبيرة الحجم، وقد تكون مقابل شيء صغير الحجم كبير الثمن.

ثالثاً: كان هناك اهتمام كبير بالطرق. والمهم ان الذين عنوا بهذا الأمر من اصحاب الشأن افادوا من آثار الطرق الرومانية التي كانت عامة في غرب أوروبة.

رابعاً: قامت في تلك الفترة حركة زيارات لبعض الأماكن التي ارتبطت ببعض القديسين في أوروبة. هذه الحركة الحجيجية، إذا صحت التسمية، أدّت الى التنقل وحمل السلع الى الأسواق الكثيرة التي ظهرت في بعض المناطق الأوروبية.

خامساً: كان لنمو المدن في غرب أوروبة ثم في اواسطها وتركيز الصناعات والأسواق فيها أثر كبير في تنقل التجار اليها حمالين بضائعهم.

سادساً: ولعل أهم ما تطور في أوروبة الغربية في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، هو التقدم الذي اصاب صناعة الأقمشة على اختلاف انواعها. وكانت الأقمشة الفرنسية والفلمنكية هي الرائجة شمالي الألب اولاً، ثم جاء التجار الايطاليون الى اسواق شمبانيا وحملوا هذه البضائع الى الموانىء الايطالية (منذ الربع الثالث من القرن الثاني عشر) وعندها اصبح بامكان أوروبة الغربية ان تدفع ثمن حاجاتها المحمولة من الشرق قماشاً، فضلاً عن الزجاج والخمور.

ويمكن القول بأن السفن الأوروبية، وفي مقدمتها سفن الايطاليين، كانت تحمل الى موانىء المشرق العربي الاخشاب والحديد والسلاح والزجاج والخمور والاقمشة التي اخذت أوروبة الغربية تنتجها على نحو جيد ونافع.

وفي مقابل هذا، كانت السفن تحمل من موانىء المشرق العربي القماش الكتاني والطراز والتوابل وفي مقدمتها الفلفل والسكر والعسل وزيت الزيتون (الى ان انتشرت زراعة الزيتون واستخراج زيته في أوروبة) والمصنوعات النحاسية وأخصها الأدوات المنزلية أو الزخرفية من صنع دمشق، والادوات القاطعة من صنع تنيس (مصر) وحجر الشب من المشرق العربي ثم من شواطىء آسية الصغرى الغربية. وقد كانت التجارة البحرية بيد الايطاليين عامة منذ أواسط القرن الحادي عشر، أما التجار الشرقيون فقد كان دورهم قد اصبح محدوداً.

وإذا نحن تذكرنا ان البلاط الفاطمي، الذي اتخذ القاهرة مقراً له، كان محطة كبيرة للاستهلاك. فالجيش وحده كان بحاجة الى كميات كبيرة من جميع اصناف السلع الضروري منها والكمالي (أو الاستهلاكي)، فضلاً عما يقتضيه الوضع الاجتماعي للمتصلين بالبلاط والعاملين فيه والساعين نحوه والمتحدثين بفضله والمادحين لسكانه، كبارهم وصغارهم.

كان العالم الذي نتحدث عنه، وهو وريث عالم اقدم، تدور حياته الاقتصادية والسياسية وحتى الثقافية حول منطقتين: المنطقة الواحدة هي الغربية وهي دائرة حوض البحر

المتوسط، والثانية شرقية وتشمل مساحة أوسع ورقعة أكبر هي الصين والهند؛ وهذه المنطقة فيها المحيط الهندي وذراعاه الخليج العربي والبحر الأحمر وامتداداته في بحر الصين الجنوبي والمياه الاندونيسية عبر مضيق ملقا.

وكان ثمة جسر بري يفصل بينهما ويوصل بين اجزائهما.

منطقة البحر المتوسط كانت تتوسع مدى وتتعمق انتاجاً ومعرفة مع الزمن. ولسنا نريد ان نتابع الأمر من أوله، مع انه مغر، ولكن إذا اخذنا القرن العاشر م نقطة انطلاق وجدنا ان هذه المنطقة قد اتسعت اذرعها ـ من جديد ـ خلال هذا القرن والقرن الذي يليه، على نحو ما ذكرنا. ولنضف الى ذلك ان المنطقة تعمقت معرفتها بسبب التمازج والتحاك اللذين حدثا بين الحضارة العربية الإسلامية من جهة وبين الحضارة المسيحية الغربية؛ وقد يكون التحاك عدائياً، لكنه لا بد ان يؤدي الى تبدل وتطور.

وقد كان لعالم البحر المتوسط هذا امتداداته هو الآخر في البحر الأسود وما قد يدور حوله من حركات تنقل بشري أو فتح طرق تجارية؛ وكان هناك الامتداد التجاري عبر الصحراء الكبرى وعبر بلاد النوبة. وهذه، مثل الامتداد حول البحر الأسود، كانت تتعرّض لتوسّع وتمدّد وتقلّص وحتى توقّف تبعاً لأحوال تنقّل السكّان وطريقة نظرتهم الى المناطق التي يهبطون، على نحو ما نعرف عن الهلالية التي خرجت من مصر فاتجهت نحو ليبيا وتونس، وكان من آثارها تخريب وتدمير كبيران.

على انه كان، حتى القرن التاسع هـ/ الخامس عشر م فرق بين توسع الرقعتين ـ المتوسطية والهندية الصينية. فالمحيط الاطلسي حال دون التوسع غرباً، فلم تنضف أو تنضم الى رقعة المتوسط البرية أراض جديدة قد يكون عندها نتاج بري جديد يضيف الى موادها التجارية؛ اما المنطقة الشرقية القصوى فقد كانت تتسع المعرفة بها براً ـ وهي أرض مدهشة في سعتها ـ وبحراً عبر اكتشاف مضيق ملقا وما بعده. وهذه المناطق زودت الأسواق بمواد تجارية جديدة، أصبحت مع الزمن اشياء يرغب البندقي والبيزي والامالفي والباريسي والكولوني ـ وغيرهم ـ في الحصول عليها.

أما الجسر البري الذي يفصل ـ من الجهة الواحدة ـ ويصل ـ من الجهة الأخرى ـ بين هاتين المنطقتين فهو رقعة برية تشمل أرض الرافدين وبلاد الشام وبادية العرب في الشمال والجزيرة العربية ذاتها في الجنوب. وهذا الجسر الذي يفصل هو في الواقع الجسر الذي يصل بين نهايات المنطقة الشرقية ونهايات البحر المتوسط: الأولى في الخليج العربي، والبحر الأحمر والثانية في الموانىء التي تقع على شرق الساحل المتوسطي وجنوبه.

إلا انه لا يجب ان يغيب عن البال ان هناك طريقاً برياً يصل اواسط الصين بالمدن الشامية الرئيسة ـ الداخلية منها والبحرية ـ وهو الذي سماه المؤرخون المحدثون طريق الحرير. وتعود التسمية الى ان حرير الصين كانت القوافل تحمله عبره، لكن الحرير لم يكن المادة الوحيدة التي تحملها القوافل.

ونحن نسمح لأنفسنا هنا ان نشير الى الموقع والمراكز الأصلية الواقعة عليه، من دون التحدث عن تاريخه الأولي. كان يبدأ من هسيان ـ فو (بلاد الحرير في الصين) ثم يمر ببلاد سريس أو سكاي (وهي جزء من تركستان الحالية) ثم الى كشغر وسمرقند وبكترا (بلخ) ومرو واكبتانا (همدان). وبعد ان يجتاز الطريق جبال زغروس كان يمر بطيسفون (المدائن) ودمشق وحلب، ومن هنا الى بقية المدن الداخلية والبحرية.

وكان التاجر الصيني ومعه حريره (وغيره) والتاجر الفرثي ومعه حجارته الكريمة والكهرمان والمرجان (وسواها) يلتقيان عند «برج الحجر». والذي عليه الباحثون هو ان هذا المكان يقع عند كاشكر غان (بين كشغر وسمرقند).

وحري بالذكر ان هذا الطريق الطويل، الذي يبلغ طوله نيفاً وعشرة آلاف كيلومتر كان يتعرض خلال فترات متعددة من التاريخ للكثير من المصاعب بسبب قيام دول تحول دون استعماله إلا إذا استفادت، أو لقيام جماعات لا يهمها الا النهب والسلب. وعندها يعوق السير فيه ويتأخر الاتجار عليه. ومن هنا كان من الطبيعي ان يكون هناك طريق بحري تسلكه السفن من اقاصي المحيط الهندي وأذرعته المائية الى الخليج العربي والبحر الأحمر.

ومن هنا فان هذا الطريق البري بالذات لم يكن سلوكه سهلاً ولا يسيراً خلال القرنين الخامس والسادس هـ/ الحادي عشر والثاني عشر م. بسبب قيام الدول المتناحرة وهجوم القبائل المتنافرة في المنطقة الممتدة من شرق إيران الى العراق وبلاد الشام.

- ٥ -

كانت المنطقتان: الصينية ـ الهندية في جهة، والمتوسطية الأوروبية في جهة ثانية، تختلفان الواحدة عن الأخرى في كل شيء. فالطبيعة، سطحا وسعة واقليماً ومناخاً ورياحاً، تمتّان الى نوعين مختلفين، ومن ثم فان ما تنتجه الأرض وما يقذف به البحر هو في الواحدة غيره في الأخرى. والأقوام والشعوب من حيث العرق والتكتل الاجتماعي والآراء الكونية والمعتقدات الآخرويّة تختلف في المجموعة الواحدة عن المجموعة الأخرى. ومن هنا كانت هناك حضارتان (ونحن نستعمل الحضارة على نطاق واسع، وهو يختلف عن مفهوم ارنولد توينبي اختلافاً كبيراً) قد تجدان فيما بينهما نقاطاً للتماس، لكن قد تكون نقاط الخلاف أو مواضعه أكبر.

ومع ذلك فالذي نعرفه، عبر اكتشاف الآثار ورواية الأسطورة وقصة الرحالين (على اختلاف اهدافهم) ووثائق التاريخ، الصحيح منها والمزور، هو ان هاتين المنطقتين كان بينهما اتصال يعود الى نحو أربعة آلاف سنة أو أكثر. ونحن لا نرى في الأمر غرابة. فالإنسان، سواء سار على قدميه أو امتطى دابة، شيء متنقل. وقد ينتقل على غير هدى أولاً سعياً وراء لقمة، لكن مع الزمن تنمو شهيته فيحب الاستمتاع بلقمة من نوع آخر. وقد ينتقل جماعات رغبة في ان يتغلب على الجيران، لأن التغلب على الجيران يشبع غريزة تحقيق الشخصية عنده. وقد تكون هذه الجماعات كبيرة فتحدث في الأماكن التي تقصدها دماراً وخراباً كبيرين.

لكن الذي غلب على الإنسان هو التنقل مع سلعه وبضائعه تنقل طلعة واكتشاف. ومع الزمن يصبح هذا التنقل جزءاً من الحياة فينتقل القوم ـ فرادى أو جمعاً ـ سعياً وراء تبادل السلع والبضائع والخبرات، ولو مصادفة.

هذا الاتصال بين المنطقتين، عبر الجسر البري، مرت به فترات وفترات، لسنا نحن هنا في سبيل التحدث عنها، ولكننا نريد ان نضع اليد، أو الإصبع على الأقل، على ما كان يجري هناك وهنا، وبين هناك وهنا، من تبادل تجاري في فترة تشمل القرنين الخامس والسادس هـ/ الحادي عشر والثاني عشر م، على ان لا نحصر انفسنا قطعاً خلال مئتي سنة، بل نسمح لأنفسنا باختراق جداري الحدود قبل ١٠٠٠ وبعد ١٢٠٠ م، فذلك أدعى الى العافية.

في البحث الذي قدمناه للمؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام (١٣٢ ـ ٤٥١هـ/ ٧٥٠ ـ ١٠٥٩م) والمنشور في وقائع المؤتمر (عمان ١٩٩٢/ ص ٢٨٣ ـ ٣١٤) اشرنا الى ان اضطراب الأحوال السياسية في بلاد الشام لم يؤد الى تردي الوضع الاقتصادي على نحو يتناسب مع الحالة السياسية، بل على العكس ظل للبلاد نشاط اقتصادي. والذي نود ان نقوله هنا هو ان بلاد الشام، ومصر، وهما صرة الطريق البري بين منطقتي العالم الكبريين يومها، لم تترد أمورهما الاقتصادية مع اضطراب شؤونهما السياسية. لذلك ظل الإطار العام للصناعة والزراعة والتجارة يسمح بالنشاط والحركة.

فالمنطقة الشرقية ـ الهندية الصينية ـ كانت لاتزال تنتج اشياء خاصة بها، وهذه كانت في اغلبها مطلوبة في المنطقة الغربية. ويمكن اجمال الأشياء التي كانت المنطقة الشرقية تنتجها في خشب التيك والحديد الخام والفولاذ (مادته الخامة كانت تأتي من شرق افريقية) والفضة والحجارة الثمينة ومنها اللؤلؤ السوباري (يستخرج على مقربة من بومباي) والعاج الهندي والطيوب والتوابل والعطور. والفلفل الملباري كان سيد التوابل حتى اهتدى التجار الى الفلفل الجاوي (الأندونيسي) فشالت قيمته. وكانت المنطقة تنتج مواد الصباغة والدباغة وكان ثمة نوع من العنبر يجمع في جزائر الملديف. الى هذه المواد الخام أو المصنوعة صنعاً جزئياً، كانت هناك اقمشة قطنية وصوفية وصنادل وحلو مصنوع من السكر (يسمى الفنيد) مما اشتهرت به المنطقة الهندية[١].

وفي الصين كان الحرير المادة الرئيسة التي كانت تُنتج بكميات صالحة للتصدير. وفي القرن الحادي عشر أضيف اليها البورسلين، البسيط والمطلي، والشاي. وقد ارتبط صنع الفخاريات على اختلاف انواعها وزخرفتها بالخمور والشاي. ومن توابل الصين القرفة. ومما كانت الصين تعنى به المعادن ـ الخام والمصنع مثل الذهبيات[٢].

هذه السلع كانت مرغوبا فيها في المنطقة المتوسطية من الأزمنة القديمة واستمرت من التجارات التي تجد الحسن في أعين المقيمين الى الغرب.

وقد نقل سمكن عن قيود من أسرة سُنْ تعود الى سنة ٩٩٩م أن الصادرات الصينية (ولم تكن كلها قد نقلت الى منطقة البحر المتوسط) شملت الذهب والفضة والنحاس والرصاص

والبورسلين (الصيني)[٣]. وصدرت الهند التوابل والحجارة الثمينة.

يتضح من هذا العرض المقتضب ان السلع التي كانت تنتقل من الصين والهند ظلت على حالها بشكل عام، مع نقص في تصدير الحرير وزيادة في ارسالات البورسلين (الصيني) والشاي.

وكان الكثير مما تستورده المنطقة الهندية الصينية يأتيها من شرق أفريقية، فهي من هذه الناحية ليست جزءاً من تجارة بلاد الشام الخارجية مع المشرق البعيد. لكن ذلك لا يعني أنه لم يكن ثمة تجارة بين المنطقتين من حيث التصدير اليها من المشرق العربي. فقد كان هناك زيت الزيتون والأقمشة المصرية والسورية من الأقطان والأصواف والكتان[٤].

وكانت مصنوعات دمشق النحاسية تنتقل شرقاً ولو بكميات ضئيلة نسبياً. وكان البلور المصنوع في دمشق وفي مناطق أخرى من المشرق العربي مرغوباً فيه هناك. على ان المهم ان المنطقة المتوسطية كانت تدفع ثمن اطايب ومطيبات الشرق الأقصى ذهباً. لذلك فقد كان الميزان التجاري في مصلحة تلك المناطق النائية[٥].

وحري بالذكر ان الصين خسرت نفوذها على طريق الحرير البري، في ايام أسرة سنغ لكنها عوضت عن ذلك بأنها دخلت حلبة التجارة البحرية عن طريق موانئها الجنوبية مثل كنتون (خانفو)[٦].

- ٦ -

ننتقل الآن الى معالجة الدورة التجارية في حوض البحر المتوسط في القرون الرابع الى السادس هـ/ العاشر الى الثاني عشر م.

ولنذكر ان العاملين في حقل التجارة الخارجية كان لهم وكلاء في المدن الرئيسة هم الذين يلبون طلباتهم الشرائية ثم القيام بشحنها بواسطة وكلاء الشحن المخصوصين.

نقل س. د. غويتين عن رسائل الغنزة التي عثر عليها في مصر (كما عثر في غيرها على رسائل تجارية) طلبات من تجار بعثوا بها الى وكلائهم يطلبون سلعاً معينة. فهناك تاجر فارسي الأصل، على ما يبدو من اسمه، اسحق النيسابوري، مقيم في الاسكندرية (حول سنة ١١٠٠م)، وكان يتعامل بالسلع التالية: المواد الدباغية (التي كانت تستورد من تونس مثل الزعفران) أو الخشب البريزوني (الذي كان يستورد من اندونسيا كي يرسل الى المغرب)؛ والمواد الطبية التي كانت مصادرها تتوزع على الأقطار الواقعة بين بلاد الشام وسوقطرى؛ والزجاج الشامي والمصري؛ والحرير، وهو المادة التي كانت الأكثر طلباً؛ وأقمشة من أنواع مختلفة وثياب مصنوعة منها مثل برانس الحمام والملافح؛ والمرجان المستخرج من مياه اواسط البحر المتوسط في الشواطىء الأفريقية والأوروبية (كان هناك مرجان كثير يأتي من المحيط الهندي، لكن مرجان بحرنا كان الأجود)؛ والطيوب ومنها العنبر الشمالي والسوقطري والمسك؛ والشمع الذي كان أجوده من تونس؛ ورحى الطواحين (الجيدة من سورية). وهناك مجموعة من الأقمشة والأدوات المنزلية والأشياء الصغيرة يرد ذكرها في رسائل هذا التاجر. ويبدو ان هذه كان القصد من شرائها تقديمها هدايا للأصدقاء[٧] (اما هدايا أولي الشأن

فكانت في الغالب الجواري والأقمشة الممتازة وما الى ذلك).

هذه بضائع ورد ذكرها في رسائل صاحبنا التاجر وهي رسائل من سنة واحدة. وقد نقل غويتين عن تاجر حفظت رسائله مع عملائه في الخارج لمدة نصف قرن (١٠٤٥ ـ ١٠٩٦م) وهو نهراي بن نسيم (من تجار القيروان أيضاً) وقد تبين انه تعامل خلال هذه الفترة الطويلة بالسلع التالية:

١ ـ القنب، الذي كان يصدّره الى تونس وصقلية.

٢ ـ الحرير الذي يستورده من اسبانية وصقلية. وهناك فضلاً عن الأقمشة الحريرية الأقمشة القطنية الجيدة التي كانت تحمل من بلاد الشام أو بلاد الروم (البزنطيين)، ومن شمال افريقية الأقمشة اللبادية. وكذلك الثياب المختلفة الصنع من البرانس والقفاطين حتى مفارش النوم. (حري بالذكر ان العرب لما فتحوا بلاد المتوسط نشروا تربية القز واستخراج الحرير في ربوعه، وقد نقل ذلك من لبنان بشكل خاص. وانتشرت الصناعة في انحاء أوروبة المتوسطية ن. ز.)

٣ ـ زيت الزيتون والصابون والشمع من تونس ومن فلسطين وسورية أحياناً (ويجدر بنا ان نذكر ان استيراد الزيت معناه نقله في الخوابي الكبيرة، التي تصبح مادة للاتجار ايضاً ن. ز.)

٤ ـ التوابل (من الشرق) وأهمها الفلفل والقرفة والزنجبيل التي كانت تصل مصر من المنطقة الهندية الصينية وتحمل منها الى أوروبة.

٥ ـ المواد الصالحة للدباغة والصباغة مثل خشب البربزون والنيلة وغير ذلك (هذا كان يحمل من الشرق الى الغرب)؛ وهناك السماق (من سورية الى مصر)؛ والزعفران من تونس شرقاً.

٦ ـ المعادن ـ ومنها النحاس والحديد الخام والقصدير والزئبق والزنك وسبائك الفضة، وجميعها كانت تنقل من الغرب الى الشرق في القرن الحادي عشر م.

٧ ـ الكتب المختلفة ومع ان اكثرها كان كتباً دينية يهودية تحوي التوراة والتلمود، فان عدداً كبيراً منها كان كتباً عربية. وهذه جميعها كان تنقلها شرقاً ـ غرباً وغرباً ـ شرقاً.

٨ ـ الطيوب والصموغ مثل الصبرة والعنبر والكافور واللبان والصمغ العربي والمسك. هذه كانت في غالبها تستورد من الشرق البعيد وتمر بالأسواق المصرية والسورية وتنقل منها الى الغرب.

٩ ـ المجوهرات والحجارة (الشبيهة) بالثمينة مثل اللؤلؤ والجزع والتوركواز. ويمكن اضافة الأصناف الأخرى الأقل ثمناً مثل المرجان الهندي وغطاء السلحفاة (الذبل) واليشب. ويبدو ان هذه كانت كثيرة في سلعه، لأنها كانت ادوات الزينة للطبقة (المتوسطة!).

١٠ ـ المواد الكيماوية التي تستعمل في الصناعات المختلفة مثل القلي والكحل

والبوراكس والنفط (القطران) والكبريت والنشا.

١١ ـ المواد الغذائية مثل السكر الذي كان ينقل بكثرة من مصر ثم من بلاد الشام، والثمار المجففة التي كانت من اختصاص بلاد الشام.

١٢ ـ الجلود على اختلاف انواعها والفرو والأحذية. وجميع هذه كانت تنقل من الشرق (أو من الغرب ـ الفرو) عبر تونس وصقلية شرقاً وغرباً.

فضلاً عما ذكر فهناك سلع لم يستطع الباحثون ان يتأكدوا من هويتها تماماً[٨].

هذا التنوع في الأعمال التجارية كان أمراً مألوفاً عند تجار تلك الأزمنة. وهنا يجب ان نذكر أن وجود الدولة الفاطمية في مصر منذ اواسط القرن الرابع هـ/ العاشر م وعناية أولى الأمر بشؤون الأمن والتجارة والتجار سد شجع هؤلاء على اعتماد طريق البحر الأحمر ـ الممر السبأي ـ الى عيذاب ومنها الى قفط أو اسوان ثم مع النيل الى القاهرة. وكان ثمة طريق آخر ينتهي بحراً عند السويس الحالية (القلزم يومها) ثم تنقل البضائع براً الى القاهرة، وهو طريق أقصر وآمن وأيسر بالنسبة لطريق عيذاب الصعيد.

ومن هنا فقد كانت الأسواق المصرية المهمة تجارياً هي، بالنسبة للتجارة الأوروبية، الاسكندرية ودمياط. لكن المركز التجاري الرئيسي في مصر كان الفسطاط. وقد خلف الرحالة والزوار الأخبار الكثيرة عن هذه الأسواق المصرية، وها نحن ننقل هنا ما ذكره ودونه أولئك الذين زاروا مصر في الفترة التي نتحدث عنها، فان في ذلك إيضاحاً لما كانت عليه الحالة. وهنا ناصري خسرو يتحدث عن «الفسطاط»: في مصر (الفسطاط) بيوت من أربعة عشر دوراً وبعضها من سبع طبقات. وقد سمعت عمن يوثق به، ان ثمة رجلاً أنشأ حديقة على سطح بيت ذي سبعة أدوار... وغرس فيها البرتقال الحلو والموز وغيرهما من الأشجار المثمرة والرياحين والزهور... وفي مصر دور كبيرة للتأجير تتسع الواحدة منها لثلثمائة وخمسين شخصاً. وبعض اسواق مصر وشوارعها تضاء فيها المصابيح باستمرار وذلك لأنها مسقوفة فلا يصل اليها نور الشمس.

«ينتقل التجار والسماسرة في مصر بين البيت والسوق على حمر ذات سروج جميلة، يرى المرء عدداً كبيراً منها عند مداخل الشوارع والأسواق. وأجرة الحمار قليلة. وفي مصر نحو من خمسين ألف حمار للتأجير. وركوب الخيل مقصور على الجند والأشخاص المنتمين الى الجيش.

«[ثورة مصر] : وتصنع في مصر كل أنواع القيشاني فتصنع المزهريات والكؤوس والصحون وغيرها من الأوعية وتزخرف هذه بألوان تشبه تلك التي تلوّن بها أقمشة الأبوقلمون، بحيث تتغير انعكاساتها بتغير المكان الموضوعة فيه المزهرية. وتصنع فيها كؤوس شفافة صافية كأنها الزمرد وتباع بالدرهم (وزناً) بحيث يبلغ ثمن الدرهم الواحد منها، على ما روى لي الثقة، ثلاثة دنانير مغربية.

«والبيع في مصر بالسعر المحدد، فإذا غش بائع شهّر به على جمل.

«والبائع، سواء في ذلك البقال أو العطار أو بائع الخرضوات، يعنى بوضوح ما يبيعه في الوعاء المناسب له سواء أكان كأساً أو آنية أو ورقاً، فلا يضطر المشتري الى تحضير الوعاء.

«ويستخرج من بذر الفجل واللفت زيت يسمى الزيت الحار. والسمسم ليس كثيراً في مصر وزيته غالٍ والتجارة بزيت الزيتون مرابحها كبيرة.

«رأيت في مصر خاناً اسمه دار الوزير تقوم فيه تجارة القصب. ففي الطبقة السفلى منه الخياطون وفي الطبقة العليا العمال، فسألت الأمين عليه عن أجرته فقال انها كانت عشرين ألف دينار في السنة لكنها الآن اثنا عشر الفاً لأن جزءاً منه متهدم. وقد أكد لي العارفون أن بمصر عشرة خانات بعضها مثل هذا وبعضها أكبر منه.

«كان ابن سعيد وأخوه من كبار الأغنياء، بحيث ان ثروتهم لا يعلمها الا الله. وقد روي ان ابن سعيد عمل على سطح داره حديقة فيها ثلثمئة أصيص من الفضة، غرس في كل منها شجرة مثمرة.

«لست أعرف بلداً آخر يستمتع بالطمأنينة على نحو ما تستمتع به بلاد مصر. رأيت نصرانياً من كبار المثرين في مصر، لا يعرف احد ما له من السفن ولا يحصي أرزاقه أو أملاكه. دعاه الوزير مرة اليه وسأله عن كمية القمح التي يمكنه بيعها أو هبتها للسكان، لأن المحصول كان رديئاً، وقد أهم الخليفة ما يعانيه شعبه من الفاقة. فأجاب الرجل بأنه عنده من القمح ما يكفي مدينة مصر ست سنوات. (وعدد سكان مصر كان عندها خمسة اضعاف سكان نيسابور)، ومع ذلك فلم يخش الرجل على ثروته ولم يخف مصادرتها لأنه مطمئن الى عدل الخليفة ووزيره»[٩].

وقد وصلنا وصف لابن جبير لمدينة الاسكندرية والتفتيش الجمركي فيها. ومع ان ابن جبير يتذمر من تصرف الموظفين، فان الأمر لا يخلو من شيء من المعرفة، لأن الازدحام الذي يتحدث عنه هو الازدحام الذي قد يشاهده المسافر في هذه الأيام في مطار دمشق وبيروت والقاهرة. فالناس لم يتغيروا وان كانت التقنية قد تطورت.

«[الاسكندرية] : أوله أي شهر ذي الحجة سنة ٥٧٨ يوم الأحد ثاني يوم نزولنا بالاسكندرية، فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا بأن طلع امناء الى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه. فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدي زكاة ذلك كله، من دون ان يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل. وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم فلزموا اداء زكاة ذلك دون ان يسأل هل حال عليه حول أم لا. واستنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن انباء المغرب وسلع المركب فطيف به مرقباً على السلطان أولاً ثم على القاضي ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان وفي لا يستفهم ثم يقيد قوله فخلي سبيله. وأمر المسلمون بتنزيل اسبابهم وما فضل من ازودتهم. وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم وحمل جميع ما انزلوه

الى الديوان فاستدعوا واحداً واحداً وأحضر ما لكل واحد من الأسباب والديوان قد غص بالزحام، فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل واختلط بعضهم ببعض وأدخلت الأيدي الى اوساطهم بحثاً عما عسى ان يكون فيها ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم ما وجدوا لهم أم لا. وفي أثناء ذلك ذهب الكثير من اسباب الناس لاختلاط الأيدي وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق لازال ذلك.

«ومن الغريب أيضاً في احوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل وتصرفهم بالنهار في جميع احوالهم، وهو أكثر بلاد الله مساجد حتى ان تقدير الناس لها يطفف فمنهم المكثر والمقلل، فالمكثر ينتهي في تقديره الى اثني عشر الف مسجد والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط. فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنهم من يقول غير ذلك. وبالجملة فهي كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة في موضع، وربما كانت مركبة وكلها بأيمة مرتبين من قبل السلطان فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية في الشهر وهي عشرة مؤمنية»(١٠).

وكان بنيامين التودلي ممن زار الاسكندرية. وهو معاصر لابن جبير، وقد قال عنها:

«والمدينة التجارية واسواقها تتسع لجميع الأمم. فيأتيها التجار من بلنسية وتسكانيا ولومبارديا وابوليا وامالفي وصقلية وقطالونيا واسبانيا والمانيا وسكسونيا والدنيمرك وانكلترا وفلندرة وفرنسة ونورماندیا وبرغنديا وجنوى وبيزا وغسقونيا ونافار. كذلك يأتيها تجار المسلمين من الأندلس وافريقية وبلاد العرب كما يصل اليها قوم من الهند والحبشة والنوبة واليمن والعراق. وتستورد من الهند جميع أنواع التوابل التي يبتاعها التجار الأوروبيون. ولكل أمة في المدينة فندقها الخاص بها»(١١).

وكان ابن جبير دقيق الملاحظة. لذلك فإن ما رواه عن تجارة عيذاب والبحر الأحمر والجلاب (أي المراكب) المستعملة فيه حرية باهتمامنا.

«[التجارة في مصر]: ورمنا في هذا الطريق احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة سلع الهند الواصلة الى اليمن ثم من اليمن الى عيذاب. وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل. فلقد خيل الينا لكثرته انه يوازي التراب قيمة. ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء انك تلتقي بقارعة الطريق احمال الفلفل والقرفة وغيرها من السلع المطروحة لا حارس لها تترك بهذه السبيل إما لإعياء الأبل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار. وتبقى بموضعها الى ان ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار عليها من اطوار الناس.

«[تجارة البحر الأحمر]: عيذاب وهي مدينة على ساحل بحر جدة غير مسورة، أكثر بيوتها اخصاص وفيها الآن بناء مستحدث بالجص. وهي من احفل مراسي الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائداً الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة. وهي في صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء الا مجلوب. لكن اهلها، بسبب الحجاج، تحت

مرفق كثير ولا سيما مع الحاج لأن لهم على كل حمل طعام يجلبونه ضريبة معلومة خفيف المؤونة، بالاضافة الى الوظائف المكوسية والتي كانت قبل اليوم التي ذكرنا رفع صلاح الدين لها. ولهم أيضاً من المرافق من الحاج اكراء الجلاب منهم وهي المراكب فيجتمع لهم في ذلك مال كثير في حملهم الى جدة وردهم وقت انفضاضهم من اداء الفريضة وما من اهلها ذوي اليسار الا من له الجلبة والجلبتان فهي تعود عليهم برزق واسع.

«الجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني ملفقة الانشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة. انما هي مخيطة بامراس من القنبار، وهو قشر جوز النرجيل يدرسونه الى ان يتخيط ويفتلون منه امراسا يخيطون بها المراكب. ويخللونها بدسر من عيدان النخل فإذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصنعة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو احسنها. ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر. ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسماري. وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن كذلك القنبار المذكور. ومن اعجب أمر هذه الجلاب ان شرعها منسوجة من خوص شجر المقل فمجموعه يتناسب في اختلال البنية ووهنها»[١٢].

وفي آخر ما كتب عن القاهرة، وهو كتاب أندريه ريموند المسمى القاهرة (باريس ١٩٩٣)، ثمة فصل يلخص فيه مؤلفه دور الفسطاط الاقتصادي في ايام الفاطميين. وسنكتفي هنا بالإشارة الى النقاط الأساسية التي يثيرها هذا المؤلف الذي شغلت القاهرة نفسه وملأت شغاف قلبه، فهو يكتب عنها بالعلم الموثق والحب العميق.

والنقاط الرئيسة التي يذكرنا بها يمكن تلخيصها فيما يلي:

١ ـ ان الفسطاط كانت نقطة الارتكاز الاقتصادي في مصر في تلك الأزمنة، لا الاسكندرية. فالسفن التي كانت تبحر من صور الى دمياط كانت تدخل الفرع الشرقي من النيل الى الفسطاط، وتخرج من الفرع الغربي نحو رشيد، ومن ثم تتابع ابحارها نحو الاسكندرية وطرابلس والمهدية.

٢ ـ وعلى نحو ما ذكرنا حول رسائل نهراي بن نسيم، كانت مصر تصدر الصوف الى صقلية وتونس، وتتلقى حرير اسبانية وصقلية. ويتضح من مراجعة رسائل الغنيزة وسواها من مصادرنا ان الصناع كانوا يتنقلون من مكان الى آخر بسبب ما كان يتيسر لهم من ظروف مناسبة للعمل. فقد عرفنا منها مثلاً ان الصناع الذين عرفتهم مصر في الفترة التي نتحدث عنها جاءوها من اسبانيا والمغرب وبزنطة وفلسطين ولبنان والعراق وحتى من تفليس. وكانت اصناف من المصنوعات وخاصة الأقمشة. تنتقل مع هؤلاء الصناع. فالقماش السوسي هو من صنع مدينة سوس أصلاً. لكن صناعته انتشرت واحتفظ القماش باسمه. ومثل ذلك السجادة الطبرية وأصل صناعتها من طبرستان.

٣ ـ وقد نقل اندريه ريموند ان الفسطاط كان فيها الكثير من مصانع (أو مطابخ على ما كانت تسمى) للسكر، وللورق وللحصر المقصبة (هذه كان عددها كبيراً حسب رواية عبد اللطيف البغدادي)[١٣].

ما دمنا قد تناولنا موانىء مصر بالوصف نقلاً عن رحالي القرنين الخامس والسادس هـ/ الحادي عشر والثاني عشر م، فلننتقل الى الموانىء الشامية، ولنفعل بها الشيء نفسه. والمهم ان بيروت وعكا وصور لفتت الرحالين الثلاثة ثيودورتش الالماني وفوكاس اليوناني وابن جبير العربي وهم متعاصرون.

«[بيروت] : بيروت مدينة غنية وحصينة، وكبيرة ومزدحمة بالسكان (فوكاس) ميناؤها جميل اتقنته يد الصانع الماهر، يحيط بالمدينة كالهلال، يقوم في كل من طرفيه برج تسحب بينهما سلسلة تحمي السفن الموجودة في الميناء في الليل (ثيودوريتش).

«[صور]: هي انظف من عكة سككا وشوارع. وأهلها ألين في الكفر طبائع وأجرى الى برّ غرباء المسلمين شمائل ومنازل. فخلائقهم اشجع ومنازلهم أوسع وأفسح واحوال المسلمين بها اهون واسكن. وعكة أكبر واطغى.. واما حصانتها ومنعتها فاعجب ما يحدث به وذلك انها راجعة الى بابين احدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها الا من جهة واحدة. فالذي في البر يفضي إليه بعد ولوج ثلاثة ابواب أو أربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب. واما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البلاد اعجب وضعا منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص. فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها. وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها. وعلى ذلك الباب حراس وامناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على اعينهم. فشأن هذا الميناء شأن عجيب في حسن الوضع. ولعكة مثلها في الوضع والصفة، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وانما ترسي خارجها، والمراكب الصغار تدخل إليها فالصورية أكمل وأجمل وأحفل. (ابن جبير)[١٤].

«[عكاء]: تزيد عن غيرها (من مدن بلاد الشام الساحلية) في عدد السكان. تأوي اليها جميع السفن التجارية ويجتمع فيها الحجاج الآتون في البحر والمسافرون براً... وتكثر فيها الأوبئة بسبب كثرة الواردين عليها. مدينة كبيرة كثيرة السكان... حيثما ينزل الحجاج، فانهم مضطرون بعد انتهاء الحج الى الاجتماع في عكاء ليحملوا منها الى بلادهم... وقد عددنا في يوم الأربعاء من أسبوع الفصح ثمانين سفينة في الميناء. (ثيودوريتش)[١٥].

لكن عندما نعود الى المراسلات التجارية المعاصرة نجد انه بين السويدية في الشمال وغزة في الجنوب كان الساحل يحتضن أربع عشرة ميناء. لكن التي كانت تجذب اليها التجار هي السويدية (ميناء انطاكية) وبيروت وصور وغزة. وكل منها كانت منفذاً لجزء داخلي من بلاد الشام.

وزبائن الاتجار في السلع التي كانت أسواق سورية ومصر وتونس وصقلية تحتفظ بها، كانوا من الروم (أي البزنطيين والايطاليين) وغيرهم. والمهم هو ان التجار الأوروبيين هم الذين كانوا يقصدون الموانىء العربية، في الشرق والغرب، سعياً وراء سلعها وتجاراتها. ولم

يعرف ان تجار العرب، في هذه الفترة، كانوا ينقلون تجاراتهم الى الموانىء الأوروبية.

ويرى الباحثون انه في القرنين الرابع هـ/ العاشر م والخامس هـ/ الحادي عشر م كانت موانىء تونس وصقلية هي «زنبرك» الحركة التجارية المتوسطية.

من السلع التي كانت تنقل من أوروبة الى مصر خاصة الاخشاب. وهذه كانت من اختصاص تجار البندقية وجنوى وامالفي.

أما بزنطية فكانت تصدر الأقمشة والمواد الطبية الى موانىء شرق المتوسط وغيرها.

ويلاحظ غويتين ان هناك سلعاً لم يرد لها ذكر في المراسلات الغنزية مثل الحبوب (القمح والشعير والأرز) والابل والخيل والحمير والأغنام والأبقار. ولكن الدجاج كثير وروده. وتجارة الرقيق التي كانت من اختصاص التجار اليهود حتى القرن الثالث هـ/ التاسع م، لا يرد لها ذكر خاص. ومثل ذلك يقال عن تجارة الأسلحة. لكن ذلك لا يعني ان هذه لم تكن سلعاً للنقل والتجارة، بل لعلها انتقلت الى أيد أخرى، فلم يرد لها ذكر، إلا نادراً، في أخبار رسائل الغنيزة.

والتنقل التجاري في حوض المتوسط كان بحراً، ومواعيده الربيع والخريف. أما في الشتاء والصيف فقد كانت القافلة هي الأساس. ومن المتعارف عليه بين الباحثين ان قوافل شتوية منتظمة تقريباً كانت تسير من القيروان شرقاً. ومن الطرق الداخلية للقوافل طريق كان يتجه من ليبيا الى الاسكندرية عبر الواحات المصرية وقد احتاجت احدى القوافل ستة اشهر في قطع هذه المسافة. ولم يكن هذا أمراً إدّا.

كان السفر البري أكبر نفقة من السفر البحري. وعلى سبيل المثال فإن نقل الرجل من طرابلس (ليبيا) الى قابس (تونس) كان يكلف ثلاثة دنانير مرابطية (مغربية). وكان انتقال الرجل من بلبيس (وهي آخر محطة على طريق القاهرة الشام البري) الى دمشق يكلف الراكب دينارين (لكن ثمن الطعام كان داخلاً في المبلغ). وكان المبلغ الذي يدفع لنقل حمل جمل من الورق من دمشق الى القاهرة بين خمس قطع ونصف القطعة وبين ست قطع من الذهب. فضلاً عن ذلك فقد ترتب على التاجر ان يدفع ثِمْنَ (١/٨) دينار للحراسة. وقد دفع التاجر نفسه خمسة دنانير أجرة نقل الحمل الواحد من خمسة احمال من الدراق (المجفف طبعاً) من عكا الى الفسطاط (كانت الأجرة خمسة دنانير لكل خمسين كيلوغرام). وعندما تكون قافلة حجاج في طريقها من البحر الأحمر الى القاهرة وفيها «خمسمئة» جمل، يمكن ان يتصور المرء النفقات والاخطار والمصاعب والمتاعب في طريقها. ولم تنظم طرق قوافل بعيدة المسافة كأن تقوم قافلة من سجلماسة (في المغرب) الى الاسكندرية رأساً. كانت طرق القوافل تقتصر على اجزاء معينة، كأن تكون من سجلماسة الى القيروان. ولعل هذا كان أنسب للأسواق والتجار ودواب النقل[١٦].

على انه منذ العقود الأولى من القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م كان هناك انتقال، بشكل عام، من تجارة البر الى تجارة البحر[١٧]. ولعل احد هذه الأسباب هو ان السفن ادخل على بنائها تحسينات جعلتها تحمل كميات أكبر كما اصبحت أكثر مقدرة على مقاومة الأمواج

العاتية.

وفي سبيل إعطاء فكرة عن المدة التي كانت السفينة تحتاجها لاجتياز المسافة بين ميناء متوسطي وميناء متوسطي آخر، نضع بين أيدي القراء نماذج لذلك.

من الاسكندرية الى المرية (الأندلس) (سفينة صغيرة)	٦٥ يوماً
من مرسيليا الى الاسكندرية	٢٥ يوماً
من بلرمو (صقلية) الى الاسكندرية	٥٠ يوماً
(بسبب هبوب ريح شرقية لمدة٢٠ يوماً)	
المهدية الى الاسكندرية	٣٥ يوماً
تنيس (مصر) الى عسقلان	٧ أيام
الاسكندرية الى طرابلس (لبنان)	٧ أيام
عكا الى يافا	٥ أيام[١٨]

يمثل القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م، على ما رأينا، فترة نشاط أوروبي في البحر المتوسط، لعل الناحية التجارية لم تكن سوى واحدة من نواحيه الكثيرة. ذلك بأن نوعاً من الانطلاق الحربي قد دب في هؤلاء القوم بعد ان كانوا قد قبعوا في حجورهم مدة لا يستهان بها بسبب سيطرة العرب المسلمين على البحر المتوسط بكامله. وقد أشرنا إلى أن هذا الإندفاع كانت تقوده البندقية وجنوى وبيزا وغيرها. فلما أطلق البابا اربانوس الثاني الدعوة الى الحملة الصليبية كان هؤلاء التجار ـ أي ابناء المدن الايطالية ـ على اتم الاستعداد للتقدم. على الأصح يمكن القول انهم ظهروا على المسرح من أول الأمر. فقد اعانت وحدة بحرية جنوية في حصار انطاكية (١٠٩٨) والقدس (١٠٩٩). ولم يكن قد مر على احتلال القدس سوى شهرين وبضعة ايام حتى كان اسطول من بيزا يجوب المياه الشامية. وفي السنة التالية جاء البنادقة وتلا ذلك، بعد سنة، قدوم الجنويين. وهؤلاء اتوا السواحل الشامية سنة ١١٠٤ أيضاً.

من الواضح انه لولا القوى البحرية التي ساندت الصليبين ما كان احتلال المدن ممكناً. لكن السؤال الذي يخطر للباحث هو: لماذا اندفع «التجار» الايطاليون بمثل هذه القوة والسرعة نحو شرق المتوسط؟ لعل البعض تأثر بدعوة البابا، لكن الأمر الذي قد يكون أهم بالنسبة الى هؤلاء القوم بالذات هو الفرص الجديدة التي كانت ستتاح لهم كتجار! فهناك ـ في شرق المتوسط ـ كانت الأسواق التي يمكن ان تزود هؤلاء التجار بالسلع الآتية من الشرق البعيد كي تنقل الى أوروبة واسواقها.

هذه الجماعات التجارية كانت تحلم بالحصول على إذن بالاتجار والاقامة في المدن الشرقية. فجاءت هذه الحروب الآن تعطيهم ما يريدون واكثر؛ إذ إن الذي يحصلون عليه الآن منحة من حكام البلاد، بل أصبح حقا لهم بسبب مساهمتهم في العمل العسكري.

«لسنا ننوي ان نتابع تطور الدويلات الصليبية في المشرق العربي، ولكننا نود ان نشير

هنا الى الدور الذي قامت به المدن الايطالية الرئيسية في تثبيت أقدام الغزاة، لا رغبة في ايمانهم وحماستهم الدينية، بل رغبة في الافادة من الأوضاع الجديدة.

«كانت جنوا من أول المدن الإيطالية التي دعمت حتى الحملة الأولى، وقبل ان تصل فلسطين. فقد ضمّت عشرا من سفنها المقاتلة الى القوة المحاصرة لانطاكية (١٠٩٧ ـ ١٠٩٨م) وبذلك مكّنت القوة المحاصرة من احتلال المدينة (مع ما رافق ذلك، على ما يروي المؤرخون من خيانة داخلية). لكن السفن تركت بعد ان حصلت على شيء من الأسلاب كثير، وبعد ان أمنت جنوى إمتيازات ذات قيمة كبيرة.

«وقد اشتركت بيزا في مساعدة الحملة الأولى، لكنها لم ترسل السفن حالاً، بل تلكأت نحو ثلاث سنوات، الا ان السفن وصلت يافا، وغودفري على حصار القدس. ومع ان البحارة اضطروا الى التخلي عن بعض السفن، فقد نجحوا في نقل معدات ومواد غذائية الى المحاصرين في القدس.

«وأما المدينة التي كانت سيدة الموقف وزناً وقدرة، فهي البندقية. ففي حصار يافا (١١٠١/٤٩٧) وضعت مئتي سفينة الى جانب المقاتلين من الصليبيين. وفي سنة ٥١٧/ ١١٢٣ وقعت معركة بحرية على مقربة من عسقلان كان فيها ١٥ر٠٠٠ محارب بندقي وثلاثمائة سفينة، منها مئتان وعشرون سفينة من الحجم الضخم؛ وقد قاد المعركة الدوج بنفسه. وقد انتهت المعركة بالقضاء على الأسطول المصري. وتبع هذه المعركة سقوط صور بأيدي قوة بندقية أيضاً (٥١٨/ ١١٣٤).

«ولكن ما الذي حصلت عليه المدن الايطالية في فلسطين خاصة مقابل هذه المساعدات؟.

«١ـ أسهم الجنود الايطاليون مباشرة في عمليات السلب والنهب التي كانت تلي الاستيلاء على المدينة البحرية (قيسارية ٤٩٤/ ١١٠١)، طرابلس (٥٩٣/ ١١٠٩). ولما نهبت قيسارية (٤٩٤/ ١١٠١) منح القباطنة والضباط الجنويون ١٥٪ من الغنيمة، وقسم الباقي على ٨ر٠٠٠ بحار وجندي فكانت حصة كل واحد منهم ٤٨ ديناراً ذهبياً ورطلين (باوند = ٤٥٤ غراماً) من الفلفل.

«٢ ـ لكن هذه المكافآت الآنية لم تكن المقصودة بالذات، بل كان هناك، على المدى البعيد أمور أخرى، أهم بكثير. منها مثلاً ان السفن المختلفة اصبحت تحمل المحاربين بحراً وذلك لقاء أجور يدفعها هؤلاء. وهذه صارت، مع الوقت، عملية مربحة جداً. ولكن ما هو أهم بعد هو ان المدن الايطالية خاصة كانت تمنح احياء في المدن ومخازن للمتاجر وأسواقاً للاتجار وكنائس، فضلاً عن امتيازات تجارية وسياسية.

«ولنضرب الآن امثلة على الامتيازات التي حصلت عليها المدن الايطالية مقابل هذه الخدمات العسكرية.

«كانت جنوا، كما ذكرنا، أول من أعان الصليبيين، وقد اعطيت مقابل ذلك كنيسة وسوقاً

وثلاثين بيتاً في انطاكية. وقد نالت كل من بيزا وامالفي مثل ذلك في اماكن أخرى.

«اما البندقية التي كانت الأغنى والأقوى بين مدن تلك الأيام، فقد استخدمت قوة كبيرة من السفن والرجال، وعلى فترات متتالية. لذلك فقد كانت حصتها في المملكة حيا بالقدس وربع ميناء عكا وثلث مدينتي صور وعسقلان (لما احتلت سنة ١١٥٣). وقد منح التجار البنادقة حق الاتجار بحرية في المملكة (مملكة القدس اللاتينية) واعفوا من دفع ضريبة البيع في الموانىء والأسواق.

«وقد اصبحت هذه الأحياء التي منحها التجار مناطق خاصة داخل المدن، خاصة في القرن الثاني عشر للميلاد، وصار سكانها يدير شؤونهم قناصل تبعث بهم المدينة الأم للقيام بهذه المهمات. وقد كان للبندقية محاكم خاصة تحاكم رعاياها في هذه الأماكن.

«ومما يلفت النظر هو ان مواطني المدن الايطالية المختلفة كانوا يعتبطرون انفسهم تجاراً ـ هذا مع ان الحالة كانت حالة حرب. فكانت هناك جاليات في الاسكندرية وفي دمياط، كما ان بعض سكان بيزا استقروا في القاهرة.

«وقد كانت السفن البندقية، مثل غيرها، تقوم بدور سفن النقل التجاري بين القسطنطينية وعكا وصور والاسكندرية. وقد استمر هذا خلال القرن الثاني عشر للميلاد بالرغم من التوتر والانتفاضات التي كانت مع تعتَورُ البلاد.

«ومثل هذا كان ينطبق، على ما يبدو، على الطرق البرية. فقد كتب ابن جبير في رحلته (في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد) انه قد يقع المصاف بين المتحاربين ـ أي المسلمين والفرنجة ـ ومع ذلك فان القوافل تنتقل بين بلاد الفريقين وليس من يعترضها.

«ولعل خير (أو شر) ما يمثل دور البندقية هو في جعل حملة صليبية كاملة تنتقل من حملة لانقاذ الأراضي المقدسة الي حملة مأجورة لمصلحة المدينة الايطالية.

«مرّ على الحروب الصليبية قرابة مئة سنة. وكل من الفريقين، المحاربين الاصليين والتجار، كان ينعم بما حصل عليه وما دفع ثمنه. لكن الحركة فقدت مع الوقت صفتها الدينية في أعين المقاتلين؛ اما بالنسبة الى المدن التجارية فلم تكن اصلاً سوى خرجة تجارية. ومن هنا فانه لما آن موعد الحملة الرابعة، لم تتورع البندقية عن ان تجعل من الحملة حرباً تجارية. فقد قبلت المدينة ان تنقل المحاربين (الصليبيين) الى بلاد الشام أو مصر وتزودهم بحاجاتهم لمدة فصل واحد. إلا ان البندقية اشترطت ان تدفع أجرة نقلهم مع اتاوات أخرى قبل الاقلاع، وان تمنح المدينة نصف ما قد يحتلون. ولما تباطأوا في الدفع، عرض عليهم دوج البندقية ان يتنازل لهم عن الدين المطلوب منهم إذا كانوا على استعداد لاحتلال زارا، الميناء الواقع على البحر الادرياتيكي والذي كان شوكة في جانب البندقية. فقبلوا؛ لكن المحاربين أقنعوا بأن يبدلوا مسيرتهم ليحتلوا القسطنطينية. ذلك بأن التجار البنادقة كانوا قد اقضت مضاجعهم المنافسة التجارية التي كان تجار جنوا وبيزا يقومون بها ضد البندقية، كما انهم أنسوا من الامبراطور البزنطي ازوراراً عنهم. وهكذا فقد حاصرت «الحملة الرابعة» العاصمة البزنطية

واحتلتها ونهبتها سنة ١٢٠٤ وخلعت الامبراطور واقتسمت الاسلاب. فحصلت البندقية على نحو ثلاثة اثمان من المدينة، وأُخرج الجنويون منها. ولما كانت البندقية قد ثبتت اقدامها في مصر وكانت سيدة الموقف في بلاد الشام، اقامت لنفسها صرحاً ضخماً وأصبحت أكبر «تاجر» في أوروبا»[١٩].

وليس في الإشارة الى ما جناه التاجر الأوروبي من احتلال الصليبيين للسواحل الشامية أي تجن عليه أو على غيره. ذلك بأن الوثائق التي حفظت عن تلك الفترة في سجلات المدن الايطالية وغيرها توضح ذلك بشكل بيّن. فهناك اتفاقات تجارية عقدتها جنوى مع الدويلات القائمة في بلاد الشام؛ وثمة تشريع بحري يعود الى سنة ١٢٣٢ ـ خاص بالبندقية وأسطولها؛ وعندنا كشوف بالمكوس التي كان يتوجب دفعها على السلع المستوردة من الموانىء الشامية. وقد عثر على نص جمركي يعدد نحو مئة صنف من السلع التي تباع في اسواق عكا والتي يتوجب ان تدفع عنها رسوم جمركية.

وهذه جميعها كانت مرتفعة. وهذا يعني ان السوق الأوروبية قد أصبحت، كما اشرنا قبلاً، منتجة ومن ثم كان باستطاعتها ان تدفع ثمن هذه الأشياء.

ونحن، ولو اننا أشرنا الى ذلك أكثر من مرة، نود ان نضع هنا ثبتاً بما كان التاجر الأوروبي يحمله من بلاد الشام من السلع: السكر من فلسطين، وقد ازدادت زراعة القصب يومها. وكان الفلفل في مقدمة ما يطلبه الأوروبي، بحيث كاد ان يصبح نقداً يتعامل به في بعض الأماكن. وهناك الزنجبيل وجوزة الطيب وكبش القرنفل وحب الهال والقرفة. وهذه، على ما يرى بعض الباحثين، كانت تستعمل مطيبات للطعام الأوروبي البعيد عن الذوق. وقد يكون هذا صحيحاً بالنسبة لبعض الأماكن التي تعرفت الى المطبخ الشامي اثناء الحروب الصليبية. لكن الذي نراه نحن هو ان هذه، والفلفل بصورة خاصة، كانت تطلب لحفظ اللحوم. ذلك ان القوم لم يكونوا قد اهتدوا الى طريقة لحفظ الأعشاب بحيث يمكن ان تطعم بها الحيوانات شتاء. فكان لا بد من ذبح عدد كبير من الأغنام والأبقار في مطلع الشتاء والاحتفاظ باللحوم واستهلاكها في الموسم. فجاءت التوابل، وعلى رأسها الفلفل، تعينهم على حفظ اللحوم من التلف!

وهناك الطيوب مثل المسك والعطور. وهناك اللبان (والمر) الذي كان ضرورياً للخدمة الكنسية. فضلاً عن ذلك، فهناك الطلب على مواد الدباغة والصباغة (مثل الصبرة وخشب الصندل) والصمغ، كما كان ثمة اهتمام كبير بالحصول على المواد الطبية، والأقمشة الدمقسية والموصلينية والحلبية التي كانت مثل اقبية تنيس المصرية مرغوبة غرباً وشرقاً. والجماعات التي اخذت بصنع الأشياء الفنية، علباً وبراويز مرايا وصناديق وطاولات، كان يهمها ان تزخرف ذلك بالعاج ـ الهندي، والافريقي كان الافضل[٢٠].

يبدو من الذي عرضناه ومن أمور أخرى سنعرض لها هنا استتماماً للبحث، أن الاتصال التجاري بين أوروبا (المدن الايطالية ومرسيليا خاصة) الذي كان قد اتخذ شكله وسبيله في

القرن الحادي عشر، استمر ايام قيام الدويلات الصليبية في البلاد الشامية. كل ما هناك انه ازداد وتقوّى. صحيح ان التجار الأوروبيين كانوا يستطيعون ان يطمئنوا الى سلامتهم على شكل أكبر في الموانىء المحتلة ـ وأهمها انطاكية وطرابلس وصور، لكن ذلك لم يعن انهم من قبل لم يكونوا يحصلون على امتيازات، لكن مما لا شك فيه انه عندما يكون للتاجر مستقر وخان وسوق، وكلها مضمونة، فانه يشعر بأن عمله التجاري أصبح أكثر فائدة له.

أما الأمر الذي يجب ان نذكره دوماً فهو ان تجارة بلاد الشام الساحلية (وسنشير الى التجارة الداخلية حالاً) اصبحت موجهة نحو الحاجة الأوروبية. فالمصنوعات الشامية كانت على وجه العموم تنقل الى أوروبة كي يستفيد منها أولئك الناس.

لكن التوجه نحو أوروبة تجارياً كان ذا وجهين: ذلك بأن أوروبة نفسها اخذت تعنى بتصدير ما تصنعه الى الشرق عن طريق الموانىء الشامية (والمصرية أيضاً). فكانت السفن الأوروبية التي تحمل ما ينقل من الشرق من سلع تعود حاملة اليه ما في بلادها. فضلاً عن ذلك، فان الفرنجة المقيمين في بلاد الشام كانوا بحاجة الى مصنوعات بلادهم، وخاصة بعض أنواع الأقمشة والثياب التي ألفوا استعمالها هناك. فالاقبية وثياب المناسبات الاجتماعية والبزات الفرسانية كانت تأتي في كثير من الحالات من الغرب.

والذي نود ان نذكر أنفسنا به هنا هو ان مناطق ومدناً معيّنة في بلاد الشام الساحلية، التي كانت لها صناعات معروفة من قبل، استمرت في هذا الانتاج الصناعي. فطرابلس قيل عنها انها في الفترة الصليبية، كان فيها أربعة آلاف حائك يعمل اكثرهم في حياكة الحرير، وكانت بيروت تليها في هذه الصناعة. ونقل عن عكا وطبرية انهما كانتا تزودان الأسواق والتجار بالخيوط القطنية وأن الرملة والجوار كانت فيها صناعة للأقمشة الصوفية. وكانت النيلة تجمع من مزارعها في وادي الأردن، وكان البلسم مما تنتجه اريحا. أما الزفت فكان يجمع من البحر الميت. وكان الزجاج يصنع في صور. أما زيت الزيتون والسيرج (الشيرج) فكانا ينتجان في انحاء مختلفة. والخمور كانت موضع اهتمام وعناية في المنطقة بأكملها.

ويستنتج من مجموعة الوثائق التجارية وفيها عشرات من الاتفاقات التجارية المختلفة المحتوى بضعة أمور تستحق التسجيل هنا.

١ ـ ان تجارة أوروبة مع موانىء شرق المتوسط الشامية في النصف الأول من القرن السادس هـ/ الثاني عشر م كانت أكبر من مجموع التجارة بين أوروبة وبين بزنطة ومصر مجتمعتين.

٢ ـ هذا كان المقصود به القيمة (المالية) لا الحجم.

٣ ـ لأن عدداً من السلع ـ الحديد والأخشاب والقصدير ـ كان تصديرها من أوروبا الى مصر ممنوعاً، فانها لم تكن تسجل في الاتفاقات التجارية.

٤ ـ لأن السلع التي كانت ترسل الى مصر كانت ضخمة في حجمها، فقد احتاجت السفن الى سفرات اكبر عدداً من تلك التي كانت السفن تقوم بها الى الموانىء الشامية.

٥ ـ ان الوضع التجاري العام، من حيث المواد المتبادلة تجارياً، لم يتبدل حتى الربع الثاني من القرن الثالث عشر[٢١].

وهذا الذي ذكرناه يؤيده الرحالة الأوروبيون الذين زاروا البلاد في ذلك القرن، ونكتفي بنقل بعض ما ورد عندهم مما يصور الوضع القائم يومها.

«[عكا]: عكا مدينة حصينة بأسوارها وأبراجها وخنادقها وبقية اعمال التحصين ذات القوة الهائلة... يحيط بها من الشرق سهل متسع خصب جداً سواء في ذلك أرضه المفتلحة ومروجه وكرومه وبساتينه التي تنمو فيها انواع مختلفة من الفاكهة. وفي داخل المدينة امكنة كثيرة محصنة وقلاع وحصون تخص الفرق المختلفة كفرقة المستشفى أو فرقة الهيكليين أو الجماعة التيوتونية. وعكاء يملكها ملك القدس، ولها ميناء كبيرة جيدة في جنوبها تستطيع السفن ان ترسو فيها. (بركارد)

«[صور]: دورة سور صور بها أكبر، في رأيي، من دورة سور عكا... وقد أقمت فيها مرة عشرة ايام... والماء في جهاتها كثير، وأهل صور يوزعون المياه على كل أجزاء السهل المحيط بالمدينة فيروون البساتين التي ينمو فيها الكرم وقصب السكر، وهو كثير، وينال صاحب صور منه رسوماً كثيرة. (بركارد)

«[نابلس]: تقع نابلس بين جبلين وهي جميلة، مليئة بالخيرات، لكنها ليست محصنة، ولا يمكن ان تحصن. وكل ما يستطيع اهلها ان يفعلوه إذا هاجمهم الاعداء من باب، ان يهربوا من الباب الآخر. (بركارد)

«ولا يمكن تحصينها لأنه من السهل رمي الحجارة من الجبل الى داخلها، ولا فائدة من التحصين. (سنودو)

«القطن: ينمو في انجم يبلغ طولها الى ركبة الرجل... وينمو قصب السكر... وداخله مليء بمادة مسامية رطبة، يجمع ويقطع صغيراً ويعصر ويغلى العصير الذي يخرج منه، ومتى صار لزجاً يوضع في سلال مصنوعة من العساليج، فيجف ويصبح صلباً. وهكذا يصنع السكر. ويتقطر منه قبل ان يجف سائل يسمى عسل السكر، وهو لذيذ ويستعمل في صنع الكعك.

«ويزرع قصب السكر بطريق العُقَل. وموعد غرسه في فصل الربيع».

وبعد ان يعدد البرتقال والليمون يشير الى الموز ويسميه ثمر الجنة، ويصفه باسهاب.

«وخمر الأرض المقدسة جيد ولذيذ. (بركارد)[٢٢]

نود ان نضع بين أيدي القارىء بعض ما وصلنا من وصف للمدن ـ او بعضها ـ الداخلية في بلاد الشام، أي تلك التي ظلت في حوزة حكامها المحليين.

«[حلب]: واما البلد فموضوعه ضخم جداً حفيل التركيب بديع الحسن واسع الأسواق. كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة الى خرى الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية. وكلها مسقف بالخشب فكأنها في ظلال وارفة. فكل سوق منها تقيد الابصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً. واما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالاً

مطيفة بالجامع المكرم لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها، ولو كان من المرائي الرياضية، واكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع النقش الصنعة، قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللها شرف بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها اجمل منظر وكل سماط منها يتصل بباب من ابواب الجامع المكرم. (ابن جبير)

«وقراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضاً وطولاً (ابن جبير). وخانات هذه الطريق كأنها القلاع امتناعاً وحصانة وابوابها حديد. وهي من الوثاقة في غاية. (ابن جبير).

«[المعرة]: وبلاد المعرة سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وانواع الفواكه ويتصل التفاف بساتينها وانتظام وقراها مسيرة يومين. (ابن جبير)

«[حماة]: وكلتا المدينتين صغيرتان، وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العالي الجبلي ويطيف بها، وللمدينة السلفى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج الى سور. وعلى النهر جسر كبير معقود بصم الحجارة يتصل من المدينة السفلى الى ربضها. وربضها كبير فيه الخانات والديار وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته الى ان يفرغ لدخول المدينة. واسواق المدينة العليا احفل واجمل من اسواق المدينة السفلى. فهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات وموضوعها حسن التنظيم بديع الترتيب والتقسيم. ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل ولها ثلاث مدارس ومارستان على شط النهر. (ابن جبير)[٢٣]

وعندنا وصف لدمشق من قلم ابن جبير نجتزىء منه ما يخص الاتجار. يقول: «والبلد ليس بمفرط الكبر، وهو مائل للطول، وسككه ضيقة مظلمة، وبناؤه طين وقصب، طبقات بعضها فوق بعض، ولذلك كثيراً ما يسرع الحريق اليه، وهو كله ثلاث طبقات، فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن، لأنه اكثر بلاد الدنيا خلقاً، وحسنه كله خارج لا داخل.

«واسواق هذه البلدة من احفل اسواق البلاد، واحسنها انتظاماً، وابدعها وضعاً، ولا سيما قيسارياتها، وهي مرتفعات كأنها الفنادق، مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها ابواب القصور. وكل قيسارية منفردة بضبتها واغلاقها الجديدة. ولها أيضاً سوق، يعرف بالسوق الكبير، يتصل من باب الجابية الى باب شرقي.

وقد لفتت المدينة أيضاً نظر بنيامين الططيلي، الذي زارها سنة ٥٥٨/ ١١٦٣ وكتب عنها: «ان المدينة كبيرة وجميلة يدور بها سور ويحيط بها ريف جميل يمتد الى نحو خمسة عشر ميلاً في حدائق وبساتين من اغنى ما عرف، بحيث انه لا مثيل لها على سطح الأرض لا من حيث عددها ولا من حيث جمالها. هنا يجري نهرا ابانا وفرفر اللذان ينبعان من الجبل الذي ترتكز المدينة عليه، وابانا يخترق دمشق، وثمة قساطل تحمل ماءه الى الشوارع والأسواق. وفيها يجتمع التجار من جميع اقطار الدنيا حيث يتبادلون السلع على مقياس واسع. وفرفر يمر بالبساتين والحدائق في الضواحي ويرويها»[٢٤].

وسورية وأجزاء أخرى من بلاد الشام بلاد غنية ـ كانت كذلك ايام المقدسي في القرن

الرابع هـ/ العاشر م، وظلت على ذلك رغم ما عمها من اضطراب وفوضى اثرت بعض الشيء على الأراضي المزروعة. فدمشق مثلاً افادت من صناعاتها وخاصة الحرفي منها.

«فقد كانت دمشق تنتج السكر والنقولات وتصنع المنسوجات القطنية والحريرية والزجاج والخزف والفخار والمزخرفات الحديدية والكاغد والصابون والعطور وماء الورد وماء الزهر والشموع والأحذية. وكانت المدينة مشهورة أيضاً بصياغة الذهب والفضة. وكانت تقرن بالقاهرة، وكان بعض الأوروبيين يفضلونها على باريس وفلورنسة».

ثمة فئة من الرحالين الأوروبيين مثل نيكولو البوغبونصي وليوناردو فرسكوبالدي وجورجو غوتشي وسيمون سيولي وفون سوخم الذين زاروا الأراضي المقدسة في القرنين السابع والثامن هـ (الثالث عشر والرابع عشر م). وقد ضمت هنا رواياتهم بعضها الى البعض الآخر، فيما يتعلق بدمشق، فتم لي من ذلك وصف جيد لأحوال مدينة دمشق في تلك الفترة.

«ان ما يصنع في دمشق، من أي نوع كان، كبيراً كان وصغيراً، هو أكثر مما يصنع في أي مكان آخر في الدنيا، سواء في ذلك الأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية والذهب والفضة والنحاس من جميع الأصناف، والزجاج من جميع الأنواع. فقد حذق الصناع ذلك كله، وكان منهم مهرة الصناعة في كل فن. وعندهم الى ذلك غالب اصناف الفواكه التي يحفظونها من سنة الى سنة تالية.

«اما متاجر دمشق: فهذه لا يصدق وصفها الذي لم يرها بأم عينه، وذلك بسبب كثرة التجار والصناع في المدينة بأجمعها، داخلها وخارجها. لا يمكن تصور شيء غير موجود في الضواحي. فاجمل ما في الدنيا وانبله واشده اتقان صنعة موجود هناك. فلو انك سرت متفرجاً لرأيت المصنوعات الرائعة الأنيقة الدقيقة التي تغريك، بحيث لو انك كنت تخفي نقودك في قصبة رجلك لما ترددت في كسرها واخراج النقود لشراء بعض ما هناك، فان خيالك لن يمكنه ان يتصور شيئاً وبأي شكل كان الا وجدته هناك. فالأقمشة الحريرية الكثيرة من أي نوع أو لون تجدها هناك على افضل واجمل ما يعرفه العالم. وثمة كميات كبيرة من الأقطان، من اجمل ما في العالم، بحيث لو شاهدها احد الناس، ولم يكن خبيراً، لحسبها حريراً لما هي عليه من النعومة واللمعان والدقة والجمال. والبروكار أيضاً متوفر في الأسواق. وما اكثر ما يصنع هناك من طسوت النحاس وأباريقه التي تبدو كأنها من الذهب، وكلها مزخرفة بنقوش من الأشكال والأوراق، كما يعمل من الفضة أشياء فنية جميلة تسر العين لرؤيتها.

«وهكذا فالصناعات جميعها كانت من شغل مهرة الصناع واقدرهم، هذا الى ما كانوا يتحلون به من نظام جميل، ونبيل أيضاً. إذ إنه إذا كان الأب صائغاً فان ابناءه ما كان لهم ان يتعلموا غير صناعته، وبذلك توارث الناس الصناعة جيلاً بعد جيل وترتب على ذلك انهم بلغوا الغاية في المهارة الصناعية في فنونهم. وحوانيتهم مرتبة أنيقة نظيفة، بحيث ان مشاهدتها كانت باعثاً على السرور، وجميعها تملأها المتاجر. وكانت الحوانيت تمتلىء بنفس السرعة

التي تباع السلع فيها، إذ إنه كان لديهم مستودعات كبيرة كما ان بيوتهم كانت تملأها البضائع.

«والواقع ان محاولة وصف المتاجر الكثيرة الموجودة في دمشق قد تربك الكاتب، ولكن قد يقع الذي لم يرها في ارتباك وحيرة أشد. وحتى لو رغب الواحد في تعداد الصناعات واصناف الأشياء الموجودة، لاضطر الى الاطالة الى ما لا قبل له به. إذ انه فضلاً عما ذكر فان اسواق دمشق فيها الحجارة الكريمة والجواهر والافاويه التي تأتيها من الهند. وقد قال المسيحيون العارفون بهذه الأمور بأن ما في دمشق من المتاجر يكفي حاجات العالم المسيحي سنة كاملة. ولك ان تتصور ما اجمل هذا كله عندما تقع العين عليه: اما اللسان فيعجز عن القول، كما يعجز العقل عن التصور»[٢٥].

ولننقل، على سبيل المقارنة، ما ذكره المقري (من أهل القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م) عن الفسطاط التي ظلت، حتى بعد بناء القاهرة المعزية، العاصمة التجارية لمصر الى ان كبر حجم السفن المصنوعة في مصر، فانتقل المركز الى الاسكندرية، وهذه كانت محط رحال سفن التجار الأوروبيين، كما كان يصل اليها بعض ما ينقل عبر البحر الأحمر الى القلزم (السويس الحالية).

قال المقري:

«ثم انفصلنا من هناك الى ساحل النيل فرأيت ساحلاً كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض. الا انه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب واصناف الأرزاق التي تصل من جميع اقطار النيل. ولئن قلت اني لم ابصر على نهر ما ابصرته على ذلك الساحل فاني اقول حقاً.

«والحال ان اهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازحة والألفة، مما يطول ذكره. واما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني والبحر الحجازي فانه فوق ما يوصف، وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة، ومنها يجهز الى القاهرة وسائر البلاد. وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجري هذا المجرى. لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند كما ان جميع زيّ الجند بالقاهرة اعظم منه بالفسطاط. وكذلك ما ينسج ويصاغ، وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية والحراب في الفسطاط كثير. والقاهرة اجدّ وأعمر واكثر زحمة باعتبار انتقال السلطان اليها وسكنى الاجناد فيها.

«والفسطاط اكثر ارزاقاً وارخص اسعاراً من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط. والمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه يبعد عن المدينة. والقاهرة هي اكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط، لأنها أجمل مدارس وأضخم خانات واعظم دياراً بسكنى الامراء فيها لأنها المحفوفة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها. فأمور السلطنة كلها فيها أيسر واكثر وبها الطراز، وسائر الأشياء التي تتزين بها الرجال والنساء. ومطابخ السكر والمواضع التي يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة.. والمعايش فيها متعذرة نزرة لا سيما اصناف

الفضلاء، وجوامك المدارس قليلة كدرة.. والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته!!»[٢٦].

- ٨ -

الاتصال بين منطقة المحيط الهندي وبلاد الشام، عن طريق الخليج العربي وجنوب العراق، والبادية هو السبيل الى دمشق وشمال العراق في رفقة دجلة والفرات وصولاً الى الموصل فحلب، معروف أمره.

والاتصال بين موانىء الشام وموانىء البحر المتوسط استقصينا خبره. وقد آن لنا ان نصل مدن الشام الداخلية بموانئه الساحلية، كي تتم لنا صورة الانتقال التجاري ـ تجاراً وسلعاً. عندها تتضح صورة هذا التبادل التجاري بين منطقة الهند والصين من جهة ومنطقة المتوسط من جهة ثانية.

وهذا يقتضينا النظر الى الأمر في مراحل ثلاث: الأولى، تخص القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م (مع ما يربط بين هذا القرن والقرن الذي سبقه)، والثانية، هي الفترة التي كانت فيها الأجزاء الساحلية من بلاد الشام تقع تحت نفوذ الدويلات الصليبية، بما في ذلك المملكة اللاتينية، اما الفترة الثالثة فتشمل، في سبيل استتمام الحديث، الفترة المملوكية في أولها.

في بلاد الشام خمسة مداخل طبيعية تصل الساحل بالداخل هي، من الشمال الى الجنوب، السويدية ـ انطاكية؛ واللاذقية ـ حماة؛ وطرابلس ـ حمص؛ وصيدا (بيروت) ـ دمشق؛ وعكا ـ مرج ابن عامر وغور الأردن (بيسان).

هذه كانت منافذ للتجار ينقلون عليها سلعهم وبضائعهم التي كانت تنقل اصلاً من المحيط الهندي والبحر المتوسط في اتجاهين متعاكسين. والى الشرق من المدن الداخلية كانت، ولا تزال، تمتد رقعة هي بادية الشام او البادية السورية (والى الجنوب منها بادية العرب). هذه المنطقة كان سكانها بدواً، على اختلاف درجات البداوة، وهؤلاء كانوا، بطبيعة موقعهم وحاجاتهم، هم الذين يسهلون للتجار الانتقال أو يعرقلون تنقلهم. وكل ما في الأمر ان التاجر الحكيم أو الواحة المنتظمة الاحوال (مثل البتراء وتدمر) تم لهما اكتشاف السبيل. التاجر أرضى زعماء القبائل فيسروا له الأمر. والمدينة الحكيمة قامت بضمان امن القوافل الى مسافات طويلة وتقاضت مقابل ذلك جعلها.

لكن المشكلة التي كان يتعرض لها التجار والتي قد تعيق التجارة كانت تنشأ في حالة من حالتين: الأولى، ان تقوم دويلات بدوية في أجزاء من بلاد الشام فتقتتل فيما بينها ويكون التاجر هو المنكوب. لكن التاجر يدفع، وعندئذ تنتقل النكبة الى المستهلك. فنحن نعرف مثلاً انه لما كان بنو الجراح متسلطين في الرملة وجوارها، كانوا يمعنون في الظلم، هم وخصومهم. لكن الحالة الثانية، التي كانت اشد اذى على تطور التجارة فهي ان تقوم دولة معينة، مثل دولة الحمدانيين في شمال سورية، بتخريب مراكز تجارية بحيث لم تقم لها بعد ذلك قائمة مثل

بالس ونصيبين[٢٧]. أو ان يؤدي تطور الاحوال في شمال سورية الى توقف رباط طرسوس عن القيام بواجبه[٢٨].

على ان التاجر لا يعدم وسيلة. وإذا تعرضت سفن النقل النهرية للصوص (قرصان النهر) تخلى عنها وسار براً. وحري بالذكر انه لما استعاد البزنطيون (موقتاً) منطقة في شمال سورية، لم يكن إشرافهم عليها قوياً أو كافياً، لذلك اصبحت هذه من أنشط المناطق نقلاً للتجار وما يحملون من حلب وما اليها من أرمينية (عن طريق طوروس) الى انطاكية.

أما الفترة الثانية، وهي الفترة التي كانت السواحل الشامية تحت نفوذ الفرنجة فتقتضي منا ملاحظة بضعة أمور كي تتضح اساليب التبادل التجاري بين الداخل والساحل، ومن ثم بين المناطق الأبعد والأوسع.

١ ـ ان قيام الدويلات الصليبية على الساحل الشامي قطع الاتصال بين الشام ومصر عبر الطريق الساحلي (وهو الذي اسماه الرومان via maris)، وعبر تفرعاته الداخلية. ومن هنا فان الاتصال الرئيسي بين دمشق والقاهرة كان يسير على سيف الصحراء السورية الأردنية الى الشرق من الكرك والشوبك اللتين كانتا مركزين للفرنجة.

٢ ـ وهذا الطريق لم يكن طريق تجار فحسب، بل كان طريق الحج، إذ كان الحجاج المسلمون يجتمعون من شمال بلاد الشام وأنحاء العراق الشمالية في دمشق ويتجهون الى الجنوب الى الأراضي الحجازية. وكان التجار يستعملون هذا الطريق في موسم الحج أو في قوافل تجارية خاصة. هذا الطريق يكاد يكون مطابقاً لطريق سكة حديد الحجاز التي بنيت في مطلع القرن العشرين والتي وصل أول قطار عليها من دمشق الى المدينة المنورة في شهر ايلول/ سبتمبر ١٩٠٨.

٣ ـ من المهم ان نتذكر ان القتال بين الدويلات الصليبية والأمراء المسلمين في المنطقة لم يكن أمراً مستمراً. ذلك انه بعد مرور وقت كان القتال فيه مريراً، ألف الفريقان ـ عملياً لا نظرياً ـ هذا الوجود. فكان القتال والمصاف يقعان عندما يقوم في أي من الجبهتين زعيم ينوي التوسع (من فريق الفرنجة) أو يعتزم دفع الموجودين عن البلاد (في الجهة الوطنية). ونحن إذا استعرضنا تاريخ الدويلات في المواقع والهجمات والحصارات وسواها نجد ان الغالب عليها ـ بعد الفورة الغربية الأولى ـ محاولة الالتفات الى شؤونهم الداخلية، والعناية بالتجارة البحرية التي كانت تعود على تلك الدويلات بأرباح كبيرة.

٤ ـ يحدثنا ابن جبير عن شيء اسمه التمكيس يقع في حصن كبير من حصون الافرنج هو تبنين (في جنوب لبنان) حيث كانت القبائل تمكّس. وعبارة ابن جبير تستحق ان تنقل بكاملها لما فيها من الدلالة قال:

«التمكيس: واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر، واكثر شجره الرند. بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوي تلتقي حافتاه ويتعلق بالسماء اعلاه يعرف بالاسطبل لو ولجته العساكر لغابت فيه، ولا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه.

المهبط إليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان فعجبنا من أمر ذلك المكان فأجزناه ومشينا عنه يسيراً وانتهينا الى حصن كبير من حصون الافرنج، يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القبائل، وصاحبته تعرف بالملكة وهي أم صاحب عكة. فكان مبيتنا اسفل ذلك الحصن ومكس الناس تمكيساً غير مستقص. والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس. ولا اعتراض على التجار لأنهم يقصدون موضع الملك وهو محل التعشير. والضريبة في قيراط من الدينار، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً. واكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم»[٢٩].

يبدو واضحاً من هذا الكلام ان نقل السلع كان امراً مقبولاً. وابن جبير كان ينتقل في قافلة، لعلها لم تكن كبيرة، لكنها كانت من الأمور التي ألفها الناس ونظموا انتقالها وتمكيسها.

٥ ـ اشرنا من قبل الى قول ابن جبير إن المصاف قد يقع بين أهل الداخل ومحتلي الساحل، ومع ذلك فان تبادل التجارة يكون قائماً، وبسبب ما تحويه عبارة رحالتنا فاننا نرى نقلها هنا كاملة إذ ان النظر فيها بدقة يؤيد ان الحرب أو الحروب بعد ايام القتال العنيف الأول لم تكن تمنع هذا الاتصال. يقول ابن جبير:

«العلاقات بين العرب والصليبيين: ومن أعجب ما يحدث به ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان منهم ويقع المصاف بينهم الذي هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عساكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز، والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو اشق قليلاً وهو سرارة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر انه ينتهي الى اربعمائة قرية. فنازله هذا السلطان وضيّق عليه وطال حصاره. واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاط الافرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك.

«وتجار النصارى ايضاً لا يمنع ولا يعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الامنة على غاية، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم. والاتفاق بينهم الاعتدال في جميع الاحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية والدنيا لمن غلب.

«هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين امراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الاحوال سلماً أو حرباً. وشأن هذه البلاد في ذلك اعجب من ان يستوفى الحديث عنه»[٣٠].

٦ ـ ومن الملاحظ انه عندما تعقد هدنة أو يوقع صلح بين أي من الجماعات المتقاتلة في الجهة الواحدة مع الجهة الأخرى، فان الناس يتنقلون بإذن عام. ففي صلح الرملة التي عقد بين صلاح الدين والصليبيين سنة ١١٩٢، نادى المنادي بالناس ان قد تم الصلح، وليتجه كل فريق الى الجهة التي يريد، فذهب البعض الى يافا والبعض الآخر الى القدس وغيرهما.

٧ ـ ان تقلص المملكة اللاتينية الثانية (١١٩٢ ـ ١٢٩١) من حيث رقعة سلطتها، وقيام

دولة المماليك في مصر ـ ثم في بلاد الشام ـ كان معناه تقليص الرقعة الصليبية، وكان مدعاة الى عودة الاتصال التجاري بين مدن الشام الداخلية والساحلية، ولو في فترات.

إذا تدبرنا هذا كله ادركنا كيف كانت بضائع الهند وسلع الصين وبهارات اندونيسيا تتكدس في اسواق دمشق وحلب وتصل الى الموانىء الساحلية لتنقل الى أوروبا.

ذكرنا من قبل شيئاً عن الأيام التي تقضيها السفن، أو بعضها، في انتقالها من الموانىء الشامية الى بعض الموانىء الأوروبية. والآن ننقل نموذجاً للاسفار البحرية في المحيط الهندي:

من (مضيق) ملقا الى اشين	١٠ أيام
من اشين الى سيلان (سري لانكه)	٢٦ يوماً
من سيلان الى قليقوط	٨ أيام
من قليقوط الى هرمز	٣٤ يوماً[٣١]
المجموع:	٧٨ يوماً

وإذا عدنا الى الأرقام التي نقلناها قبلاً عن بعض المدد اللازمة للتنقل بين موانىء البحر المتوسط واخذنا المدة من طرابلس (لبنان) الى الاسكندرية فمرسيليا مثلاً على ذلك، لوجدنا ان المدة هنا هي ٣٢ يوماً.

ومعنى هذا انه لو صادف ان كانت ثمة شحنة مرسلة رأساً (وهذا لم يكن يحدث يومها) من ملقا الى مرسيليا، لاحتاجت ٧٨ + ٣٢ = ١١٠ أيام (وهذا دون حساب المدة اللازمة لاجتياز الجسر البري من هرمز الى ميناء شامي). وإذا تذكرنا الصعوبات المختلفة ـ عواصف البحر وزوابع البر ـ ومعارك الخصوم وخلافات أفراد العائلة الواحدة ـ وبدو وغيرهم؛ وكل هذا يعترض طريق التاجر، ادركنا الاخطار التي يتعرض لها. لكن التاجر هو دوماً تاجر.

الهوامش

(١) سيد مقبول أحمد، **العلاقات العربية الهندية**، ترجمة نقولا زيادة، بيروت ١٩٧٤، ص ١٢٢ ـ ١٢٨.

(٢) A. Simkin, *Traditional Trade*, 97
G. F. Hudson, "The Medieval Trade With China", in Richards (ed.), *Islam and the Trade of Asia* (Bruno Cassiers, Oxford, 1970), 160-164.

(٣) Simkin, Ibid.

(٤) Chaw- Ju- KUA (New york, 1966 reprint) 25, 26, 195, 238.

(٥) Ibid, 24, Hudson, Ibid, 160-164.

(٦) N. Chittick, "East African Trade With The Orient" in *Islam Trade of Asia*, 98-103.

(٧) S.D. Gioitein, *A Mediterranean society*, vol I, Uneversity of California press, 1967).

(٨) Ibid.

(٩) ناصر خسرو في نقولا زيادة، **رواد الشرق العربي في العصور الوسطى**، (بيروت ص ٢، ١٩٨٦) ص ١٥٣ ـ ١٥٥.

(١٠) ابن جبير، **المكان نفسه**، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.
(١١) بينامين التودلي، **المكان نفسه**، ص ١٥٩.
(١٢) ابن جبير، **المكان نفسه**، ص ١٦١ ـ ١٦٢.
(١٣) André Raymond, *le Caire* (Paris, Fayard, 1993) 86-121 Passim.
(١٤) ابن جبير، زيادة، **رواد**، ص ١٦٦ ـ ١٦٧. راجع أيضاً زيادة، **رواد**، ص ١٩٤ ـ ٢٠٢.
(١٥) ثيودوريتش، المكان نفسه، ص ١٦٦ و١٦٧.
(١٦) Goitein, Ibid.
(١٧) A.R. Lewis, *Naval Power and Trade in the mediterranean*, (princeton, 1951) 189 ff.
(١٨) Goitein, Ibid, 325-6.
(١٩) نقولا زيادة، «الحروب الصليبية: النواحي الاقتصادية» في يوم القدس، (ندوة عقدت في عمان ١٢ ـ ١٤ تشرين الأول سنة ١٩٩١) بيروت ١٩٩٢، ص ١٤٣ ـ ١٤٦.
(٢٠) Goitein, Ibid, 153-4.
(٢١) Robert - Henri Bautier, *The Ecomomic Development of Medieval Europe*, (London, Thames and Hudson, 1971).
(٢٢) بركارد، زيادة، **رواد**، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.
(٢٣) ابن جبير، زيادة، **رواد**، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.
(٢٤) بنيامين التودلي (معدلة) في زيادة، **رواد**، ص ١٦٤.
(٢٥) نقولا زيادة، **دمشق في عصر المماليك**، (بيروت ١٩٦٦) ص ١٠٥ ـ ١٠٨.
(٢٦) ابن سعيد في زيادة، **رواد**، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٢٧) ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، (ليدن، ١٩٣٦) (تصوير دار الحياة بيروت، لاتا) (ص ١٦٥ ـ ١٦٦).
(٢٨) **المكان نفسه**، ص ١٦٨ ـ ١٦٩.
(٢٩) ابن جبير في زيادة، **رواد**، ص ١٨٣.
(٣٠) ابن جبير في زيادة، **رواد**، ص ١٨٣ ـ ١٨٤.
(٣١) Simkin, Ibid, 143-4.

مصادر البحث ومراجعه

الكتب العربية

ـ ابن خرداذبة، عبيد الله (ت ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م)، **المسالك والممالك**، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٩م، أعيد تصويره بالاوفست، مكتبة المثنى، بغداد.
ـ ابن حوقل، محمد بن علي (ت حوالى ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)، **صورة الأرض**، مصورة عن طبعة ليدن، بريل، ١٩٣٦م.
ـ البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، **فتوح البلدان**، القسم الأول، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٥٦.
ـ الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، **تاريخ الرسل والملوك**، ١٠ جـ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦ ـ ١٩٧٠م.
ـ قدامة بن جعفر، (ت ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م)، **نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة**، بريل، ليدن، ١٨٨٩م.
ـ المقدسي، محمد بن احمد (٣٧٥هـ/ ٩٨٥م)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٦م، (اوفست مكتبة خياط، بيروت).
ـ متز آدم، **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري**، ط ٤، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، بيروت والقاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

ـ البخيت محمد عدنان ومحمد يونس العبادي (محرران)، **بلاد الشام في العصر العباسي ١٣٢ ـ ٤٥١هـ/ ٧٥٠ ـ ١٠٥٩م**، (عمان ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢).
ـ حتي، فيليب وادورد جرجي وجبرائيل جبور، **تاريخ العرب**، (مطول) (ط ٧ منقحة، بيروت، ١٩٨٦).
ـ زاربورف، ميخائيل، **الصليبيون في الشرق**، (دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦).
ـ زامبادور، **معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الاسلامي**، اخراج زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود، (بالاشتراك مع آخرين)، بيروت، ١٩٨٠.
ـ زويد، محمد أحمد، **حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني وحتى نهاية العصر الفاطمي**، (بيروت، لاتا).
ـ زيادة، نقولا، «تطور الطرق البحرية والتجارية بين البحر الأحمر والمحيط الهندي». مجلة **دراسات الخليج والجزيرة العربية**، السنة الأولى، العدد الرابع (١٩٧٥)، ص ٦٩ ـ ٩٤.
ـ زيادة نقولا، **دمشق في عصر المماليك**، (بيروت، ١٩٦٦).
ـ زيادة نقولا، **رواد الشرق العربي في العصور الوسطى**، (بيروت ط ٢٠، ١٩٨٦).
ـ زيادة نقولا، **شاميات**، (رياض الريّس للكتب لندن، ١٩٨٩).
ـ زيادة نقولا، (إشراف)، **من رحلات العرب**، (بيروت، ١٩٧٤).
ـ عباس، إحسان، **تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي**، (عمان، ١٩٩٢).
ـ عبد الغني، عبد الرحمن محمد، موقف البزنطيين والفاطميين من ظهور الاتراك السلاجقة، **حوليات كلية الآداب**، جامعة الكويت، رقم ١٥، ١٤١٥/ ١٩٩٤).
ـ عثمان، شوقي عبد القوي، **تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الاسلامية (٤١ ـ ٩٠٤هـ/ ٦٦١ ـ ١٤٩٨م)**، (الكويت، ١٩٩).
ـ غوشه صبحي، (محرر)، **يوم القدس**، (بيروت، ١٩٩٢).
ـ فرح، نعيم، **تاريخ بزنطة**، (دمشق ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦م/ ١٤٠٥ ـ ١٤٠٦هـ).

الكتب الأجنبية

- Ashtor Eliyhu, *A Social and Economic History of the Near East*, (London, 1976).
- Robert-Henri Bautier, *The Economic Development of Medieval Europe*, (London, Thames and Hudson, 1971).
- Lucy Boulnois, *The Silk Road*, tran. from French by Denis Chamberlain, (New York, 1966).
- Norman H.Baynes & Moss St. L. B., *Byzantium*, (London, 1948), esp. pp. 1-7028308-325.
- CHAW JU-KUA (New York, 1966, Reprint)
- Claude Cahen, *Orient et Occident au Temps des Croisades*, (Paris, 1983)
- Claude Cahen, Points de Vue Sur la Revolution Abbaside, (*Revue Historique*, 1963) 295-353.
- Anwar G. Chejne, *Muslim Spain*, (Minniapolis, 1974).
- R.N., Frye, *Bukhara*, (Norman, 1965).
- S.D. Goitein, *A Mediterranean Society*, vol. 1, (University of California Press, 1967).
- Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples*, (London, 1991) esp. pp. 22-58, 83-97.
- Jean Hussey, (edit), The Byzantine Empire, *Cambridge Medieval History*, Vol IV (in 2 parts) second edition, (Cambridge, 1967).
- Edgar Knabloch, *Beyond the Oxus*, (London, 1972).
- Subhi Y. Labib, *Handelsgeschichte Agytens im Spatmittelalters*, (Wiesbaden 1965) esp. pp. 7-12.

- A.R. Lewis, *Naval Power and Trade in the Mediterranean*, (Princeton, 1951)
- David Morgan, *The Mongols*, (Blackwell, Oxford, 1986)
- André Raymond, *Le Caire*, (Paris, Fayard, 1993).
- D.S. Richards, (ed.), *Islam and the Trade of Asia*, (Oxford, 1970).
- D.S. Richards, (ed.), *Islamic Civilization*, (Oxford, 1973).
- M.A. Shaban, *Islamic History: A New Interpretation*, 2, Q. E. 750-1055. (A.H. 132-448) (Cambridge, 1976).
- A. Simkin, *Tradional Trade in Asia.*
- Bodo Wiethoff, *Introduction to Chinese History*, (Translated from the German, London, 1975).

مراجعة كتاب : التجارة والتجار في اسبانية الاسلامية (٩٠٠ـ ١٥٠٠م)[١]

تأليف: أوليفيا ريمي كونستابل

مطبعة جامعة كمبردج (١٩٩٤)

يتناول هذا الكتاب تطور التجارة وعلم التجار في اسبانية الاسلامية من سنة ٩٠٠ الى سنة ١٥٠٠، لكن المؤلفة لم تغفل الفترة السابقة للسنة ٩٠٠، بل عرضت لها في المقدمة. إلا انها ركّزت على الفترة التي كانت فيها اسبانية الاسلامية في القمة من نشاطها التجاري، مستوردة ومصدرة وسوقا للتبادل التجاري في حوض المتوسط اصلاً، ثم دور اسبانية الاسلامية بالنسبة لتجارة أوروبة فيما وراء جبل طارق وخليج بسكاي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد.

ولن أعمد الى تلخيص فصول الكتاب التسعة واحداً بعد الآخر على ما يفعل الكثيرون، بل انني سأتناول القضايا والمشكلات التي بحثتها أو أثارتها المؤلفة، إذ ان هذا في رأيي، أنسب في الحديث عن كتاب من هذا النوع.

القضية الأولى التي تلفت المؤلفة نظرنا اليها هي ان اسبانية، في الفترة التي نتحدث عنها، كانت تحتل مكانة خاصة بالنسبة لحوض البحر المتوسط لأنها كانت تحتل الطرف الغربي النهائي من هذه «البحيرة» النشطة تجارياً. إذ ان المحيط الأطلسي لم يكن قد طرقه البحارون بعد. ولذلك فان أي اتصال تجاري كان، في الفترة الأولى، مقصوراً على ما يمكن ان تقوم به الموانىء الواقعة على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية لشبه جزيرة إبيرية. والميناء الوحيد الذي كانت له قيمة، الى الغرب من مضيق جبل طارق كان اشبيليه التي كان يصلها بالبحر نهر الوادي الكبير. فما معنى هذا الموقع في هذه البقعة «شبه النائية»؟

١ ـ منذ ان احتل العرب المسلمون اجزاء واسعة من شبه جزيرة إبيرية، في القرن الثامن الميلادي (وبعد ان ردوا عن بقية أوروبة في معركة تور سنة ٧٣٢م) كانت الأندلس، وجوارها الذي بقي في أيدي الأمراء الاسبان في الشمال، جزءاً لا يتجزأ من عالمين هما دار الاسلام في الجهة الواحدة، وأوروبة المسيحية في الجهة الثانية. وكانت بحكم هذا الموقع وثيقة الاتصال بالعالمين، ومجالاً للاتصال بينهما حتى عندما كانت تقع خصومات أو حروب بين سكان المنطقتين وحكامهما. وخلال القرون الثلاثة الأولى التي تبدأ بالقرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) كانت الأندلس جزءاً واضح المعالم من دار الاسلام ـ سياسياً

(١) التجارة والتجار في اسبانية الاسلامية (٩٠٠ ـ ١٥٠٠م) مراجعة كتاب تأليف اوليفيا ريمي كونستابل.

- Olivia Remie Constable, *Trade and Traders in Muslim Spain 900-1500* , (Cambridge Press, 1994).

وثقافياً واقتصادياً. ومع ان مدن الأندلس كانت بعيدة مسافة من كل من القاهرة وبغداد والقدس ومكة المكرمة، فانها كانت تشعر بصلة القربى من هذه الأماكن، وكانت تعيش هذه الصلة. وكانت السفن تنتقل من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق حاملة المسافرين العاديين والحجاج والتجار والرسائل والسلع بين الموانىء الاندلسية وموانىء الشرق الاسلامي. ولم تكن التجارة او تنقل السفن يعيقها عن العمل أي تدخل من قبل الحكومات، حتى بعد زوال الخلافة (الأموية) وقيام دول الطوائف. وقد ظلت شبه الجزيرة صلة وصل بين العالمين السابق ذكرهما، مع ان الحد الفاصل بين النفوذ الاسلامي في بعض انحاء الجزيرة تقلص مع الزمن، بحيث ان الحدود انتقلت تدريجاً نحو الجنوب. لكن ذلك لم يؤثر كثيراً في الدور الذي قامت به المنطقة في المجال التجاري. فقد ظلت منطقة عبور (ترانزيت) تجاري بين العالم الاسلامي وأوروبة اللاتينية ـ تبيع وتشتري وتنقل مما عندها ومما يرد اليها من الخارج. وحتى القسطنطينية وحكامها كانت على اتصال بالأندلس الاموية، ولم يكن الاتصال تجارياً فحسب بل شمل أمور السياسة. فقد تبادلت قرطبة الوفود مع عاصمة البزنطيين، لكن الوفود كانت تتنقل أيضاً بين قرطبة وآخت (اكس ـ لا ـ شابل) عاصمة دولة شارلمان.

وكان لاضطراب الأمور في الخلافة العباسية وبدء تأخر البلاد الواقعة تحت سيادتها وقيام الأمراء المستقلين الذين كانوا يعملون لحسباهم، اثر في تقوية الدور التجاري الأندلسي ـ الأيبيري في حوض المتوسط. وكانت مدن الأندلس الداخلية نقاط اتصال تجاري نشيط مع أوروبة اللاتينية. فكانت السلع التي تحمل من موانىء المشرق العربي والشمال الافريقي تجد طريقها براً، كما كانت التكنولوجية العربية الأندلسية في الصناعة والزراعة (وقد احرزت الأندلس تقدماً كبيراً في هذه الناحية) مما انتقل الى المدن المسيحية في شمال شبه الجزيرة، لما احتل هؤلاء بعض أجزاء شبه الجزيرة (ص ١ ـ ٥).

٢ ـ تعرض عالم العصور الوسطى بأجمعه، في أوروبة، وفي دار الاسلام، خاصة خلال الفترة التي شغلت القرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر (نصفه الأول)، لتبدلات وتغيرات سياسية وديمغرافية وعسكرية وتجارية كبيرة. وكان لمدن الأندلس الاسلامية دور فيها. فقد قامت مدن أوروبة الجنوبية، وخاصة الايطالية، وفي مقدمتها جنوى والبندقية وامالفي ومرسيليا بنشاط تجاري خاص. فضلاً عن ذلك فان فرنسة تقدمت زراعياً من حيث نوع الغلات الزراعية وكميتها وفنية استغلال الأرض، بحيث اصبحت تملك ثروة تمكنها من شراء الكثير من السلع الشرقية كالتوابل والطيوب والأقمشة الشرقية الجيدة، فازدادت حاجتها لها. وفي الفترة نفسها تقدمت الصناعة في أوروبة، وخاصة صناعة الأقمشة الصوفية، فكان باستطاعة القوم ان يوفروا من تصديرها ما يمكنهم من شراء كميات أكبر من حاجاتهم. وكانت السفن الايطالية تقوم بنقل البضائع من أوروبة وإليها. ويمكن القول بأنه خلال هذه المدة كان هناك خطان بحريان في حوض المتوسط الواحد شمالي، ايطالي ـ فرنسي، والآخر جنوبي (من الشرق الى الغرب) وهو في غالبه اندلسي الصفة.

٣ ـ ولنذكر انه، بشكل عام، كان ثمة تقدم في معارج الحياة الحضارية التي أصبحت تتطلب سلعاً وبضائع منوعة، حتى في اماكن بعيدة نسبياً عن حوض البحر المتوسط في أوروبة. ومعنى هذا ان التجارة كانت تزداد نشاطاً وتنوعاً. ولنضع نصب أعيننا أنه كان ثمة اتصال تجاري نشيط في اواسط حوض المتوسط بين صقلية وافريقية، خاصة مع تونس. ومن هنا فاننا نتفق مع احد الرحالين العرب الذين زاروا موانىء الشرق وصقلية في ان البحر لم يكن يخلو من المراكب.

٤ ـ اعترضت هذه الفترة الحروب الصليبية التي أدت الى وقوع سواحل بلاد الشام تحت النفوذ الأوروبي لبعض الوقت. لكن ذلك لم يعطل الاتصال التجاري، ولعله حوّل اتجاهه بعض الشيء، فنشطت طريق البحر الأحمر كسبيل للاتصال بالهند والصين وما والاهما (ص ٧ ـ ١٥).

في القضية الثانية تتناول المؤلفة الدورة التجارية التي كان للأندلس فيها حصة وافية. وهذه تتضمن الأمور التالية:

أ ـ حتى أوائل القرن السادس (الثاني عشر) ظلت التجارة في حوض المتوسط وقفاً على التجار المسيحيين الأوروبيين في الأنحاء الشمالية من الحوض، فيما كان الجزء الجنوبي منه مجال التجارة الاسلامية. والمكانان الوحيدان اللذان كانا ملتقى للفريقين هما الموانىء الأندلسية من ناحية، والموانىء التي تقع بين (وفي) صقلية وشمال افريقية. والموانىء الأندلسية التي كانت لها مثل هذه الأهمية هي الجزيرة (الخضراء) ومالقه والمريّة وقرطاجنة ودانية وبلنسية. وهذه كانت في الجزء الشرقي من شبه الجزيرة. أما في الناحية الواقعة الى الغرب من مضيق جبل طارق فقد كانت هناك اشبيلية. وقد تبدلت احوال هذه الموانىء تجارياً بعض الشيء تبعاً لما كان يقع بين حكامها (ملوك الطوائف) من خصومات، إلا انها، بوجه عام، حافظت على دورها ـ مراكز رئيسية للتجارة العالمية يومها.

وقد كانت ألمريّة الميناء المتوسطي الأول بالنسبة الى اسبانية الاسلامية. وكانت اهميتها تعود الى التجارة والى انتاج الحرير، الذي أدخله العرب معهم بعد الفتح. ويبدو ان قمة النشاط التجاري لهذه المدينة جاءت في القرنين الخامس والسادس/ الحادي عشر والثاني عشر. وقد وصفت على انها «قيصرية الأندلس» اي سوقها الأول.

ومالقة قامت بدور تجاري، كما انها كانت مأوى للسفن التي كانت تنتظر الرياح المناسبة للإقلاع عبر مضيق جبل طارق الى اشبيلية. ودانية كانت ميناء جزر البليار وواحد من مراكز الاتصال مع المشرق. وكانت بلنسية تقوم بدور مأوى للسفن من جهة، كما كانت، من جهة ثانية، مركزاً لتجميع الغلات الزراعية التي كانت المناطق الداخلية تنتجها وتتاجر بها. اما اشبيلية فقد كان دورها اقل نسبياً، ذلك ان الخلفية الأرضية حولها لم تكن تتمتع بغلات زراعية كبيرة، ومن ثم فلم تكن ثرية بحيث تتطلب الكثير من البضائع الاستهلاكية.

يظل علينا ان نشير الى قرطبة، التي كانت تتمتع بمركز تجاري جيد، لكنها لم تقم بدور خاص في مجال التجارة العالمية ـ ظل دورها محلياً (ص ١٦ ـ ٢٢).

ب ـ الأخبار التي تتحدث عن التجار والتجارة وطرقها كثيرة. وقد وفت المؤلفة المصادر حقها بالعناية بها والافادة منها، ويبدو ان تونس كانت ذات علاقة تجارية طيبة وقوية بالموانىء الأندلسية، وكان ذلك بعد سنة ٣٥٩/ ٩٦٩. ذلك بأن الخصومة بين الخلافتين الأموية في الأندلس والفاطمية في شمال افريقية (وفي المنطقة التونسية بالذات) حالت دون التطور التجاري الطبيعي بين المنطقتين. لكن بعد احتلال الفاطميين لمصر في تلك السنة، خفف من حدة الخصومة، وافادت تونس من موقعها لتقوية الصلات. وظل الأمر على هذه الحال الى قيام الدولة المرابطية ثم الدولة الموحدية (٤٤٨ ـ ٦٦٧/ ١٠٥٦ ـ ١٢٦٩). ويبدو ان الدولتين كانتا مهتمتين بأن تكون الموانىء الواقعة تحت نفوذهما مباشرة، هي التي تفيد من التجارة، اذ انهما افادتا من الرسوم والمكوس. وخاصة بالنسبة للتبر الذي كان يحمل من السودان الغربي، الذي كان يصل تونس ويرسل منها الى الأندلس، فحوّل بعد ايام المرابطين الى طريق فاس ـ الأندلس. وبهذه المناسبة فإن تجارة الأندلس مع شمال افريقية لم تقتصر على الموانىء بل تعدتها الى مدن الداخل حتى وصلت مراكش (ص ٢٩ ـ ٣٤).

ج ـ كان الغالب على تجار الأندلس ان يتخذوا لهم محطات وقواعد في وسط الطريق الى شرق المتوسط، إمّا في تونس او المهدية أو في صقلية (قبل الفتح النورماني) مثل بلرمو. وعن طريق هذه القواعد كان الأندلسيون يتصلون بمصر وبقية شرق المتوسط. ووثائق العنيزة، فيها اشارات وافية لتنقل السفن وتجاراتها (ص ٣٥ ـ ٣٨).

د ـ كان التجار المسيحيون من المدن الايطالية وسواها يجدون في الموانىء الأندلسية حاجاتهم من تجارات الشرق الأقصى طيوباً وأفاويه وعطوراً ومواد طبية ومواد صباغية، لذلك فقد كانوا يقصدونها، وكثيراً ما فضلوا التعامل معها على التعامل مع الموانىء البزنطية. وخلال فترة طويلة تشغل القرنين الخامس والسادس وبعض السابع (الحادي عشر والثاني عشر وبعض الثالث عشر)، تمت اتفاقات تجارية بين المدن الايطالية ومدن الأندلس. وقد كانت السفن الجنوية تقوم بنقل السلع الأندلسية الى موانىء وهران وسبتة مثلاً.

ويبدو ان التجار كانوا يحملون السلع المتنوعة من موانىء الأندلس براً الى مدن قشطالة وليون ونافار والبرتغال. والسلع الأندلسية التي كانت ترسل الى الأسواق المسيحية (الأوروبية) تشمل الأقمشة (الواردة من العالم الاسلامي أو المصنوعة في الأندلس) والجلود والورق والتوابل (ص ٣٩ ـ ٥١).

وتثير أوليفيا ريمى كونستابل في هذا الكتاب الدسم قضية التاجر نفسه. وتلاحظ أموراً في غاية الطرافة:

أ ـ ان التجار في حوض المتوسط، والأندلس جزء اساسي منه، كانوا يتجمعون (او يتقسمون العمل) على اساس ديني، أي ان كل فئة كانت تنضم الى اتباع دين واحد. هذا كان ينجر على التجار المسلمين والمسيحيين واليهود. وقد يتجمعون (حتى داخل التجمع الأول) على اساس جغرافي أو مديني أو عرقي، لكن هذا لم يكن الأمر المألوف. حتى ان موسى بن ميمون أوصى ابنه بأن لا يتمادى في الصداقة إلا مع اخواننا المحبين في اسبانية (ص ٥٥ ـ ٥٧).

ب ـ كان ثمة نوع من التخصص في أنواع السلع. على سبيل المثال كانت تجارة الخشب مقصورة على المسلمين والمسيحيين، وقلما تعاطاها التجار اليهود. ومما يدخل في الحصر التجاري أن التجار اليهود وتجار أوروبة كانوا لا يمتنعون عن المتاجرة مع أي سوق متى كان منها فائدة. وإنما كان يغلب على التجار المسلمين الاتجار مع الاسواق الاسلامية. ويلاحظ ان الطرق البحرية التي كان يتبعها تجار أوروبة لم تكن نفسها التي يتبعها المسلمون واليهود. لم تكن هذه الأمور تراعى في كل مناسبة، وفي كل طريق، لكن هذا كان اتجاهاً عاماً (ص ٥٧ ـ ٦٢).

ج ـ ازداد نفوذ التجار اليهود وعددهم في التجارة الاندلسية بعد منتصف القرن السادس (الثاني عشر)، على انهم كانوا من قبل، ايام التجار الراذانية، يكادون يسيطرون على تجارة الأندلس وسواها. وكان من نتيجة الاندفاع التجاري الأوروبي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ان انتقلت التجارة الاندلسية العالمية الى ايدي تجار من موانىء اسبانية الشمالية ومدنها ومدن جنوب فرنسة وايطالية (ص ٦٣ ـ ٦٤).

د ـ وتناولت المؤلفة مسألة الشركات والمشاركة في التجارة، وأهم ما عرف منها الشراكة (او الشركة او الخلطة) التي كانت لسفرة واحدة، وفيها يتحمل المشاركون الربح والخسارة؛ أو الشركة التي هي لفترة أطول، وهنا يقتسم الفرقاء ما تناله الشركة من خير أو شر. وليس هناك ما يدل على ان الشركات كان يساهم فيها تجار من أديان مختلفة. ولعل اختلاف التشريع (الديني يومها طبعاً) في شؤون الأرباح والفائدة وما الى ذلك كان يحول دون هذا النوع من المشاركة (ص ٧٠ ـ ٧٧).

من هو التاجر الذي كان يحظى بالقسم الأكبر من تجارة الأندلس في الفترة التي نتحدث عنها؟ تثير المؤلفة هذه القضية بشيء من التفصيل أحسب ان مثل هذه المراجعة لا تتسع له، لذلك فاننا نكتفي هنا بالإشارة الى أمرين أو ثلاثة تاركين للقارىء المهتم ان يقرأ الصفحات ٧٨ ـ ١١١ لأنها تتناول المسائل على ما فيها من مواقع ووقائع وتفاصيل. اما الأمور التي نود ان نشير اليها فيمكن تلخيصها فيما يلي:

١ ـ أيام الأمويين وملوك الطوائف والمرابطين كان التجار الأندلسيين من المسلمين واليهود يجوبون مناطق المتوسط الجنوبية ناقلين السلع منها إلى موانىء الأندلس، أما التجار الأوروبيون المسيحيون فلم يكن لهم دور كبير إلا في القرن السادس (الثاني عشر)، وكانوا يأتون من جنوى وبيزا والبروفنسال. وقد نجح هؤلاء، ثم تمكنوا من تحويل الجزء الكبير من التجارة الأندلسية الى موانئهم. وكان التجار المسلمون يجمعون في كثير من الأحوال بين التجارة والحج والرحلة وطلب العلم (ص ٨٣).

٢ ـ أصبحنا نعرف الكثير عن التجار اليهود ومدى توغلهم في تجارة الأندلس من مصر عبر شمال افريقية بعد ان درست مراسلات العنيزة التي عثر عليها في مصر والتي حلت رموز اكثرها. وهذه المراسلات كانت تتبادل بين التجار اليهود في مناطق البحر المتوسط المختلفة،

من عميل الى صاحب مركز كبير لخزن البضائع. وعلى ما مر بنا فان التجار الذين سيطروا على اكثر الطرق التجارية وحملوا اكثر السلع من مكان الى آخر هم تجار الراذانية وهم من اليهود. وتعطينا المؤلفة (ص ٨٥ ـ ٩٦) أسماء بعض كبار التجار اليهود ومراسلاتهم مع وكلائهم وأسماء السلع التي طلبوها وباعوها.

٣ ـ بين سنتي ١١٥٠ و١٢٥٠، وبعض هذه السنوات تتفق مع ايام الحملات الصليبية (١٠٩٩ ـ ١٢٩١) وقيام الدويلات المسيحية في بلاد الشام، تمكن الأوروبيون من انتزاع التجارة في اجزاء من البحر المتوسط، ونرى من الذي حدث ان التجار الأوروبيين كان لهم أثر في تطوير التجارة الأندلسية، التي أصبحت في واقع الأمر، جزءاً من التجارة الأوروبية العامة. وقد تبين من الوثائق والقيود القانونية أنه بين سنتي ١١٥٦ و١٢٥٣ تجاوز عدد التجار المتعاملين مع اسواق الأندلس ٢٥٠ تاجراً. وهو عدد لا يستهان به بالنسبة لتلك الأزمنة. ويمكن للقارىء ان يطلع حتى على أسعار بعض السلع ونماذج من راس المال. على سبيل المثال فقد استمر سلومون في ثلاث مغامرات تجارية ابيرية ١٠٣ جنيهات بين سنتي ١١٥٦ و١١٥٨. لكن كاتب العدل جوفاني سكريبا سجل ان أسرة فولتا ارسلت خلال المدة بين ١١٥٥ و١١٦٢ ١٦,٨٠٠ جنيه الى المشرق العربي و٣,٨٠٠ جنيه الى المغرب و٤٨٠٠ جنيه الى شبه جزيرة إبيرية وفرنسة. وهذه كانت طبعاً مغامرات تجارية كبيرة حتى بالنسبة للمدن الايطالية.

٤ ـ كانت ثمة تجارة برية بين إبيرية وأوروبة، لكنها لم تكن قد بلغت درجة كبيرة في ذلك الوقت. وقد كان التجار يفضلون الاتصال البحري بين شرق الأندلس وجنوب فرنسة وايطالية.

٥ ـ ظل المسلمون يعملون اكثر من غيرهم في التجارة الأندلسية حتى مطلع القرن السابع (الثالث عشر). لكن التبدل الذي اصاب سكان شبه الجزيرة منذ اواسط القرن نفسه، أدى الى تبدل في نوع التجارة واصناف التجار. ذلك ان قرطبة وبلنسية واشبيلية سقطت في ذلك الوقت في ايدي الاسبان، وبدأ النزوح العربي من الأندلس الى شمال افريقية (ص ٧٨ ـ ١١١).

ماذا كان موقف الحكومات من التجارة في تلك الفترة من الزمن؟ بالنسبة لهذه القضية تلفتنا المؤلفة الى الأمور التالية:

أ ـ كان البحر المتوسط منطقة تجارية حرة. فالتاجر يتنقل مع بضاعته او يسبقها الى حيث تدعو الحاجة. لكن متى وصل التاجر الى الميناء (أو المدينة) كانت تبدأ المشكلات، عندها تفتش بضاعته ويسأل عما يحمل، ويناقش في طريق سيره، وقد تنوعت الأسباب التي من أجلها كان التاجر يخضع لمثل هذه «المعيقات». فهناك الحماية لبعض السلع التي يجب ان لا تخرج من البلاد، وهناك منع بعض السلع من الدخول لأنها قد تزاحم مصنوعات محلية. لكن العامل الأساسي كان رغبة أولي الأمر في فرض مكوس وضرائب على المواد، وقد يكون الذي يحصل هذه الضرائب مجرد موظف صاحب نفوذ محلي. وحري بالذكر ان مثل هذه

الرسوم ازدادت ايام الطوائف، لأن هؤلاء الملوك كان عليهم ان يدفعوا جعلا للحكام الاسبان الذين يجاورونهم ويهددونهم. ومن ثم فقد فرضوا على التجارة والتجار رسوماً مرتفعة. وكانت السلع الاستهلاكية تتحمل مبالغ أكبر من السلع العادية.

ب ـ وفي حديثها عن السفن وإدارتها وسيرها، تضع المؤلفة بين أيدينا تفاصيل لطيفة عن السفن، كما انها تنتقل الى وصف فندق كان يؤمه التجار في غرناطة في القرن الثامن (الرابع عشر).

ج ـ ويجد القارىء نماذج للاسعار في ص ١٣٣ ـ ١٣٧ (الكتاب الانكليزي).

تعنى المؤلفة بقضية أخرى هي تنوع اصناف المتاجر التي كانت تنقل في انحاء البحر المتوسط والذي كانت تستوردها الأندلس. اما الأصناف فقد بلغت مئة وثمانين صنفاً.

أما ما كانت الأندلس تستورده فيشمل التوابل والطيوب والمواد الطبية والمواد الصباغية كالزعفران والنيلة. وكانت ثمة الأقمشة الجاهزة والقنب من مصر والمواد الغذائية وفي مقدمتها زيت الزيتون والقمح والسيراميك (الزليج ـ البورسلين) الذي كان يأتي حتى من الصين، والذي كان يصنع في شمال افريقية ومصر تقليداً للمصنوعات الصينية، والمعادن والحجارة الكريمة التي كانت تنقل من الهند عن طريق البحر الأحمر. وكذلك كان الذهب ينقل الى الأندلس، وخاصة من السودان الغربي ايام الخلافة (بعد رحيل الفاطميين من المهدية الى مصر) ثم في ايام المرابطين (والموحدين فيما بعد) (ص ١٣٨ ـ ١٦٨).

وتتساءل المؤلفة عن المواد التي كانت الأندلس تصدرها. وهي تجعل اجابتها في جزأين: الأول ما قبل سنة ١٢١٢ والثاني بعد تلك السنة. فالذي نعرفه من تاريخ الأندلس انه بعد زوال الخلافة الأموية (٤٢٢/ ١٠٣١) تقسمت الأندلس بين ملوك الطوائف، الذين بلغ عددهم نحو ٢٢ ملكاً (ومملكة!). ولما قام المرابطون في المغرب (٤٤٨ ـ ٥٤١/ ١٠٥٦ ـ ١١٤٧) احتل يوسف بن تاشفين جزءاً كبيراً من الأندلس الجنوبية (سنة ١٠٨٦) وضبط الأمور. لكنه اساء التصرف نحو بعض المدن وأولي الأمر منها. ولم يلبث المرابطون ان زال ملكهم وحل محلهم الموحدون (٥٢٤ ـ ٦٦٧/ ١١٣٠ ـ ١٢٦٩) الذين فتحوا الأندلس أيضاً وحكموا جنوبها حتى سنة ١٢١٢، إذ كسروا في معركة العقاب. وبعد ذلك انسحبوا من الأندلس. وأخذت بعد ذلك مدن الأندلس تقع الواحدة تلو الأخرى بأيدي امراء الاسبان وملوكهم (بين ٦٠٩ و ٦٤٦/ ١٢١٢ و١٢٤٨). ولم يبق في النهاية سوى غرناطة التي صمدت حتى سنة ٨٩٧/ ١٤٩٢.

من هنا فان المؤلفة رأت فرقاً بين صادرات الأندلس قبل سنة ١٢١٢ وفيما بعدها. وقبل ان تجدول الصادرات في الحالتين، نود ان نذكر أمرين مهمين: الأول اننا سنرى ان بعض صادرات الأندلس في الفترة الأولى تجد اسماءها فيما كانت تستورده الأندلس في الفترة نفسها. وهذا الأمر ليس غريباً. فهناك عوامل مختلفة تجعل مثل هذا أمراً عادياً. فقد تصدر البلاد سلعة جيدة لأنها ثمينة ويعود بيعها في الخارج على البلاد بربح كبير. ومثل ذلك زيت الزيتون. فقد كانت الأندلس تصدر الجيّد الى الخارج رغبة في الحصول على نقود تفيد البلد.

اما الزيت الذي كانت تستورده فكان من نوع اقل جودة وكان يستعمل في صناعة الصابون وفي إعداد مواد الصباغة والدباغة.

أما الأمر الثاني فهو ان الصادرات تبدلت نوعاً وكمية. بعضها كان مما عرفته اسواق التصدير من قبل، وقد استمر تصديره، وبعضها الآخر كان جديداً. وهناك فئة ثالثة من المواد انقطع وجودها في الأندلس، فانقطع تصديرها أيضاً.

ولنعد الآن الى الصادرات الأندلسية حتى سنة ١٢١٢، وهذه يمكن اجمالها في المواد الآتية: العنبر الأندلسي الذي كان يستعمل في صنع العطور، والقرمز والزعفران عنصرا الصباغة الرئيسيان. والحرير قماشاً وخيوطاً. وقد روي ان حرير الأندلس وصل حتى الى خراسان.

وكانت اخشاب الأندلس تقطع من غابات الصنوبر الكثيفة وتنقل الى الأسواق الإسلامية حيث كانت تستعمل في بناء السفن. وقد تصنع السفن في ميناء اندلسي وتباع صالحة للشحن أو حتى مشحونة بالسلع.

وكان التجار الأندلسيون يصدّرون الرقيق والفراء، وهما سلعتان كانتا تحملان من المناطق الاسكندنافية والروسيا الى الأندلس، ثم يقوم التجار بنقل الرقيق والفراء الى شمال افريقية ومصر وحتى الى القسطنطينية.

معادن الأندلس كثيرة نوعاً وكمية. فكانت تصدر منها الفضة والرصاص والنحاس والحديد والزئبق والخارصين (الزنك والكحل).

ومن المصنوعات الأندلسية التي كانت مطلوبة في الأسواق الأوروبية خاصة، الجلود والورق. وكانت شاطبة تتميز بصناعة الورق الجيد، الذي يصلح لتدوين الوثائق والعقود. (ص ١٦٩ ـ ٢٠٨).

تثير المؤلفة قضية تدور حول التطورات التي تمت في شبه الجزيرة وأثرها في الحياة الاقتصادية. أهم ما تم هو أولاً احتلال الاسبان قرطبة (٦٣٤/ ١٢٣٦ وبلنسية ٦٣٦/ ١٢٣٨ واشبيلية ٦٤٦/ ١٢٤٨. ولم يبق الا غرناطة التي عمرت حتى ٨٩٧/ ١٤٩٢.

من الجهة الأخرى فقد قامت تكتلات سياسية في إبيرية وهي وحدة قشتالة وليون؛ ووحدة قطالونيا واراغون؛ ودويلات مثل البرتغال وناقار.

وفي هذه الفترة التي تمتد من سنة ١٢١٢ حتى أواخر القرن الرابع عشر ظلت الأندلس تصدر زيت الزيتون والحبوب والفواكه المجففة، خاصة من غرناطة، وأرباضها. ومما يدل على اتساع مجال التجارة الأندلسية في أوروبة هو ان سفينتين برتغاليتين وصلتا برستول (في انكلترا) سنة ١٣٠٩ وكانتا تحملان كمية من الزيت.

وكان القرمز يحمل من الأندلس الى بروج. ونقلت أصناف من الزعفران والكمون الى فلاندرز. وظل الورق والجلود مصدر ثروة للأندلس بسبب تصديرها الى اسواق متسعة من (أوروبة الشمالية الغربية) الى المشرق العربي.

لكن الأندلس فقدت انواعاً مختلفة من لوائح صادراتها، منها الحرير. ويلاحظ ان انتاج

الحرير زاد زيادة كبيرة في صقلية وجنوب ايطالية في هذه الفترة، وهذا قد يكون مسؤولاً عن تأخر استيراد الحرير من الأندلس.

أما المواد التي اصبحت تصدر من شبه الجزيرة الأبيرية من جديد، فهي الصوف الخام والحديد والصبر والخمور.

ولعل من اهم عناصر التجارة الخارجية في تلك الأزمنة الخيول والاخشاب (ص ٢٠٩ ـ ٢٣٩).

في الصفحات الأخيرة من كتاب التجارة والتجار في اسبانية الاسلامية، تلخص أوليفيا ريمي كونستابل التطورات التي اصابت الدورة التجارية البحرية في البحر الأبيض المتوسط في الجهة الواحدة وفي المحيط الأطلسي (عبر خليج بسكاي) في الجهة الثانية، فتخلص الى النتائج التالية (وهذه تخص القرنين السابع والثامن/ الثالث عشر والرابع عشر):

أولاً: تم فتح طريق جبل طارق البحري بين الموانىء الشرقية والغربية في شبه الجزيرة.

ثانياً: قيام محور تجاري أوروبي (شمالي ـ جنوبي) يصل بين موانىء شمال غرب أوروبة (حتى انكلترا وفلاندرز) وموانىء جنوب فرنسة وايطالية عبر الطريق الجديد.

ثالثاً: اصبحت موانىء شبه الجزيرة الاسبانية في الجنوب محطات تجارية عالمية كبيرة الأهمية. وهذه الأمور جميعها أدت الى نشاط تجاري كبير، ترافق مع نشاط زراعي (جديد) وصناعي (نشيط) في فرنسة والجوار.

رابعاً: تنوعت خطوط الملاحة البحرية بحيث اصبحت تتمتع بحرية أكبر خاصة في حوض البحر المتوسط.

خامساً: اتجهت مصر نحو البحر الأحمر تقوي تجارتها مع المحيط الهندي عبره، وترتب على ذلك اعتماد الموانىء المصرية اسواقاً لحاجات أوروبة من منتوجات المشرق العربي والشرق الأقصى. وكانت موانىء الشام تأتي في الدرجة الثانية بعد الاسكندرية مثلاً. وحري بالذكر ان قيام دولة المماليك في مصر (والشام فيما بعد) سنة ٦٤٨/ ١٢٥٠ ساعد على تنشيط التجارة بين البحر المتوسط والمحيط الهندي. (ص ٢٤٠ ـ ٢٥٨).

* * *

انا واثق أن ما قمت به قد يشير الى الفائدة التي جنيتها انا من قراءة هذا الكتاب، وهي الفائدة التي حاولت ان انقلها الى القراء. لكن الذي يمكن لأي قارىء ان يستمتع بهذا الكتاب استمتاعي به هو ان يقرأه.

فهو كتاب دسم أولاً. ثانياً قلبت صفحات المصادر والمراجع في الكتاب (وهي تشغل ص ٢٥٩ ـ ٣٠٦) وتوقفت عند البعض منها، وعدت الى بعض آخر فقلبت صفحاته. وهناك مصادر ومراجع لي عليها اطلاع سابق. والانطباع الذي تم عندي هو ان المؤلفة ألمّت بمصادر الموضوع الماماً جيداً (على ما يبدو من نتائج عملها) وانها هضمت موضوعها هضماً طبيعياً.

ثم قدمت لنا كتاباً شهياً جيداً مفيداً.

سيجد قراء هذا الكتاب أن المؤلفة قد تعيد فكرة أو معلومة أو رأياً في ثنايا الكتاب. وقد جربت أنا أن ألغي هذا التكرار فلم أتمكن. فحسبت انها اضطرت اليه، كما قد يضطر إليه كل من يحاول ان يكتب في موضوع مثل هذا الموضوع.

والكتاب فيه خريطتان فقط، وقد كنت أوثر ان يحوي عدداً اكبر من الخرط، لأن الخريطة تثبت الحديث والمعرفة عن التجارة والتجار وطرق الملاحة الى حد كبير.

أما الألواح التسعة في الكتاب (وهي أبيض وأسود)، فانها تناسب موضوع الكتاب وتتسق معه (من هذه واحدة هي خارطة ومسقط رأسي لفندق في غرناطة).

والذي نتمناه في نهاية هذا الحديث، هو أن يقوم من ينقل هذا الكتاب الى العربية. فكثيرون من قرائها سيفيدون منه.

الشرق وشمال افريقية : طرق واقتصاد

- ١ -

اخذت دولتا اسبانية والبرتغال، منذ القرن التاسع/ الخامس عشر، بالبحث عن طريق يوصلهما الى الهند، في محاولة للتخلص من الاحتكار التجاري للسلع الشرقية، وفي مقدمتها التوابل والطيوب. وهو الاحتكار الذي جعل نقل هذه السلع خاضعاً لسلطة المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧) ولتجار المدن الايطالية الذين كانوا ينقلون هذه السلع من موانىء مصر وبلاد الشام الى أوروبة ويتحكمون بأسعارها. واتجهت اسبانية اخيراً غرباً عبر المحيط الأطلسي واكتشفت عالماً جديداً. أما البرتغال فقد سارت سفنها محاذية للشواطىء الافريقية الغربية حتى اتيح لها ان تدور برأس الرجاء الصالح وتصل الى الهند حوالى سنة ١٥٠٠.

على ان هذه المحاولات الاستكشافية رافقتها هجمة شرسة على موانىء المغرب العربي طمعاً في السيطرة على منافذ الطرق الصحراوية التي كانت تصل تلك الموانىء بالسودان الغربي، لتتم لها السيطرة على تجارة الذهب والرقيق وما الى ذلك. فاحتلت اسبانية مليلة والمرسى الكبير ووهران والجزائر وطرابلس وتونس. أما البرتغال فقد احتلت الموانىء الاطلسية ـ اغادير وموغادور وآسفي وأزمّور.

كانت الدولة العثمانية في مطلع القرن السادس عشر قد بلغت درجة كبيرة من القوة. وكان لها اسطول يستطيع ان يقارع الاسبان والبرتغال . ولما كانت الدولة العثمانية قد احتلت بلاد الشام ومصر (١٥١٧) واجزاء من العراق، تطلعت الى السيطرة على ما تبقى من البلاد العربية. وتم لها ذلك، إذ احتلت طرابلس (ليبيا) وتونس والجزائر. وهكذا بين سنتي ١٥١٧ و١٥٧٤ اصبح العالم العربي، باستثناء المملكة المغربية، جزءاً من هذه الدولة الواسعة (كانت مساحتها مع املاكها الآسيوية والأوروبية نحو ٢,٥ مليون من الكيلومترات المربعة). وما تبقى بأيدي البرتغال من موانىء في المغرب استردتها الدولة السعدية (١٥١١ ـ ١٦٥٩).

وفي هذه الفترة التي كانت فيها الدولة العثمانية تتوسع وتنظم شؤون امبراطوريتها، كان البرتغاليون قد سيطروا على طرق التجارة الهندية في المحيط الهندي والخليج العربي (باحتلالهم مسقط وهرمز خاصة)، إلا انهم لم ينجحوا في احتلال البحر الأحمر. وعندها اخذوا ينقلون السلع الشرقية الى لشبونة لتوزع على أوروبة. إلا انهم، لما احتكروا هذه التجارة، ارتفعت الاسعار ارتفاعاً كبيراً بحيث ان المدن التجارية الايطالية وغيرها اصبحت تحاول تجنب التعامل مع البرتغاليين، وعاد البنادقة وغيرهم يحاولون عقد المعاهدات التجارية مع الدولة العثمانية ليحصلوا على حاجاتهم عن طريق البحر الأحمر وبلاد الشام والعراق متجنبين التعامل مع المحتكرين الجدد.

وقد كان تنظيم الدولة العثمانية يقوم على أساس السماح للزعامات والادارات المحلية ان تقوم بإدارة الولايات أو اجزاء منها ادارة ذات استقلال ذاتي، ما دامت هذه تقدم للدولة ما يترتب عليها من ضرائب. وإذا نحن اخذنا هذه الدولة حتى من القرن السابع عشر وجدنا ان الشمال الأفريقي العثماني تقوم فيه ايالات ثلاث ـ الجزائر وتونس وطرابلس ـ وكل منها لها نظامها الخاص للإدارة. فتونس قامت فيها منذ سنة ١١١٧/ ١٧٠٥ الأسرة الحسينية (التي استمرت حتى سنة ١٩٥٧)، كما حكمت أسرة القرمنلي طرابلس منذ سنة ١١٢٤/ ١٧١١ قرناً وربع القرن. أما الجزائر فلم تنشأ فيها أسرة حاكمة، بل ظل الحكم يشرف عليه «داي» بعد الآخر بموافقة الجند الانكشاري ورؤساء البحرية. وفي جميع الحالات كان الحاكم الوريث أو الحاكم المختار يحصل على فرمان من قبل السلطان العثماني يؤكد سلطته.

وفي مصر وبلاد الشام كان ثمة ولاة، لكن مصر عاد نفوذ المماليك اليها، بحيث ان الوالي العثماني كانت سلطته لا تتجاوز اسوار القاهرة. إلا ان بلاد الشام قامت فيها بين الفينة والأخرى امارات حكمت حكماً مباشراً، مثل لبنان، أو أسر توالى منها عدد من الولاة، مثل آل العظم في دمشق وحماة. ومثل ذلك يقال عن شمال العراق.

كانت غزوات البدو في بلاد الشام كثيرة، لذلك لم يكن الأمن دوماً مما يطمئن اليه الناس. ومن هنا نجد ان الأراضي المستغلة تقلصت في بلاد الشام وأرض الرافدين، ونقص الانتاج الزراعي على وجه العموم. وجدير بالذكر ان الصناعة تأخرت الى درجة كبيرة.

لكن عودة الأوروبيين الى استخدام الطرق الشرقية، حفظت لبعض المدن مثل بغداد ودمشق وحلب والقاهرة مصدراً كبيراً من مصادر الثراء. ومما يلاحظ ان عدد سكان في العدد الكبير من هذه المدن الرئيسية قد ازداد في الفترة التي نتحدث عنها. فقد كان عدد سكان القاهرة ١٥٠,٠٠٠ في القرن السادس عشر فأصبح ٢٦٣,٠٠٠ في اوائل القرن التاسع عشر. وزاد عدد سكان دمشق في الفترة نفسها من ٥٢,٠٠٠ الى ٩٠,٠٠٠ وحلب أيضاً زاد عدد سكانها من ٦٠,٠٠٠ الى ١٢٠,٠٠٠. ورافق هذه الزيادة في عدد السكان اتساع في رقعة المدن بلغ معدله نحو ٥٠٪. وهذا التوسع في المدن الشامية والمصرية يقابله توسع وازدياد في عدد السكان في طرابلس وتونس والجزائر. ومدن المغرب ـ فاس وطنجة واسفي مرَّ بها ما مر بالمدن الأخرى في توسيع في الرقعة وازدياد في عدد السكان. ويرجع هذان الأمران اصلاً الى عودة النشاط التجاري. وإذا تذكرنا سعة الدولة العثمانية نفسها وأن اجزاءها المختلفة كانت تتبادل سلعها داخلياً، فضلاً عن التجارة الخارجية، ادركنا معنى قولنا النشاط التجاري. وزاد كذلك عدد الحجاج الذين يقصدون الديار المقدسة لاداء فريضة الحج. فقد كانت قافلة الحاج المصري (مرفودة بالحاج الافريقي) تتراوح بين ٣٠,٠٠٠ و٤٠,٠٠٠ سنوياً. أما الحجاج الذين كانوا يتجمعون في دمشق للانتقال الى مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد كان يتراوح بين ٢٠,٠٠٠ و٣٠,٠٠٠.

- ٢ -

ظلت القافلة عدة التنقل الرئيسة. وكانت القوافل الشرقية تحمل المنتوجات المحلية التي تجمع في الأسواق القريبة مثل الحبوب والصوف والجلود والتمور والزيوت والأقمشة المصنوعة محلياً وتتجه بها عبر بغداد ودمشق، أو إذا اختل الأمن في البادية السورية (وقد يحدث هذا كثيراً) فان القوافل تبدل طرقها فتتجه الى ارزروم وطرابزون في آسية الصغرى. على ان المهم ان هذه القوافل عادت تحمل فلفل الهند وتوابلها وطيوبها (بعد ان انتهى أمر البرتغاليين في الخليج العربي حوالى منتصف القرن السابع عشر) من الخليج العربي بكميات كبيرة. ولم تكن رغبة التجار الأوروبيين في كسر الطوق البرتغالي هي السبب الوحيد لعودة النشاط الى الطرق القديمة، بل ان طريق جنوب افريقية كان طويلاً، وهناك من السلع ما كان يتلف بسبب طول الطريق. فالفلفل مثلاً كان يخسر الكثير من فعاليته.

وبلغ النشاط التجاري في بلاد الشام حداً أن كان لفرنسة في القرن الثامن عشر بيوت تجارية في كل من حلب واللاذقية وطرابلس (لبنان) وصيدا وعكا والرملة (بفلسطين). وبلغ ما تعامل به التجار الفرنسيون نحواً من ربع مليون جنيه استرليني سنوياً. وكان للفرنسيين بيوت تجارية كبيرة في القاهرة والاسكندرية. وكان للانكليز، نتيجة لنشاط شركة الهند الشرقية، بيوت كبيرة في حلب وبغداد والبصرة.

وكان ان دخل ميدان التجارة سلعة جديدة هي البن. وانتشرت عادة شرب القهوة انتشاراً واسع النطاق فكانت كمية كبيرة من البن اليمني (باعتبار الانتاج) أو العدني أو بن مخا (باعتبار ميناء التصدير) تنتظر بفارغ الصبر في المراكز المختلفة لنقلها الى أوروبة، وظل البن العربي هو المعتمد في شرب القهوة في أوروبة الى أن وصلها البن البرازيلي فانصرفت هذه الى استعماله. وأصاب البن الأول ضربة كبيرة.

وأما السلع التي كانت الجزيرة العربية تصدرها فهي، فضلاً عن البن، الخيول والجلود والتمور والبخور. وكان الناس يغوصون على اللؤلؤ في الخليج العربي ويجمعون المرجان في البحر الأحمر. ولما كانت الجزيرة العربية بحاجة الى كميات من المواد الغذائية والآلات ومنتوجات الهند والأسلحة والأقمشة، فانها كانت تقع تحت عجز في ميزانها التجاري لولا ان الحجاج كانوا يعوّضون الكثير بما ينفقون في البلاد، كما كانت الأوقاف الخاصة بالمدن المقدسة الموجودة في بقاع العالم الاسلامي تسد ايضاً هذا العجز. وكان عرب الجزيرة المقيمون في السواحل يتقنون صناعة السفن والقوارب التي كانت تدر عليهم ربحاً وفيراً (كانت الأخشاب تحمل في تلك الاثناء، كما كانت تحمل من قبل، من الهند).

كانت الاسكندرية مركزاً للتجارة الأوروبية مع مصر. وكان التجار الأوروبيون هم المسيطرين عليها. أما دمياط فكانت مركز التجارة مع بلاد الشام اصلاً، فيحمل منها الأرز الى موانىء فلسطين ولبنان وسورية. وكانت تستورد دمياط في مقابل ذلك الصابون والتبغ والأقمشة. أما ميناء رشيد فكان اتصالها التجاري بتركية اوسع، وتأتي بلاد الشام في الدرجة التالية.

كانت مصر تبعث الى أوروبة (فضلاً عن تجارة الترانزيت الشرقية) منتوجاتها النباتية والمعادن الخام والأرز والصوف. أما ما كانت تستورده، في مقابل ذلك، فكان المصنوعات الجلدية والأقمشة والورق والبضائع الاستهلاكية. وكانت تجارة الترانزيت (العبور) الى أوروبة تزود مصر بما يعادل ٦٠٪ من التجارة المصرية عامة.

ظلت تجارة القوافل بين مصر والشام مستمرة، وقد قدرت قيمة السلع المنقولة بهذا الطريق بنحو ٥٠,٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً. وكانت تجارة مصر مع شمال افريقية تقدر بضعف هذا المبلغ.

والسودان كان يصدر الى مصر (وعبرها إلى أوروبة) المواشي والعاج وريش النعام والذرة البيضاء والدخن والقمح والصمغ العربي والرقيق (كثير منه كان يذهب الى تركية) وبعض الذهب الذي كان لا يزال يستخرج من مناجم العلاّقي. وكانت واردات السودان، وأكثرها يمر عبر مصر، المصنوعات المعدنية والأقمشة والصابون والتوابل والعطور. وكان البن ينقل الى السودان من اليمن رأساً.

- ٣ -

بسبب استيلاء البرتغال على مواقع معينة في السواحل الأفريقية الغربية، انتقلت بعض التجارة الصحراوية الى هذه الموانىء. وكما دخل الهولنديون والبريطانيون ميدان التنافس التجاري في الخليج العربي وتجارته، فقد جاء الفرنسيون الى غرب افريقية أيضاً. ولعل هذا التحول في التجارة السودانية نحو المغرب بالذات هو ما حمل ملك المغرب، أحمد المنصور (الذهبي)، على ان يبعث بحملة الى أواسط المنطقة سنة ١٥٩٠ بقيادة جودر، فوصلت غوا وتنبكتو واستولت عليها. وقد رافق الحملة ٢٣,٠٠٠، نُقلوا وعددهم هذا الكبير، وعدتهم وفيها المدافع، على الإبل. (قضت الحملة ١٣٥ يوماً بين مراكش وغوا على نهر النيجر). وبذلك كان للمغرب سيطرة على هذه التجارة لبعض الوقت.

على ان الأمر الذي يجب ان يذكر بالنسبة للشمال الافريقي، هو أهمية البحر في تطوره الاقتصادي في هذه الفترة. لقد اهملت الزراعة اهمالاً كبيراً في الولايات العثمانية. والذي نقصده بأهمية البحر هو صناعة القرصنة. فالأمر كان مقبولاً على جانبي البحر المتوسط، شماله وجنوبه. كانت السفن المغربية تخرج من سلا.

الحياة الفكرية

رسالة في تدبير سفر الحج

- ١ -

هذه الرسالة، التي وجهها قسطا بن لوقا البعلبكي الى الحسن بن مخلد، هي نص فريد من نوعه، ويعود ذلك الى أمرين: الأول هو انها الوصية الوحيدة، فيما نعرف، التي قصد بها ارشاد الحاج الى مكة في الشؤون الصحية؛ والأمر الثاني هو انها ترشدنا الى العمق والدقة اللذين عرف بهما مؤلفها، من الناحيتين النظرية والعملية. فالناحية النظرية تتضح في إحاطته لا بما جاء عند ابقراط وجالينوس فحسب، بل وفي الذي عرف عن بولس الايجيني العالم البزنطي. أما الناحية العملية فواضحة من خلال تنظيم الرسالة على نحو لم يترك زيادة لمستزيد. ذلك بأنها تعطي قارئها المعلومات الاساسية لخير السبل التي يحتاجها الحاج للحفاظ على صحته، وعلاج ما قد ينتابه من علل أو اختلاطات اثناء هذه الرحلة الشاقة الطويلة.

ومؤلف الرسالة هو قسطا بن لوقا البعلبكي (حول ٢٠٥ ـ ٣٠٠هـ/ ٨٢٠ ـ ٩٠٠م). وقد قال عنه ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء».

«كان ناقلاً خبيراً باللغات فاضلاً في العلوم الحكمية وغيرها» (تحقيق الدكتور نزار رضا، بيروت ١٩٦٥، ص ٢٨٠). واضاف فيما بعد «انه مسيحي النحلة، طبيب حاذق نبيل فيلسوف منجم عالم بالهندسة والحساب». ونقل ابن ابي اصيبعة عن ابن النديم. «ان قسطا كان بارعاً في علوم كثيرة منها الطب والفلسفة والهندسة والاعداد والموسيقى، لا مطعن عليه، فصيحاً في اللغة اليونانية، جيداً بالعربية».

ويضيف ابن ابي اصيبعة «ونقل قسطا كتباً كثيرة من كتب اليونانيين الى اللغة العربية. وكان جيد النقل فصيحاً باللسان اليوناني والسرياني والعربي. وأصلح نقولا كثيرة... وله رسائل وكتب كثيرة في صناعة الطب وغيرها، وكان حسن العبارة جيد القريحة» (ابن ابي اصيبعة ص ٣٢٩).

ويعدد صاحب عيون الأنباء في طبقات الأطباء في ص ٣٣٠ و٣٣١ الكتب التي الفها قسطا وترجمها، وهي تملأ صفحة كاملة وبعض الصفحة من الكتاب المذكور (راجع الملحق).

والمعروف ان قسطا زار بزنطة وهو في شرخ الشباب وحمل معه، لما عاد الى بلده، جملة من الكتب اليونانية وهي التي قام بترجمة بعضها بنفسه، وعهد الى سواه بترجمة البعض الآخر.

وقد استدعي قسطا بن لوقا الى بغداد وكان عاملاً نشيطاً في ترجمة كتب من اليونانية أو في مراجعة ترجمات قديمة. وكان هذا ايام الخليفة العباسي المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ/

٨٦٢ ـ ٨٦٦ م). ومن المرجح ان قسطا تعرف اثناء اقامته في بغداد الى الكندي وحنين بن اسحق وثابت بن قرة، والثلاثة كانوا من كبار أهل العلم والترجمة. فالكندي هو أول فيلسوف عربي، وحنين بن اسحق المترجم وصاحب كتاب «مقالات في العين»، وثابت بن قرة مؤلف لعدد من كتب العلم.

وقد انتقل قُسطا الى أرمينية، بدعوة من صاحبها، سنحاريب. كان ذلك بين سنتي ٨٦٠ و٨٧٠ للميلاد. وظل هناك بقية ايامه، عاملاً في التأليف والترجمة[١]. ويضيف ابن ابي اصيبعة ان الذي عمل قسطا في الترجمة والتأليف له هو ابو الفطريف البطريق «وهو من اهل العلم والفضل». ويضيف ان قسطا مات في أرمينية فدفن وبني عليه قبة، واكرم قبره كاكرام قبور الملوك واصحاب الشرائع»[٢].

وعلى تنوع الكتب والرسائل التي الفها، فان قسطا كان يتميز بما وضعه في العلوم الطبية، حتى ان ابن النديم يضعه فوق حنين بن اسحق بسبب معرفته الدقيقة في علوم الطب[٣].

وقد رجع غيرت بوز Gerret Bos في إعداده الرسالة للنشر الى المخطوطات التالية، وهي:

١ ـ مخطوطة في المكتبة البريطانية (مكتبة المتحف البريطاني سابقاً)، وتعود الى سنة ١٠٩٧/ ١٦٨٦، وقد تم نسخها على يد محمد شافعي الكرماني.

٢ـ نسخة في مجموعة دايبر M. daiber، ويعود تاريخ نسخها الى سنة ١٣٠٢ على يد محمد بن الحسن بن علي نقي الحسني الخراساني.

٣ ـ نسخة مكتبة الكومونولث (مكتبة وزارة الهند سابقاً) وهي من نسخ ابي القاسم علي ابن موسى بن جعفر بن طاووس[٤].

وقد تعرّض بوز Bos لرسائل وضعها القدماء في أمور تشبه ما عرض له قسطا. لكنها في اغلبها، إما رسائل فقدت ووصلنا منها استشهادات أو نقول مقتضبة، او انها كانت اصلاً اجزاء من كتب أعم تتناول شؤون الطب على انواعها. وتبقى رسالة قسطا بن لوقا فريدة من نوعها.

والحسن بن مخلد الذي وجه قسطا بن لوقا الرسالة إليه هو ابو محمد الحسن بن مخلد بن الجراح، مسيحي أصلاً، وقد اعتنق الاسلام وعمل كاتباً في بلاط الخليفة المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١ م)، ثم وزر للخليفة المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م). وكان كثير الاحتفال بأهل العلم والأطباء. وكان لقسطا مكانة خاصة عنده.

- ٢ -

والرسالة التي بين أيدينا تسمى «رسالة قسطا بن لوقا الى الحسن بن مخلد في تدبير سفر الحج». والنص الذي نعتمد عليه في هذه الدراسة هو الذي نشره غريت بوز على نحو ما ذكرنا. وقد نقلها الى الانكليزية ووضع لها من الحواشي الشيء الكثير، إذ بلغ عدد صفحات

هذه الحواشي نيفا وثمانين صفحة. ذلك بأنه عاد الى النصوص القديمة اليونانية وغيرها وقارن بينها وبين ما جاء عند قسطا. مقارنة مفصلة، ومقابلة دقيقة. اما الفهارس الهجائية فتشمل المصطلحات بالعربية أولاً ثم المصطلحات بالانكليزية (أي في الترجمة). وهناك فهرس للأسماء العربية وللأسماء الانكليزية (وهذه تشمل المؤلفين والكتب التي استشهد بها أو عاد إليها). وأخيراً هناك قاموس للمواد الطبية بالعربية والانكليزية (الترتيب للعربية وبجوار إسم كل مادة ما يقابله بالانكليزية).

ويقول قسطا في أول رسالته: «بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي. التأهب أعزك الله (الحسن بن مخلد) لما لا يؤمن حلوله والاستعداد لكل ما تحتاج اليه من قبل وقت الحاجة إليه من الحزم وقوة الفكر وصحة التمييز. وقد اعتزمت اغرك الله من هذا السفر على ما سأل الله ان يعظم بركته عليك وان يرزقك فيه السلامة ومحمود العاقبة ويجزل لك الثواب عليه ويحسن صحابتك فيه. فتحتاج أعزك الله الى الاستظهار باتخاذ ما يحتاج اليه مثلك من آلة العلاج، ان كان مسيرك في بلد لا يحضره طبيب ولا يوجد فيه كل ما تحتاج من الأدوية. وبالله يعلم صدقي فيها لولا صبية أعزاء لا يمكن التغرب عنهم وملامتي بحضرة هذا السيد أعني أبا الحسن عبيد الله[٦] مولى أمير المؤمنين وعلمي، ايدك الله، انه سيخرج معك اطباء يفوز (يفون؟) بجميع ما تحتاج اليه من مثله، لآثرت الخروج معك على أي الاحوال كان، والقيام بخدمتك والسعي في حوائجك وأمورك، بما يظهر ما يكنه ضميري وتحتوي عليه النية مني. وإذ لم اجد لي الى ذلك سبيلاً رأيت ان اكتب ما تحتاج اليه من ذلك في كتاب ينوب عن حضوري بعض النيابة» (ص ١٦).

وينتقل قسطا بعد ذلك الى توضيح المعاني الخاصة بهذا السفر ـ أي سفر الحج، بعد ان يشير الى المعاني العامة للاسفار فيقول:

«الأشياء التي تحتاج الى علمها من أمر تدبير الأبدان في الاسفار بالجملة هي أربع (كذا) معان: الأول منها العلم بالتدبير في وقت الراحة والطعام والشراب والنوم والباه، والثاني العلم بأصناف الأعياء والشيء الذي يذهب بكل صنف منه والثالث العلم بالعلل التي تعرض من هبوب الرياح المختلفة وعلاجها، والرابع العلم بالتحرّز من الهوامّ وعلاج آفاتها إذا وقعت. فهذه الأشياء التي تحتاج الى علمها والعمل بها في الاسفار كلها. فاما سفر الحج فمع الحاجة فيه الى هذه المعاني قد تخصه أربع معان آخر: الأول منه العلم باختلاف المياه واصلاح الفاسد منها، والثاني الاحتيال في عدم الماء وقلته وما يقطع العطش، والثالث العلم بالتحرّز من الأشياء التي يتولّد منها العرق المدني وهيجان البواسير، والرابع التحرّز من الحيات والعلاج من آفاتها. وانا واصف كلّ ما يحتاج اليه من العلم بهذه المعاني على ما قال الأوائل في ذلك ومصنفه بابا بابا ليظهر معانيه وليسهل استخراج أي معنى التمس منها وعلى الله اتوكل في ذلك وبه استعين. الباب الأول كيف ينبغي ان يكون التدبير في نفس المسير واوقات الطعام والشراب والنوم والباه. الباب الثاني في الاعياء وعما يحدث وكم انواعه وبأي شيء

يعالج كل شيء منه، الباب الثالث في اصناف التغميز ودلك اسفل القدم، في أي حال يحتاج الى كل صنف من اصناف التغميز وفي ايها يحتاج الى دلك القدم. الباب الرابع في العلل التي تتولد من هبوب الرياح المختلفة الهواء. الباب الخامس في وجع الأذن الذي يعرض كثيراً من هبوب الرياح الشديدة الحر والبرد وعلاج ذلك. الباب السادس في الزكام والنوازل والسعال الذي يعرض من اختلاف الهواء وعلاج ذلك. الباب السابع في علل العين التي تعرض من اختلاف الهواء والغبار والرياح وعلاج ذلك. الباب الثامن في امتحان المياه المختلفة ليعلم ايها اصلح. الباب التاسع في إصلاح المياه الفاسدة. الباب العاشر في عدم الماء والاحتيال لما يقطع العطش. الباب الحادي عشر في التحرّز من جميع الهوامّ. الباب الثاني عشر في علاج لسع الهوامّ كلها. الباب الثالث عشر في البيان عماذا يتولد العرق المدني وبماذا يتحرّز من تولّده. الباب الرابع عشر في وصف علاج العرق المدني اذا تولّد في البدن». (ص ١٨ و٢٠ و٢٢).

- ٣ -

قسطا بن لوقا ينظر الى الجسم البشري، في هذه الرسالة وفي غيرها كما يبدو، على انه يحتاج الى عناية خاصة كي يتاح له ان يقوم بواجبه ووظيفته القيام الصحيح. وعنده ان الغذاء هو أول ما يجب ان يعنى به. فهو عندما يتحدث عن سير القافلة بالذات، يتوقف ليقول «وان يتوقى (المسافر) تناول الغذاء في أوائل المسير أو في وسطه... وليتوقّ المسافر ان لا يكون أكله في المسير؛ فان اتصل وطال صير ما يتغذى به في السفر سويق السلت أو كعكاً وسكراً يشربه بماء بارد أو شراب الخوخ أو شراب الاجاص»[٧]. وفي حالة اصابة احدهم بالاعياء فالذي «ينبغي ان يستعمل في انواع الاعياء كلها من الأغذية الغذاء المعتدل في جوهره وكيفيته، وان يحتمي من جميع الأشياء الظاهرة الحرارة التي تولد اخلاطا رديئة حارة»[٨].

وشغلت قضية المياه (للشرب خاصة) رجال الطب والصحة. فقد لفت ابقراط نظر العاملين في شؤون الطب الى وجوب الاهتمام بالماء. وقد عني جالينوس بالأمر عناية فائقة في شرحه لابقراط. وقد كانت شروح جالينوس لآراء ابقراط معروفة لدى الدارسين من القدماء. ومع ان المخطوطة التي وضعها جالينوس لم تصلنا بنصها اليوناني، فانها كانت معروفة في بغداد لما نقلها حنين بن اسحق الى السريانية ثم نقلها ابن أخيه حبيش الى العربية. وفي هذا كله عناية وتشديد كبيران حول قضية المياه. (وبهذه المناسبة فقد نقل هذا النص الى العبرية في القرن الثالث عشر). بوز ص ١٢٠ ـ ١٢١.

ومن النواحي التي شغل الأطباء بها قضية تعقيم الماء الفاسد. فابن سينا كان يرى ان تنوع الماء (ومن ثم تعرضه للفساد والاسنة) كان أكبر ضرراً من تعدد انواع الطعام. لذلك فقد نصح جالينوس ان يغلى الماء قبل ان يشرب ضمانة لإزالة ما فيه من الأذى. أما ابقراط فقد كان ينصح بغلي الماء ثم تبريده ثم غليه ثانية قبل شربه. وقد تناول قضية المياه الفاسدة

وسبل اصلاحها جميع الذين كتبوا في الطب من القدامى والعرب. وعند لوقا الى جانب الاهتمام بتنظيف أو تنقية الماء للشرب[٩] ..... فصل يتعلق بتخفيف العطش أو الحيلولة دون استحكامه. فهو ينصح بتقليل الغذاء واعتماد الأغذية التي هي بطبيعتها باردة رطبة كالبقول والفواكه الباردة الرطبة. ويضيف: «واقوى ما يستعمل في ذهاب العطش ان يلاك بزر الخس الأسود واصل السوس وبزر القثا مقشراً»[١٠].

ويبدو ان الغبار كان مصدر انزعاج للأطباء والعاملين في حقله لأنه قد يؤدي الى السعال والزكام وما إليهما، كما انه يؤذي العين والأذن.

يقول قسطا بن لوقا: «فاما العين التي فيها علة من رمد أو من عرض آخر فان الغبار لها رديء لأنه لا يؤمن ان يحدث فيها حادث من حرارة أو حدة أو غير ذلك من الآفات. ولذلك ينبغي ان يتوقى منه في الاعين التي فيها علة غاية التوقي»[١١].

ويذكرنا بوز بان الأدب الطبي المتعلق بالعين وامراضها كبير، ويبدو منه ان انجازات هؤلاء الأطباء كانت فريدة في بابها. وقد نشر فؤاد سيزكن ما دوّنه العرب في هذا الموضوع في أربعة مجلدات (فرانكفورت ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧).

ويضيف بوز انه مع ان الأطباء العرب رجعوا الى الأصول اليونانية، فان الذي أنجز على أيديهم يمتاز بالاحاطة والتنظيم في العرض والوصف الأدق لأساليب جراحة العين. فضلاً عن ان اطباء العيون العرب تحدثوا عن امراض للعين لم يعرفها اليونان، كما انهم توصلوا الى أساليب جديدة وأدوية جديدة. ويرشدنا بوز الى كتاب يتناول معرفة العرب بالعين[١٢].

وكانت لأطباء العرب عناية بالأذن أيضاً، والعناية بها إذا كانت موجوعة هو في ابعادها عن مجرى الرياح الباردة والساخنة على السواء. ويصف للأذن التي فيها وجع ادهان تنقط داخلها[١٣].

- ٤ -

في كتاب قسطا بن لوقا أمور حرية بالعناية لا من حيث وضعها التراثي والتاريخي فحسب، بل بسبب ان أموراً منها تبدو وكأنها تعالج المشكلة في يوم الناس هذا، من هذه الموضوعات الفصل عن الإعياء.

«الباب الثاني في الاعياء وعماذا يحدث وكم انواعه وبأيّ شيء يعالج كلّ نوع منه. من اجل انه لا يؤمن ان يتولّد عن الحركة المفرطة اعياء ما يجب ان نصف الاعياء وانواعه وبأي شيء ينبغي ان يحتال لاصلاحه والسلامة منه. فنقول ان الاعياء هو حال يحدث للبدن حسّ الم يتولّد عن حركة مفرطة، وذلك ان حركات البدن جميعاً انما تكون بالعضل والعصب المنبث فيه الذي منشؤه واصله الدماغ. فإذا تحرك البدن حركة مفرطة نال العضل المحرك له اذى بالاحتكاك والتصادم الذي يكون بالحركة السريعة، والحال الحادثة عن ذلك تسمى اعياء. وانواع الاعياء التي ذكرها جالينوس أربعة، فالأول منها يسمى المثقّل والثاني يسمى الممدّد والثالث يسمى المسخن والرابع يسمى المؤلّم. فالابدان الممتلئة اخلاطا لزجة غليظة مائلة

الى البرودة والرطوبة، إذا تعبت بالحركة اذابت الحركة تلك الاخلاط وانضجتها فصارت دماً رقيقاً لطيفاً تمتلىء به أوعية البدن فتزيد في دم البدن زيادة بينة. فان كانت قوة البدن ضعيفة كانت تلك الزيادة كَلاً عليه. فأحسّ من ذلك بثقل اكثر ما يمكنه ان يحتمله وكان من ذلك الاعياء المثقّل. وان كانت قوة البدن قوية يفي بحمل الاخلاط إلا ان الأوعية اعني العروق ضيقة لا تسع الاخلاط التي حللتها الحركة فكان من ذلك الاعياء الممدّد، فيحس الانسان كأن عروقه واعضاءه تمدّ التمدّد الذي يناله بالزيادة التي كانت فيها بالاخلاط التي اذابتها الحركة وحللتها. فاما الذي يكون مع اسخان وحرارة والاعياء الذي يكون مع ألم يحس في الأعضاء فإنهما يكونان في الابدان التي اخلاطها لطيفة دقيقة، فإذا تحركت هذه الابدان حركة كثيرة حميت الاخلاط التي فيها وسخنت بالحركة إذ كانت في طبيعتها مائلة الى الحرارة فكان منها الاعياء الذي قدمنا ذكره في هذا الفصل، أي المسخّن.

فإذا كانت الاخلاط في طبيعتها حارّة ازدادت سخونة من قبل الحركة فكان من ذلك الاعياء المؤلّم. وذلك ان الاخلاط تصير في هذه الحال بمنزلة الشيء الذي قد غلى واحترّ وصار يلذع ويؤلم. فهذه اسباب الاعياء الأربعة التي ذكرها جالينوس[١٤] فاما علاجها فان النوع الأول والثاني منها يصلحان بالتغميز الرقيق والمروخات بالادهان المعتدلة، الحارة كدهن الخيريّ والسوسن ودهن الآس والادهان المتخذة بالزيت الذي قد طبخت فيه الافاويه الطيبة الرائحة الملطفة المحللة.

فأما الاعياء الذي يسخن فيه البدن والاعياء الذي يكون منه في البدن شيء من حس الألم فإن حاجته الى الغمز يسيرة، بل إن لم يستعمل فيه الغمز البتة كان ذلك اصلح. والذي ينبغي ان يقصد في تمريخه بدهن ورد مع ماء فاتر قد خلطا جميعاً وضربا ضرباً شديداً حتى يصيرا في صورة الزبد.

في وقت حلبه. والذي ينبغي ان يستعمل في أنواع الاعياء كلها من الأغذية الغذاء المعتدل في جوهره وكيفيته، وان يحتمي من جميع الأشياء الظاهرة الحرارة التي تولد اخلاطاً رديئة حارة، ويبادر بالنوم بعقب التعب وان يتوقى الحركة بعد الطعام وفي الأوقات التي يحس فيها ان في المعدة طعاماً وان يتوقى شرب الماء البارد بعقب التعب الكثير[١٥].

ويحدثنا قسطا بن لوقا في بابين (الحادي عشر والثاني عشر) عن الهوام؛ فالأول يتناول فيه التحرّز من الهوام جملة، أما الثاني فهو للعلاج. وهذه من صفات هذه الرسالة. يبحث فيها صاحبها أولاً عن تجنب المشكلات والأمراض والهوام والزواحف، ثم ينتقل الى العلاج. وهنا فاننا نكتفي بالإشارة الى هذا الأمر، لأننا نود ان ننصرف الى موضوع لعله كان أكثر أهمية في ايام قسطا بن لوقا البعلبكي[١٦].

- ٥ -

في البابين الأخيرين (الثالث عشر والرابع عشر) يتناول قسطا بن لوقا العرق المدني وسبيل تولده ثم في وصف علاجه. ويتساءل المؤلف سؤالاً عماذا يتولد العرق المدني. ويقول: «من أجل ان العرق المدني يتولد كثيراً في ذلك الصقع، اعني المدينة، حتى صار يعرف

بالمدني... ان تولد هذا العرق في اللحم كتولد الحيات وحب القرع واصناف الدود في البطن»(١٧).

وهنا يتوقف قسطا بن لوقا كي يقدم لنا رأياً في تكون العدد الكبير من هذه الطفيليات، على ان ذلك هو مقدمة علمية، لتطور العرق المدني. يقول: «ان تولد هذا العرق يكون في اللحم كتولد الحيات وحب القرع واصناف الدود في البطن وكتولد سائر الأشياء التي تدبّ على الأرض. والعلة التي تشتمل على هذه الأشياء جميعاً في تولدها العفونة المعتدلة. وكما ان ما يعفن في جميع الأجسام يولد حيواناً كذلك العفن في اللحم يكون منه تولد هذا العرق. وكل تعفن فإنما يكون باجتماع حرارة ورطوبة باقساط معلومة، وتلك الاقساط ليس يدركها البشر ولا يعلم مقاديرها الا البارىء جلّ وعزّ. على انها ليست محصورة حصراً لا يلزم فيها زيادة ولا نقصان، لكنها مختلفة واختلافها على قدر اختلاف الحيوان المتولد منها. فان الاقساط من الحرارة والرطوبة التي تتولد منها الحيات في البطن خلاف الاقساط التي يتولد منها حب القرع وخلاف الاقساط التي يتولد عنها القمل والبراغيث والبق والجرجس، وكذلك (الاقساط) التي يتولد عنها من الأرض الضب واليربوع والجردون خلاف الاقساط التي تتولد عنها الحيات والعقارب وبنات وردان. وقد يختلف تولد هذه الحيوانات في البلدان على قدر اختلاف ترب البلدان، فان كل بلد تخصه تربة يتولد فيها من هذه الحيوانات خلاف الحيوانات التي تتولد في التربة الأخرى. فالأرض الخصبة يتولد فيها من الحيوانات خلاف ما يتولد في الأرض الرمادية، والأرض الحمراء التربة يتولد فيهاحيوان غير الحيوانات التي تتولد في الأرض السوداء، إذا كان التعفن في كل واحدة من الترب يكون في مقادير مختلفة مخالفة للمقادير التي يكون منها الحيوان من غير تلك التربة. ولهذه العلة صار يتولد في كل بلد جنس من الحيوان مخالف للجنس الذي يتولد في البلد الآخر حتى صار بعض البلدان لا يتولد فيه عقرب البتة وبعضها لا يتولد فيه براغيث وبعضها لا يتولد فيه بق»(١٨).

هذا العرض البيولوجي صحيح في كليته، لكنه يحسب ان الحيوانات التي ذكر تتولد من نفسها لمجرد ان الاقساط أي الأحوال التي تحيط بها أو توجد حولها تعطيها الجو المناسب. لكن ما يجب ان نذكره هو ان مثل هذه الاقساط (الاحوال) تساعد على نمو هذه الحشرات والحيوانات التي تكون في وضع مهيء لذلك، لكنها لا تؤدي الى تولّد ذاتي.

ولأن المدينة تتوافر فيها عناصر من الاقساط تؤدي الى العفونة بسبب الماء الراكد فيها، فانه من هذه الجهة صار العرق المدني يتولد في المدينة وما يليها في اكثر الحالات دون سائر المواضع. والسبب في ذلك ان هواء ذلك الصقع مع الأغذية التي توجد فيه كثيراً فيغتذي بها الناس كالتمور فيه يتولد ذلك العرق في اللحم فيصير حيواناً كسائر الحيوان الذي يتولد في البطن والامعاء. والتحرّز من تولده ان يترك أكل التمور البتة والتوقي من استعمال الأغذية التي يسرع اليها الفساد والاستحالة كالالبان وما يعمل منها مثل الجبن والمصل وما شابه ذلك وبادمان دخول الحمام واستعمال صب الماء الحار على البدن، ان كان ذلك البلد لا

حمامات فيه، وشرب السكنجُبين كثيراً قبل الطعام واخذ اطريفل الاهليلج الأصفر في الأيام والهليلج المربّى والاملج المربّى والشقاقل المربّى والحبوب التي تنقي المعدة والامعاء مثل الحب المعروف بالشبيار وحب الذهب وحب المقل وسفوف الاهليلج والرازيانج والسكر وما شابه ذلك، واستعمال الكبر في الطبيخ واتخاذ البوارد منه، اعني من قضبانه وحبه من انفع الأشياء في التحرّز من هذه العلّة. وكذلك الشبث والرازيانج والطرخشقون والفوذنج النهري والفوذنج الجبلي والسذاب والنعنع وجميع البقول التي معها تفتيح لمنافس البدن وانضاج الاخلاط وتعديلها لئلا تلحج في عضو من اعضاء البدن فيتعفن فيه. بهذا التدبير وما شابهه يكون التحرّز من العرق المدني ان شاء الله[١٩].

وينتقل بعد ذلك الى الباب الرابع عشر وهو الأخير وفيه يتناول قسطا بن لوقا البعلبكي وصف علاج العرق المدني إذا تولد في البدن. ولأن العلم بما ينتفع به، وان لم يدع اليه الحاجة الشديدة، حسن محمود رأيت ان اصف العلاج من العرق المدني، وان كان بقراط وجالينوس لم يذكراه. واني اقول فيه ما قال سورانوس ولاونيدوس وهما إمامان من ائمة الأطباء. فاما سورانوس فانه لم ير ان هذا العرق حيوان وانه يتحرك بل رأى انه يتوهم انه متحرك وهو بالحقيقة غير متحرك. فاما لاونيدوس وغيره ممن اتى بعده فانهم رأوا انه حيوان يتولد في لحم العضل واكثر تولده يكون في السواعد والاعضاد والسوق والافخاذ. فاما الصبيان فانه يتولد مع ذلك أيضاً منهم في الظهر والصدر تحت الجلد. وقد اتفق كلهم في علاجه على انه ينبغي أن ينطل العضو الذي ظهر فيه بالماء الحارّ نطلا دائماً حتى يخرج طرفه، فإذا خرج يسلّ سلا رقيقاً، وان لم يجب الخروج شدّ في طرفه رصاصة بخيط وترك لتجذبه الرصاصة بثقلها فتحطه الى أسفل وتسله شيئاً فشيئاً. ويستعمل مع ذلك أيضاً اقماد العليل في الماء الحار ويضمد الموضع بالاضمدة المحللة كالضماد المتخذ من دقيق الشعير ودقيق الحنطة والحلبة وتين وبابونج وما أشبه ذلك. ويلزق عليه لزوقات محللة كاللزوق المنسوب الى الغار والى الطرفاء وغير ذلك مما شابهه. فان انقطع العرق المدين وتفتح موضعه شق عنه وعولج كما يعالج سائر الجراحات. وقد اتيت على ما يحتاج الى وصفه من علاج العرق المدني وسلكت في ذلك المسلك الذي سلكته في سائر هذا الكتاب. فاني قد وصفت فيه اشياء كثيرة فانا أرى ان الله عزّ وجلّ بمنّه وطوله وسعة رحمته سيغنيك بالعافية فلا تحتاج الى استعمال شيء منها، على اني مع ذلك قد رجعت الى ان مثلك أيّدك الله لا تخرج الى مثل هذا السفر بل ولا اقرب منه من المواضع، بعد ان يقع عليه اسم سفر، إلا في جمع وعدد كثير من الناس. وحيث كان الجمع والعدد الكثير فإنه لا يخلو من الآفات. والله أسأل ان يتفضل عليك وعلينا فيك وعلى جميع من معك بالسعادة التي هي سلامة النفس وصحة البدن، إنه على ما يشاء قدير. تمت الرسالة المنسوبة الى قسطا بن لوقا في تدبير الابدان في السفر[٢٠].

هذه الحشرة أو الحيوان يعرف باسم دودة غينيا، واسمها العربي هو الفريتت. وهي حيوان طفيلي يعيش في الجسم البشري، ويبلغ طول الأنثى منه نحو المتر. وعندما يتم نمو

هذه الدودة يخرج رأسها من الجلد (وغالباً ما يكون هذا في الأجزاء السفلى من الجسم). وعندها تفرز عدداً من الحييوينات التي تنتشر في المياه الآسنة. فإذا شرب امرؤ هذا الماء انتقلت هذه الحييوينات الى الجسم البشري وتستقر في المعدة. وتحتاج الدودة نحو سنة كي يتم نموها. ويمكن نزعها من الجسم عندما يخرج رأسها من الجلد، وذلك بسحبها.

ولم يعرف القدامى هذه الدودة مباشرة، وكل ما عرفه جالينوس عنها انه سمع خبرها فقط، إذ ان الكثيرين من العرب اشاروا اليها على انها حية صغيرة، وانها تشبه دود الامعاء من حيث لونها وثخنها. ويقول جالينوس انه لم يرها، ومن ثم فانه لا يمكنه ان يؤكد وصفها. الا ان اثنين من العاملين في حقل الطب قبل جالينوس، وهما ليونيداس وسورانوس، كانا قد كتبا عن هذه الدودة، على نحو ما وصلنا من بولس الايجيني. وكان روفس (من افسس) قال عنها انها تشبه في ثخنها وترا شديد اللف مصنوعاً من امعاء الحيوان، وانها تجر نفسها في الجسم البشري وتنتقل فيه مثل الحية، وغالباً ما تكون في الفخذ والرجل الا انها قد تستقر في اماكن أخرى من الجسم. وروى روفس انه رأى في مصر عربياً كان مصاباً بهذا المرض. وعندما تخرج هذه الدودة جزئياً من مخبأها فانها تحدث الاماً شديدة وتسبب الحمى للمريض، وعندها يتورم المكان نفسه. وقد بدت اثارها عند هذا الرجل في الفخذ، اما خادمته فقد كانت اصابتها على مقربة من الصرة. وكان ثمة مريضة أخرى كانت اصابتها في مكان حول الخصر. ولما استفسر عما إذا كان هذا المرض شائعاً بين العرب خاصة، قيل لي ان كثيرين من الأجانب الذين يشربون من هذه المياه القذرة يصابون بذلك أيضاً.

ويبدو ان المؤلفين العرب، الذين تأثروا بهذه الروايات اطلقوا على الدودة العرق المدني. ومن ثم فقد اصبح من العسير التأكد من اصل هذا المرض أو الدودة وهي طفيلية على ما يبدو.

ولم تتضح طبيعة هذا المرض إلا في القرن السابع عشر على يد طبيب مستشرق الماني هو انغلبرت كامبفر Engelbert Caempfer (١٦٥١ ـ ١٧١٦)، فتعرف الى طبيعتها والى انها تنتقل الى الجسم البشري نتيجة شرب الماء الملوث، كما انه وصفها وصفاً دقيقاً وبين الطريقة التي يمكن سحبها من الجسم البشري.

ويبدو ان هذه وغيرها من الديدان الطفيلية كانت معروفة في بلاد العرب قبل الاسلام ثم في العصر الأموي الى جانب البلهارسيا[٢١].

وينصح قسطا قراءه بالتحرّز من تولد هذه الدودة وذلك (١) بتجنب أكل التمور (٢) دخول الحمام أو صب الماء الحار على الجسم (٣) تجنب المآكل التي يسرع اليها الفساد كالحليب والاجبان والمصل (٤) شرب السكنجبين كثيراً قبل الطعام (٥) اخذ الاهليلج الأصفر والمربى والحبوب مثل الشنبيار وحب الذهب.

هذه التعابير أو الكلمات ـ السكنجبين، والشنبيار وحب الذهب وسواها ـ هي مركبات (أو أدوية مفردة في بعض الحالات) يقصد منها تقوية الجسم كي يتمكن من إفراز هذه الدودة[٢٢].

يذكرنا بوز ان قسطا مخطىء إذ يحسب ان جالينوس لم يشر الى هذه الدودة. إذ انه

يقول انه سمع من كثيرين عن وجودها. وتؤكد رواية ابن سينا ان جالينوس اشار الى انه عرف عنها بالسماع(٢٣).

لعله من قبيل المصادفة ان اعمال سورانوس لم تنقل الى العربية. كان سورانوس من أهل افسس (اوائل القرن الثاني) وكان واحداً من كبار أصحاب العمل المنظم في الشؤون الطبية. وقد اعتبر في أوروبة في العصور الوسطى في الدرجة الثالثة بعد الإمامين جالينوس وابقراط. أما في المشرق فان ما عرف عنه كان فتاتا.

أما ليونيداس فهو طبيب اسكندري (من اواخر القرن الثاني للميلاد). ويبدو مما وصلنا عن طريق أهل المعرفة مثل بولس الايجيني، انه كان جراحاً ماهراً. ويبدو ان بول كان صلة الوصل بين هذين الطبيبين والعالم الشرقي(٢٤).

***

هذه رسالة قسطا بن لوقا البعلبكي التي ظلت مخبأة حتى اخرجها غريت بوز محررة مدققة مترجمة الى الانكليزية ترجمة دقيقة مع حواش وهوامش من خير ما وضع محرر لمخطوطة عربية في ما أعرف.

الهوامش

(١) Gerret Bos, *Ousta ibn Luqa's Medical Regimen for the Pilgrims to Mecca*, (Brill, Lerden, 1992) pp. 122.
وقد أورد بوز في الصفحة الثانية من كتابه (الهامش رقم ٢) المراجع الأجنبية التي تحدثت عن قسطا بن لوقا وأعماله، فليرجع إليه.

(٢) ابن أبي أصيبعة، **عيون**....، (ص ٣٣٠).

(٣) **كتاب الفهرست**، لابن النديم طبعة فلوغل، (ليبزغ ١٨٧١ ـ ٢)، المجلد الأول ص ٢٩٥. جدير بالذكر ان بيارد دودج، الذي كان رئيساً للجامعة الاميركية في بيروت (١٩٢٣ ـ ١٩٤٨) قد نقل ابن النديم الى الانكليزية وطبعت الترجمة في نيويورك سنة ١٩٧٠. والإشارة الى رأي صاحب الفهرست موجودة في المجلد الثاني ص٦٩٤.

(٤) راجع بوز Bos، ص ٣ ـ ٥.

(٥) D. Sourdel, *Le Vizirat Abbaside*, (Damascus 1959 -1960) vol, II, p. 766.

(٦) مولى أمير المؤمنين الذي يشير إليه قسطا بن لوقا هو عبيد الله بن يحيى بن خاقان. وقد وزر للمتوكل من سنة ٢٣٦ الى ٢٤٧ هـ وهي السنة التي اغتيل فيها المتوكل (أي بين سنتي ٨٥١ و٨٦١م) ثم وزر للمعتمد (من ٢٥٦ الى ٢٦٣هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٧٧م). ويرى سوردل ان الحسن بن مخلد كان كاتباً عنده.

(٧) ص ٢٢.

(٨) ص ٣٢. راجع ملاحظات بوز حول أهمية الغذاء من حيث انه جزء من نظام صحي متكامل عني به القدامى (ص ٨٥).

(٩) ص ٥٦ و١٢٠ و١٢٣.

(١٠) ص ٦٠ و٦٢.

(١١) ص ٥٢.
(١٢) ص ١١٧ ـ ١١٨. اما اسم الكتاب الذي تناول فيه مؤلفه معرفة العرب الطبية بالعين فهو:
J. Hirschberg ,*"Geschichte der Augenheilkunde bei der Arabern"* in Graefe - Saemisch Handbuch der gesamten Augenheilkunde, 13th Volume, 2nd Book, Leipzig 1908, pp. 1-224, Repr, Frankfurt, 1986.
(١٣) ص ٤٢ و٤٤ و٩٦ و٩٧.
(١٤) يرى بوز ان قسطا لم يكن دقيقاً في اشارته الى جالينوس، إذ إن هذا ذكر ثلاثة انواع من الاعياء وهي مثقل وممدد ومسخن. ويبدو ان قسطا جعل من هذا النوع الأخير نوعين، فاضاف المؤلم. (ص ٩٠ ـ ٩١).
(١٥) ص ٢٦ و٢٨ و٣٠ و٣٢ و٣٤.
(١٦) ص ٦٤ و٦٦ و٦٨ و٧٠ و٧٢.
(١٧) ص ٧٢.
(١٨) ص ٧٢، ٧٤، ٧٦.
(١٩) ص ٧٤، و٧٦ و٧٨.
(٢٠) ص ٧٨ و٨٠ و٨٢.
(٢١) ص ١٤٥ ـ ١٤٦.
(٢٢) ص ١٤٩ ـ ١٥٠.
(٢٣) ص ١٥١.
(٢٤) ص ١٥١ ـ ١٥٣.

ملحق

من «عيون الانباء في طبقات الأطباء» (ص ٣٣٠ ـ ٣٣١)

ولقسطا بن لوقا من الكتب: كتاب في اوجاع النقرس، كتاب في الروائح وعللها. رسالة الى أبي محمد الحسن بن مخلد في احوال الباه واسبابه، على طريق المسألة والجواب، كتاب في الاعداء ألفه للبطريق فتى أمير المؤمنين. كتاب جامع في الدخول الى علم الطب الى ابي اسحق ابراهيم بن محمد المعروف بابن المدبر. كتاب في النبيذ وشربه في الولائم، كتاب في الاسطقسات. كتاب في السهر، ألفه لأبي الغطريف البطريق مولى أمير المؤمنين، كتاب في العطش، الفه لأبي الغطريف مولى أمير المؤمنين. كتاب في القوة والضعف، كتاب في الأغذية على طريق القوانين الكلية، ألفه لبطريق في علة الموت فجأة، ألفه لأبي الحسن محمد بن احمد، كاتب بطريق البطارقة، كتاب في معرفة الخدر وأنواعه وعلله وأسبابه وعلاجه، ألفه لقاضي القضاة أبي محمد الحسن بن محمد. كتاب في أيام البحران في الأمراض الحادة، كتاب في الأخلاط الأربعة وما تشترك فيه. مختصر كتاب في الكبد وخلقتها وما يعرض فيها من الأمراض، رسالة في المروحة وأسباب الريح. كتاب في مراتب قراءة الكتب الطبية، كتبه الى أبي الغطريف البطريق، كتاب في تدبير الابدان في سفر الحج، ألفه لأبي محمد الحسن بن مخلد، كتاب في دفع ضرر السموم. كتاب في المدخل الى علم الهندسة، على طريق المسألة والجواب، ألفه لأبي الحسن علي بن يحيى مولى أمير المؤمنين. كتاب آداب الفلاسفة، كتاب في الفرق بين الحيوان الناطق وغير الناطق، كتاب في تولد الشعر، كتاب في الفرق بين النفس والروح، كتاب في الحيوان الناطق، كتاب في الجزء الذي لا يتجزأ. كتاب في حركة الشريان «كتاب في النوم والرؤيا، كتاب في العضو الرئيس من البدن، كتاب في البلغم، كتاب في الدم، كتاب في المرة الصفراء. كتاب في المرة السوداء، كتاب في شكل الكرة والاسطوانة، كتاب في الهيئة وتركيب الافلاك، كتاب في حساب التلاقي على جهة الجبر والمقابلة، كتاب في ترجمة ديوفنطس في الجبر والمقابلة، كتاب في العمل بالكرة الكبيرة النجومية، كتاب في الآلة التي ترسم عليها الجوامع وتعمل منها النتائج، كتاب في المتعة، كتاب في المرايا المحرقة كتاب في الاوزان والمكاييل، كتاب السياسة، ثلاث مقالات، كتاب العلة في اسوداد الخيش وتغيره من الرش، كتاب في القرسطون، كتاب في الاستدلال بالنظر الى أصناف البول، كتاب المدخل الى المنطق، كتاب مذهب اليونانيين. رسالة في الخضاب، كتاب في شكوك كتاب اقليدس، كتاب الفصد، وهو أحد وتسعون باباً ألفه لأبي أسحق إبراهيم بن محمد المعروف

بابن المدبر. كتاب المدخل الى علم النجوم، كتاب الحمام، كتاب الفردوس في التاريخ. رسالة في استخراج مسائل عدديات من المقالة الثالثة من اقليدس. تفسير ثلاث مقالات ونصف من كتاب برفنطس في المسائل العددية، كتاب في عبارة كتب المنطق، وهو المدخل الى كتاب أيساغوجي، كتاب أيساغوجي، كتاب في البخار رسالة الى أبي علي بن بنان بن الحرث، مولى أمير المؤمنين فيما سأل عنه من علل اختلاف الناس في اخلاقهم وسيرهم وشهواتهم واختياراتهم، مسائل في الحدود على رأي الفلاسفة.

مدرسة القيروان الطبية
وأثرها في تطور الطب في أوروبة

عرض لكتاب ابن الجزار ومدرسة القيروان الطبية
للدكتور سليم عمار، تونس ١٩٩٤

- ١ -

كانت القيادة الأولى للعرب المسلمين في المغرب العربي لعقبة بن نافع، الذي نجح في انتزاع النصر تلو النصر في هذه الرقعة الواسعة. وكان مما فعله ان مصّر القيروان، على نحو ما مُصِّرت الكوفة والبصرة، وبذلك وضع مخطط أول مدينة عربية اسلامية في تلك الاصقاع. واتخذها هو، والذين خلفوه، محطة عسكرية بادىء الأمر، ثم عاصمة للمنطقة. وظلت على ذلك وأضيفت الأندلس اليها بعد فتحها. وبسبب موقعها على طرق التجارة الصحراوية (الشرقية، الغربية، والشمالية الجنوبية) فقد انضمت فوائد التجارة الى ما كان لها. وقد اصبحت القيروان، في نظر مسلمي المغرب، المدينة المقدسة الرابعة في الاسلام.

والجامع الذي بناه عقبة كان يتناسب مع عمل قائد عسكري، إقامته موقتة، وأعماله خارج المدينة اكثر منها داخلها. لكن لما قامت دولة الاغالبة (١٨٤ ـ ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ ـ ٩٠٩م) وتوطدت اركانها، كان لا بد من بناء جامع يتناسب مع الاحوال الجديدة. وقد تم بناء جامع القيروان، الذي لا يزال قائماً، في ايام زيادة الله الأول (٨١٧ ـ ٨٣٨) ابتداءً وابرهيم الثاني (٨٧٤ ـ ٩٠٢) انتهاء.

وقد جذبت القيروان اليها عدداً كبيراً من اهل العلم والفقه والتجارة والزعامة بسبب ما كانت عليه المنطقة من الثراء، فكان بين هؤلاء قوم من مصر والأندلس وقوم آخر من فارس مثلاً.

وأنشأ الاغالبة في القيروان بيت الحكمة، على ما اخرجه حسن حسني عبد الوهاب في دراساته ودوّنه في الجزء الأول من «ورقاته التونسية». ولم يقصر هؤلاء الامراء في العناية بصحة الناس فأنشأوا مستشفى في دمنة الذي روي ان نفقاته كانت ايام زيادة الله الأول ستمئة دينار من الذهب شهرياً.

وقد ورد في الروايات ان طبيباً عراقياً مسيحياً هو ابو يوحنا ماسويه (يوحنا معروف في عالم الطب فيما بعد) جاء القيروان في أواخر القرن الثامن الميلادي وكان في حاشية يزيد ابن هاشم. فهل كان لهذه الزيادة علاقة بإنشاء المستشفى؟

وكان ممن درّس الطب في القيروان اسحق بن عمران. وهو من اهل القرن الثالث للهجرة (أواخر القرن التاسع ونصف القرن العاشر للميلاد). كان اسحق قد تتلمذ على بختيشوع بن جبريل. وقد اقام بسامراء. ويبدو انه انضم أيضاً الى جماعة بيت الحكمة (او دار

الحكمة) في بغداد. دعاه ابرهيم الثاني الأغلبي الى القيروان فقبل الدعوة واشترط ان يسمح له بالعودة الى بلده متى شاء. قبل ابرهيم بذلك ووصل اسحق القيروان سنة ٢٧٣/ ٨٨٧، وخدم ابرهيم طبيباً له خدمة صادقة. وتولى رعاية زيادة الله الثالث. لكن هذا غضب عليه فأمر بقتله سنة ٢٩٤/ ٩٠٧.

وقد اخرج حسن حسني عبد الوهاب ان اسحق بن عمران وضع كتبه كلها في افريقية واهداها الى امراء الاغالبة. وقد اتضح لدى الباحثين انه خلف ثلاثة عشر كتاباً في الطب وما يتعلق به، منها كتاب في الأدوية المفردة؛ على ان أهم ما خلفه اسحق بن عمران هو «مقالة في الماليخوليا» (مالنكوليا) وقد قال في مقدمة هذه المقالة، بعد البسملة، «هذا كتاب مختصر وضعه اسحق ابن عمران المتطبب في الداء المعروف بالماليخوليا وهو الوسواس السوداوي».

وكان روفس الأفسسي قد سبقه وكتب في الموضوع نفسه، لكن كتاب اسحق بن عمران اعمق بحثاً وأبعد مدى في التقصي واكثر احتفالاً بالعلاج (ص ٢٥ ـ ٣٨).

وكان اسحق بن عمران ذا باع طويل في الفلسفة. وقد قال عنه ابن ابي اصيبعة في طبقات الاطباء إن الفلسفة والطب تأصّلا في المغرب على يد اسحق بن عمران (ص ٤٠).

كان خليفة اسحق بن عمران في مدرسة القيروان الطبية اسحق بن سليمان، وهو مصري المولد (٢٣٦/ ٨٥٠) يهودي الأصل، كحّال في مهنته الطبية. وكان معاصراً للرازي وكانت له مراسلات مع سعديا الفيلسوف اليهودي.

بعد ان أمر زيادة الله بقتل اسحق بن عمران، طلب طبيباً يحل محله في بلاطه، فاهتدى الى هذا الرجل، ولما طلبه جاء الى القيروان (٢٩٦/ ٩٠٨). وقد بعث اليه بخمسمئة قطعة ذهبية اغراء له. على ان أمر زيادة الله كان قد قارب على النهاية إذ ان عبيد الله المهدي أسس الدولة الفاطمية في السنة التالية لوصول اسحق بن سليمان، فانضم الطبيب الجديد الى البلاط الفاطمي.

وقد عمر اسحق بن سليمان نيفا ومئة من السنين (فقد ولد سنة ٢٣٦/ ٨٥٠ وتوفي في ايام الخليفة المعز لدين الله، بعد ان خدم في بلاط الفاطمين بدءاً من العام ٢٩٧/ ٩٠٩. ولما بنى الخليفة المنصور المنصورة (صبرا) انتقل اسحق اليها ليكون الى جانب الخليفة. وعمل في بيت الحكمة، الذي احتضنه الفاطميون فيما احتفظوا به من مؤسسات الاغالبة.

وقد وضع اسحق بن سليمان كتبه باللغة العربية، وهي تشمل الطب أصلاً، لكنه كتب في الاخلاق والفلسفة ايضاً. ولم يتزوج هذا الطبيب، ويروى انه لما سئل لماذا آثر العزوبة في حياته فلم ينجب، أشار الى الأربعة المهمة من كتبه وقال هذا ما أنجبته ـ فهذه الكتب الأربعة هي أنجالي الأربعة. على ان اسحق بن سليمان وضع كتباً أخرى غير هذه الأربعة الكبيرة. فقد ذكر له ابن ابي اصيبعة اثني عشر عملاً، واضاف الدكتور احمد بن ميلاد اثنين آخرين.

والكتب الأربعة التي يخص بها هي (١) كتاب الحميات و(٢) كتاب المرض والعلاج و(٣) رسالة في البول و(٤) الاستسقاء.

أما خارج إطار الطب فقد وضع مقدمة في المنطق وحديقة الفلسفة.

ومن المؤسف ان القليل من مؤلفاته وصلنا في النص العربي الأصلي، والذي يعرف من كتبه عرف من الترجمات اللاتينية أو العبرية. وبهذه المناسبة فان قسطنطين الافريقي (١٠٢٠ ـ ١٠٨٧) نقل الكثير من كتب الطب العربية الى اللاتينية وعزاها الى نفسه. والكتاب الوحيد الذي أشار اليه على انه ترجمة كان كتاب المرض والعلاج لاسحق بن سليمان.

والذي نود ان نشير اليه هنا هو ان انتقال اسحق بن عمران من أرض الرافدين الى تونس وانتقال اسحق بن سليمان من مصر اليها، يدلان على الصلة العلمية التي كانت قائمة بين المشرق والمغرب. هذا فضلاً عن الصلات التجارية القوية.

- ٢ -

احمد بن الجزار الطبيب اصلاً والعالم في فروع المعرفة الأخرى ثانية، مختلف في سنة ميلاده أهي (٢٨٥/ ٨٩٥ أم ٢٨٨/ ٨٩٨، حسب تحقيق احمد بن ميلاد للأولى وسويسي وجازي للثانية.

نشأ احمد في بيت كان فيه طبيبان ـ أبوه ابرهيم وعمه ابو بكر، فكان أول معلميه. وقد تلقى الكثير من اصول المعرفة في صغره فحفظ القرآن الكريم وتعلم النحو والفقه والأدب، وحتى الطب بدأ تعلمه صغيراً، وكان أبوه وعمه أول معلميه. لكن لما تقدمت به السن تتلمذ على اسحق بن سليمان. وقد تبحر في علوم الطب عن طريق دراسة اعمال القدامى من ديوسقوريدس وجالينوس وبولس الايجيني وروفس الأفسسي ويوحنا بن ماسويه والكندي وسابور بن سهل وجرجيس بن بختيشوع وتيادورق.

بدأ العمل في ايام الخليفة القائم بأمر الله (٩٣٤ ـ ٩٤٦) لكن نجمه بزغ ايام المعز لدين الله (٩٥٣ ـ ٩٧٥). وقد عمل في بيت الحكمة فقرأ عليه الناس الطب والفلسفة والرياضيات والفلك. على ان احمد بن الجزار عني ايضاً بالتاريخ والأدب والجغرافيا. ولم يقبل ابن الجزار ان يكون عاملاً في البلاط، بل ظل مستقلاً حراً في اعماله. وكان في ذلك يقلد ابن سحنون، الفقيه المالكي صاحب المدونة ـ وقد روى المؤرخ الأندلسي ابن جلجل ان ابن اخي قاضي القيروان النعمان، ذهب الى عيادة ابن الجزار فعرفه هذا لكنه لم يوله أيّ عناية خاصة. فانتظر دوره، ولما جاء فحص ابن الجزار البول الخاص بابن عم الشاب ووصف له العلاج. وحصل مثل ذلك في الأيام التالية. ولما انتهى العلاج بعث القاضي النعمان الى ابن الجزار برسالة شكر وأرفقها بهدية هي كسوة وثلاثمئة مثقال من الذهب. فقرأ ابن الجزار الرسالة وأعاد الكسوة والذهب الى القاضي وقال انه لا يقبل مثل هذه الهدية من اصحاب النفوذ.

وقد عمل ابن الجزار في رباطي المناستير وسوسه، وسواهما. وكان يشغل وقته، خارج ساعات عمله في عيادته، في التأليف. وقد عرف له من الكتب ثلاثة وأربعون كتاباً شملت انواع العلوم على اختلافها، لكن اكثرها كان في الطب. وأهم مؤلفاته الطبية هي:

أولاً ـ زاد المسافر وقوت الحاضر، وقد عرف في ترجمته اللاتينية باسم فاتيكوم Vaticum؛ وقد ترجم هذا الكتاب الى اليونانية واللاتينية والعبرية. أما الموضوعات التي شملها زاد المسافر فيمكن اجمالها بالأمور التالية: (١) تحديد الأمراض مع ذكر اسمائها بالفارسية واليونانية والسريانية، ومع وضع الاسم المألوف بين الناس إذا كان يختلف عن الاسم الطبي الفني. (٢) وصف الاخلاط واختلاطها وصفاً كلاسيكياً. (٣) ادوار المعالجة لكل من الأمراض.

والكتاب منظم تنظيماً يدعو الى الاعجاب، فهو يشبه كتاب الحاوي للرازي. ويستشهد فيه بأقوال القدماء استشهاداً يدل على سعة اطلاعه ومعرفته الدقيقة. ويعزو كل اصل في القول أو العلاج لصاحبه، مما يدل على سمو اخلاقه وأمانته. ويقول فيه ان العلم الطبي بلغ غايته عند القدامى في مؤلفات ديوسقوريدس وجالينوس.

يقع الكتاب في سبعة أجزاء فيها ١٥٦ فصلاً. ويوجد من الكتاب الآن ٢٤ نسخة من الاصل العربي مما يدل على مدى انتشاره الواسع. وبسبب ترجمته الى اللاتينية انتشر الكتاب في أوروبة وكان سبيلاً لنشر المعرفة الطبية فيها من تونس حتى الى باريس. والنسخ اللاتينية، وهي اصلاً ترجمة قسطنطين الافريقي ـ لا يرد فيها اسم المؤلف، وإنما يعزوه المترجم الى نفسه. (ص ٦٤ ـ ٧٢).

ثمة نسخ كثيرة من الترجمة اللاتينية لزاد المسافر. وهناك نسخة تعود الى القرن السادس عشر كانت في حيازة كولبير، وزير المال في أيام لويس الرابع عشر، ثم ملكها نابليون بونابرت. وهي الآن موجودة في المكتبة الوطنية في باريس (ص ٦٩).

وقد نشر زاد المسافر مؤخراً في طبعة علمية مدروسة دراسة دقيقة في تونس: فالأجزاء الثلاثة الأولى وقف على درسها وإعدادها للنشر الدكتوران ر. جازي وم. السوسي، وقد تم اظهارها مطبوعة في بيت الحكمة (في تونس)، أما الرابع فهو قيد الطبع.

ثانياً ـ الاعتماد في الأدوية المفردة (وقد اهداه الى القائم بأمر الله (٩٣٣/ ٩٥٥). ويعتبر هذا الكتاب اهم ما وضع في هذه الناحية من العلوم الطبية من ايام ديوسفيريدس.

وصف فيه مؤلفه ٢٨٠ عقاراً مفرداً واصفاً فاعلية كل منها. وقد عرفت وصفات كثيرة، تزيد على الثلاثين، لا تزال تستعمل حتى يوم الناس هذا من ايام احمد بن الجزار. ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً.

نقل الكتاب الى اللاتينية قسطنطين الافريقي وعزاه لنفسه، على طريقته. وقد ترجم ترجمة لاتينية ثانية على يد اسطفان السرقوسي. وله ترجمة عبرية قام بها موسى بن طيون، وهو مترجم زاد المسافر الى تلك اللغة. (ص ٧٤ ـ ٨٤. هناك نماذج من الوصفات).

ثالثاً ـ سياسة الصبيان وتدريبهم، وهو في ثلاثة اقسام (٢٢ فصلاً). يعنى القسم الأول بالمرأة اثناء الحمل (حفاظاً على الجنين) من حيث طعامها ونومها واغتسالها وعملها. ويتناول الثاني امراض الأطفال وطرق علاجها. أما القسم الثالث فيعنى بتعليم الأطفال. (ص ٨٥ ـ ٨٨).

وقد عرفت كتب أخرى تتعلق بالصبيان من عمل سعيد بن عريب القرطبي والرازي (رسالة في امراض الأطفال) وابن البلدي (في مصر) وهذه الكتب جميعها من نتاج القرن الرابع/ العاشر. وقد توصل الدكتور كامل شحاده، بعد مقابلة دقيقة لهذه الكتب الى ان كتاب احمد بن الجزار هو اسبقها. (ص ٨٧ والهامش .....).

ويورد سليم عمار مؤلف الكتاب الذي نعرضه اليوم على القراء اسماء الكتب التالية الطبية على انها اهم ما وضعه احمد بن الجزار هي كتاب المشايخ؛ وابدال الأدوية؛ ومقال في البول؛ وكتاب المعدة وامراضها ومداواتها؛ وكتاب طب الفقراء والمساكين؛ وكتاب العطورات وآثارها في النفس والجسم. (ص ٨٨ ـ ٩٦). وطب الفقراء والمساكين هو مختصر من زاد المسافر، والعقارات الواردة فيه، الحصول عليها ايسر لانها اقل ثمناً من عقارات الكتاب الآخر.

على ان مؤلفات احمد بن الجزار لم تقتصر على الطب بل تعدتها الى الفلسفة (في النفس وفي ذكر اختلاف الأوائل فيها)، والتاريخ (كتاب اخبار الدولة (أي الفاطمية) و(التعريف بصحيح التاريخ) وكتاب طبقات القضاة)، والجغرافية (كتاب عجائب البلدان).

وقد خلف ابن الجزار، فيما روي عنه، ٢٤,٠٠٠ دينار. وكانت مؤلفات احمد بن الجزار تزن ٢٥ قنطاراً (= ٥٢٥ كيلوغراماً) وقد كتبها جميعها بخط يده.

- ٣ -

عرفت مدرسة القيروان الطبية عدداً من المشتغلين بالطب كانوا حفظة لما قام به اسلافهم وخاصة احمد بن الجزار؛ وبعض هؤلاء كانوا خارج تونس ولكنهم كانوا نتيجة هذا العمل القيم التونسي. فمن هؤلاء ابو جعفر المهدي الذي عمل في المهدية عاصمة الفاطميين بعد رقادة (القيروان). ومنهم عيون بن عيون الذي انتقل مع المعز لدين الله الى مصر. وعمل هناك مع الحسن بن الهيثم (٩٦٥ ـ ١٠٣٥) وعمار الموصلي الذي عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس (العاشر ـ الحادي عشر). ومنهم علي بن محمد في الجزائر والذي عرف باسم فقيه البدن (تو ٩٥٧). وهناك أيضاً عبد الله الوهراني ومعاصره عاصم الصدراتي وابن عمران العجموني (وهو فاسي الأصل لكنه استقر بقرطبة). وهؤلاء جميعهم من أهل القرنين الرابع والخامس/ العاشر والحادي عشر.

ويمكن القول اجمالاً ان مدرسة القيروان هي التي انارت سبل المشتغلين بالطب في المغرب جملة وصولاً الى اسبانية. وأثرها انتشر في أوروبة وكان لها اثر في انشاء مؤسسات طبية هناك.

والأثر المباشر المبكر لمدرسة القيروان في قيام مؤسسات الدراسات الطبية في أوروبة، لا يزال يحيط به الكثير من القصص التي يرويها البعض دون ان يؤكد ارتباطها بقيام مثل تلك المؤسسات. فمنها ان بقية من الطب اليوناني كانت لا تزال معروفة في صقلية، وكانت هي الاساس لما تم في سلرنو، وهي اقدم مدرسة طبية في أوروبة. ومنها ان مدرسة

سلرنو كان فيها أربعة مدرّسين: هبلينوس اليهودي وكان يقرىء العبرية، وبونتس اليوناني وكان يقرىء اليونانية، وسالينوس الذي كان يقرىء اللاتينية، وعبد الله وكان يقرىء العربية. فهل اذا صحت هذه الرواية، كان بين ما علّمه عبد الله بعض النصوص الطبية؟

ومن الروايات ان جبل كاسينو بُدِّلَ معبده الوثني ليصبح كنيسة على يد القديس بنوا، الذي كان طبيباً، لذلك اهتمّ بالعناية بالمرضى. ومنها ان يهودياً اسمه ستبتاي بن يوئيل أسره العرب (٩١٣) فتعلم منهم اللغة العربية والطب، ولما فك أسره وضع رسالة بالعبرية في بسائط علم الطب. ومنها ان رئيس دير مونت كاسينو ذهب الى سلرنو للعلاج وحمل معه مبادىء العلوم الطبية أو على الأقل فكرة عنها (هذا الرئيس هو الذي اصبح فيما بعد البابا فكتور الثالث). ومنها ان جان ميلان الشاعر عولج في سلرنو ففنى فضائلها ونشر خبرها في المنطقة.

هذه كلها روايات.

أما الواقع فهو ان الاغالبة احتلوا صقلية (خلال مدة طويلة من الحروب (٨٣١ ـ ٨٧٨) وظلوا فيها حتى سنة ١٠٩٢، وان الاختلاط والاحتكاك والتبادل الثقافي وجد ضالته هناك، وأن الأمر أصبحت له معالمه شبه الواضحة لما نقلت كتب الطب القيروانية الى اللغة اللاتينية وانتشرت هناك ـ في سلرنو وفي نابلي وفي مونبلييه وفي باريس. وهذا يعود بشكل عام الى القرنين العاشر والحادي عشر.

وهنا نقف عند اسم قسطنطين الافريقي (١٠٢٠ ـ ١٠٨٧). هو تونسي الأصل، تعلم في مدارسها، ثم هاجر بلاده سعياً وراء الحكمة والعلم، فتنقل في طلبها في اقطار الشرق، وفي المناطق الأوروبية. ويبدو انه تعلم النحو والمنطق والهندسة والفلك والموسيقى والطب، وعرف على درجات متفاوتة، العبرية والسريانية واللاتينية واليونانية والفارسية والاثيوبية. وبعد عودته الى تونس انتقل الى ايطالية. وأخيراً، بعد ان عمل أميناً عاماً لأحد امراء صقلية النورمانيين، انسحب الى دير مونت كاسينو، وانصرف الى ترجمة الكتب الطبية العربية الى اللاتينية لكنه عزاها لنفسه.

وقد استعملت هذه الترجمات في مدارس الطب التي كانت تقوم في صقلية وجنوب أوروبة يومها: في سلرنو ونابولي ومونبلييه، ثم في باريس.

وكانت صقلية، ايام الامبرطور فردريك الثاني (١١٩٤ ـ ١٢٥٠) تنعم بجو يمكن لأهل العلم الالتقاء وتبادل المعرفة بين العرب واليونان وأهل البلاد. فقويت مدرسة سلرنو وغيرها. وظلت كتب الطب العربية الأصل، مثل الحاوي والقانون وسواهما، كتب التدريس قروناً طويلة.

وساعد على انتقال العلوم إلى أوروبة ما تم من ترجمات للكتب العربية العلمية في اسبانية، بدءاً من طليطلة في القرن الحادي عشر. ثم ترجم اسطفان (من بيزا) الكتاب الملكي لعالي عباس (عباس علي) الذي كان يدرس في سلرنو في ترجمة لقسطنطين الافريقي معزوة اليه.

وهكذا تجمعت سبل انتقال المعرفة الى أوروبة من العالم العربي انتقالاً قوياً، كان له اثر في تحريك أوروبة وإخراجها من جمودها: الأمر الذي قادها نحو النهضة، فضلاً عن عوامل اخرى جاءت من مناطق أخرى.

الكتاب هو: Ibn Al Jazzar & L'école médicinal de Kairouan, Selim Ammar, Tunis.

الأدب الجغرافي كمصدر لتاريخ الأندلس

المدرسة الجغرافية الأندلسية

قد يبدو غريباً أن يعمد باحث الى كتب الجغرافية يستبطنها ليخرج منها جزءاً من تاريخ بلد ما. فقد كان المألوف ان يعتمد المؤرخ على كتب الأخبار والمعارك والتراجم والأنساب ليكتب التاريخ. لكن الأمر تبدل في العقود الأخيرة؛ فقد اخذ المؤرخون انفسهم باستقراء الأسطورة والقصة، وتقليب الصفحات في كتب الأدب على اختلاف أنواعها، والتعرف جدياً الى طوبوغرافية البلد وإقليمه ومناخه، والاطلاع على العوامل الاقتصادية التي تعيّن مساره ضرعاً وزرعاً وصناعة وتجارة، واستخلاص النتائج التي يتوصل اليها رجال الآثار إذ يبحثون عن الأصول والجذور النامية في ذلك البلد. بل إن بعض المؤرخين، إذ أدركوا قيمة مثل هذه الأمور وارتباطها بالناس الذين يصنعون التاريخ، أصبحوا شديدي العناية بعلم الاجتماع والاثنولوجيا (دراسة المجتمعات البشرية تاريخياً) والألسنية. وبذلك صار عمل المؤرخ استنباطياً في العمق لا استلحاقياً على السطح.

إلا ان مما يؤسف له ان فئة كبيرة من مؤرخينا، وأخشى أن تكون هي الفئة الكبيرة، لا تزال تحصر نفسها في ما يسمى المصدر التاريخي للبحث، ومن ثم فإنها تحشر قراءها معها في بقع ضيقة وبين جدر ثخينة، فتأتي النظرة قصيرة المسافة ضيقة المدى ضبابية الرؤية.

وكتب الجغرافية العربية شملت، وحتى على نحو من التطور التاريخي، الجغرافية الرياضية الفلكية وهي من نوع الازياج غالباً. وتعتبر كتب المسالك والممالك المرحلة الثانية في الكتابة الجغرافية؛ وأخيراً جاء دور الجغرافية البلدانية/ الإقليمية. ولسنا نريد الحديث عن هذا الموضوع فقد وفيناه حقه في غير مكان[1].

وقد نقل المتأخرون عن المتقدمين، على نحو ما تم في غير موضوع الجغرافية، وعلى نحو ما حدث عند شعوب أخرى. ومن هنا، فكثيراً ما نقع على معلومات تراكمية في الكتب الجغرافية. ولذلك فإننا سنحاول، في هذه الدراسة، ان نتفحص النصوص الجغرافية المتعلقة بالأندلس لنخلص الاضافة الجزئية عند كل من هؤلاء الكتاب من هذا الكم التراكمي. ذلك لأن هذه المعلومات الجزئية التي يضيفها المؤلفون المرة بعد المرة، هي التي تصبح واحداً من المصادر المفيدة لدراسة تاريخ الأندلس.

وقد تناول جغرافية الأندلس من الجغرافيين المشارقة ثلاثة من كبارهم: وهم الأصطخري (من أهل النصف الأول من القرن الرابع/ العاشر) وابن حوقل معاصره، والمقدسي المتأخر عنهما قليلاً. والأصطخري والمقدسي دوّنا ما وصل اليهما من معلومات، أما ابن حوقل فقد زار البلاد. وسنتحدث عن روايات هؤلاء الكتاب الثلاثة عندما يحين الوقت للحديث عن القرن الرابع/ العاشر.

المهم هو ان المدرسة الجغرافية الأندلسية، كما يجب ان تسمى، كان لأصحابها موقف خاص. فعدد كبير منهم كان إما مؤرخاً أصلاً أو معنياً بالتاريخ جزئياً. فالفريق الأول عني بوضع مقدمة جغرافية لمؤلفه التاريخي؛ أما الفريق الثاني فكان في ذهنه التحام طبيعي بين الموضوعين. وفي هذا يختلف جغرافيو المدرسة الأندلسية عن المؤلفين المشارقة الذين لم يلتحم الموضوعان أو السبيلان في نفوسهم، لذلك ظل التعبير عن الأمرين مستقلاً في الحالة الواحدة عن الأخرى.

ويرى حسين مؤنس[٢] أن الأساس في هذا الاتجاه وضع في الأندلس لما نقل قاسم بن أصبغ البياني كتب هُروشيش الى العربية ووضعها بين أيدي الكتاب وأهل العلم وطلاب المعرفة. وهُروشيش هو أوروسيوس orosius الذي كان راهباً اسبانياً من رجال اللاهوت المسيحي برز في أوائل القرن الخامس، وكان تلميذاً للقديس أوغسطين (القرن الرابع ـ الخامس). وقد وضع هذا الرجل كتاباً في تاريخ العالم كان القصد منه الرد على الوثنيين والتدليل على ان المحرك الدائم لأحداث العالم في التاريخ هو الله. ووضع هُروشيش مقدمة وافية لتاريخه.

وقاسم بن اصبغ الذي نقل هذا الكتاب الى العربية ولد سنة ٢٤٤/ ٨٥٩ على مقربة من قرطبة، وتوفي سنة ٣٤٠/ ٩٥١، فكان معاصراً لعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، خليفتي الأندلس (٣٠٠ ـ ٣٦٦/ ٩١٢ ـ ٩٧٦) وصاحبي الفضل الكبير على التقدم الفكري الذي عرفته الديار الأندلسية[٣]. وكتاب هُروشيش فيه مقدمة جغرافية مفيدة جداً. ولما نقل الى العربية «أصبح وصفه أساساً من أسس الوصف الجغرافي لشبه الجزيرة وهيئتها عند مسلمي الأندلس وسيرددونه جميعاً من أحمد بن محمد الرازي الى أحمد بن محمد المقري». هذا مع العلم بأن «المعلومات القليلة الجافة التي لا تزيد على ذكر أسماء البلاد وحدودها» طورها «الجغرافيون الأندلسيون الى جغرافية بشرية حقيقية»[٤].

بذل قاسم بن أصبغ جهداً عظيماً في صياغة ترجمة هُروشيش صياغة دقيقة بليغة محببة الى القراء، الأمر الذي حببه إليهم[٥]، فكان أن أقبل الكتاب على هذا المؤلف، وأصبح قدوة الجغرافيين والمؤرخين على السواء[٦].

وإذا كانت ترجمة هذا الكتاب الى العربية قد لفتت الأنظار في الأندلس الى نهج جديد في البحث الجغرافي التاريخي، فإن الذي وضع مثل هذا النهج موضع التطبيق الفعلي هو أحمد بن محمد الرازي، الذي يعتبره حسين مؤنس أباً للجغرافية والتاريخ في الأندلس في آن واحد. فقد أخذ الميل الى التاريخ عن أبيه ثم عن شيخه قاسم بن أصبغ، وتأثر بترجمة هذا الكتاب هُروشيش فانطبع في ذهنه الاهتمام بالجغرافية. وكان أن انصرف الى هذين العلمين «انصرافاً تاماً، أرسى به هذين في بلاده.. (وكانت له حركة) قادها (وأسس) وضعها وسار عليها من أتى بعده»[٧]. وقد عاش أحمد الرازي في قرطبة بين سنة مولده ٢٧٤/ ٨٨٦ وعام وفاته ٣٤٤/ ٩٥٥، وهي فترة من فترات النشاط العلمي في الأندلس.

أدرك الرازي بحسه العلمي الصحيح الوضع الطبيعي للأندلس، لا من حيث أنها تقع في الاقليم الرابع، وهو التقسيم القديم، ولكن من حيث طبيعة سطحها ورياحها وأمطارها واتجاه انهارها. فهو صاحب القول بأن الأندلس أندلسان: غربية وشرقية، فالغربية هي التي تنحدر أنهارها غرباً نحو البحر المحيط وتتحكم الرياح الهابة من الغرب في أمطارها، أما الأندلس الشرقية فتتجه انهارها نحو البحيرات في (المتوسط) وتتحكم الرياح الشرقية بأمطارها[٨]. ويوضح اتجاه سلاسل الجبال[٩].

وفي هذا الذي ذكرنا نجد الرازي الجغرافي العالم، لكننا نريد ان نبحث عن الرازي الجغرافي الذي يمكن ان نفيد منه في تعرفنا الى تاريخ الأندلس. ومثل هذه الأمور نجدها عنده في النماذج التالية:

أولاً: يشير، عند حديثه عن الجبال، الى ان هذه فيها «حصون منيعة لكل حصن منها الأراضي الواسعة الكثيرة الخيرات[١٠]». صحيح أنه لا يرشدنا الى زمن بناء هذه الحصون لكنه يدلنا الى وجودها. والتحصينات هي دوماً أمر مهم في التواريخ العسكرية لبلاد ما، وتاريخ الأندلس كانت فيه عسكرية كثيرة ايام أحمد الرازي وقبله (وبعده ولا شك). إلا أن الرازي يعطينا نماذج معينة للحصون أو المدن المحصنة كلما ذكر واحدة منها. فاقليم تطيلة فيه مدن وحصون كثيرة أخصها ارنيط Arnedo وبقيره Vigueta وعلى ما يرى حسين مؤنس. يبدو ان الرازي في وصفه لمدينة تطيلة يتحدث عن منطقة عسكرية ثغرية بحصونها وقلاعها، وعن ميزات المنطقة الحربية[١١]. ومثل هذه الملاحظات الجدية والمتكررة تدل على إدراك عميق للدور الذي قامت به مدينة معينة أو منطقة معينة في فترة خاصة[١٢].

وهناك المدن أو الكور التي لا تحتاج الى حصون بشكل خاص، لأنها كانت في أيام الرازي بعيدة عن الخطر. ومثلنا على ذلك قوله ان حُوز كورة بلنسية يتصل بحُوز كورة تُدمير، وتلك تقع شرقي هذه وشرقي قرطبة، ولخطة بلدها مسافة بعيدة؛ ويضيف ان منافعها لأهلها عظيمة فقد جمعت البر والبحر والزرع والضرع ولها السهل والجبل. وبها مدن عظيمة منها بلنسية ودانية وهذه على ضفة البحر، ومرساها من أعجب المراسي وجميع أقاليمها مغروسة بالكروم وأشجار التين والزيتون. ثم يذكرنا بأقليم بريانة الذي يتصل بها. وفي هذا الاقليم يوجد معدن الحديد (أندة) ويجود القمح والكتان (شبرب)[١٣].

هذا بعض مما نحصل عليه من جغرافية الرازي تاريخياً[١٤].

الجغرافيون المشارقة

عني جغرافيو البلدان من المشارقة من أهل القرن الرابع/ العاشر بالأندلس. وسنكتفي هنا بثلاثة منهم، هم: الأصطخري وابن حوقل (النصف الأول من القرن الرابع/ العاشر) والمقدسي (من النصف الثاني من القرن نفسه). والأول والثالث نقلا سماعاً ورواية، أما الثاني فقد زار جزءاً من البلاد.

والذي جاء عند الأصطخري قوله: «والأندلس بلدان عريضة كثيرة المدن خصبة واسعة،

ومدينتها العظمى قرطبة، وهي من الأندلس في وسطها، والذي يحيط بالأندلس البحر المحيط ثم يطوف بحر الروم بها الى أرض إفرنجة... والمدن التي على الشط كلها مدن كبار عامرة. والأندلس في أيدي بني أمية ما افتتحت لبني العباس ولا قدر عليها عبيد الله الفاطمي (٢٩٧ ـ ٣٢٢/ ٩٠٩ ـ ٩٣٤)... ومن مشاهير مدن الأندلس جيان وطليطلة ونفزة وسرقصطة ولاردة ووادي الحجارة وترجالة وقورية وماردة وباجه وغافق ولبلة وقرمونة وموروز واشجة ورية، وهي كلها مدن عظام، وليس فيها ما يقارب قرطبة في العظم». ويستمر في ذكر المدن وما تنتج أو تعرف به؛ فهناك العنبر (شنترين) وفيها دابة بحرية تخرج سنوياً فتحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبر في لين الخز، لونه لون الذهب، وهو عزيز قليل فيجمع وتصنع منه ثياب يحجر عليها ملوك الأندلس، وتزيد قيمة الثوب عن الف دينار. وثمة السّنفن الذي يصاد في مالقة، وهو جلد السمك (وللتماسيح أيضاً) خشن قوي تسوى منه مقابض السيوف.

ويذكرنا الأصطخري بان قورية كانت مدينة كبيرة إلا أنها خربت بعصبية وقعت بينهم(١٥).

يخبرنا ابن حوقل أنه دخل الأندلس سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة أيام الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠/ ٩١٢ ـ ٩٦١)، ويتحدث عن الأموال الوافرة من جبايات البلد وخراجاته وأعشاره، وما يقبض من الأموال على المراكب الواردة الى البلد والصادرة عنه. وينتقل الى ذكر أمور معينة من حيث النتاج والثروة يقول: «وبالأندلس غير طراز يرد الى مصر متاعه وربما حمل منه شيء الى أقاصي خراسان وغيرها. ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان الروقة من سبي إفرنجة وجليقية (شمال غرب شبه الجزيرة) والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الأندلس؛ لأنهم عند قربهم منها يخصون، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود».

وبالأندلس الزئبق والحديد والرصاص، ومن الصوف قطع كأحسن مما يكون من الأرمني المحفور الرفيع الثمين الى حسن ما يعمل بها من الأنماط ولهم من الصوف والأصباغ فيه وفيما يعانون صبغه بدائع بحشائش تختص بالأندلس، تصبغ بها اللبود المغربية المرتفعة الثمينة، والحرير وما يؤثرونه من ألوان الخز والقز. ويجلب منها الديباج. ولم يساوهم في أعمال لبودهم أهل بلد على وجه الأرض. وربما عمل لسلطانهم ثلاثينية يقوّم اللبد منها بالخمسين والستين ديناراً، غير انه قد جعل عروضها خمسة وستة أشبار، فهي من محاسن الفرش. ولعمل عندهم من الخز السكب والسفيق، ما يزيد عما استعمل منه للسلطان على ما بالعراق، ويكون منه المشمع فيمنع المطر أن يصل الى لابسه. وأما أسعارهم فتضاهي النواحي الموصوفة بالرخص وكثرة الخير والسعة. وفواكههم مع طيبة فيها، وسطه...

ويعمل في أقطار بلدهم من الكتان الدني للكسوة ويجلب الى غير مكان، حتى ربما وصل الى مصر منها الكثير وأما أرديتهم المعمولة في بجانة فتحمل الى مصر ومكة واليمن وغيرها.

ويستعمل عندهم للعامة وللسلطان من الثياب لا يقصر عن الديبقي ما كان منها صفيقاً، ومن السلس الدقيق ما يستحسنه من لبس للشرب... وتختص بلادهم بالبغال الغره وبها يتفاخرون ويتكاثرون... ويجلب اليهم منها شيء حسن... من جزيرة ميرقة... ورأيت منها غير بغل بيع بخمسمائة دينار... فاما ما يبلغ منها المائة والمائتي دينار فأكثر من أن يحصى[١٦].

والمقدسي لم يزر الأندلس لكنه، حسب عادته، تحقق من الروايات التي بلغته. والذي رأينا نقله عنه توثيقاً لغايتنا قوله: «قرطبة هي مصر الأندلس. سمعت بعض العثمانية يقول هي أجل من بغداد، في صحراء (أرض) يطل عليها جبل ولها مدينة جوانية، وربض الجامع في المدينة، وأغلب الأسواق ودار السلطان في الربض؛ قدامها واد عظيم، سطوحهم من قراميد... وحدثني بعض الأندلسيين أنها ثلاثة عشر رستاقاً». ويعدد المقدسي بعض ما ينتج في مدنها أو رساتيقها: فمن ذلك الحبوب في أرجونة، والأشجار والزيتون والكرمات في قسطلة، والزيتون الكثير في شوذر، والزيتون والأشجار في حصن بلكونة، والكروم والمزارع والتين والعنب في الشنيدة[١٧].

الادريسي والأندلس

يعتبر الشريف الأدريسي أشهر الجغرافيين العرب، المشارقة منهم والمغاربة. ولذلك أسباب. فالرجل أفاد من كل من سبقه من جغرافيي العالم القديم والذين سبقوه من العرب، واستطاع ان يتمثل هذا كله بشكل غريب. وكان الرجل يعيش في فترة من فترات النضج العلمي في المغرب (من منتصف القرن الخامس الى منتصف القرن السادس/ الحادي عشر الى الثاني عشر).

ولا شك في ان الحركة العلمية النشطة التي سارت يومها قدماً أثرت على الرجل الذكي الطلعة، المنظم. وفي رأينا ان عناية الأدريسي بعلم الفلك لا مقلداً فحسب، بل منظراً كان له أثر في عمله الجغرافي. فضلاً عن ذلك، فقد عمل بعد ان اعد نفسه للعمل العلمي، في بلاط كان يشجعه ويضع تحت تصرفه كل ما يحتاجه، ويزوده بالمخبرين ورواة الأسفار والتجار الذين كانوا يضعون امامه الاجابة عن أسئلته.

أما فيما يتعلق بالأندلس بشكل خاص، فان الادريسي كان يعرف البلاد إذ أقام فيها ردحاً من الزمن. صحيح ان زياراته اقتصرت على الجزء الاسلامي من البلاد، لكن الحصول على ما يحتاج لم يكن صعباً أثناء زياراته أو خلال اقامته في بلرمو بصقيلية في بلاط ملكها روجر الثاني (١١٣٠ ـ ١١٥٤) حيث انجز كتابه ورسم خارطته.

وصاحبنا هو ابو عبد الله محمد الشريف الادريسي.

يرتفع نسبه الى ادريس بن عبد الله مؤسس دولة الادارسة في المغرب في عهد هارون الرشيد. ولد في سبتة بالمغرب سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م، حيث نشأ نشأة علم وتربية عالية. وتنقل الأدريسي في حوض البحر المتوسط وهو بعد في شرخ الشباب، كما قضى بعض الوقت في قرطبة. ثم دعي الى بلاط روجر حيث وضع كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ورسم

الخارطة المشهورة. ويرجح ان الادريسي تاقت نفسه الى وطنه، فغادر صقيلية الى سبتة حيث توفي ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م[١٨].

يهمنا من الادريسي ما كتبه عن الأندلس كي نفيد مما دونه في اضاءة جانب أو أكثر من تاريخ تلك البلاد. صحيح ان المؤلف نقل عن سابقيه، ولكنه كان يهتم بذكر الأمور المعاصرة له اهتماماً خاصاً.

كانت الحدود التقريبية بين الأندلس الاسلامي والأندلس المسيحي في ايام الادريسي عرضة للتنقل بسبب دخول المرابطين الى الأندلس، أولاً لنصرة ملوك دول الطوائف، ثم هجوم الموحدين على البلاد ونجاحهم جزئياً في استعادة رقعة هنا وبقعة هناك، ثم عجزهم عن القيام بأي عمل نافع. وبذلك كانت الحروب التي تقوم بين العرب والاسبان تبدل الحدود. وعلى كل، فقد ارتأى سيزار دو بلر ان الحدود هذه كانت على العموم تتبع خطّاً يبدأ شمالي سنترين (وهي تقع الى الشمال من لشبونة الحالية) ويمتد شرقاً شمال بطليوس حتى يصل الى البحر المتوسط شمالي مربيطر (سجونتو الحالية). والادريسي عرف الجزء الواقع جنوبي هذا الخط[١٩].

يتحدث الادريسي عن الأندلس على أنها جزيرة شأنه في ذلك شأن سابقيه، ويذكرنا انها محاطة بالبحر من جهات ثلاث. والأندلس مقسوم من الوسط في الطول (أي من الشرق الى الغرب) بجبل يسمى الشارات. ويقول: «وفي جنوب هذا الجبل تأتي طليطلة، ومدينة طليطلة مركز لجميع بلاد الأندلس». ورغبة منه في توضيح ذلك يذكر المسافات بينها وبين المدن الأندلسية الكبيرة، ويشير الى ان طليطلة في ايامه يسكنها سلطان الروم القشتاليين[٢٠].

وبعد ان يعدد الأقاليم والكور (فهو يستعمل الاصطلاحين) للمناطق، يأخذ نفسه بالتحدث عن المدن والمسافات بينها وغلاتها وصناعاتها وتجاراتها. وهذا هو الذي يهمنا بشكل خاص، لأن الادريسي يعطينا معلومات دقيقة وجيدة عن هذه الناحية الاقتصادية التي لم يعن بها الجغرافيون الآخرون مثل عنايته. ونرى ان الرجل اهتم بهذه الأمور لأنه كان يتزود بمعلوماته من التجار، والتجار كانوا يضعون بين يديه الأمور التي تهمهم. وكان هذا من حسن حظنا.

ولعله من المناسب أن نبدأ بما ذكره الادريسي عن طليطلة. قال: «ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها، وأنهار جارية مخترقة، ودواليب دائرة، وجنات يانعة، وفواكه عديمة المثال، لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل. ولها من جميع جهاتها اقاليم رفيعة وقلاع منيعة تكنفها. وعلى بعد منها في جهة الشمال الجبل العظيم المعروف بالشارات. وهو يأخط من ظهر مدينة سالم الى ان يأتي قرب مدينة قلمرية. وفي هذا الجبل من الغنم والبقر الشيء الكثير الذي يتجهز به الجلابون الى سائر البلاد، ولا يوجد شيء من اغنامه وأبقاره مهزولاً، بل هي في غاية السمن، ويضرب بها المثل في جميع أقطار الأندلس. وعلى مقربة من طليطلة قرية تسمى بمغام، وجبالها وترابها الطين المأكول، الذي ليس على قرارة الأرض مثله، يتجهز به

منها الى أرض مصر وجميع بلاد الشام والعراقات وبلاد الترك. وهو غاية في لذاذة الأكل وفي تنظيف الشعر.

ولطليطلة في جبالها معادن الحديد والنحاس. ولها من المنابر في سفح هذا الجبل مجريط، وهي مدينة صغيرة، وقلعة منيعة معمورة. وكان لها في زمن الاسلام مسجد جامع وخطبة قائمة. ولها أيضاً مدينة الفهمين، وكانت مدينة متحضرة، حسنة الأسواق والمباني، وبها مسجد جامع ومنبر وخطبة. وهي كلها اليوم في أيدي الروم وملكها من القشتاليين[٢١].

ولننتقل الآن الى الموانىء الكبرى التي يتحدث عنها صاحب نزهة المشتاق. فشنت ماريا الغرب تقع «على معظم البحر الأعظم وسورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان المد. وهي مدينة متوسطة القدر حسنة الترتيب لها مسجد جامع ومنبر وجماعة، وبها المراكب واردة وصادرة، وهي كثيرة الأعناب والتين»[٢٢]. «ومدينة طرطوشة مدينة على سفح جبل ولها سور حصين وبها أسواق وعمارات وصناع وفعلة، وانشاء المراكب الكبار من خشب جبالها. وبجبالها يكون خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ، ومنه تتخذ الصواري والقرى (الأحواض).. وهذا الخشب الصنوبر الذي بجبال هذه المدينة أحمر صافي البشرة دسم لا يتغير سريعاً، ولا يفعل فيه السوس ما يفعله في غيره»[٢٣].

«ومدينة بلنسية قاعدة من قواعد الأندلس، وهي في مستوى من الأرض، عامرة القطر، كثيرة البحار والعمار، وبها أسواق وتجارات وحط واقلاع، وبينها وبين البحر ثلاثة اميال مع النهر، وهي على نهر جار ينتفع به ويسقي المزارع ولها عليه بساتين وجنات وعمارات متصلة»[٢٤].

«ومدينة دانية على البحر عامرة حسنة، لها ربض عامر وعليها سور حصين، وسورها من ناحية المشرق في داخل البحر قد بني بهندسة وحكمة. ولها قصبة منيعة جداً. وهي على عمارة متصلة، وشجرات تين وكروم. وهي مدينة تسافر اليها السفن، وبها ينشأ اكثرها لأنها دار انشاء السفن. ومنها تخرج السفن الى أقصى المشرق؛ ومنها يخرج الأسطول للغزو»[٢٥].

ومن المدن الساحلية الصغيرة لقنت، وفيها يقول الأدريسي: «ولقنت مدينة صغيرة عامرة، وبها سوق ومسجد جامع ومنبر، ويتجهز منها بالحلفاء الى جميع بلاد البحر. وبها فواكه وبقل كثير وتين واعناب... وهي أيضاً، مع صغرها، تنشأ بها المراكب السفرية والحراريق»[٢٦]. «ومدينة قرطاجنة فرضة مدينة مرسية، وهي مدينة قديمة أزلية لها مرسى ترسى بها المراكب الكبار والصغار، وهي كثيرة الخصب والرخاء المتتابع. ولها اقليم يسمى الفندون، وقليل ما يوجد مثاله في الخصب»[٢٧].

«ومدينة مالقة مدينة حسنة عامرة آهلة، كثيرة الديار متسعة الأقطار، بهية كاملة سنية؛ أسواقها عامرة ومتاجرها دائرة نعمها كثيرة. ولها فيما استدار بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب الى رية. وتينها يحمل الى بلاد مصر والشام والعراق، وربما وصل الى الهند؛ وهو من أحسن التين طيباً وعذوبة»[٢٨].

أما المرية فيقول الادريسي عنها: «ومدينة المرية كانت في أيام الملثم مدينة الاسلام[٢٩]، وكان بها من كل الصناعات كل غريبة. وذلك انه كان بها من طراز الحرير ٨٠٠ طراز، يعمل بها الحلل والدبياج والسقلاطون والأصبهاني والجرجاني، والستور المكللة والثياب المعينة، والخمر والعتابي، والمعاجر وصنوف أنواع الحرير. وكانت المرية قبل الآن يصنع بها من صنوف الآلات النحاس والحديد الى سائر الصناعات، ما لا يحد ولا يكيف. وكان بها من فواكه وأدْيها الشيء الكثير الرخيص. وهذا الوادي منسوب الى بجانة، بينه وبين المرية أربعة أميال، وحوله جنات وبساتين وأرحاء، وجميع نعمها وفواكهها تجلب الى المرية. وكانت المرية اليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية والشام كله. ولم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها مالاً، ولا أنجز منهم في الصناعات واصناف التجارات تصريفاً وادخاراً.

«والمرية في ذاتها جبلان وبينهما خندق «معمور». وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة، والجبل الثاني منها فيه ربضها ويسمى جبل لاهم، والسور يحيط بالمدينة وبالربض. ولها أبواب عدة ولها من الجانب الغربي ربض كبير عامر يسمى ربض الحوض، وهو ربض له سور عامر بالأسواق والديار والفنادق والحمامات. والمدينة في ذاتها مدينة كبيرة كثيرة التجارات، والمسافرون اليها كثيرون وكان أهلها مياسير. ولم يكن في بلاد أهل الأندلس أحضر من أهلها نقداً، ولا أوسع منهم أحوالاً. وعدد فنادقها التي أخذها عد الديوان في التعيين ألف فندق الا ثلاثين فندقاً. وكان بها من الطرز أعداد كثيرة قدمنا ذكرها... والمرية في هذا الوقت الذي الفنا كتابنا فيه صارت ملكاً بأيدي الروم، وقد غيروا محاسنها وسبوا أهلها، وخربوا ديارها وهدموا مشيد بنيانها، ولم يبقوا على شيء منها»[٣٠].

والقصر، في جنوب الأندلس الغربي، «مدينة حسنة متوسطة على ضفة النهر المسمى شطوبر، وهو نهر كبير تصعد فيه السفن والمراكب السفرية كثيراً. وفيما استدار بها من الأرض كلها أشجار الصنوبر، وبها الانشاء الكثير. وهي في ذاتها رطبة العيش خصيبة، كثيرة الألبان والسمن والعسل واللحوم»[٣١].

«ومدينة اشبيلية مدينة كبيرة عامرة ذات أسوار حصينة، وأسواق كثيرة وبيع وشراء، وأهلها مياسير وجل تجاراتهم بالزيت، يتجهز به الى أقصى المشارق والمغارب. وهذا الزيت عندهم يجتمع من الشرف؛ وهذا الشرف هو مسافة أربعين ميلاً، وهذه الأربعون ميلاً كلها تمشي في ظل شجر الزيتون والتين... وسعته اثنا عشر ميلاً واكثر. وفيه، فيما يذكر، ثمانية آلاف قرية عامرة، آهلة بالحمامات والديار الحسنة»[٣٢].

يعنى الادريسي بالثروة المعدنية والصناعة في كثير من مدن الاندلس، وقد مرت بنا اشارات الى صناعة السفن في المدن الساحلية. وهذه الناحية لها دلالتها الحضارية. وسنركز الآن على البعض الآخر من هذه الأمكنة.

منها شلطيش المدينة التي تقع في جنوب غرب الأندلس، «وهي مدينة ليس لها سور ولا حظيرة، وانما هي بنيان بعضه ببعض ولها سوق وبها صناعة الحديد الذي يعجز عن صنعه

أهل البلاد لجفائه. وهي صنعة المراسي التي ترسى بها السفن والمراكب الحمالة الجافية»[٣٣].

«وحصن قيشاطة، وهو حصن كالمدينة، له أسواق وربض عامر وحمام وفنادق وعليه جبل يقطع به من الخشب الذي تخرط منه القصاع والمخابي والأطباق وغير ذلك ما يعم بلاد الأندلس وأكثر بلاد المغرب أيضاً»[٣٤].

ويقع على مرحلة من قرطبة الى الشمال حصن أبال «وهو الحصن الذي به معدن الزيبق ومنه يتجهز بالزيبق والزنجفر الى جميع أقطار الأرض. وذلك ان هذا المعدن يخدمه أزيد من الف رجل: فقوم للنزول فيه وقطع الحجر، وقوم لنقل الحطب لحرق المعدن، وقوم لعمل أواني سبك الزيبق وتصعيده وقوم لشأن الأفران والحرق». ويضيف الادريسي: «قال المؤلف وقد رأيت هذا المعدن»[٣٥].

«ومدينة شاطبة مدينة حسنة ولها قصاب يضرب بها المثل في الحسن والمنعة. ويعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير في معمور الأرض ويعم المشارق والمغارب»[٣٦].

«وحصن بكيران حصن منيع عامر كالمدينة وله سوق مشهودة، وحوله عمارات متصلة. وتصنع به ثياب بيض تباع بالأثمان الغالية، ويعمر الثوب منها سنين كثيرة، وهي من أبدع الثياب عتاقة ورقة حتى لا يفرق بينها وبين الكاغد في الرقة والبياض»[٣٧].

ومدينة جنجالة متوسطة القدر حصينة القلعة منيعة الرقعة. ولها بساتين وأشجار وعليها حصن حسن، ويعمل بها من وطاء الصوف ما لا يمكن صنعه في غيرها، باتفاق الماء والهواء. ويضيف الادريسي «ولنسائها جمال فائق وحصافة»[٣٨].

ولورقة «مدينة غراء حصينة على ظهر جبل، ولها أسواق وربض في اسفل المدينة. وعلى الربض سور، وفي الربض السوق والزهادرة وسوق العطر. وبها معادن تربة صفراء ومعادن مغرة تحمل الى كثير من الأقطار»[٣٩].

«ومدينة بسطة متوسطة المقدار حسنة الموضع عامرة آهلة. لها أسوار حصينة وسوق نظيفة وديار حسنة البناء رائعة المعنى. وبها تجارات وفعلة لضروب من الصناعات»[٤٠].

وسننقل هنا نماذج من الأماكن التي عني بها الادريسي بسبب البساتين والجنات والخصب بشكل خاص. فمنها الجزيرة الخضراء، التي قال عنها: «وهي مدينة متحضرة لها سور حجارة مفرغ بالجيار. ولها ثلاثة أبواب ودار صناعة داخل المدينة، ولهم على هذا النهر (نهر العسل) بساتين وجنات بكلتي ضفتيه معاً. وبالجزيرة الخضراء انشاء وإقلاع وحط. وبينها وبين مدينة سبتة (بالمغرب) مجاز البحر وعرضه ثمانية عشر ميلاً»[٤١].

«ومدينة جيان حسنة كثيرة الخصب رخيصة الأسعار كثيرة اللحوم والعسل. ولها زائد على ثلاثة آلاف قرية كلها يربى فيها دود الحرير. وهي مدينة كثيرة العيون الجارية تحت سورها، ولها قصبة من أمنع القصاب واحصنها... وبمدينة جيان بساتين وجنات ومزارع وغلات القمح والشعير والباقلاء وسائر الحبوب. وعلى ميل منها نهر بلون وهو نهر كبير وعليه أرحاء كثيرة جداً»[٤٢].

ويشعر القارىء إذ يتلو ما خطه الادريسي عن قرطبة ان الرجل مرتبط بها عاطفياً. ففيها قضى سنوات من شبابه وفيها أتم تهذيبه. وهو يقول عنها: «ومدينة قرطبة قاعدة بلاد الأندلس وام مدنها ودار الخلافة الاسلامية. وفضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من ان تذكر، ومناقبهم اظهر من ان تستر، واليهم الانتهاء في السناء والبهاء بل هم أعلام البلاد وأعيان العباد، ذكروا بصحة المذهب وطيب المكسب، وحسن الزي في الملابس والمراكب، وعلو الهمة في المجالس والمراتب، وجميل التخصص في المطاعم والمشارب، مع جميل الخلائق وحميد الطرائق. ولم تخل قرطبة قط من أعلام العلماء وسادات الفضلاء. وتجارها مياسير لهم أموال كثيرة وأحوال واسعة، ولهم مراكب سنية وهمم علية. وهي في ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضاً، بين المدينة والمدينة سور حاجز وفي كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات. وفي طولها من غربيها الى شرقيها ثلاثة أميال، وكذلك عرضها من باب القنطرة الى باب اليهود، بشمالها ميل واحد. وهي في سفح جبل يطل عليها يسمى جبل العروس. ومدينتها الوسطى هي التي في باب القنطرة وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقاً وطولاً وعرضاً»[٤٣].

«ومدينة قرطبة في حين تأليفنا لهذا الكتاب طحنتها رحى الفتنة وغيّرها حلول المصايب والأحداث مع اتصال الشدائد على أهلها، فلم يبق بها منهم الآن الا الخلق اليسير»[٤٤].

وثمة وصف دقيق طويل لجامع قرطبة حري بالقراءة، ومع ان فيه فائدة تاريخية فنية، فقد آثرنا عدم ايراده لطوله[٤٥].

والادريسي يستعمل أربعة ألفاظ للدلالة على المناطق التي تتبع مدينة ما وهي: حوز وربض وفحص ومنبر، وبدا لي انه لم يستعمل هذه الكلمات جزافاً، بل ان كلاً منها كانت له دلالة، لكن لم يتسع وقتي لمتابعة هذه القضية، وآمل ان يتاح لي ذلك في وقت لاحق.

الجغرافيون المتأخرون

علي بن سعيد

وعندنا من جغرافيي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي علي بن سعيد الذي انتهى اليه أمر وضع كتاب المغرب في اخبار المغرب في صيغته النهائية[٤٦]. ولعل دوره في كتاب «المشرق في أخبار المشرق» كان أكبر. ثم هو عالم جغرافي ورحالة كبير[٤٧]. وقد ولد ابن سعيد سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٤م أما وفاته فمختلف في أمرها. ولعلها كانت سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٧٦م.

ومع ان ابن سعيد لم يكن الجغرافي الرحالة الوحيد الذي كان يتشوق لبلده وهو بعيد عنه، إلا ان هذا الرجل كتب حول الموضوع بشيء من الشعور، ووصف شعوره بمنتهى ما يمكن من رقة الأسلوب. لذلك فاننا ـ مع أننا نعرف ان الفائدة الجغرافية أو التاريخية منه ليست بذات أهمية ـ ننقل هذا الوصف اللطيف. قال: «وأنا اقول كلاماً فيه كفاية: منذ خرجت من

جزيرة الأندلس وطفت في بر العدوة ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة، ثم طفت في افريقية وما جاورها من المغرب الأوسط، فرأيت بجاية وتونس، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الاسكندرية والقاهرة والفسطاط، ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلباً وما بينهما ـ لم أر ما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها، الا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ومدينة دمشق بالشام، وفي حماة مسحة «أندلسية» ولم أر ما يشبهها في حسن المباني والتشييد والتصنيع، الا ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المؤمن (دولة الموحدين ٥٢٤ ـ ٦٦٧هـ/ ١١٣٠ ـ ١٢٦٩م) وبعض أماكن في تونس، وان كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالاسكندرية، ولكن الاسكندرية أفسح شوارع وأبسط وأبدع، ومباني حلب داخلة فيما يستحسن لأنها من حجارة صلبة، وفي وضعها وترتيبها اتقان»[٤٨].

يحدثنا ابن سعيد عن فواكه الأندلس، فيضع أمامنا صورة واضحة لما كان يعثر عليه المرء في المدن والبلدان الأندلسية وحتى في الريف. يقول: «وأما الثمار وأصناف الفواكه، فالأندلس أسعد بلاد الله بكثرتها، ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز، ويوجدان في الأقاليم الباردة [من الأندلس] ولا يعدم منها الى التمر. ولها من أنواع الفواكه ما يعدم في غيرها او يقل كالتين القوطي والتين السفري في اشبيلية: وهذان صنفان لم ترعني ولم أذق لهما منذ خرجت من الأندلس ما يفضلهما. وكذلك التين المالقي والزبيب المنكبي والزبيب العسلي والرمان السفري والخوخ والجوز واللوز وغير ذلك مما يطول ذكره»[٤٩].

ويعلّق حسين مؤنس على ذلك بقوله: «وقوله إنه لا يعدم من الأندلس الا التمر يستوقف النظر، فان في اسبانيا اليوم من غابات النخيل التي تثمر التمر الجيد ما يدهش له الزائر لنواحي الشط وامتداد الساحل حتى المرية ومرسية. وهذا معناه ان النخل الذي كان أيام ابن سعيد لم يكن يثمر» ما يجدر ذكره[٥٠].

ونجد عند ابن سعيد وصفاً لحيوان الأندلس، إذ يقول: «السمور، الذي يعمل من وبره الفراء الرفيعة، يوجد في البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة بريطانية (بريتاني في فرنسة) ويجلب الى سرقسطة ويصنع بها. والقنلية حيوان أدق من الأرنب وأطيب في الطعم وأحسن وبراً، وكثيراً ما يلبس فراؤها، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى، ولا توجد في بر البربر (المغرب) الا ما جلب منها الى سبتة، فنشأ في جوانبها.

«ويكون بالأندلس من الغزال والإبل وحمار الوحش وبقره وغير ذلك كثير. «وبغال الأندلس فارهة وخيلها ضخمة الأجسام حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح والعدو... وكذلك حيوان البحر، فهي دواب في نهاية الطول والعرض». ويضيف ابن سعيد رواية عن تجربة شخصية إذ قال: «عانيت من ذلك العجب. والمسافرون في البحر يخافون منها لئلا تقلب المراكب، فيقطعون الكلام، ولها نفخ بالماء من فيها يقوم في الجو ذا ارتفاع مفرط»[٥١].

ومع ان ابن سعيد يتحدث عن المعادن في الأندلس بقليل من العناية، فانه يولي الصناعات اهتماماً صحيحاً. قال: «والى مصنوعات الأندلس ينتهي التفضيل، وللمتعصبين لها

في ذلك كلام كثير، فقد اختصت المرية ومايقة ومرسية بالموشى المذهب يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق إذا رأوا منه شيئاً.

«وفي ننتالة من عمل مرسية تعمل البسط التي يغالى في ثمنها بالمشرق. ويصنع في غرناطة وبسطة من ثياب اللبس المحررة الصنف الذي يعرف بالملبد المختم ذو الألوان العجيبة، ويصنع في مرسية من الأسرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصفر والحديد من السكاكين، والامقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندي ما يبهر العقل، ومنها تجهز هذه الأصناف الى بلاد افريقية وغيرها. ويصنع بها وبالمرية ومالقة الزجاج الغريب العجيب وفخار مزجج مذهب. ويصنع بالأندلس نوع من المفضض المعروف في المشرق بالفسيفساء، ونوع يسبط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجي (القيشاني) يشبه المفضض، وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملون الذي يصرفه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم كالشاذروان وما يجري مجراه.

«وأما آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر فأكثر همم أهل الأندلس كانت مصروفة الى هذا الشأن، ويصنع فيها في بلاد الكفر ما يبهر العقول: والسيوف البرذليات مشهورة بالجودة [وبرذيل آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال والمشرق]، والفولاذ الذي باشبيلية اليه النهاية، وفي هذه من دقائق الصنائع ما يطول ذكره»[٥٢].

محمد بن عبد المنعم الحميري

إذا كان البكري هو واضع أسس المعجم الجغرافي في المغرب (وفي المشرق أصلاً) فان محمد بن عبد المنعم الحميري، هو الذي برمج هذا الصنف من التأليف، فجاء كتابه «الروض المعطار في خبر الأقطار» غاية في هذا الفن. ولو كنا نتحدث عن فضل الجغرافيين من المغاربة على هذا النوع من الكتابة كنا أطلنا الحديث في هذه الناحية، لكننا نود ان نضع أيدينا على الفوائد التاريخية في هذا المؤلف الضخم، وحتى في هذا المجال فاننا ندير البحث حول الأندلس فحسب[٥٣]. صحيح ان الكثير مما أورده الحميري نقله عن الادريسي والبكري وكتاب الاستبصار، إلا ان الصحيح أيضاً هو ان المؤلف قدم لنا «بهذا الجمع مادة جغرافية صحيحة دسمة عن المواضع التي اختارها لمعجمه، وعرف كيف ينسق هذه المادة ويسوقها على نحو مترابط متكامل بحيث تبدو مواده وكأنها دراسات صغيرة عن هذا المعلم الجغرافي أو ذاك»[٥٤].

وثمة تشابه كبير بين طريقة الحميري وأسلوب ياقوت الحموي في معجم البلدان من حيث ذكر المكان والاشارة اليه اشارة تاريخية والتطرق الى من عرف من أهله في العلم أو الأدب أو الشعر أو القضاء وما الى ذلك. بحيث تساءل حسين مؤنس فيما إذا كان الحميري قد عرف معجم البلدان. ذلك ان ياقوت أتمّ كتابه سنة ٦٢٤/ ١٢٢٤م، والحميري زار المشرق وحج وأطال المقام في الأرض المقدسة، ثم توفي سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م[٥٥].

كان من الطبيعي ان يكون للأندلس، من حيث انه كل جغرافي، مكان في الروض المعطار. وقد قال عنه: «والأندلس بقعة كريمة طيبة التربة كثيرة الفواكه، والخيرات فيها

دائمة وبها المدن الكثيرة والقواعد العظيمة وفيها معادن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والزئبق واللازورد والشب والتوتيا والزاج والطفل..» والأندلس أقاليم عدة ورساتيق جملة وفي كل اقليم منها عدة مدن...

«والأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمنية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، اهوازية في عظم جناتها. صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها»(٥٦).

وهناك قول كثير فيه التاريخ وفيه مسحة من الأسطورة خفيفة لكنها ظريفة. والمقابلة والمقارنة اللتان ساقهما بين الأندلس وأقطار أخرى لم يقصد الحميري منها، على ما نرى، صيغة بلاغية، وإنما رمى الى المقارنة الفعلية. ونحن الآن بما نملكه من معرفة عن هذه الأقطار وحاصلاتها وتجارتها في ايام الحميري، أي في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجري/ الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، نرى صحة معلوماته.

وقد تخيّرنا بضع أمكنة من الأندلس لننقل ما أورده الحميري في روضه، لندلل على ما يمكن ان نفيد تاريخياً من اشاراته، على نحو ما فعلنا بالذين تحدثنا عنهم من سابقيه. وتعمدنا ان نقابل خاصة بين ما رواه الادريسي وما وصلنا من الحميري. فوجدنا ان الحميري نقل عن الادريسي الكثير من طليطلة وبلنسية وقرطبة والزهراء. فبساتين طليطلة، وحيوان جبل الشارات مأخوذ عن الادريسي(٥٧). لكن صاحب الروض المعطار يضيف بعد ذلك معلومات تاريخية بحتة أو أموراً تتعلق بصنف السكان. فضلاً عن ذلك، فقد نقل رسائل وقصائد في رثاء طليطلة لمناسبة سقوط المدينة بأيدي الاسبان(٥٨). وقد فعل مثل ذلك بالنسبة لبلنسية، فوصفها ادريسي(٥٩) الأصل، وما تبقى من تاريخ وحزن جاء من مصادر أخرى(٦٠).

وحديث قرطبة شبيه بذلك. فالمدينة وصفاً وأهمية وفنادق وصناعات ومسجداً ـ كل هذا منقول في مجمله عن الادريسي، ومثل ذلك يقال عن طحن النوائب لها(٦١). ولعل العبارة التالية هي من وضعه وعلى كل فلها دلالتها. يقول الحميري: «وأحواز قرطبة تنتهي في الغرب الى أحواز اشبيلية، وتأخذ في الجوف ستين ميلاً، وتختلط أحوازها في الشرق بأحواز جيان، وعلى الجملة فقد كانت أم البلاد وواسطة عقد الأندلس، وحوت من الأكابر من أهل الدنيا والآخرة من الملوك والعلماء والصالحين والمفتين وغيرهم خلقاً، ومتعوا فيها ما أراد الله عز وجل، وذلك حين كان نجمها صاعداً»(٦٢).

ويقول عن الزهراء إنها مدينة في غربي قرطبة بناها الناصر عبد الرحمن بن محمد (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١م). وينقل بعد ذلك عن الادريسي قوله: «وكانت قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها، وكان فيها قوم سكان بأهاليهم وذراريهم. وكانت في ذاتها عظيمة، وهي مدينة فوق مدينة... فكان الحد الأعلى منها قصوراً يعجز الواصفون عن وصفها، والحد الأوسط بساتين وروضات، والحد الأسفل فيه الديار والجوامع»(٦٣).

وكما بنى عبد الرحمن الناصر مدينة الزهراء، فقد بنى المنصور بن أبي عامر، الذي

كان صاحب الصولة في قرطبة منذ تسمية الخليفة الأموي هشام ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م حتى وفاته هو ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م، مدينة الزهراء، وذلك سنة ٣٦٨ ـ ٣٧٠/ ٩٧٨ ـ ٩٧٩. ذلك انه خاف على نفسه، فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزهراء.. وأقامها على نهر قرطبة الأعظم وشرع في بنائها سنة ثمان وستين وثلثمائة. فحشر اليها الصناع والفعلة، وأبرزها بالذهب واللازورد.. وتوسع في اختطاطها وبالغ في رفع أسوارها، وأوثق مضايقها، [فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة... وبنى معظمها في عامين. وفي سنة سبعين وثلاثمائة انتقل المنصور اليها ونزلها بخاصته وعامته، فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته]... وقامت فيها الأسواق، وكثرت فيها الأرزاق... حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة»(٦٤).

ويحدثنا الحميري عن غرناطة، التي يرسم اسمها، على عادة القوم، اغرناطة، بقوله: «مدينة بالأندلس بينها وبين وادي آش أربعون ميلاً. وهي من مدن البيرة، وهي محدثة من أيام الثوار بالأندلس وانما كانت المدينة المقصودة البيرة فخلت (هذه) وانتقل أهلها الى اغرناطة... وهي اليوم مدينة كبيرة قد لحقت بأمصار الأندلس المشهورة، وقصبتها بجوفيها وهي من القصاب الحصينة. وجلب الماء الى داخلها من عين عذبة تجاورها. والنهر المعروف بنهر فلوم ينقسم عند مدينتها قسمين: قسم يجري في أسفل المدينة، وقسم يجري في أعلاها يشقها شقاً، فيجري في بعض حماماتها وتطحن الأرحاء عليه خلال منازلها. ومخرجه من جبل هناك. وتلقط في جرية مائه برادة الذهب الخالص، ويعرف بالذهب المدني... وفحص البيرة أزيد من مسافة يوم في مثله... وهو أطيب البقاع وأكرم الأرضين تربة... ولا يعلم شجرة تستعمل وتستغل الا وهي انجب شيء في هذا الفحص، وما من فاكهة توصف وتستطرف الا وما هناك من الفاكهة يفوقها، ويجود فيها من ذلك ما لا يجود بالساحل من اللوز وقصب السكر وما أشبههما. وحرير فحص البيرة هو الذي ينتشر في البلاد ويعم الآفاق. ويكثر حتى يصل الى أقاصي بلاد المسلمين. وبالبيرة معادن جوهرية من الذهب والفضة والصفر والحديد والرصاص والتوتياء»(٦٥).

وثمة مدينة عني بها الحميري هي مرسية، وهي «قاعدة تدمير، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ ـ ٢٣٨ـ/ ٨٢٢ ـ ٨٥٢م)، واتخذت دار العمال وقرار القواد. ومرسية على نهر كبير يسقي جميعها كنيل مصر، ولها جامع جليل وحمامات وأسواق عامرة. وهي راخية أكثر الدهر رخيصة الفواكه كثيرة الشجر والأعناب وأصناف الثمر. وبها معادن فضة غزيرة متصلة المادة. وكانت تصنع بها البسط الرفيعة الشريفة، ولأهلها حذق بصنعتها وتجويدها لا يبلغه غيرهم»(٦٦).

خلاصة الدراسة

نقف عند هذا الحد في تتبعنا لجغرافيي الأندلس، لأن تلك البلاد قد تبدل شأنها كثيراً منذ أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. ونحن نعرف انه بعد إنهيار دولة الموحدين (٥٢٤ ـ ٦٦٧هـ/ ١١٣٠ ـ ١٢٦٩م) واهتزاز الدويلات العربية في الأندلس، وسقوط

أكثرها في أيدي الاسبان، لم يبق إلا دولة الناصريين أو بني الأحمر في غرناطة (٦٢٧ ـ ٨٩٧هـ/ ١٢٣٠ ـ ١٤٩٢م).

ولعلنا نحسن صنعاً ان نحن ذكّرنا انفسنا، دون عناء الإشارة الى الصفحات السابقة من هذه الدراسة، بأمور تعلمناها عن الأندلس، وخاصة في القرنين الرابع والخامس الهجري/ العاشر والحادي عشر الميلادي، من تتبعنا لما دوّنه الجغرافيون عن تلك الفترة وفيها.

أولاً: يبدو ان شجرة الزيتون كانت، فيما نرجح، الأكثر انتشاراً في بلاد الأندلس، وتكاد شجرة الكرمة تلحق بها، وتلي ذلك شجرة التين. ومعنى هذا ان الأندلس كانت تصنع الزيت بكثرة، وتصدره الى الخارج. كما ان المناطق المسيحية من الأندلس كانت تصنع النبيذ، كما كان البلد كله يعنى بتجفيف العنب زبيباً والتين قطيناً وكان التين المجفف يصل مناطق كثيرة.

ثانياً: كان الحرير يربى في جهات كثيرة من الأندلس، ولذلك كانت أنواع الأقمشة الحريرية تصنع، على ما مر بنا، في مدن كثيرة. وكانت هذه تصدر الى الآفاق. وقد ادخلت زراعة القطن الى الأندلس، ومن ثم صنعت اقمشة قطنية، لكن القماش الكتاني كان أروج في السوق من القماش القطني والصوفي.

ثالثاً: وهذه ظاهرة مهمة في حياة الأندلس، وهي كثرة الصناعات الزراعية المادة الخام، وتوزع ذلك في مناطق متعددة.

رابعاً: لا شك ان صناعة الورق (الكاغد أو الكاقد) راجت كثيراً في الأندلس لانها كانت تزود أوروبة بذلك.

خامساً: كانت أسواق الأندلس تشمل، في الدرجة الأولى الشمال الافريقي، ولكن نسمع عن تصدير الى غانة أحياناً. على ان الذي نراه هو ان الكثير من السلع التي كانت تنتقل الى الشمال الافريقي كانت تجد طريقها الى السودان الغربي عبر الصحراء، خاصة وان تبر ونكرة، في السودان الغربي، كان ينقل، عبر ورغلة في الجزائر، الى الأندلس، ثمناً لهذه السلع(٦٧).

وما دمنا في سبيل الحديث عن الزراعة وغلاتها وما نشأ عنها من صناعات ذات قيمة، فإنني أود أن أضيف الى هذا معلومات اقتبستها من كتاب يبحث في شؤون الزراعة في الأندلس في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. والكتاب يحمل اسمه معناه: كتاب الفلاحة، ومؤلفه عبد الله بن بصال الذي ولد بطليطلة، ونشأ فيها أيام المأمون (٤٣٥ ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٤٣ ـ ١٠٧٥م) الذي كانت أيامه عصراً علمياً مزدهراً. ويبدو ان ابن بصال هاجر من بلده لما تعرضت لخطر الغزو الاسباني (وقد احتلت سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٨٥م) فانتقل الى اشبيلية وكان فيها أيام المعتمد (٤٦١ ـ ٤٨٤هـ/١٠٥٨ ـ ١٠٦٩م).

وجماع ما توصل اليه الباحثون هو ان ابن بصال من أهل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وانه كان ذا مكانة كبيرة بين العاملين في حقل الزراعة والمؤلفين فيها وقد نقل عنه كثيرون. ولأن الكتاب كان رائجاً حتى في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، فإنه ترجم الى الاسبانية إما في أواخر القرن المذكور أو مطلع القرن التالي(٦٨).

ولكتاب ابن بصال ميزات تجعل له منزلة خاصة بين الكتب التي وضعت حول الموضوع

نفسه في أيامه وبعده. فهو نتيجة تجربة شخصية طويلة الأمد، جاءته من العمل في حديقة عبد المؤمن في اشبيلية قبل ان ينتقل الى قرطبة، فيما يرجح. والكتاب موجز. فضلاً عن ذلك فهو يتحدث عن الزراعة وما فيها دون ان يخلط ذلك لا بالمواد الطبية ولا بالسحر والتنجيم. فهو كتاب مدرسي مختصر عملي وهو ثمرة تجربة زراعية مباشرة. وفي الكتاب إشارات متعددة الى أسفاره الواسعة في مصر وسورية وصقلية وملاحظاته الزراعية التي اكتسبها في تلك الأسفار(٦٩).

نعرف من كتاب ابن بصال ان السلاطين في عصر ملوك الطوائف في الأندلس (من ٤٢٢/١٠٣١ وما تلا ذلك) كانوا يعنون بإنشاء جنات أو بساتين في عواصم دويلاتهم. فالمأمون الطليطلي أنشاء جنته على نهر التاجة قرب عاصمته، وعهد برعايتها الى ابن وافد الطبيب المشهور(٧٠). وقد اكتسب ابن بصال في هذا البستان كثيراً من معارفه وتجاربه الزراعية، ولعل ذلك كان في رفقة زميله ابن وافد وتلميذ هذا الأخير ابن لونكو(٧١).

وقد ضاهى المعتمد المأمون فأنشأ بستاناً له في اشبيلية. وهنا تابع ابن بصال تجاربه وملاحظاته(٧٢).

في هذه البساتين كانت تجري تجارب زراعية على غاية من العناية والكمال، «ونرى كيف كانت تجلب بذور النباتات من الشرقين الأدنى والأوسط، وكيف كانت تجري التجارب على زراعتها في اسبانيا وكيف كانت تقارن الأصناف المختلفة من النبات الواحد وتدرس الخصائص الزراعية والطبية لكل صنف».

ولا نعتزم ان نتحدث عن محتويات كتاب الفلاحة لابن بصال، ولكننا نود ان نؤكد ان ما نحصله من هذا الكتاب عن أنواع الأغراس (الزيتون والكرم والتفاح مثلاً) والحبوب والبقول التي كانت قد وصلت الى الأندلس بسبب انشاء دولة الخلافة، وتيسير سبل التنقل والاتجار في رقعة واسعة جداً ـ ان ما نحصل عليه في هذا المجال حري بدراسة خاصة(٧٣).

وثمة كتب أخرى وضعت عن أحوال الزراعة في الأندلس، وبعضها ألف قبل ابن بصال، كما ان كتباً أخرى وضعت بعده. إلا اننا تخيرنا ابن بصال لموضوعيته واستقلاله وخبرته وتجاربه. ونحن أفدنا منه فائدة أصيلة تؤيد ما ذهب اليه الجغرافيون(٧٤).

الهوامش

(١) نقولا زيادة، **الجغرافية والرحلات عند العرب**، ط ٢، (بيروت، ١٩٨٠)، ١٧ ـ ٨٨؛ **رواد الشرق العربي في العصور الوسطى**، ط ٢، (بيروت، ١٩٨٦)، ٦٧ ـ ٩٧.

(٢) حسين مؤنس، **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس**، (مدريد، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م)، ٣٠ ـ ٥٥ وخاصة ٥٣ ـ ٥٤.

(٣) نقل هذا الكتاب الى اللغة الانكلوسكسونية في أيام الفرد الكبير ملك وسكس (... غرب انكلترا)، الذي حكم ٨٧١ ـ ٨٩٩، وصاحب النهضة العلمية في تلك البلاد يومها Laugmun English Lasause.

(٤) مؤنس، ٣٢ و٤٢.

(٥) مؤنس، ٤٠.

(٦) قصة ترجمة هُروشيش رواها حسين مؤنس مطولاً. راجع ٣٢ ـ ٣٩.

(٧) مؤنس، ٥٦.
(٨) Al Andalus XV111, (1953) 60-61.
(٩) مؤنس، ٦٣ ـ ٦٤ حيث ترد تفاصيل عن سلاسل الجبال.
(١٠) مؤنس، ٦٤.
(١١) مؤنس، ٧٠.
(١٢) E. levi-Provençal E12 (al Audalus).
(١٣) مؤنس، ٦٦ ـ ٦٧.
(١٤) جدير بالذكر ان جغرافية الرازي بالعربية كانت قد فقدت.
(١٥) أبو إسحق إبراهيم الأصطخري، **المسالك والممالك**، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني (القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م)، ٣٥ ـ ٣٦؛ أبو عبد الله بن احمد المقدسي (البشاري)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، (ليدن، ١٩٠٦). ٢٣٩، ٢٤٠ ـ ٢٤١.
(١٦) ابو القاسم بن حوقل (النصيبي)، **كتاب صورة الأرض**، (مصور في بيروت بدون تاريخ عن طبعة كرامرز، ليدن، ١٩٣٨)، ١٠٥ ـ ١٠٦، ١٠٩ ـ ١١٠؛ المقدسي، ٢٣٦ ـ ٢٣٩.
(١٧) المقدسي، ٢٣٣ ـ ٢٣٤. ذكر المقدسي ثلاث مرات أنه لم يدخل الأندلس (٢١٦، ٢٣٢، ٢٣٥). وفي ص ٢٣٥ أضاف قوله: نعجز عن تكوير (أي ذكر كور الأندلس وتحديدها) فتركناها على الجملة، ووصفنا كورة قرطبة لما كثر المخبرون عنها واتضح عندنا أمرها.
والرستاق الواردة في النص المنقول استعملها الاصطخري أيضاً (ص ٤٨). والذي نراه ان المقصود بالرستاق المنطقة التي تزود مدينة معينة بحاجاتها الغذائية أصلاً. راجع نقولا زيادة جغرافية الشام عند «جغرافيي القرن الرابع الهجري» المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام (تاريخ بلاد الشام من القرن السادس الى القرن السابع عشر) (بيروت ١٩٧٤) ١٥٠ ـ ١٥١.
(١٨) نقولا زيادة، **قمم من الفكر العربي الاسلامي**، (بيروت ١٩٨٧)، ٩٩ ـ ١٠٤.
(١٩) مؤنس، ٢٤٧.
(٢٠) الشريف الادريسي، **صفة المغرب وأرض السودان والأندلس**، تحقيق د. دوزي ودي خويه (ليدن، ١٩٦٤)، ١٧٣ ـ ١٧٤.
(٢١) الادريسي، ١٨٨ ـ ١٨٩.
(٢٢) الادريسي، ١٧٩.
(٢٣) الادريسي، ١٩٠.
(٢٤) الادريسي، ١٩١.
(٢٥) الادريسي، ١٩٢.
(٢٦) الادريسي، ١٩٣.
(٢٧) الادريسي، ١٩٤.
(٢٨) الادريسي، ٢٠٠.
(٢٩) الملثم إشارة الى المرابطين (٤٤٨ ـ ٥٤١/ ١٠٥٦ ـ ١١٤٧)، وقد جاء يوسف بن تاشفين (٤٥٣ ـ ٥٠٠/ ١٠٦١ ـ ١١٠٦) إلى الأندلس وانتصر على الاسبان في معركة الزلاقة (٤٦٢/ ١٠٦٩) وتولى بعد ذلك الاستيلاء على بعض دويلات الطوائف.
(٣٠) الادريسي، ١٩٧ ـ ١٩٨. يذكر الادريسي بعض أنواع الطرز. فالجرجاني سمي بذلك لأنه تقليد لتزيين عرف في جرجان أصلاً (ص ٢٧٦) ومثله الاصبهاني العثابي حرير «وقطن متنوع الألوان، كان يصنع في حي العثابة في بغداد» على رواية ابن جبير، تحقيق رابط، ٢٢٧ (ص ٣٤٢). المعاجر قماش حريري ثقيل، (ص ٣٤٣)، والسقلاطون حرير يدخل في نسجه خيط من ذهب، ويقابله بالفرنسية القديمة سغلاتون Siglaton (ص ٣١٦) ـ إشارة الصفحات الى الادريسي (الترجمة والهوامش بالافرنسية) Boulnois, 183.
(٣١) الادريسي، ١٨١.
(٣٢) الادريسي، ١٧٨.
(٣٣) الادريسي، ١٧٩.
(٣٤) الادريسي، ٢٠٣.
(٣٥) الادريسي، ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٣٦) الادريسي، ١٩٢.
(٣٧) الادريسي، ١٩٢.
(٣٨) الادريسي، ١٩٥.
(٣٩) الادريسي، ١٩٦.
(٤٠) الادريسي، ٢٠٢.
(٤١) الادريسي، ١٧٦.
(٤٢) الادريسي، ٢٠٣.
(٤٣) الادريسي، ٢٠٨.
(٤٤) الادريسي، ٢٢١٢.
(٤٥) الادريسي، ٢٠٨ ـ ٢١٢.
(٤٦) زيادة، **رواد**، ٩٠.
(٤٧) كراتشوفسكي، **أول**، ٣٥٦ ـ ٣٥٩.
(٤٨) كراتشوفسكي **أول**، ٣٥٧.
(٤٩) مؤنس، ٤٨٨.
(٥٠) مؤنس، ٤٨٨.
(٥١) مؤنس، ٤٨٧ ـ ٤٨٨.
(٥٢) مؤنس، ٤٨٩ ـ ٤٩٠.
(٥٣) راجع عن الحميري والروض المعطار، مؤنس، ٥٢٩ ـ ٥٥٠.
(٥٤) مؤنس، ٤٣٥ ـ ٥٣٤، محمد بن عبد المنعم الحميري، **كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق احسان عباس (بيروت، ١٩٧٥)، ص. س. ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب **الروض المعطار**، تحقيق ١، لافي بروفنصال (القاهرة، ١٩٣٧) xxi-xxvi.
(٥٥) راجع الحميري/ عباس ص، ي.
(٥٦) الحميري/ عباس، ٣٢ و٣٣؛ الحميري/ بروفنصال ١، ٣.
(٥٧) راجع هذا البحث فوق، ص ٣٣.
(٥٨) الحميري/ عباس، ٣٩٣ ـ ٣٩٥؛ الحميري/ بروفنصال، ١٢٨.
(٥٩) راجع فوق، ص ٣٢.
(٦٠) الحميري/ عباس، ٩٧ ـ ١٠١؛ الحميري/ بروفنصال، ١٢٨.
(٦١) راجع فوق، ص ٤٣ ـ ٤٤.
(٦٢) الحميري/ عباس، ٤٥٨؛ الحميري/ بروفنصال، ١٥٣ و١٨؛ الأدريسي، ٢١٢، الحميري/ عباس، ٢٩٥؛ بروفنصال، ٩٥.
(٦٣) الحميري/ عباس، ٢٨٣ ـ ٢٨٤.
Anwar G. Chejne, *Muslime Spain History and Culture* ,(Minneapolis, USA), 38-42.
(٦٤) الحميري/ عباس، ٤٥ ـ ٤٦؛ الحميري/ بروفنصال، ٢٣.
(٦٥) الحميري/ عباس، ٥٣٩؛ الحميري/ بروفنصال، ١٨١.
(٦٦) Lomdar, 117.
(٦٧) عبد الله بن بصال، **كتاب الفلاحة**، تحقيق خوسي ماريه مياس ببيكروسا ومحمد عزيمان (تطوان، ١٩٥٥)، ١٣ ـ ١٨.
(٦٨) ابن بصال، ٢٩ ـ ٣١.
(٦٩) ابن بصال، ١٤ ـ ١٥، ٣١.
(٧٠) ابن بصال، ٣٢.
(٧١) ابن بصال، ٣٢.
(٧٢) ابن بصال، ١٥ ـ ١٦، ١٧.
(٧٣) راجع على سبيل المثال ابن بصال، ٦٠ وما بعدها، ٧٤ وما بعدها، ٨٩، ١٠٥، ١٠٩، ١٧٢، ١٧٩.
(٧٤) نشر مؤخراً كتاب **المقنع في الفلاحة**، لأحمد بن محمد بن حجاج الاشبيلي، تحقيق صلاح جرار وجاسر ابو صفية، تدقيق واشراف عبد العزيز الدوري (عمان، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

الأندلس في عصر ابن زيدون

١ ـ مقدمة

ولد أحمد بن عبد الله بن زيدون في قرطبة سنة ١٠٠٣/٣٩٤ وتوفي في اشبيلية سنة ٤٦٣/ ١٠٧١. وقد كانت أسرته ذات مكانة مرموقة، علماً وثراءً ونفوذاً، مما يسر له حظاً كبيراً من العلم وصحبة علية القوم في قرطبة. ولعل ذلك كله كان مما أثار في نفس ابن الوليد طموحاً للرئاسة. وقد كان ذلك، بحسب طبيعة العصر وسنته، أمراً مألوفاً. فالحياة السياسية في الأندس بعامة، وفي قرطبة بخاصة، كانت قد تفشى فيها من الفوضى أدواء، وعمها من الاضطراب أنواء، وضعفت الخلافة الأموية فيها حتى عن الحفاظ على المقام المحترم بله النفوذ، وطمع في الرئاسة والنفوذ الكثير من أصحاب الهمة والثروة. ويبدو أن ابن زيدون كان في ذلك مشاركاً، حتى انه لعله أسهم في الحركة التي قامت سنة ٤٢٢/ ١٠٣١ في قرطبة فأنهت الخلافة وسلّمت الأمر الى أبى الحزم بن جهور، وهو الذي أنشأ في المدينة حكماً جديداً على غرار ما كان قد بدأ من قبل في مالقة، وما تبع فيما بعد في غيرها، مما عرف باسم ملوك الطوائف.

وهكذا، فان ابن زيدون شب في زمن كانت فيه الخلافة، التي كان قد أضعفها استبداد المنصور الحاجب بالأمر سنة ٣٩٣/ ١٠٠٢، تتدهور تدريجاً، حتى ذابت نهائياً في سنة ٤٢٢/ ١٠٣١.

ويبدو ان ابن زيدون، ان صح أنه أسهم في حركة سنة ٤٢٢/ ١٠٣١، كان يطمع في مكافأة تتناسب مع ثراء أسرته وطموحه ومساهمته. فلما لم يتم له ذلك، انضم الى حركات معادية للسلطة القائمة، ولعل بعض منافسيه وحسّاده أوغر صدر أبي الحزم بن جهور، صاحب قرطبة، عليه، فانتهى الأمر بمحاكمته وسجنه (٤٣٢ أو ٤٣٣/ ١٠٤٠ أو ١٠٤١)، ثم هربه من السجن بعد سنة وبعض السنة. ومع أن أبا حزم بن جهور عفا عنه، فانه لم يوله أمراً من أمور الدولة.

لكن وفاة أبي الحزم (١٠٤٣/٤٣٥) وتولي ابنه أبي الوليد شؤون قرطبة أدى الى تغيير في حالة ابن زيدون. فقد عينه الحاكم الجديد على أهل الذمة ثم اتخذه وزيراً وجعله سفيراً له الى ملوك الأندلس الكثر. وقد سفر لابن جهور لدى عبد العزيز صاحب بلنسية، وباديس صاحب غرناطة، والمظفر صاحب بطليموس وغيرهم.

إلا أن ابن زيدون كان صاحب نفس طموحة قلقة لا تستقر، فلم يلبث أن انغمس على ما يبدو، في أمر من أمور الدولة أثار حوله الريبة والشك، فعزل عن منصبه وألزم المنزل، وذلك بعد نحو خمس سنوات من العمل في البلاط القرطبي.

ونحن إذا تذكرنا أن هذه الفترة من تاريخ الأندلس كانت فترة ملوك الطوائف الذين توزعوا الحكم في الأندلس الاسلامية، كما أنه كان فترة اشتد فيها ضغط مسيحيي الشمال من الاسبان لاستعادة ما كان بأيدي العرب، فاننا لا نستغرب ان تكثر المؤامرات وأن ينتشر التآمر وان يكثر المنتفعون من ذلك، والراغبون في الإفادة، والطامعون في المنصب. فالعصر كله كان عصر قلق واجتذاب منافع، وامعان في اهتبال لذة العيش ما أتيحت للناس الفرصة. وفي هذه الدوامة كان يعيش كثيرون، ومنهم ابن زيدون. وكل هذا كان يزيد في عدد منافسيه وحساده والراغبين في أبعاده عن ذوي السلطان. وإذا أضفنا الى هذا ما كان له في نفس ولادة من منزلة، وما متع به منها قرباً، وما آلمه منها بعداً، فاننا لا نستغرب أن يمعن حساده في العمل ضده، ولكننا لا نستغرب أيضاً أن يكون ابن زيدون قد فعل ما يمكن لحساده من العمل ضده.

لم يكن من اليسير على ابن زيدون أن يلزم بيته على نحو ما أمر. فالرجل الديناميكي المتحرك الفعال تثير (الاقامة الجبرية) فيه من الآلام والقلق الكثير. ولذلك فاننا نراه يرحل عن قرطبة الى اشبيلية الى بلاط المعتضد بن عباد (٤٣٣ ـ ٤٦١/ ١٠٤٢ ـ ١٠٦٩). التجأ ابن زيدون الى اشبيلية سنة ٤٤١. وقد ظل فيها زهاء عشرين سنة، إلا فترة قصيرة عاد فيها الى قرطبة لما احتلها المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية. وكانت وفاة ابن زيدون سنة ٤٦٣/١٠٧١[1].

٢ ـ المكتبة الجغرافية العربية والأندلس

ان الناحية التي نود أن نتحدث عنها في هذا البحث المقتضب عن الأندلس في عصر ابن زيدون، تقتصر على بعض الملاحظات الجغرافية والاقتصادية عن تلك الفترة. وفي سبيل ذلك يجدر بنا ان نوضح للقارىء المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في هذه الدراسة.

في طليعة هذه المصادر الكتب الجغرافية. وهذا الأمر يقتضي منا الإشارة الى المكتبة الجغرافية العربية بعامة، كي نتعرف الى أهميتها بالنسبة الى بحثنا.

ويمكن القول إجمالاً إن الكتابة الجغرافية عند العرب، في العصور الأولى، اتخذت ثلاثة اتجاهات هي: الجغرافية الرياضية ثم جغرافية المسالك ثم الجغرافية البلدانية.

كان الاتجاه الأول في التأليف باللغة العربية نحو الجغرافية الرياضية، دون الوصفية أو البلدانية. وظهر هذا بشكل خاص في نوعين من المؤلفات. الأول، الكتب المتعلقة بصورة الأرض؛ والثاني، كتب الازياج. وعندنا ثلاثة يمثلون كتّاب النوع الأول وهم:

١ ـ محمد بن موسى الخوارزمي (توفي بعد ٢٣٢/٨٤٧) الذي وضع كتاب «صورة الأرض» بعد وفاة الخليفة المأمون، إلا انه غلب عليه شكل الزيج. والكتاب في واقع الأمر ترتيب منظم جديد لكتاب بطليموس، لكنه أدق منه. وزيج الخوارزمي أي جداوله الفلكية تحتوي على ٥٣٧ موضعاً مبينة أطوالها وعروضها وهي واردة في جداول أربعة: المدن والجبال والجزر والانهار، وقد رسم الخوارزمي خرطاً فيها اصالة وابتكار، كما يبدو من الخارطة التقريبية التي رسمها للنيل.

٢ ـ يعقوب بن اسحق الكندي الفيلسوف (توفي ٢٦٠/ ٨٧٤) وقد وضع «رسم المعمور

من الأرض» و«رسالة في البحار والمد والجزر».

٣ ـ سهراب الذي ألف كتاب الاقاليم السبعة (الذي كتب بين عامي ٢٨٩ و٣٣٤/ ٩٠٢ و ٩٤٥). وقد أضاف سهراب الى ما أخذه من بطليموس والخوارزمي مادة مستفادة من مصادر عربية، لعل أكثرها كان تقارير رسمية عن نواح من الدولة الاسلامية، مثل وصف المؤلف لشبكة قنوات بغداد ووصفه لدلتا النيل.

أما المؤلفون الذين عنوا بالنوع الثاني أي الازياج فكثيرون منهم: (١) أبو عبد الله محمد ابن جابر البتاني (توفي ٣١٧/ ٩٢٩) صاحب الزيج المعروف باسم «الزيج الصابىء» وهي جداول فلكية. لكن الكتاب يحوي مقدمة وافية في أكثر من ستين فصلاً تعالج مسائل الفلك جمعاء. ومنهم (٢) أبو الحسن ابن يونس (توفي ٣٩٩/ ١٠٠٩) فلكي البلاط الفاطمي في القاهرة صاحب «الزيج الحاكمي الكبير»، وثمة (٣) أبو الريحان البيروني (توفي ٤٤٠/ ١٠٤٨) صاحب المؤلفات الكثيرة منها «القانون المسعودي» و«تحديد نهاية الأماكن لتصحيح مسافات المساكن» و«التفهيم لأوائل صناعة التنجيم» و«الآثار الباقية في القرون الخالية»[٢].

وبين أواسط القرن الثالث (التاسع) وأواخر القرن الرابع (العاشر)، ظهر في محيط الجغرافية العربية عدد من الكتب يتصف بالاصالة على العموم، مع العلم ان آثار المدرسة اليونانية تظهر في بعض هذه الكتب. والمؤلفون الذين ننوي ان نتحدث عنهم في هذا الفصل هم، على ترتيب تاريخ وفياتهم: ابن خرداذبة (توفي حول ٢٧٢/ ٨٨٥) واليعقوبي (توفي حول ٢٨٨/ ٨٩١) وابن رستة (توفي بعد ٢٩٠/ ٩٠٣) وقدامة بن جعفر (توفي بعد ٣١٠/ ٩٢٢) والبلخي (٣٢٢/ ٩٣٤) والجيهاني (كتب قبل ٣١٠/ ٩٢٢) والاصطخري (كتب بين ٣١٨ و٣٢١/ ٩٣٠ و٩٣٣) وابن حوقل (توفي في النصف الأول من القرن الرابع/ العاشر) والهمداني (توفي ٣٣٤/ ٩٤٥) والمقدسي (توفي بعد ٣٧٨/ ٩٨٨).

ومن الممكن النظر في ما خلّفه هؤلاء المؤلفون من خلال مجموعات. فابن خرداذبة واليعقوبي وابن رستة وقدامة، هم من طبقة المؤلفين الكتّاب الذين كانوا يشغلون وظائف في الدولة. ويمكن أن يضاف الجيهاني اليهم. ويكون البلخي والاصطخري وابن حوقل مجموعة ثانية. وينفرد المقدسي عن هؤلاء بميزات خاصة سنعرض لها فيما بعد. وثمة مؤلف آخر هو الهمداني سنتحدث عنه منفرداً لأنه خص صقعاً واحداً، هو جزيرة العرب، باهتمامه.

ونحن إذا أخذنا المؤلفين الكتّاب (أي المجموعة الأولى) وجدنا أنهم كانوا موظفين في الدولة. فقد كان ابن خرداذبة صاحب البريد في اقليم الجبال من فارس. واليعقوبي كان من موظفي الدولة. وكان جده الأعلى حاكماً لأرمينية كما انه كان والي مصر. وكان جده ووالده من عمال البريد الكبار. ومعنى هذا أن الرجل نشأ في بيت وظائفي، وكان هذا ييسر له الاطلاع على أمور هامة.

وكان ابن رستة في خدمة الدولة، وإن لم تصل إلينا أخبار كافية عن طبيعة المنصب

الذي شغله. أما قدامة بن جعفر فقد كان يتولى الخراج.

والجيهاني وزر للسامانيين. ومن هنا نرى ان الناحية التي عني بها هؤلاء الكتّاب تتصل بحاجات الدولة اتصالاً وثيقاً. فقد تحدث كل منهم، ولو على درجات متفاوتة، عن الطرق وخاصة طرق البريد، أو ارتفاع الخراج في الجزء من البلاد الذي كان يعرفه، أو اهتم بالطرق البحرية والتجار الذين يحملون بضائعهم عبرها ونوع المتاجر التي يحملون.

هذه الكتب الثلاثة: مسالك ابن خرداذبة واعلاق ابن رستة وخراج قدامة بينها ترابط يكاد يكون عضوياً في بعض الحالات، فضلاً عن انها كلها تعتمد وثائق اصلية رسمية. فابن رستة كثير الشبه بابن خرداذبة تقسيماً وتنظيماً، وان كان قلم ابن رستة أيسر تعبيراً. وكتاب قدامة يمكن اعتباره تتمة لكتاب ابن خرداذبة.

والمجموعة الثانية من مؤلفي الجغرافية العربية في ابان نضجها تشمل: البلخي والاصطخري وابن حوقل. والأولان من فارس والثالث من نصيبين في الجزيرة. والارتباط بين مؤلفات هؤلاء النفر قوي الى حد ان الباحثين في هذا الموضوع لم يستطيعوا تبين الاتصال تماماً، وان كانوا قد استطاعوا الاهتداء الى الخطوط العريضة فيه.

هؤلاء المؤلفون الثلاثة كانوا أهل سفر، وإن اختلفت رقع اسفارهم اختلافاً بيناً. فالبلخي من بلخ وقد قضى ثماني سنوات في بغداد حيث اتصل بالفيلسوف الكندي، وبسبب ذلك انتقل اهتمامه من الشريعة الى قضايا العلم والفلسفة. وقد حج. ولما عاد الى بلخ لم يخرج منها فيما بعد. لذلك فان الذي يعرفه معرفة مباشرة كان قليلاً. ولأن كتابه فقد، فنحن لا ندري على وجه الدقة حتى ما هي الأجزاء التي وضعها. أما الاصطخري فقد زار ما وراء النهر وإيران وجزيرة العرب والشام ومصر؛ ومن ثم فما كتبه عن هذه البلاد مبني على المشاهدة، أما ما ذكره عن المغرب فهو منقول عن غيره. وكان ابن حوقل أوسع الثلاثة رقعة اسفار. فقد احترف التجارة، وتنقل في شمال افريقية والأندلس وجنوب ايطالية كما زار إيران وجزءاً من الهند وكان يعرف الجزيرة والعراق معرفة المواطن. وثمة من الباحثين من يرى ان ابن حوقل كان داعية سياسياً للفاطميين والى هذا يعزى هذا التنقل الذي كان يقوم به والاسفار الواسعة التي حملته الى أبعد الأماكن. وعلى كل فقد دوّن ابن حوقل أخبار مشاهداته.

ويتفق الثلاثة في أنهم اقتصروا في الغالب على بلاد الاسلام أو جزء منها. وباستطاعتنا أن نعرف تماماً ما كتبه كل من الاصطخري وابن حوقل بسبب وجود الكتابين. فالاصطخري فصّل الأجزاء الشرقية من العالم الاسلامي وأضاف شيئاً عن المغرب سماعاً. أما ابن حوقل فقد زار المناطق كلها فكانت كتابته عن مشاهدة.

والمقدسي، أو المقدسي البشاري كما يسمى أحياناً، من مواليد مدينة القدس (ويقال إنه ولد في الرملة من أعمال فلسطين سنة ٣٣٥/ ٩٤٦). وكان جده لأبيه أبو بكر من مشاهير البنائين (ويبدو ان أباه كان أيضاً بناءً) وهو الذي بنى ميناء عكاء لابن طولون حاكم مصر. ولعل

هذا هو الذي جعل مؤلفنا يهتم بالبناء والمعمار في بعض ما يصف. كان ولوعاً بالأسفار. ونحن إذا استثنينا الأندلس والسند وسجستان، وجدنا أن الرجل زار أصقاع العالم الاسلامي الباقية جميعها. وقد وضع كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» سنة ٣٧٥ في مدينة شيراز وكان له من العمر أربعون عاماً. ولعله عاد الى الكتاب فنقحه أو أضاف اليه. فقد وجدت للكتاب نسختان قدمت احداهما الى آل سامان وقدمت الثانية (بعد ذلك بثلاث سنوات) الى الفاطميين في مصر. وبين النسختين اختلاف طفيف.

بعد توضيح الأسس التي بنى كتابه عليها وذكر البحار والأنهار، يقدم للقارىء الأماكن المتفقة اسماً والمختلفة صقعاً وينتقل الى الخصائص في الأقاليم فيجملها. ويشفق على الفقهاء من قراءة كتابه بكامله فيختصر لهم باباً خاصاً هو خلاصة للكتاب. وبعد تعداد الأقاليم الأربعة عشر يأخذ كلاً منها على حدة فيفصل كوره وقصباته ثم يعود فيجمله بشكل عام من حيث اقتصاده وادارته وصفات أهله وما الى ذلك.

أما وقد عرضنا لجغرافيي القرن الرابع (العاشر). فانه حريّ بنا الآن ان نتناول خرطهم أو صورهم التي زينوا بها كتبهم. ولنذكر أنفسنا قبل كل شيء بأن الجغرافيين العرب الذين كتبوا في الجغرافية الرياضية كانوا يرسمون خرطاً تظهر فيها خطوط الطول والعرض ويقسمون العالم الى أقاليمه السبعة، وكانوا بطبيعة الحال متأثرين ببطليموس وغيره. أما جغرافيو القرن الرابع (العاشر) فقد كانت لهم خطة تختلف تماماً. وقد ذكرنا قبلاً أن كتاب البلخي ضاع منه كما فقدت أكثر خرطه (أو صوره). ولكن مما حصلنا عليه من خرط (أو صور) الاصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم، ومن الأخبار التي نقلت لنا عن مؤلفين آخرين، اضطررنا، بسبب الاختصار، الى عدم التعرض لهم، اصبح باستطاعتنا أن نكوّن فكرة عامة عن رسمهم للخرط الكثيرة.

ونحن إذا أخذنا كتاب المسالك وجدنا أن ما ذكروه عن الأندلس كان مأخوذاً من معرفة سابقة أو عن السماع، ويكاد يقتصر ما نحصل عليه منهم عن تلك الديار على إشارات الى السكان ومجاري المياه والطرق. ويدلنا هذا على ان الاهتمام عند هؤلاء المؤلفين كان منصباً على مشرق الدولة العربية الاسلامية وما كان يقع في إطار الخلافة العباسية. أما الأندلس فلم تكن موضع اهتمام خاص عندهم.

على أن هذا الأمر يتغير تماماً عندما ننتقل الى الجغرافيين البلدانيين وبخاصة الاصطخري وابن حوقل والمقدسي من المشارقة. وابن حوقل هو الوحيد، كما ذكرنا، الذي زار الأندلس وكتب نتيجة معرفة مباشرة. وسنتحدث عما تعلمناه عن الأندلس من هؤلاء المؤلفين فيما بعد.

٣ ـ الجغرافيون المغاربة[٣]

الذين نود التحدث عنهم هنا هم ثلاثة: أولهم أحمد الرازي (توفي ٣٤٤/ ٩٥٥) والثاني بو عبيد البكري (توفي ٤٨٧/ ١٠٩٤) في قرطبة والادريسي (المتوفى سنة ٥٦٠/ ١١٦٥).

يقول حسين مؤنس عن أحمد بن محمد الرازي:

«يعتبر أحمد بن محمد الرازي أبا الجغرافية والتاريخ في الأندلس في آن واحد، فقد أخذ عن أبيه محمد بن موسى الميل الى التاريخ والاهتمام بالتأليف فيه، وزاده اهتماماً بهذا الفن شيخه قاسم بن أصبغ البياني، وقد رأينا عنايته بالتاريخ واشتهار أمره به في الأندلس، ورأينا كيف انصرف مع الوليد بن خيزران الى ترجمة كتاب هروشيش وكيف قاما بها على ذلك النحو الفريد. فإذا ذكرنا أن هذه الترجمة لم تكن إلا جزءاً يسيراً من ذلك النشاط الثقافي الذي زخرت به قرطبة ايام الحكم المستنصر، تصورنا البيئة العلمية الأندلسية في ذلك العصر: بيئة تأليف وترجمة وتجديد وطلب دؤوب للعلم والمعرفة مما جعل قرطبة خلال القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، مركزاً من مراكز القيادة والاشعاع للحضارة في العالم أجمع.

«في هذه البيئة المواتية نشأ أحمد بن محمد الرازي، وكان بطبعه مهتماً بأحوال الدنيا وأخبار البشر، فانصرف الى الجغرافية والتاريخ انصرافاً تاماً أرسى به أسس هذين العلمين في بلاده. فلا تقتصر أهمية عمله في هذا الباب على ما كتبه بنفسه، وهو كثير، بل تشمل الحركة التي قادها والأسس التي وضعها وسار عليها من أتى بعده. وستكون كتبه المعين الذي سيستقي منه كل مؤرخي الأندلس وجغرافييه فيما بعد، والمدرسة التي سيمضي التأليف والجغرافية في الأندلس على أصولها الى آخر أيام الأندلس الاسلامي».

تناول أحمد بن محمد الرازي الجغرافية على أنها علم متمم للتاريخ. وجغرافيته الباقية بين أيدينا هي في الغالب مقدمة لكتابه «أخبار ملوك الأندلس». فالقطعة الباقية منها في ترجماتها الى البرتغالية والاسبانية القديمتين، تستطرد بعد وصف الأندلس الى الكلام عمن ملكه ومن دخله من الشعوب قبل الفتح العربي. ولا شك في أن النقول الجغرافية الكثيرة التي نجدها في «نفح الطيب» متصلة بقرطبة، إنما هي من كتاب أحمد الرازي في صفة قرطبة. أما كتاب «أعيان الموالي بالأندلس» فيغلب انه كان كتاب تراجم لا يضم مادة جغرافية كثيرة، وإن كنا لا نستبعد ان تكون فيه هذه الاستطرادات الجغرافية المعروفة في كتب التراجم المطولة.

سلك أحمد الرازي في جغرافية الأندلس طريقاً لا نجد له شبيهاً فيما نعرف من كتب الجغرافية السابقة عليه في المشرق. بدأ بتحديد موقع شبه الجزيرة من الأقاليم دون إسراف في ذلك، فاكتفى بالقول بأنه في الأقليم الرابع، في حين اننا سنجد علي بن سعيد فيما بعد يجعل بعض الأندلس في الأقليم الرابع وبعضه في الخامس، ويجعل له حظاً في السادس أيضاً. ثم تحدث الرازي بعد ذلك عن هيأة شبه الجزيرة، فقال إنها هيئة مركنة ذات ثلاثة أركان (أي مثلثة)[٤].

فقد كتاب الرازي عن الأندلس. ولكن لدينا ترجمتان عنه الواحدة برتغالية صنعها جل بريس Gil Perez بأمر من ملك البرتغال دنيس (١٢٧٩ ـ ١٣٢٥) والأخرى اسبانية. وقد حاول ليفي بروفنسال ان ينبش جغرافية الرازي من أولئك الذين نقلوا عنه من جغرافيي العرب مثل

البكري والادريسي وياقوت والحميري وغيرهم، ونشر ترجمة فرنسية لهذا الذي جمعه[٥].

والجغرافي التالي هو أبو عبيد الله البكري وهو أندلسي المولد والنشأة. ولد في ولبة في أوائل القرن الخامس (الحادي عشر) وانتقل مع أبيه الى قرطبة وهو في مطلع شبابه، ثم انتقل إلى المرية ثم الى اشبيلية حيث قضى نحبه (٤٨٧/ ١٠٩٤). وللبكري مشاركات في اللغة والأدب وما الى ذلك على نحو ما كان عليه أهل العلم في العصور الخوالي. كما أن له كتاباً في النبات. أما البكري الجغرافي فمعروف بكتابين: «معجم ما استعجم» و«المسالك والممالك».

و«معجم ما استعجم» هو أول معجم جغرافي في تاريخ التأليف الجغرافي عند العرب. فالدكتور حسين مؤنس، الذي درس تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس يقول عنه: «فإن التأليف في ذلك الفن (الجغرافية) اقتصر حتى الآن على البلدان والمسالك والممالك. أما أن يفكر عالم في وضع معجم أبجدي لأسماء المواضع فهو حدث يعين ميلاد نوع جديد من التأليف الجغرافي عند العرب، نوع سيتطور ويزهو حتى يصل الى ذروته في معجم ياقوت المعروف».

وقد عرّفنا المؤلف بكتابه بقوله: «هذا كتاب معجم ما استعجم ذكرت فيه ـ ان شاء الله ـ جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار، منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة ـ فلما رأيت ذلك قد استعجم على الناس، أردت أن أفصح عنه، بأن أذكر كل موضع مبين البناء، معجم الحروف حتى لا يدرك فيه لبس أو تحريف».

وللبكري كتاب آخر في الجغرافية هو «المساك والممالك». والكتاب لم ينشر كاملاً بعد، بل لم تجمع كل مادته في مكان واحد، ولذلك فالحديث عنه يظل ناقصاً. وقد أفرط المؤلف في المقدمات التي لا علاقة لها بالجغرافية ثم انتقل الى مقدمة عامة لخص فيها المعرفة الجغرافية الى عصره. وبسبب دقته وصفاء أسلوبه ومقدرته على التنظيم، فانه وضع بين أيدي قرائه صورة واضحة للمعرفة الجغرافية الى أيامه. وفصله عن الأنهار قيم. فلما انتهى من المقدمات أخذ الممالك بالترتيب بادئاً من الهند. فهو يصف المملكة، أي القطر، عامة ثم ينتقل الى مسالكها. وحديثه عن هذه الأقطار مفصل، إذ يورد بعض التاريخ وخصائص أهلها وعاداتهم. ولا يقتصر البكري على ديار الاسلام، شأن جغرافيي القرن الرابع (العاشر)، بل يتناول أقطاراً أوروبية بالوصف الدقيق. ويجب أن نذكر أن البكري، مثل عدد من مؤلفي كتب الممالك والمسالك، تختلف معالجته للأقطار بنسبة ما يحصل عليه من معلومات ومصادر. فيطيل حيث يقع على التفاصيل، ويختصر في غير ذلك، ولكنه دقيق في تخيره المعلومات وتنظيمها في كل حال.

إلا أن ما وضعه البكري عن الأندلس مفقود إلا أجزاء صغيرة لا تسمن ولا تغني من جوع، ولذلك فنحن إذن لا نفيد عن الأندلس كما كنا نحب من جغرافي له مثل البكرى من حيث تصوره للواقع وتقصيه للحقائق وتفصيله للمسائل.

ولننتقل الآن الى المؤلف الذي يعتبر الكثيرون عمله ذروة التأليف الجغرافي عند العرب وهو الشـريف الأدريسي (توفي ٥٦٠/ ١١٦٥ أو قـبل ذلك بقليل). ومع أن الأدريسي شـغل الباحثين طويلاً ولا يزال يشغلهم، فان معرفتنا به لا تزال محدودة. ونحن نحيل القارىء الذي يريد أن يتعرف الى القضايا المختلفة المتعلقة بحياته وكتابه الى الفصل الطويل الممتع الذي كتبه الدكتور حسين مؤنس في كتابه «تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس» المنشور في مدريد سنة ١٣٨٦ (١٩٦٧) ص ١٦٥ ـ ٢٨٠، فهو أحدث ما كتب في الموضوع ومن أفضل ما وضع فيه.

ولد الشريف الإدريسي في سبتة بالمغرب سنة ٤٩٣ (١١٠٠). وفي شبابه خرج من تلك البلاد سائحاً متجولاً في المشرق وقد زار مصر وآسية الصغرى، وليس ما يدل على أنه زار ديار الشام مثلاً. ومن الواضح أن الإدريسي أقام وقتاً طويلاً بقرطبة وتلقى العلم بها، ومن الواضح أن هذا جاء بعد رحلته الى المشرق. ويرى البعض أنه زار لشبونة وسواحل فرنسا. بل لعله وصل انكلترا. والمهم أن الشريف الإدريسي وفد على صقلية سنة ٥٣٣ (١١٣٩) ونزل في ضيافة ملكها روجر الثاني في بلرمو. وهنا وضع كتابه «نزهة المشتاق».

والباحثون يميلون إلى أن الإدريسي اطلع على ما كتبه الجغرافيون العرب من قبل، سواء في ذلك ما نقلوه عن بطليموس أو ما وضعوه مستقلين منفردين. وقد درس حسين مؤنس مصادر الإدريسي ومنهجه في العمل فخلص من ذلك الى أن الرجل:

«بعد أن قرأ ما قرأ من كتب الجغرافية والفلك، وبعد أن ساح في البلاد على قدر ما استطاع، بدأ يرتسم في ذهنه تصور جديد لجغرافية الأرض ومنهج جديد بكتابتها، تصور يختلف تمام الاختلاف عما سبقه الى ذلك الحين: تصور عام يشمل الأرض كلها على أنها كل واحد، كل ما فيه جدير بالوصف والتحقيق، فلا يقتصر التحقيق على حوض البحر الأبيض كما عند بطليموس، أو على عالم الاسلام كما عند معظم جغرافيي العرب الى ذلك الحين، تصور جغرافي خالص لا يختلط بالتاريخ هذا الاختلاط الذي جعل الكثير من كتب الجغرافية كتب تاريخ أيضاً كما نجد عند أبي عبيد البكري، ولا يخلط بين الحقيقة والأسطورة، وكما نجد عند الهمداني تصور جغرافي علمي خالص. وبناء على هذا التصور رسم منهجه: منهج مشاهدة وقياس ومقارنة وربط بين الأجزاء بعضها ببعض ومراعاة النسب بينها، وعمل صورة كاملة للأرض ثم كتابة وصف كامل لهذه الصورة يشمل وصف هيئتها العامة وتقسيمها بعد ذلك الى مناطق يستقصي الكلام عنها في تفصيل ويجمع عنها كل ما تيسر له من المعلومات، فما شهده بنفسه أنبته كما رآه، وما لم يشهده سأل عنه أهله ومن رحلوا اليه وساروا في طرقه أو أبحروا في أمواهه أو اشتغلوا بالتجارة فيه. ويستكمل ذلك بما عسى أن يجده في كتب الجغرافية التي تتيسر له.

«وليس معنى هذا أن الإدريسي فكر في هذه العناصر كلها وهو يرسم منهجه الجغرافي. فان تصور الجغرافية على هذا النحو لم يولد إلا بعد عصره بقرون، ولكنه على أي حال فكر

في منهج جديد أو بتعبير أدق: سار في طريق جديد، هو الطريق الذي وصل بالجغرافية الى ما هي عليه اليوم. وتطلب منه السير في ذلك الطريق عناصر لم يجدها فيما بين يديه من الكتب، لا مصورات عامة أو جزئية دقيقة ولا قياسات يمكن التعويل عليها، ولا أوصاف للنواحي يمكن الاعتماد عليها، ولا تفاصيل موثوق فيها كل الثقة عن أجناس البشر ومصادر ثروتهم وميادين نشاطهم وانتاجهم. وكان عليه أن يبدأ هو بذلك، فقرر أولاً أن يرسم صورة شاملة للأرض حتى يسير على خطة واضحة في عمله، ثم قسم هذه الخريطة الى اقسام صغيرة، ومضى يبحث المعلومات الموجودة عن كل قسم ويحققها بسؤال من يعرفونها ومقارنة أقوال بعضهم ببعض واستخراج شيء يمكنه الاطمئنان اليه من ذلك كله»[٦].

٤ ـ كتب أخرى

انه من حسن حظ الباحثين في الحياة الاقتصادية للأندلس، في الوقت الذي نتحدث عنه، أن تكون بين أيديهم مجموعة من الكتب ذات القيمة الفنية أو التقنية وغيرها مما تحتوي على نواح فقهية أو إدارية. ونود أن نشير هنا الى كتاب الانواء المنسوب الى عريب بن سعد والذي يعود الى سنة ٣٥١/ ٩٦١[٧].

وهذا الكتاب يتناول أموراً تتعلق بالمناخ والطقس والزراعة ومواعيدها. ولعل خير ما يوضح الغاية من الكتاب هو أن ننقل هنا تعريف المؤلف بكتابه.

قال أبو الحسن عريب بن سعد الكاتب عفا الله عنه وعنا:

«هذا كتاب جعل مذكراً بأوقات السنة وفصولها وعدد الشهور وأيامها ومجاري الشمس في بروجها ومنازلها وحدود مطالعها وقدر ميلها وارتفاعها واختلافها في الظل عند استوائها وتصرف الأزمان وتعاقب الايام بالزيادة والنقصان وفصل البرد والحر وما بينهما من التوسط والاعتدال وميقات كل فصل وعدد أيامه على مذهب أهل التعديل والحساب ومذهب الأوائل من الأطباء الذين حدوا الأزمنة والطبائع إذ كان بينهم في فصل السنة اختلاف سيأتي عليه الاستجلاب ويقع في موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله، وذكر ما لا غنى عنه للناس من معرفة الزراعة وحين الغراسة وتعاهد كثير من أسباب الفلاحة وإمكان جني الثمارات وضم الذخر والاقوات وابتداء نضج الفواكه ومواقيت النتاج وغير ذلك من مرافق الناس ومصالحهم، والأزمنة التي توافق تنقية اجسامهم بالدواء والفصد وأوقات جمع العقاقير والبزور وعمل الأدوية والأشربة والمربيات في أوانها وحين امكانها، وعلم تصاريف الرياح ومذاهب العرب في الأنواء والامطار إذ كانت تعنى بها وتحتاج الى تحديد مطالع النجوم ومساقطها والممطر والمخوى منها لتقلبهم في الطلب للمعاش والانتقال الى مواضع المياه، فكانوا مع طول الارتصاد والارتقاب وكثرة التعاهد والاهتبال قد جربوا أوقات الأنواء والأمطار عند تنقل الكواكب من الطلوع الى السقوط، وزعموا أنه لا بد لنوء كل كوكب من مطر أو برد أو ريح أو حر، ونسبوا ذلك الى الغارب دون الطالع، وجعلوا ما كان منهما مختبراً بالقطر وغير خائب النوء والمطر اناثاً وذوات نتاج، وما لا نوء له ولا مطر يأتي معه ذكوراً لا تنتج ونحوساً لا تنفع،

فإذا لم يكن في نوء النجم مطر قيل: «أخوى نجم كذا»، وقيل: «ولم يجىء بربيع»، ولذلك قالت ليلى الاخيلية للحجاج لما قال لها، «ما أتى الينا يا ليلى؟» قالت: «اخلاف النجوم وقلة السحاب» وحدوا لكل منزل من منازل القمر حداً يكون النوء فيه وأياماً وسموا أمطار تلك الانواء بأسماء تعرف بها، وقسموا منازل القمر على فصول السنة لتعلم مواقيت أنوائها، ومعنى النوء سقوط أحد المنازل في المغرب مع الفجر، فيقال: «ناء ذلك النجم للغروب» أي: مال، وقال الله عز وجل: ﴿وما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة﴾ أي: لتميل بها من ثقلها، ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً، يبدو منها للناظر ١٤ منزلاً ويخفي ١٤ منزلاً، فكلما غاب من هذه المنازل الظاهرة واحد في المغرب طلع في الساعة رقيبه من المشرق، وسقوط كل منزل منها على ثلاثة عشر يوماً ما خلا الجبهة، فانها تسقط على ١٤ يوماً، وكذلك ينقضي عدد ايام السنة ويسقط بانقضائها جميع الثمانية والعشرين منزلاً ويرجع الأمر الى المنزل الأول في أول السنة التالية بتدبير العزيز الحكيم، فذكرت العرب سقوط هذه المنازل في المغرب أنواء رددوها في أشعارهم واسجاعهم وجعلوها علامات لامطارهم وأرياحهم وتقلب أزمانهم كما جعلوا الرياح اللواقح والسحاب المخيلة والبرق الجنوبية علامات للأمطار وبشراً بين يدي رحمة الله عز وجل، فاستبشروا بريح (الجنوب وتمنوها وحمدوا) السحاب التي تنشأ منها وكرهوا ريح الشمال وسموها (محوة) لأنها (تمحو السحاب)، وكانوا إذا رأوا البرق لامعاً من جهة الجنوب وما والاها استبشروا بالسقي ووثقوا بالسقيا معه، واذا لمع من جهة الشمال سموه (خلبا) وإذا رأوا الحمرة في الآفاق عند طلوع الشمس وغروبها مع سحاب (متكاثف) استبشروا بها للخصب، وإذا رأوا الحمرة بغير سحاب أو مع يسير منه توقعوا معها الجدب، والأمر لله الواحد القهار، ﴿ولا اله الا هو﴾».

ولا يتسع المجال الآن للتحدث عن كتب الفقه مثل ديوان الاحكام الكبرى واحكام ابن سهيل أو كتب النوازل. ولكن لا بد من الإشارة الى كتب الحسبة وأهميتها في دراسة الحياة الاقتصادية ـ صناعة وتجارة وتنظيماً.

والذين كتبوا في الحسبة في مشارق دار الاسلام ومغاربها كثر، إلا اننا نقتصر هنا على اثنين لتوضيح دور مثل هذه الكتب في تزويدنا بالمعلومات الهامة عن المواضيع التي نشير إليها الآن. المؤلفان هما السقطي وابن عبدون.

كان أبو عبد الله محمد بن أحمد السقطي فقيهاً عالماً رحالة من أهل مالقة في الأندلس، وقد تولى عمل المحتسب في تلك المدينة أواخر القرن الحادي عشر أو أوائل القرن الثاني عشر للميلاد. ويبدو انه وضع كتابه «في آداب الحسبة» وهو بعد في تلك الولاية. والكتاب مقسم الى ثمانية أبواب بعد مقدمة تناول المؤلف فيها الحسبة بشكل عام. وقد أفاد مؤلفان مغربيان متأخران من كتاب السقطي هما عبد الرحمن الفاسي من أهل القرن الحادي عشر (السابع عشر) إذ ضمّن مادته تحت علم الحسبة في «كتاب الاقنوم في مبادىء العلوم»، أما الثاني فهو مجهول الاسم، ولكن أثر السقطي يبدو واضحاً في مخطوط اسمه «التيسير في أحكام التسعير». وقد أشير فيه الى السقطي بالمالقي، أي نسبة الى مدينته.

وقد عرّفنا السقطي بكتابه في مقدمة لطيفة جاء فيها:

«الحمد لله الذي علّمنا ما لم نكن نعلم، وفهّمنا ما لم نكن نعرف ولا نفهم، وصلى الله على محمد نبيّه ورسوله وسلّم، وعلى آله الطيّبين الطاهرين وشرف وكرم.

«وبعد، فاني لكثرة ما لزمت من الأسفار، وحملت من البلاد والأقطار، أيام رحلتي، وعنفوان شبيبتي وقوتي، وعرفني ثقات المسافرين، وأمناء التجار المتجولين، ألسنة الزمان، وحداث الحوادث من مكان الى مكان، مع ما تصرفت فيه من الاشغال، وظهرت عليه بسبب الاشتغال، ونبهني على جلائه من رغب مني القرب، ونصح في الكشف عنه من أظهر في ولايتي الاعتقاد والحب، ممن كان شاهد واختبر، واستغنى بالتجربة عن الخبر، وحسنت في ذات الله نيته، وكرمت سجيته وطويته، وتحصل في فهمي، وتقرر في حقيقة علمي، من أخبار مفسدي الباعة والصناع بالأسواق وغشهم في الكيل والميزان وبخسهم واستعمالهم الخدع للناس في معاملتهم، والتلبيس عليهم في مداخلتهم وملابستهم. واحراز الحسبة عليهم وتقلد النظر في أمورهم من لا يحسن لذلك تناولا، ولا يعرف من الحلال والحرام مفصلاً ولا مجملاً، ما لم يسعني معه الا التنبيه على مكرهم، والقول بالمعروف في نكرهم، لقول الله تعالى وتبارك، ﴿ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولائك هم المفلحون﴾ مع أن الخطة لم تزل عظيماً شأنها، رفيعا مكانها، وسيطة بين خطة القضاء والمظالم تجاذبهما في وجوه وتشاركهما، وتماثلهما في أمور وتشابكهما، فتجمع بين نظر شرعي وزجر سلطاني موقوفة على هيئة متقلدها وتنفيذ الحقوق للمعترف بها».

وممن خلّف كتاباً نفيساً في شؤون الحسبة وواجبات المحتسب محمد بن أحمد بن عبدون من أهل اشبيلية. والمؤلف غير معروف إذ لم يترجم له أحد. وكل ما أمكن الوصول اليه، عن طريق دراسة المادة التي خلّفها دراسة داخلية، هو أنه عاش في اشبيلية في أواخر القرن الحادي عشر أو أوائل القرن الثاني عشر، أي في الفترة التي تمتد من اعتلاء المعتمد عرش اشبيلية سنة ٤٦١/ ١٠٦٨ الى انتهاء حكم المرابطين للمدينة سنة ٥٤١/ ١١٤٧. (احتل المرابطون اشبيلية سنة ٤٨٤/ ١٠٩١ وظلوا يحكمونها الى ان انتزعها منهم الموحدون). وليس لدينا ما يؤكد أن الرجل تولى منصب الحسبة.

لكن كتابه حافل بالمعلومات التي يفيد منها المؤرخ الاجتماعي الاقتصادي فوائد كبيرة جداً. وقد وضع ابن عبدون رسالته في القضاء والحسبة: «نظراً منه لطيب نفسه، واخلاص وده، وصحة يقينه، وطويته، ونصحه للمسلمين ـ حرسهم الله ـ على طريق الاحتساب عليهم، والتسديد لشأنهم، واصلاح احوالهم وأفعالهم، والنظر لهم، والجري الى الخير والعمل به والسعي الى العدل والتعلق به، ومن تغيير المنكر والعصيان المشهور، قمع الظلم والجور، ان قدر على ذلك، فالعدل أبداً مألوف والخير محبوب، والقوام مرغوب والخلاف مرفوض، والشر مبغوض، والحق أبلج والباطل معوج، والاهمال والغفلة، تكون الفقر والقلة، والسبب ان كل فساد وعلة، فيكثر الهرج والفساد، ويكون ذلك داعية لخراب البلاد وجلاء العباد».

والذي رمى اليه المؤلف هو التشديد على السلطان بأن يحسن اختيار اصحاب المناصب الذي يعهد اليهم الاشراف على الشؤون العامة كصاحب المواريث والقاضي والحاكم والمحتسب[٨].

٥ ـ ملاحظات جغرافية

وصف الجغرافيون العرب الأندلس بأنها مثلث، واتخذوا لكل رأس من رؤوس المثلث الثلاثة نقطة مرتبطة بأسطورة وهي: صنم قادس في الطرف الجنوبي الغربي، ونقطة على خط عرض البليار، وبوابة هرقليس على مقربة من كوروثة في الشمال الغربي[٩].

على أن الجغرافي الذي أدرك بحسه العلمي الصحيح حقيقة الوضع الطبيعي للأندلس هو أحمد الرازي. فهو صاحب القول بأن الأندلس أندلسان من حيث الرياح والامطار والأنهار. فثمة أندلس غربية وأندلس شرقية. فالغربية هي التي تتحدر أنهارها غرباً نحو البحر المحيط، وتتحكم الرياح الهابة من الغرب في الأمطار الساقطة هناك. أما الأندلس الشرقية فتتحكم الرياح الشرقية بأمطارها، وتتجه أنهارها نحو البحر الشامي (أي المتوسط)[١٠]. كما أن الرازي فهم أهمية الجبال الاسبانية واتجاهاتها. فهو يرى أن في اسبانية ثلاثة جبال. فيقول في ذلك:

«وليس في الأندلس على ما عرفناه في الحقيقة الا ثلاثة جبال تقطعه مستعرضة من البحر الى البحر، ولا يقطع هذه الجبال نهر في أي موضع من مواضعها. وفي هذه الجبال حصون منيعة لكل حصن منها الأراضي الواسعة الكثيرة الخيرات. وأول هذه الجبال جبل قرطبة Sierra Morena ومبتدأه في شرق الأندلس عند ساحل البحر الذي يتوسط الأرض ماراً ببلنسية وباجة اشطمبار واقليم الجوف ومنتهاه عند البحر الغربي الكبير.

«أما الجبل الثاني فمبتدأه عند ساحل البحر الشرقي مقبلاً من ناحية أربونه، وهو الحاجز بين الأندلس وبلاد افرنجة، والفرنجة تسميه جبل رنشفالة Roncesvalles، ويسير موازياً لبلد بشقاية vizcaya وبلد اشتريس ومنتهاه عند البحر في جليقية في أقصى الشمال.

«والجبل الثالث فمبتدأه عند البحر المتوسط مجاوراً لطرطوشة، ويمر غير بعيد من قرطبة ومنتهاه عند البحر الغربي على خمسة عشر مجرى من الاشبونة»[١١].

وعندما تكلم الرازي عما يصح تسميته الجغرافية الإدارية أو السياسية للأندلس فانه يفرق بين الكور والمدن. فالكورة قسم إداري، والمدينة في الأندلس، مثل الكورة، قسم إداري له إقليم واسع يشتمل على مدن وقرى وحقول واسعة. والمدينة على ما يرى حسين مؤنس، كورة عسكرية تقوم في مناطق الثغور أو في منطقة هامة عسكرياً[١٢]. ويمكن توضيح الفرق بين الكورة والمدينة بالرجوع الى عبارة الرازي في مثلين: الأول، عن كورة بلنسية. والثاني، عن مدينة أشقة.

«كورة بلنسية: ويتصل بحوز كورة تدمير حوز كورة بلنسية، وهي شرق من تدمير وشرق من قرطبة، ولخطة بلدها مسافة بعيدة، ومنافعها لاهلها عظيمة. جمعت البر والبحر والزرع والضرع، ولها السهل والجبل.

«وبها مدن عظيمة وحصون قديمة، فمن مدائنها مدينة بلنسية، وهي المعروفة بمدينة التراب، ولها حصن أرغيرة، ودانية وهي على ضفة البحر، ولها أقاليم كثيرة متسعة، ومرساها من أعجب المراسي، وجميع أقاليمها وجبالها مغترسة بالكروم وأشجار التين والزيتون، ومدينة الجزيرة، ومبتناها على نهر شقر.

«ولها من المدن والمعاقل حصن شاطبة، وهو قديم أولى مطل على بطاح وأنهار، ومدينة مربيطر، ولها قصر يطل على بطحائها وعلى البحر، يحار فيه الناظر وتعجز عنه الحكاية.

«ويتصل بها أقليم بريانة، ولها أرض طيبة، ولها مدينة أنده، وهي كثيرة المياه غزيرة الفواكه، فيها معدن حديد. ولها مدينة شبرب، يجود فيها القمح والكتان. ولها حصن شارقة وغيره من الحصون، ومدينة جزيرة شقر فيما بين بلنسية وشاطبة»[١٣].

«وتتصل أحواز مدينة أشقة بأحواز مدينة تطيلة»، «وهي في جوفي أشقة وشرقي قرطبة»، حازت الغاية من شرف البقعة، وحوت طيب الزرع ودر الضرع وكثرة الثمار والأنهار. «وأنهارها كلها تنصب في نهر ابره»، ويطيف بجنات تطيلة نهر كالش، وهي أقصى ثغور المسلمين وباب من الأبواب التي يدخل منها الى أرض المشركين، «وعند باب تطيلة القنطرة المقامة على نهر ابره، وتحت أقواس القنطرة الارحاء التي تدفعها مياه النهر أبداً»، واختطت تطيلة في ايام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية. «وكان الذي اختطها عمروس بن يوسف، وكان يوسف هذا عاملاً على سرقسطة وتوابعها».

«ومن كبار مدائنها طرسونة» وكانت مستقر العمال والقواد بالثغور، وكان أبو عثمان عبيد الله بن عثمان المعروف بصاحب الأرض اختارها محلاً وآثرها على مدن الثغور منزلاً، وكانت ترد عليه عشر مدينة أربونه وبرشلونة. ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة عند تكاثر الناس بتطيلة، وايثارهم لها لفضل بقعتها واتساع خطتها.

«ولاقليم تطيلة مدن وحصون كثيرة، أخصها ارنيط Arnedo وهي مدينة أولية. وهناك أيضاً مدينة قلهرة ومدينة تاجرة وبقيرة Viguera ولها حصن في غاية المنفعة على ضفة نهر يفصل بينها وبين الجبل المطل عليها»[١٤].

ونجد ابن حوقل، بعد أن يصف جزيرة الأندلس من حيث احاطة البحر بثلاث من جهاتها ومجاورة البر للجهة الرابعة يقول: «فينتهي من الأندلس حدان: حد الى دار الكفر وحد الى البحر المحيط»[١٥].

وما أكثر ما وردت أسماء المدن الأندلسية على ألسنة الجغرافيين، حتى قبل القرن الرابع/ العاشر. وقد لفت هذا الأمر، أي كثرة المدن في الأندلس، نظر المؤرخين عبر العصور[١٦]. وقد أشار الاصطخري الى أنها أكثر المدن جاهلية، أي إنها تعود الى أيام قبل دخول العرب الى الأندلس. وقال ان المدن التي بناها العرب قليلة وذكر بجانة وشنترين[١٧]، والى مثل هذا ذهب ابن حوقل[١٨]. ويذكرنا ليفي بروفنسال بأن أغلب المدن التي عرفتها اسبانية من أيام الرومان ظلت قائمة بعد الفتح العربي. ويضيف ان المدن التي بناها العرب أقاموها في مناطق ذات أهمية عسكرية ـ برية أو بحرية ـ للدفاع ضد هجوم من الخارج، مثل

مرسية والمرية. وقد حافظت المدن على الصيغ القديمة، انما عربت لتستقيم ولفظ العربية[١٩].

٦ ـ بعض النصوص الجغرافية

اكتفينا، في هذا البحث المقتضب، بالاهتمام بالجغرافيين الذين عاشوا فيما يمكن ان يسمى عصر ابن زيدون، أي في القرنين الرابع/ العاشر والخامس/ الحادي عشر، وأشرنا الى الادريسي. هذا، مع العلم بأنه تأخر نحواً من القرن عن أيام ابن زيدون، وذلك لأنه يمثل الدقة في التحري، ولأنه عرف الأندلس معرفة شخصية.

ونود أن نختم هذا البحث بمختارات من بعض الجغرافيين الذين أشرنا اليهم، رغبة منا في أن يتعرف القرّاء إلى الأدب الجغرافي الخاص بالأندلس.

يقول الاصطخري عن الاندلس:

وأما الغربي من المغرب فهو الأندلس، والأندلس بلدان عريضة كثيرة المدن خصبة واسعة، ومدينتها العظمى تسمى قرطبة، وهي من الأندلس في وسطها، والذي يحيط بالأندلس البحر المحيط، ثم يطوف بحر الروم بها الى أرض افرنجة، فيأخذ من مدينة شنترين الى أخشنبة ثم الى اشبيلية ثم الى سدونة ثم الى الجزيرة ثم الى مالقة ثم الى بجانة ثم الى بلاد مرسية على مدينة لقنت الى بلاد بلنسية ثم الى طرطوشة وهي آخر المدن التي على البحر، ثم يتصل من جهة البحر ببلاد الافرنجة، ومن جهة البر يتصل ببلاد علجسكس، وهي بلاد حرب من النصارى، ثم يتصل ببلاد بسكونس وهم أيضاً نصارى، ثم يتصل ببلاد الجلالقة وهم نصارى أيضاً فينتهي من الأندلس حدان الى دار الكفر وحدان الى البحر، وهذه المدن التي ذكرناها على الشط كلها مدن كبار عامرة، والأندلس في أيدي بني أمية ما افتتحت لبني العباس ولا قدر عليها عبيد الله، ولما زالت دولة بني مروان، عبر اليها من أزيلة المغرب الى جزيرة جبل طارق بعض بني أمية فتغلب عليها، فهي في أيديهم الى وقت تصنيفنا هذا الكتاب. ومن مشاهير مدن الأندلس جيان وطليطلة ونفزة وسرقصطة ولاردة ووادي الحجارة وترجالة وقورية وماردة وباجة وغافق ولبلة وقرمونة ومورور واستجة ورية، وهي كلها مدن عظام، وليس فيها ما يقارب قرطبة في العظم والكبر، وأكثر أبنيتها من حجارة، وهي أبنية جاهلية لا تعرف فيها مدينة محدثة الا بجانة، فانها محدثة في حد بلاد يقال لها البيرة وشنترين التي على البحر المحيط بها يقع العنبر، ولم نعلم ببحر الروم والبحر المحيط موضع عنبر الا بشنترين وشيء وقع في أيام مقامي بالشام بسواحل الروم، وتقع بشنترين في وقت من السنة من البحر دابة، تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبر في لين الخز، لونه لون الذهب لا يغادر منه شيئاً، وهو عزيز قليل فيجمع وتنسج منه ثياب، فتتلون في اليوم ألواناً، ويحجر عليها ملوك بني أمية، ولا ينقل الا سراً، وتزيد قيمة الثوب على ألف دينار لغزته وحسنه. ومالقة سكانها عرب، وبها السفن الذي تتخذ منه مقابض السيوف، وجزيرة جبل طارق منها افتتح الأندلس في أول الاسلام، وجبل طارق جبل عامر حصين بالقرى والمدن،

وهو آخر المعابر بالأندلس. وطليطلة مدينة في جبل عال، بناؤها من حجارة قد وثقت بالرصاص، وحواليها سبعة أجبل كلا عامرة منيعة مسكونة، وحولها نهر عظيم يقارب في الكبر دجلة، واسم هذا النهر تاجه، يخرج من بلد يقال لها شنتبرية. ووادي الحجارة مدينة هي وما حواليها من المدن والقرى تعرف بمدن بني سالم، ورية كورة عظيمة خصيبة، ومدينتها أرجدونة ومنها كان عمر بن حفصون، الذي خرج على بني أمية بها، وفحص البلوط كورة خصبة واسعة ومدينتها غافق، وقورية مدينة كانت كبيرة الا أنها خربت بعصبية وقعت بينهم، فاستعان أحد الفريقين بالجلالقة النصارى حتى خربوها، وماردة من أعظم مدن الأندلس، وكذلك طليطلة، وهما ممتنعتان ليس بهما عامل لبني أمية، الا انه يخطب بهما لهم، وشنترين كورة عظيمة ومدينتها قلمرية. وثغور الجلالقة ماردة ونفزة ووادي الحجارة وطليطلة، ومدينة الجلالقة مما يلي ثغور الأندلس يقال لها سمورة، وعظيم الجلالقة بمدينة يقال لها أبيط، هي بعيدة عن بلدان الاسلام، وليس في أصناف الكفر الذين يلون الأندلس أكثر عدداً من الافرنجة، ويقال لملكهم قارله، غير ان الذين يلون المسلمين منهم أقل من سائر أجناس الكفر، لدخولهم في البحر، والحاجز الذي بينهم وبين الافرنجة من بلدان الشرك من غيرهم، ثم الجلالقة يتلونهم في الكثرة، وأقلهم عدداً البسكونس وهم أشد شوكة، والذين يتلون البسكونس من ثغور الأندلس سرقسطة وتطيلة ولاردة، ويليهم قوم من النصارى يقال لهم علجسكس أقلهم غائلة، وهم الحاجز بينهم وبين الافرنجة[٢٠].

وعندنا وصف شاهد عيان للأندلس من قلم ابن حوقل. ومن هذا الوصف نقتصر على ما يلي:

«وبالأندلس غير طراز يرد الى مصر متاعه وربما حمل منه شيء الى أقاصي خراسان وغيرها. ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان الروقة من سبي افرنجة وجليقية والخدم الصقالبة، وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الأندلس، لأنهم عند قربهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود والصقالبة قبيل من ولد يافث، وبلدهم مستطيل واسع ولغزاة خراسان في ناحية البلغار بهم اتصال، فهم إذا سبوا الى هنالك تركوا فحولة على أحوالهم مقرورين على صحة أجسامهم، وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح، والخليج الآخذ من البحر المحيط بنواحي ياجوج وماجوج يشق بلدهم ويستمر مغرباً الى نواحي اطرابزنده ثم الى القسطنطينية ويقطع ناحيتهم بنصفين: فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخرسانيون ويصلون، والنصف الشمالي يسبيه الأندلسيون من جهة جليقية وافرنجة وانكبردة وقلورية، وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله، وسأذكر جميع ما بها من المجالب في جملة ما يرد من المغرب من التجارة والجهاز.

«وبالأندلس الزئبق والحديد والرصاص، ومن الصوف قطع كأحسن مما يكون من الأرمني المحفور الرفيع الثمين الى حسن ما يعمل بها من الانماط. ولهم من الصوف والاصباغ فيه وفيما يعانون صبغه بدائع بحشائش تختص بالأندلس، تصبغ بها اللبود المغربية

المرتفعة الثمينة والحرير وما يؤثرونه من الوان الخز والقز، ويجلب منها الديباج، ولم يساوهم في أعمال لبودهم أهل بلد على وجه الأرض، وربما عمل لسلطانهم لبود ثلاثينية يقوم اللبد منها بالخمسين والستين ديناراً، غير انه قد جعل عروضها خمسة وستة أشبار فهي من محاسن الفرش، ويعمل عندهم من الخز السكب والسفيق ما يزيد ما استعمل منه للسلطان على ما بالعراق، ويكون منه المشمع فيمنع المطر أن يصل الى لابسه. وأما أسعارهم فتضاهي النواحي الموصوفة بالرخص وكثرة الخير والسعة. وفواكههم مع طيبة فيها وسطة فكالمباحة التي لا ثمن لها. ويعمل في أقطار بلدهم من الكتان الدني للكسوة ويجلب الى غير مكان، حتى ربما وصل الى مصر منها الكثير. فأما أرديتهم المعمولة ببجانة فتحمل الى مصر ومكة واليمن وغيرها ويستعمل عندهم للعامة وللسلطان من الكتان ثياب لا يقصر عن الديبقي ما كان منها صفيقاً، ومن السلس الدقيق ما يستحسنه من لبس الشرب ويضاهي رفيع الشطوى الجيد، وقل سوق بها يصير اليه أهله الا على الفاره من المركوب، ولا يعرف فيهم المهنة والمشي الا أهل الصنائع والارذال، وتختص بالبغال الفره وبها يتفاخرون ويتكاثرون. ولهم منها نتاج ليس كمثله في معادن البغال المذكورة وأصقاعها المشهورة من أرمينية والران وباب الأبواب وتفليس وشروان، لأنها تبدن وتصنع وتنجب ويجلب اليهم منها شيء حسن الشية عظيم الخلق كثير الثمن من جزيرة ميرقة، وهي جزيرة لعبد الرحمن بن محمد فيها المسلمون منقطعة، تلي ناحية افرنجة واسعة الخير كثيرة الثمار رخيصة الماشية لكثرة المراعي غزيرة النتاج والمواشي معدومة الحوائج قليلة الآفة، وليس بها عاهة ولا وحش يؤذيهم في سائمتهم. ورأيت منها غير بغل يبيع بخمس مائة دينار واليها يرغب ملوكهم بمراكبهم واياها يستوطئون ويؤثرون فيما يركبون. فأما ما يبلغ منها المائة والمائتي دينار فأكثر من ان يحصى، وليس ذلك لأنها أزيد على البغال الموصوفة بحسن السير وسرعة المشي فقط، بل جمعت مع ذلك عظم الخالق وحسن الشيه الى اختلاف الألوان الصافية والشعور الدهينة المشرقة والصحة على مر الأيام، مع الصبر على الكد والعسف»[٢١].

والمقدسي، مع انه لم يزر الأندلس، فقد تحقق من الروايات التي بلغته، ولذلك نرى لزاماً علينا أن ننقل شيئاً، ولو قصيراً، مما دون في كتابه. يقول: «قرطبة هي مصر الأندلس سمعت بعض العثمانية يقول هي أجل من بغداد في صحراء يطل عليها جبل ولها مدينة جوانية وربض الجامع في المدينة. وأسواق وأغلب الأسواق ودار السلطان في الربض قدامها واد عظيم سطوحهم قراميد الجامع من حجر وجيل وسواريه رخام. حواليه مياض وللمدينة خمسة أبواب باب الحديد باب العطارين باب القنطرة باب اليهود باب عامر. وقد دلت الدلائل واتفقت الآراء على انه مصر جليل رفق طيب وان ثم عدلاً ونظراً وسياسة وطيبة ونعماً ظاهرة وديناً وان ناحية الأندلس. على سجية هيطل أبدا ثم غزاة أبدا في جهاد ونفير. مع علم كثير وسلطان خطير وخصائص وتجارات وفوائد. وحدثني بعض الأندلسيين انها ثلاثة عشر رستاقاً، على خمسة عشر ميلاً أرجونة مسورة ليس لها بساتين وأشجار لكنها بلد الحبوب

ولهم عيون ومزارعهم على المطر. وقسطلة على ثلاثة عشر ميلاً من ارجونة وهي في سهلة كثيرة الأشجار والزيتون والكرمات ومشاربهم من آبار ويسقون البساتين بالسواني. شوذر على ثمانية عشر ميلاً من قرطبة وهي في سهلة كثيرة الزيتون جداً شربهم من أعين. مارتش على خمسة عشر ميلاً من قرطبة وهي جبلية ليس لها غير الكرمات ولهم أعين. وقنبانش على خمسة عشر ميلاً وهي سهلية ذات مزارع اكثرها بموضع يقال له قنبانية مشاربهم من آبار. وفج ابن لقيط على خمسة وعشرين ميلاً في سهلة كثيرة المزارع شربهم من آبار. وبلاط مروان على بعد ثلاثين ميلاً لها واد جرار سهلية ذات مزارع. وبريانة ذات مزارع سهلية شربهم من آبار وفيها حصن من حجارة والربض حوله والجامع في الحصن والأسواق في الربض. وحصن بلكونة كثيرة الزيتون والاشجار والعيون مسورة بحجارة شربهم من عين واحدة وآبار على أربعين ميلاً من قرطبة. الشنيدة على جبل كثيرة الكروم والمزارع والتين والعنب شربهم من أعين وآبار على يومين من قرطبة»[٢٢].

وقد خص الأدريسي الأندلس بقسط وافر من كتابه «نزهة المشتاق». وها نحن أولاً ننقل عنه قطعتين ـ الواحدة عن طليطلة والأخرى عن ألمرية.

يقول الأدريسي عن طليطلة:

«ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها وأنهار جارية مخترقة. ودواليب دائرة، وجنات يانعة، وفواكه عديمة المثال، لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة، وقلاع منيعة، تكتنفها. وعلى بعد منها في جهة الشمال الجبل العظيم المتصل المعروف بالشارات، وهو يأخذ من ظهر مدينة سالم الى أن يأتي قرب مدينة قلمرية. وفي هذا الجبل من الغنم والبقر الشيء الكثير الذي يتجهز به الجلابون الى سائر البلاد، ولا يوجد شيء من أغنامه وأبقاره مهزولاً، بل هي في نهاية السمن، ويضرب بها في ذلك المثل في جميع أقطار الأندلس، وعلى مقربة من طليطلة قرية تسمى بمغام، وجبالها وترابها الطين المأكول، الذي ليس على قرارة الأرض مثله، يتجهز به منها الى أرض مصر وجميع بلاد الشام والعراقات وبلاد الترك، وهو نهاية في لذاذة الأكل، وفي تنظيف غسل الشعر، ولطليطلة في جبالها معادن الحديد والنحاس، ولها من المنابر في سفح هذا الجبل مجريط، وهي مدينة صغيرة، وقلعة منيعة معمورة، وكان لها في زمن الاسلام مسجد جامع، وخطبة قائمة، ولها أيضاً مدينة الفهمين، وكانت مدينة متحضرة، حسنة الأسواق والمباني، وبها مسجد جامع، ومنبر وخطبة، وهي كلها اليوم مع طليطلة في أيدي الروم وملكها من القشتاليين، وينتسب الى الاذفونش الملك»[٢٣].

أما ألمرية فيقول عنها:

«ومدينة ألمرية كانت في أيام الملثم مدينة الاسلام، وكان بها من كل الصناعات كل غريبة، وذلك انه كان بها من طرز الحرير ٨٠٠ طراز، يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهاني والجرجاني، والستور المكللة والثياب المعينة، والخمر والعتابي، والمعاجر،

وصنوف أنواع الحرير. وكانت ألمرية قبل الآن يصنع بها من صنوف الآلات النحاس والحديد، الى سائر الصناعات، ما لا يحد ولا يكيف، وكان بها من فواكه واديها الشيء الكثير الرخيص، وهذا الوادي المنسوب الى بجانة Bichena بينه وبين المرية ٤ أميال، وحوله جنات وبساتين وأرحاء، وجميع نعمها وفواكهها تجلب الى المرية، وكانت المرية اليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية والشام كله، ولم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها مالاً. ولا أنجز عنهم منهم في الصناعات وأصناف التجارات تصريفاً وادخاراً.

«وألمرية في ذاتها جبلان وبينهما خندق معمور، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة. والجبل الثاني منهما فيه ربضها ويسمى جبل (لاهم) Lahem والسور يحيط بالمدينة وبالربض. ولها أبواب عدة ولها من الجانب الغربي ربض كبير عامر يسمى ربض الحوض، وهو ربض له سور عامر بالأسواق والديار والفنادق والحمامات. والمدينة في ذاتها مدينة كبيرة كثيرة التجارات، والمسافرون اليها كثيرون وكان أهلها مياسير، ولم يكن في بلاد أهل الأندلس أحضر من أهلها نقداً، ولا أوسع منهم أحوالاً، وعدد فنادقها التي أخذها عد الديوان في التعيين ألف فندق، الا ثلاثين فندقاً، وكان بها من الطرز أعداد كثيرة، قدمنا ذكرها. وموضع ألمرية من كل جهة استدارت به صخور مكدسة، وأحجار صلبة مضرسة، لا تراب بها، كأنما غربلت أرضها من التراب وقصد موضعها بالحجر، والمرية في هذا الوقت الذي ألفنا كتابنا فيه صارت ملكاً بأيدي الروم، وقد غيروا محاسنها وسبوا أهلها، وخربوا ديارها، وهدموا مشيد بنيانها، ولم يبقوا على شيء منها»[٢٤].

الهوامش

(١) شوقي ضيف، **ابن زيدون** (بيروت، ١٩٥٣)، كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، **ديوان ابن زيدون** (القاهرة، ١٣٥١/ ١٩٣٢). علي عبد العظيم، **ابن زيدون** (القاهرة، ١٩٥٥، EI2 مادة ابن زيدون).

(٢) اغناطيوس كراتشوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، القسم الأول (القاهرة، ١٩٦١؟) في الفصلين ٢ و٣.

(٣) لن نتحدث عن جميع الجغرافيين المغاربة أو الأندلسيين، ولكنا سنقتصر على البعض. ومن شاء الاطلاع على دراسة وافية مستفيضة فعليه بكتاب حسين مؤنس، **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس**، (مطبعة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد ١٣٨٦/ ١٩٦٧).

(٤) حسين مؤنس، ص ٥٦ و٥٩ ـ ٦٠.

(٥) EI Levi-Provençal, "La Description de l'Espagne de Razi", in *Al-Andalus*, Vol. XVIII (1953), PP. 51-108.

(٦) حسين مؤنس، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤.

(٧) راجع طبعة حديثة له أعدها شارل بلا (ليدن، ١٩٦١) باسم *Le Calendrier de Cordove* ضمنها بالاضافة الى الأصل العربي والترجمة اللاتينية (غير المطابقة للاصل تماماً) ترجمة فرنسية. قابل بخصوص المؤلف والكتاب مقدمة طبعة بلا وما جاء في كتاب: L. Levi-Provençal, *Histoire de l'Espagne Musulmane*. Vol. III (Paris 1953), p 240.

(٨) راجع: نقولا زيادة، **الحسبة والمحتسب في الاسلام**، (بيروت، ١٩٦٣) ص ٥٦ ـ ٥٨.

(٩) EI2, *Al-Andalus*, قابل الادريسي ص ١٧٣.
(١٠) AL Andalus, XVIII (1953)p. 60-61
(١١) حسين مؤنس ص ٦٣ ـ ٦٤.
(١٢) حسين مؤنس ص ٦٥ ـ ٧٠.
(١٣) حسين مؤنس ص ٦٦ ـ ٦٧.
(١٤) حسين مؤنس ص ٦٩ ـ ٧٠.
(١٥) ابن حوقل (ليدن، ١٩٣٨) ص ١٠٥.
(١٦) EI2, *Al-Andalus*.
(١٧) الاصطخري، **المسالك والممالك**، (القاهرة) ص ٣٥.
(١٨) ابن حوقل، ص ١٠٥.
(١٩) EI2, *Al-Andalus*.
(٢٠) الاصطخري، ص ٣٥ ـ ٣٦.
(٢١) ابن حوقل، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ و١٠٩ ـ ١١٠.
(٢٢) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٢٣) الشريف الإدريسي، **صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، (ليدن، ١٨٦٤) ص ١٩٧ ـ ١٩٨.
(٢٤) الإدريسي، ص ١٨٨.

كتب الفلاحة الأندلسية

«هذه الصناعة (الفلاحة) ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب، بالقيام على اثارة الأرض لها وازدراعها، وعلاج نباتها، وتعهده بالسقي والتنمية الى بلوغ غايته؛ ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه واحكام الأعمال لذلك، وتحصيل اسبابه ودواعيه. وهي اقدم الصنائع لما انها محصلة للقوت المكمل لحياة الإنسان غالباً، إذ يمكن وجوده من دون جميع الأشياء الا من دون القوت». ابن خلدون، المقدمة (بيروت، ص ٢، ١٩٦١) ص ٧٢٣.

مقدمة

كان أمامَ العاملين في الترجمة والنقل، في القرن الرابع/ العاشر، بضعة كتب في الفلاحة معروفة باللغة السريانية أو اليونانية، بحيث يمكن ان ينقل منها الى العربية. أما الكتاب السرياني اللغة فهو ترجمة لمدونة وضعها اناضولي (انطولي) البيروتي في القرن الرابع الميلادي، وكانت في أثني عشر باباً. وقد كانت مادة انضولي في اصلها مما عرفه الكلدانيون وما كتب باللغة الآرامية. هذه المدونة نقلها سيرجيوس الرأسعيني (تو. سنة ٥٣٦م) الى اللغة السريانية[١]. وكان ثمة كتاب باليونانية ألفه نيقولاوس الدمشقي سنة ٦٤ ق. م[٢]. فضلاً عن ذلك فقد عرف كتابان آخران الواحد في الفلاحة اليونانية من تأليف قسطوس(؟) الذي يرى بييكروسا انه مبني على كتاب انضولي البيروتي[٣] وانه أعد في القرن العاشر في ايام الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ ـ ٩٥٩م) البزنطي؛ أما الآخر فهو الكتاب المعروف باسم جيوبونيكا Geoponica والذي الفه كاسيانوس باسوس Cassianos Bassus بناء على طلب الامبراطور قسطنطين المذكور[٤].

والذي نعرفه ان قسطا بن لوقا البعلبكي نقل، فيما نقل، كتاباً في الزراعة عرف باسم الفلاحة اليونانية. وهنا نواجه سؤالاً معقداً: أي الكتب الأربعة كان الكتاب الذي نقله البعلبكي الى العربية؟

المشكلة هي اننا لا نعرف تماماً متى توفي قسطا بن لوقا، إذ ان هناك روايات ثلاثاً تحدد سنة وفاته ٩١٢ و٩٢٢ و٩٣٢م. فالرجل توفي عند سنحاريب صاحب أرمينية، ومن ثم فإن سنة وفاته ظلّت مجهولة. فإذا أخذنا بالرواية المتأخرة فقد يكون قسطا بن لوقا قد عرف الكتابين الآخيرين (هذا ان لم يكن الكتابان هما في الواقع كتاب واحد). فالرجل كان يدخل بلاد الروم، وكان يجيد اليونانية وكان طُلَعة؛ ومعنى هذا ان مثل أي من هذين الكتابين لا يمكن ان يفوته الاطلاع عليه. اما إذا كانت وفاة قسطا بن لوقا قد جاءت سنة ٩١٢، فلا شك ان أياً من الكتابين لم يكن قد وضع. وعندها فان الكتاب الذي نقله قسطا الى العربية هو واحد من

اثنين: إما الترجمة السريانية لكتاب اناضولي أو الأصل اليوناني لكتاب نيقولاوس الدمشقي. [ونرى انه في أي من الحالتين كان لا بد لقسطا بن لوقا ان يضيف الى الأصل شيئاً بحيث لا يبدو الكتاب وكأنه كان قد بلغ نحو أربعمئة سنة من عمره في الحالة الأولى أو نحو عشرة قرون في الحالة الثانية].

على كل، فقد كان بين أيدي الدارس العربي كتاب في الفلاحة اليونانية، يشتمل على اثني عشر باباً أو فصلاً، يمكنه ان يفيد منه دارسا أو صاحب دور في الفلاحة.

على ان القرن الرابع/ العاشر عرف كتاباً آخر في الفلاحة هو الذي يحمل اسم ابن وحشية على انه مترجم له، وهو كتاب ضخم فيه تفصيل طويل لجميع الموضوعات المتعلقة بالفن الزراعي، بما في ذلك ما يخص الأفلاك وحتى بعض الأساطير. هذا الكتاب اسمه «الفلاحة النبطية»[٦]. وقد ادعى ابن وحشية انه نقل هذا الكتاب عن لغة «الكلدان او الكسدان». لكن الدراسات الدقيقة ادت الى قبول الرأي بان ابن وحشية كان المؤلف[٧]. وتوفيق فهد، الذي حقق الكتاب (ونشر منه جزأين فقط، والثالث في الطريق) لم يهتم بهذه القضية في المقدمة، ولكننا ننتظر رأياً له في الجزء الثالث. إلا أنه يضع تحت العنوان الكبير «الفلاحة النبطية» الترجمة المنحولة الى ابن وحشية.

ويبدو ان ابن وحشية لم ينتقل كتابه الى اسبانيا والمغرب بنصه العربي، ولو اجزاء منه، إلا في وقت متأخر، لكنه نقلت منه مختارات مطولة الى اللاتينية[٨].

وقد يفيدنا ان ننقل هنا رأي بييكروسا في كتاب ابن وحشية. فهو يقول: «[هو] أول كتاب ألفه العرب في الفلاحة... وهذا الكتاب مليء بالشواهد ومؤلفه رجل ضليع ذو تجربة وان لم يكن رجل علم حسب الاصطلاح الحديث. لذلك جاء الكتاب شبيهاً بفسيفساء من الشواهد والنصوص العربية والفارسية وشواهد ونصوص أخرى للأقدمين من المؤلفين الكلدانيين والسوريين وحتى بعض المؤلفين اليونانيين»[٩].

ولعله من المفيد هذا ان نشير الى كتاب يوناني الأصل هو كتاب «النباتات الطبية» Materia Medica وضعه ديوسقوريدس العين زربي (من اهل القرن الأول للميلاد). كان هذا الكتاب قد نقله اصطفن (اسطفان) بن بسيل (باسيل) من اللسان اليوناني الى اللسان العربي، وتصفح ذلك حنين المترجم فصحح الترجمة وأجازها. فما علم اصطفن من تلك الاسماء اليونانية في وقته له اسماً في اللسان العربي فسره بالعربية، وما لم يعلم له في اللسان العربي اسما تركه في الكتاب على اسمه اليوناني (لعله رسمه بالحروف العربية). وقد تم هذا النقل في ايام الخليفة العباسي جعفر المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧/ ٨٤٧ ـ ٨٦١) في بغداد[١٠].

ورد هذا الكتاب الى الأندلس وهو على النحو الذي ذكرنا وانتفع الناس به هنا كما انتفعوا به بالمشرق.

وفي ايام الخليفة الأموي الأندلسي هشام المؤيد بالله (حكم فترتين ٣٦٦ ـ ٣٩٩/ ٩٧٦

ـ ١٠٠٩ و٤٠٠ ـ ٤٠٣/ ١٠١٠ ـ ١٠١٣) جرت مراسلات ونقلت هدايا مع معاصره قسطنطين السابع امبراطور بزنطية (٩١٣ ـ ٩٥٩)؛ وكان بين هذه الهدايا كتاب ديوسفوريدس وهو مصور بصور ملونة للمواد النباتية الطبية الواردة فيه. هذه المخطوطة هي التي نقلها الراهب نيقولاوس الى اللغة اللاتينية، ثم تعاون هذا الراهب مع حسداي بن بشروط، وزير عبد الرحمن وأحد أطبائه، على نقل الكتاب الى العربية، وبذلك تمّ تفسير ما كان قد اغلق على اصطفن بن بسيل من قبل[١١].

وهناك تقويم قرطبة لسنة ٣٥٠هـ (٩٦١م) الذي يشتمل على اخبار هامة حول النشاط الفلاحي شهراً بشهر. والرواية تقول انه من وضع العارب بن سعد والراهب المستعرب ربيع بن زيد. وقد وضع اصلاً باللغتين العربية واللاتينية[١٢]. «وينسب الى الطبيب القرطبي الشهير ابي الكريم بن العباس الزهراوي (توفي ٤٠٣ ـ ١٠١٣) مؤلف صغير في الفلاحة»[١٣].

كتب اندلسية في الفلاحة

في القرن الخامس/ الحادي عشر نقع على عدد من كتب الفلاحة، أهمها تلك التي وضعها ابن وافد (٣٨٩ ـ ٤٦٧/ ٩٩٩ ـ ١٠٧٥) وابن حجاج (ألف ٤٦٤/ ١٠٧٠) وابن بصال(؟). فضلاً عن هؤلاء فقد كان ثمة عدد من كتب ملخصات أو ارشادات للفلاحين.

وهنا يجدر بنا ان نتوقف قليلاً عند قضية قد تبدو فريدة في تاريخ التأليف في الفلاحة، وخاصة في اسبانيا، وهي هذا الاهتمام الذي يكاد يكون طفرة في العناية بالزراعة في ايام ملوك الطوائف.

ثمة أمور يجب ان نتذكرها في سبيل ابداء رأي قد يفسر هذه الظاهرة. أولها ان قيام دول الطوائف، التي بلغ عددها اثنتين وعشرين دويلة، كان معناه قيام بلاطات كثيرة في انحاء البلاد. وكان اصحاب كل دويلة يريدون ان يظهروا بمظهر من العظمة والأهمية يقارب ما كانت عليه عاصمة الإمارة ثم الخلافة ـ قرطبة ـ قبل ذوبان الخلافة في مطلع القرن الخامس/ الحادي عشر. وهذه الظاهرة عرفت من قبل في الدول والدويلات التي قامت في ظلال الخلافة العباسية، لما وهن شأن السلطة المركزية. فقد قامت بلاطات حفلت عواصمها، وحتى بعض كبرى مدنها، بجميع مظاهر العظمة ـ قصوراً فخمة وجوامع كبيرة ومكتبات غنية. وكان الشعراء يقصدون هؤلاء الحكام متمدحين على نحو ما كانوا يفعلون في بلاط الخليفة. والأمر نفسه حدث في الأندلس.

وثاني هذه الأمور هو الاهتمام الكبير بالزراعة ونتاجها. كانت أقطار شمال اسبانية وغاليا (فرنسة) وحتى بعض المناطق النائية مثل انكلترا وبلاد الشمال قد ألفت استيراد غلات زراعية ومشتقاتها ـ من مواد غذائية أو ما يصلح لصنع الثياب ـ من الأندلس. وسقوط المدن الطوائفية الأندلسية في أيدي الاسبان في الشمال لم يمنع المدن الباقية (حتى سقوطها وبعضها حتى بعد سقوطها) من ان تستمر في تزويد هذه الأسواق بحاجاتها. ولنذكر على سبيل المثال لا الحصر، العنبر ومواد الصباغة والدباغة وأهمها القرمز والزعفران

والزيتون والزيت والفواكه المجففة وبعض أنواع الحبوب والحرير خيوطاً وأقمشة، ومثل ذلك يقال عن القطن، فضلاً عن المعادن كالفضة والذهب والزئبق والجلود والورق والمصنوعات الفخارية الجميلة وأهمها الزلاج(١٤).

وثالث ما يجب ان لا يغيب عن البال هو ان سكان أوروبة كانوا آخذين في الازدياد يومها (القرنين الحادي عشر والثاني عشر) وان معنى هذا ان حاجاتهم من هذه المواد المذكورة كانت تزداد. وإذاً فقد كان هناك دافع يحمل الناس على العمل في سبيل تزويد الاسواق الخارجية بما تتطلبه من السلع(١٥).

وإذا تذكرنا ان دور الأندلس في التجارة الدولية كان آخذا بالتقلص، خاصة بعد ان احتلها المرابطون ثم الموحدون بعدهم، لسبب قبض هؤلاء على السبل التجارية المختلفة، فقد أصبح من الضروري ان يزداد النتاج الزراعي كي يعوض عن الخسائر التي منيت بها التجارة الخارجية. هنا نقع على الأمر الرابع.

والاهتمام بالزراعة أدى الى الاهتمام بالكتابة عنها والتأليف فيها. ويبدو هذا واضحاً في الاهتمام بالناحية العملية وارشاد الزرّاع الى ما فيه خيرهم.

وسنتوقف قليلاً عند ابن وافد وابن حجاج، كي ننتقل الى ابن بصال فنتناول كتابه بشيء من العناية، لأنه كما استطعنا ان نستنتج، كان الأوفى في عمله، لأسباب نأمل ان نتمكن من توضيحها عندئذ.

نود أن نشير هنا إلى أمر مهم وهو ان هؤلاء كانوا، على ما يبدو، يعرف واحدهم الآخر، فهم متعاصرون، وقد تباحثوا، على ما يظهر، في بعض الأمور أحياناً.

كان ابن وافد من طليطلة. وكانت طليطلة في القرنين الرابع والخامس/ العاشر والحادي عشر، واحداً من مراكز العلم الكبرى في ديار العرب. وفي الواقع فان هذه المدينة لم تفقد اهميتها العلمية لما سقطت بأيدي الاسبان (٤٧٨/ ١٠٨٥) بل استمرت لها أهميتها وقامت بدور كبير في نقل التراث العلمي العربي الى أوروبة، إذ فيها ترجمت عشرات من الكتب العلمية والفلسفية من العربية الى العبرية واللاتينية في الفترة التي تلت الاحتلال، ولمدة طويلة نسبياً.

تمكن بييكروسا Vallicrosa من جمع نتف متناثرة عن حياة ابن وافد في كتابين من كتبه: الأول «كتاب الفلاحة» لابن بصال الذي نشره مع محمد عزيمان في تطوان سنة ١٩٥٥ ونقله الى الاسبانية مع مقدمة باللغتين (ص ١١ ـ ٣٦) العربية و(ص ٣٧ ـ ١١) الاسبانية؛ وفي كتيب اسمه «علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالأندلس»، تطوان ١٩٥٧ (وقد نقله الى العربية عبد اللطيف الخطيب).

ويمكن اجمال ما توصل اليه خوسي ماريا مياس بييكروسا Jose M. Millas Vallicrosa في الأمور التالية:

١ ـ اسمه الكامل هو ابو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن

وافد بن محمد اللخمي (٣٨٩ ـ ٤٦٧هـ/ ٩٩٩ ـ ١٠٧٤م). وهو الى كونه نباتياً كان طبيباً أيضاً. واسم كتابه «مجموع في الزراعة»[١٦].

٢ ـ «كانت طليطلة في القرن (الخامس) الحادي عشر يكتنفها جو علمي هائل حتى عندما كان المسيحيون يهددونها». وقد قال الملك المأمون من بني ذي النون (٤٢٩ ـ ٤٦٧/ ١٠٣٧ ـ ١٠٧٥)، مثل بقية أسرته، بضرورة حماية العلوم والآداب. وقد كان ابن وافد «ممن استفادوا من جو تلك الرعاية الذي كان يشمل طليطلة»[١٧].

٣ ـ اشاد المؤلفون بتبريز ابن وافد في الطب وعلم النباتات حتى ان معاصره بن سعيد [القاضي وأحد علماء الفلك]... قد اكثر من مدحه واطرائه في هذا الباب»[١٨].

٤ ـ عُهِدَ الى ابن وافد بطلب من الملك المأمون الطليطلي ان يغرس حديقة الملك الشهيرة التي يرجع اصلها الى هيام ابن وافد بالنباتات[١٩]. وهذه الحديقة سماها ابن الابار في كتاب التكملة «جنة المأمون»[٢٠].

٥ ـ كانت هذه الحديقة في الحقيقة حديقة نباتية غرست لتجربة بعض النباتات وتعويدها على المناخ... وخاصة النباتات الوافدة من الشرق الأدنى (المشرق) بقصد دراستها فيما بعد. وقد كانت هذه الحديقة على الجانب الأيسر من وادي التاجه[٢١].

٦ ـ وفيما يخص شكل العرض والايجاز فيه انه على العموم قصير. فعنوان الكتاب هو الديوان والمجموعة، ومع ذلك فاننا نجد المؤلف حريصاً على شرح المادة بكيفية موجزة مركزة. أضف الى ذلك ان ابن وافد يتفادى على العموم التحدث عن تطبيقات النباتات في شؤون الفلاحة أو الصيدلة، في حين ان تلك التطبيقات تشغل حيزاً كبيراً عند المؤلفين الآخرين... ولان ابن وافد كان قد خصص مؤلفاً كبيراً لدراسة الأدوية البسيطة، فما كان له ان يعود للتحدث عنها في ديوان مقصور على الفلاحة»[٢٢].

أما في ما يتعلق بابن حجاج فهو ابو عمر احمد بن محمد بن حجاج الاشبيلي. «ويبدو ان المصادر الأندلسية غمطته حقه، رغم شهرته العلمية في ذلك الوقت، فلا نجد في هذه المصادر ما يشفي الغلة وينير الظلمة. ولعل ذلك يعود الى اسلافه الثائرين باشبيلية.... فان اسلافه من بني حجاج كانوا من سادة اشبيلية ومن الثائرين فيها، فاغفلت سيرته لذلك»[٢٣]. وقد نقل عن الحلة السيراء انه ألف كتابه سنة ٤٦٤/ ١٠٧٠ ـ ١٠٧١. واسم كتاب ابن حجاج هو «المقنع» في الفلاحة. وقد كان ابن حجاج، فضلاً عن علمه بالزراعة، شاعراً وعالم فقه وحديث[٢٤].

ويرى محققا الكتاب ان ابن حجاج كان يحيط بالمؤلفات المعروفة في عصره في الفلاحة والنبات غربية (يونانية ورومانية) وشرقية (نبطية وعربية). وقد افاد من الخبرة العملية في الفلاحة، ومن ذلك تجارب الفلاحين في الأندلس ـ وبخاصة أهل طليطلة واشبيلية، واضاف الى ذلك تجاربه الخاصة[٢٥].

واخبار ابن بصال التي نوردها هنا مأخوذة هي الأخرى من كتابي بيكروسا اصلاً. فهو

عبد الله محمد بن ابرهيم ابن بصال، وقد ورد اسمه أيضاً ابن البصال والفصيل والفصال والبطّال[٢٦].

وقد ورد ذكر ابن بصال في عدد من الكتب التي وضعت بعد ايامه مثل «عمدة الطبيب في معرفة النبات لكل لبيب» المجهول المؤلف، والذي يبدو انه كتب في أواخر القرن الحادي عشر أو أوائل القرن الثاني عشر. فصاحب العمدة يردد صدى مذاكرات جرت بينه وبين ابن بصال في الأندلس، ولعلها كانت في قرطبة واشبيلية حيث توجه ابن بصال بعد سقوط طليطلة سنة ٤٧٨/ ١٠٨٥.

والنقول التالية أوردها اسين بلاسيوس وهو الذي درس كتاب عمدة الطبيب. «كان ابن بصال عارفا بالفلاحة علماً وعملاً لأنه كان مجرباً خبيراً بالزراعة وبارعاً فيها. وانا (مؤلف العمدة) قد رأيت هذا النبات في بستان السلطان وقد زرعه العارف بالفلاحة ابن بصال... وقد ذكر لي ابن بصال انه رأى السوسن الأزرق في صقلية والاسكندرية. وأنا رأيت هذا النوع من اسبرج الحدائق في بستان السلطان مما زرعه ابن بصال في بستان السلطان. وكل هذه الأنواع من الياسمين تنبت في بلنسية وصقلية والاسكندرية وخراسان وقد ذكر ذلك غير واحد ومن بينهم ابن بصال»[٢٧].

وقد ارتأى بيكروسا بسبب هذه النصوص ان ابن بصال «ساح في بلاد البحر (المتوسط)، وكان في صقلية وفي مصر ويؤيد ذلك وصف بعض المؤلفين له بالحاج»[٢٨].

ويرى بيكروسا ان البستان الذي زرع فيه ابن بصال انواعاً من المزروعات هو بستان المعتمد بن عباد الاشبيلي (٤٦١ ـ ٤٨٤/ ١٠٦٨ ـ ١٠٩١). فقد انشأ هذا البستان ليكون حديقة جامعة لأنواع النبات كما فعل المأمون صاحب طليطلة. فابن بصال تكوّن في وسط طليطلة العلمي. ولما هدُدِّت مدينة طليطلة هاجر عدد كبير من هؤلاء العلماء الى قرطبة واشبيلية لمتابعة ابحاثهم العلمية. ولا نعرف تاريخ وفاة ابن بصال[٢٩].

نال علم الزراعة في اسبانية الاسلامية عناية كبيرة ـ دراسة وتجارب ونقل بذور وتطبيعها والتمعن في خصائصها. ومن هنا فان كثرة الكتب الزراعية كانت أمراً طبيعياً. وفي الكثير من الكتب التي وضعت يرد اسم ابن بصال على انه مرجع موثوق به. ولعل اكثر هؤلاء المؤلفين نقلاً عن ابن بصال هو ابو زكرياء يحيى بن محمد بن أحمد ابن العوام الاشبيلي الذي وضع كتابه في نهاية القرن السادس/ الثاني عشر؛ وهو فضلاً عن النقول الكثيرة الواردة في كتابه، يشيد بالتجارب الزراعية التي قام بها ابن بصال والتي بنى كتابه عليها[٣٠].

وقد نقل ابو عبد الله محمد بن مالك المعروف بالتنغري (ويشار اليه احياناً باسم الحاج الغرناطي) معلومات كثيرة. ومنها هذه الرواية: «... اخبرني ابن بصال رحمه الله، ان ضراً اصاب جميع ما كان بمدينة طليطلة من النارنج والاترنج والياسمين واحترق الكل. فنشر جميع ما اصابه الضر واحترق على الأرض في فصل الربيع (ولم يبق منها الا الجزء المغروس في الأرض) فنبت في أصل كل شجرة نبات كثير، فابقى في أصل كل شجرة من النبات ما احب، ونقل منه كثيراً»[٣١].

وكتاب الفلاحة لابن بصال الذي نشر في تطوان والذي هو بين أيدينا، يقع في ستة عشر باباً. وهو المختصر من الكتابين، كما انه هو الذي شاع بين الناس. اما الكتاب المطول فيبدو انه لا يزال مجهولاً، لكنه وُضع فعلاً كما تشهد بذلك بعض النقول التي يقبسها ابن العوام عن ابن بصال مع انها لا توجد في الكتاب الذي بين أيدينا[٣٢].

أما اثر ابن بصال في الزراعة الاسبانية فيما بعد، فيتضح ان الكتاب (مع كتاب ابن وافد) قد نقل الى الاسبانية في القرن الثالث عشر أو أوائل القرن الرابع عشر[٣٣].

يجدر بنا وقد تحدثنا عن ابن بصال وكتابه، ان نشير الى كتاب ابن العوام (ابي زكريا يحيى بن محمد) الذي عاش في اشبيلية في نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر. هذا الكتاب وقع عليه رجل لبناني اسمه القاسيري لما كلفه ملك اسبانية شارل الثالث بوضع سجل المكتبة العربية في الاسكوريال. وقد شغف القاسيري بكتاب ابن العوام فترجمه الى الاسبانية ومن ثم شاع ذكر ابن العوام وعُرِفَ كتابه، دون ابن بصال مثلاً.

وابن العوام يكثر من الشواهد، ويبدو من قول ابن خلدون، ان ابن العوام عرف كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية، ونقل عن الكثير من الشواهد واقوال المؤلفين.

وقد قام قس كان يقيم بطرطوشة كان تلميذاً للقاسيري، بتنقيح و«اتمام كتاب ابن العوام بمساعدة راهب ماروني، فقدم الكتاب في مجلدين يقع فيهما النص العربي في عمود بينما ترد الترجمة الاسبانية في العمود الآخر. والكتاب مجهود ضخم بالنسبة لذلك العهد»[٣٤].

كتاب الفلاحة لابن بصال

اخترنا الحديث عن هذا الكتاب دون غيره لأنه بين الكتب التي اطلعنا عليها أو قرأنا عنها مما وضعه الاندلسيون العرب عن الفلاحة، هو الأقرب الى المنهج العلمي المنظم المحكم، وهو خال من الشواهد والنقول التي لا تفيد. فضلاً عن ذلك فان ابن بصال كان مهتماً بالتجربة العملية، وقد اتاح له بستان المعتمد الفرصة المؤاتية للقيام بتجاربه.

والكتاب، كما مر بنا، يتألف من ستة عشر باباً موزعة على النحو التالي:

الأبواب الأربعة الأولى (ص ٣٩ ـ ٥٨) يعرض فيها المؤلف للأمور الاساسية المتعلقة بالزراعة اصلاً وهي المياه وطبيعة الأرض وانواعها والسرقين (الزبل او السماد) واختيار الأرض.

الأبواب الخامس حتى نهاية التاسع (ص ٥٩ ـ ١٠٨) يحدثنا فيها ابن بصال عن الثمار من حيث غرسها وريها ومواعيدها وكيفية ضروب الغراسات والتكابيس وتركيب الثمار بعضها في بعض وغرائب فن التركيب واسراره.

الباب العاشر يخصصه ابن بصال لزراعة الحبوب والقطاني؛ والحادي عشر للبزور المستعملة لاصلاح الاطعمة؛ والثاني عشر للقثاء والبطيخ وما اليهما؛ والثالث عشر للبقول ذات الاصول (أي الجذور)؛ والرابع عشر لزراعة خضر البقول؛ والخامس عشر للرياحين. أما الباب السادس عشر، وهو الأخير (ص ١٧٣ ـ ١٨١) فيسميه ابن بصال: «وهو باب جامع لمعانٍ

غريبة ومنافع جسيمة من معرفة المياه والآبار واختزان الثمار وغير ذلك مما لا يستغني أهل الفلاحة عن معرفتها، إذ هي من تمام اعمالها واستكمال فائدتها»[٣٥].

وها نحن الآن نضع بين أيدي القراء فهرساً عاماً لكتاب ابن بصال

المياه (ص ٣٩ ـ ٤٠)[٣٦]

(أربعة انواع)

انواع المياه	طبيعتها	مناسبتها للنباتات
ماء المطر	عذب، رطب، معتدل تقبله الأرض قبولاً حسناً، هو افضل المياه واحمدها	يجود به جميع النبات.
مياه الأنهار	تختلف طبائعها: يبوسة ورطوبة وحروشة ولين	بجملتها صالحة لجميع الخضر والنبات والرياحين. تحتاج الى زبل كثير.
مياه العيون والآبار	العذبة الحلوة	موافقة للخضر مما له اصل (جذر) وما يزرع في الجنات [الجنات هي ايضاً البساتين مثل بستان المأمون (او جنته) بطليطلة أو بستان المعتمد في اشبيلية].

الأرضين (ص ٤١ ـ ٤٨)

(عشرة انواع)

النوع	طبيعتها	مناسبتها للنباتات
١ ـ الأرض الليّنة (ص ٤١)	برودة ورطوبة مسامها مفتوحة	تجود فيها الثمار بأنواعها. تجود فيها اكثر الثمار.
٢ ـ الأرض الغليظة (ص ٤٢)	حرارة ورطوبة	تحتاج الى زبل يسير.

النوع	طبيعتها	مناسبتها للنباتات
٣ ـ الأرض الجبلية (ص ٤٢ ـ ٤٣)	برودة ويبوسة ليس لها مسام مفتوحة	لا يجود فيها كل انواع النبات. لا يصلح فيها كل ثمر. يجود اللوز والتين والفستق والبلوط والصنوبر والقسطل. تحتاج الى الماء الكثير والى الزبل الكثير.
٤ ـ الأرض الرملة (ص ٤٣ ـ ٤٤)	حرارة مع برودة (تتبدل مع الطقس) الماء القليل يجري عليها بسرعة (لذلك لا بد لها من الماء الكثير)	يجود: التين والرمان والتوت والورد. لا بد لها من الزبل، وقد يحتاج الى الكثير منه، ويتوقف هذا على الموسم والفصل والنوع.
٥ ـ الأرض المدمنة السواد المحترقة الوجه (ص ٤٤ ـ ٤٥)	حرارة مع يبوسة مع ملوحة	يجود فيها جميع الخضر في فصل البرد والتوت والزيتون والتين.
٦ ـ الأرض البيضاء (ص ٤٥ ـ ٤٦)	برد ويبس	التين والزيتون واللوز والكرم. تحتاج الى زبل كثير.
٧ ـ الأرض الصفراء (ص ٤٦)	قريبة من الأرض البيضاء في الطبيعة والجوهر، لكنها أحط وأدنى وأقل فائدة.	لا يصلح فيها من الثمار الا ما كان له اصل يخرقها وينفذها. تحتاج الى الزبل الكثير.
٨ ـ الأرض الحمراء (ص ٤٦ ـ ٤٧)	حرارة مع يبوسة والأول اكثر	تحتاج الى كثير من الخدمة فيحول اعلاها اسفلها بالقلب. لا تحتاج الى زبل كثير. لكن اذا خُدمت جيداً ينجب فيها كل زرع ولا يقوم معه عشب يشاركه.

النوع	طبيعتها	مناسبتها للنباتات
٩ ـ الأرض الحرشا المضرسة المحببة (ص ٤٧ ـ ٤٨)	البرودة واليبوسة وفيها رطوبة	تمازج الزبل يتم فيها وتقبل الماء.. تجود فيها الثمار مثل الفستق والجوز واللوز وشجر التين، وكذلك الورد والاجاص. ويصلح الكرم فيها، وكذلك القرع والباذنجان.
وهي ضربان: (١) المحببة على الوجه بلطف (٢) التي على وجهها تحبيب كثير	لا حاجة لذكرها	
١٠ ـ الأرض المكدّنة المايلة الى الحمرة (ص ٤٨)	برودة مع يبوسة	بحاجة الى خدمة قوية وعمارة جيدة تحتاج الى زبل معتدل مع النبات. لكن لا حاجة الى الزبل مع الثمار

السرقين اي الزبل (ص ٤٩ ـ ٥٣)

يذكر ابن بصال سبعة أنواع من الزبل، لكنه يحذر بادىء بدء من ان زبل طير الماء والخنازير هو للنبات كالسم، اذ انه يهلك الكثير من العشب فينبغي ان يتحفظ منه كل التحفظ (ص ٤٩). أما الأنواع السبعة التي يعددها مبينا منافعها وكيفية استعمالها فهي:

النوع	خصائصه	استعمالها
١ ـ زبل الخيل والبغال والحمير (ص ٤٩)	حار رطب والحرارة فيه اكثر. جيد، محمود.	ينقى من التبن ويستعمل كما هو. بعد سنة يصلح لكل شيء الأفضل بعد ثلاث سنوات
٢ ـ الادمي (ص ٥٠)	رطوبة ولزوجة لا حرارة فيه	يوافق النبات ويصلحه خاصة للقرع والباذنجان والبصل والقنبيط.
٣ ـ المضاف (ص ٤٩ ـ ٥٠)	يصنع من الكناسات وغيرها حرارة ورطوبة ولزوجة وملوحة	يجب ان تأتلف اجزاؤه ولذلك يستعمل بعد عام الى ثلاثة اعوام. وهو من افضل الزبول.

النوع	خصائصه	استعمالها
٤ ـ زبل الغنم (ص ٥٠ ـ ٥١)	حار رطب	يخلط مع غيره ويستعمل للخضر
٥ ـ زبل الحمام (ص ٥١ ـ ٥٢)	حرارة مفرطة رطوبة شديدة لا يبوسة فيه	جيد للنبات الذي ضعف من شدة البرد. لا يستعمل الا عند الحاجة اليه وبكميات قليلة.
٦ ـ زبل الحمامات اي رمادها (ص ٥١)	رماد فيه يبوسة وملوحة لا رطوبة فيه.	يستعمل وحده في تحلية الأرض بالجملة زبل غير محمود يستفاد منه بخلطه بغيره من الازبال
٧ ـ المولّد (ص ٥١ ـ ٥٣) وهو ثلاثة اضرب:		
ـ أ: مزيج من التبن والقش ورماد الحمام، مع مطر كثير	هو معتدل ودون المضاف	يقيم الأرض ويحيي النبات
ـ ب: زبل (أ) مضاف الى ثلاثة امثاله من التراب	زبل جيد قوي (بعد عام)	نافع
ـ ج: زبل الحمام مع عشرين حملا من التراب	زبل جيد فيه حرارة ورطوبة	نافع جداً

من آراء ابن بصال ونظرياته: اختيار الأرض (ص ٥٥ ـ ٥٨)

قواعد يجب ان تتبع في إعداد الأرض للزرع:

١ ـ تعدل الأرض وتسوى جيداً قبل الغراسة. وإذا كانت غليظة او قاسية فيستعمل الجاروف لذلك (ص ٥٥).

٢ ـ يستوفي كل موضع منها من الماء حقه.

٣ ـ توزن الأرض بميزان الماء

٤ ـ تخطط فيها خطوط مستقيمة

٥ ـ تغرس الثمار

٦ ـ الأرض اللطيفة تقوى بالزبل (ص ٥٦)

٧ ـ قطعة الأرض العريضة العظيمة تقوى بالقلب (أي بالحراثة) أربع مرات بين شهر يناير (كانون الثاني) ومايه (مايو/ ايار) (ص ٥٦)

٨ ـ الأرض البور هي الارذل للزرع، كبيرها يصلح بالقلب وصغيرها بالتزبيل (ص ٥٧)

٩ ـ الأرض المعمور ـ الحصيد أي ما كانت مزروعة حبوباً (ص ٥٧)

١٠ ـ الأرض القليب ـ هي التي قلبت مرات من الحصيد او البور (ص ٥٨)

هذه الأصلح للزرع

١١ ـ الأرض التي تتقطع مدراً عظيماً فهي موات. لا تصلح لشيء من الزراعة أو الغراسة (ص ٥٨)

بعد هذه المقدمات التي تشغل الأبواب الأربعة الأولى وتحتل الصفحات ٣٩ ـ ٥٨، ينتقل ابن بصال لمعالجة الغرس والزرع. ولان الثمار هي التي تغرس وهي التي يلجأ الى اكثر من طريقة واحدة لغرسها، كما انها هي التي تركب وتُكبس وتشذب (تُشمر) وقد تتعرض للهرم فيتم اصلاحها فانها تحتل الأبواب: الخامس الى آخر التاسع وتشغل الصفحات ٥٩ ـ ١٠٩.

في هذه الفصول يعالج المؤلف الثمار التالية، ونحن نوردها هنا لا من حيث انها جزء من العمل الفلاحي، بل لأنها تشير الى بعض أسس النواحي الاقتصادية في اسبانية/ الأندلس في القرن الخامس/ الحادي عشر. هذا ينجر على ما قد نشير اليه لاحقاً من غلات ورياحين وغيرها.

يضع ابن بصال قاعدتين مهمتين لغراس الاشجار المثمرة (والتي يسميها هو دوماً الثمار) الأولى هي ان الغراسة تنقسم الى ثلاثة اقسام زراريع ونوامي ونوى؛ والثانية هي ان الشجرة المثمرة التي لها نوى والتي تغرس عن طريق النوى، فخير وقت لغرسها هو في موسم نضجها مثل الجوز واللوز. اما غراسة النوامي فموعدها من يناير (كانون الثاني) الى فبراير (شباط) الى مارس (آذار) (ص ٥٩).

ولعل تعابير ابن بصال تحتاج الى بعض التوضيح. فالزراريع يقصد بها الشتل (ج. شتلة)، فنحن، على الأقل في بلاد الشام، نشتل (عن طريق البذور اصلاً) ثم ننقل الشتل الى حيث نزرعه. ولعل الشتل أعم استعمالاً من الزراريع، التي يستعملها ابن بصال للأشجار المثمرة فقط. والنوامي تشمل كل ما هو نام في الشجرة أو الى جانبها وخارج منها. ويدخل في ذلك الاوتاد والملوخ والاقلام (ص ٦٠ وتد الزيتون، ص ٦٤ ملوخ التفاح وهو القضيب، ص ٥٦ غرس الاقلام وهي القطع من الغصون الصغيرة التي تقع في وسطها العيون). اما النوى فامر واضح.

ولست احسب انني سألخص أو أُجَدّول الباب الخامس في غراسة الثمار (ص ٥٩ ـ ٨٥) لأن ذلك لا فائدة خاصة تجنى منه، إلا أنني اعدد الثمار التي ذكرها المؤلف هنا وهي: النخيل والزيتون والرمان والسفرجل والتفاح والاجاص وحب الملوك والبرقوق وعيون البقر والخوخ واللوز والجوز والجلوز والكرم الصحراوي والأترج والنارنج والفستق والصنوبر والسبستان.

والمهم بالنسبة للأشجار المثمرة، التطعيم أو التركيب أو التكبيس ونقل التكابيس ثم

التشذيب (وابن بصال يستعمل التشمير بهذا المعنى) واصلاح الاشجار بعد هرمها. وله في ذلك ملاحظات قيمة تدل فعلاً على عمق تجربته ودقة معرفته.

يقسم ابن بصال الأشجار المثمرة الى أربعة أصناف وهي: ذوات المياه مثل التفاح والسفرجل والرمان والعنب وما اليها؛ وذوات الاصماغ مثل البرقوق واللوز والخوخ وما شاكلها؛ وذوات الادهان مثل الزيتون واللبان وما شابهها؛ وذوات الالبان مثل شجر التين وما قاربه (ص ٩٤). وهنا يقرر ان هذه الانواع المختلفة لا يتركب بعضها مع البعض من نوع آخر (ص ٩٤). ويذكرنا بان التركيب (التطعيم) ينقسم، من حيث طريقته واساليبه، إلى خمسة اضرب ونعوتها هي الرومي والشق والانبوب والرقعة والانشاب (ص ٩٥ ـ ١٠٤) وقد عرفت انا في صغري الشق والرقعة والانتساب، فقد كان جدي لامي خبيراً في هذه الصنعة، فضلاً عن ان الكثيرين كانوا يعتقدون ان يده مريَّة.

يقول ابن بصال (ص ١٠٥): «قد تقدم الكلام في امهات الاجناس وهي ذوات المياه وذوات الاصماغ وذوات الالبان وذوات الادهان، وان هذه الاجناس لا يتركب منها جنس في غيره لتباعدها وتنافرها، الا انه قد يمكن بعض ذلك فيها بمعنى لطيف وعمل غريب».

نرى ان هذه العبارة، وما يتبعها من التفاصيل (ص ١٠٥ ـ ١٠٨) اي في ايراد الحيل للدورات حتى حول الخلاف الطبيعي، تدل على ان الرجل كان يعنى بالتجارب عناية خاصة، وانه كان يحاول ايجاد «معنى لطيف وعمل غريب» لتحسين اصناف الثمار. وهذا الباب (التاسع) يسميه المؤلف «هو باب جامع في بعض التركيب وأسراره وغرائب من أعماله». وفي التسمية دلالة واضحة. ويرى ابن بصال ان معرفة الاقاليم السبعة مرتبطة باتقان التركيب، فيقدم لقارئه خلاصة لها مع ذكر ما يختص به كل اقليم من عناصر الحرارة أو البرد أو اللين أو اليبوسة، ثم ذكر ما يصلح من الثمار لكل من هذه الاقاليم (ص ٩١ ـ ٩٣).

والفلاحي الخبير يتخذ دور الطبيب في الباب السابع: في تشمير (تشذيب) الثمار واصلاحها بعد هرمها (ص ٨٩ ـ ٩٠) فيقول: «التشمير يصلح لجميع الثمار، وذلك إذا شمرت في صغرها وبه يتمكن ويصلح نباتها وتطول اعمارها ولا يؤلمها ما قطع منها في صغرها».

ويؤكد على وجوب تشمير الثمار قبل ان تلقح.

ويرشد الفلاح الى انه مما «يصلح الثمار التي هرمت وخلقت وارتكست وتلك مثل الجوز والاجاص والتوت وما اشبهها مما تغير من الثمار ويعتريها ذلك من ضعف موادها لأنها تطول المدة بدفع المواد كل عام حتى تستفرغ فتهرم. عند ذلك فان تركت على ما هي عليه من ضعف المادة يبست بسرعة لا محالة. فينبغي ان تعالج وذلك ان يخط بالقطع ويرجل ويحذف ما اتسع منها وترد الى فروعها القديمة» (ص ٨٩ ـ ٩٠).

في زراعة اصناف اخرى

امامنا الآن الابواب العاشر الى الخامس عشر (ص ١٠٩ ـ ١٨١)، وكل من هذه الأبواب يتحدث عن صنف من اصناف النباتات.

الباب العاشر: الحبوب وما اليها (ص ١٠٩ ـ ١٢٠)

الباب الحادي عشر: البذور المتخذة لاصلاح الاطعمة (ص ١٢١ ـ ١٢٥)

الباب الثاني عشر: زراعة القثاء والبطيخ الخ (ص ١٢٧ ـ ١٣٩)

الباب الثالث عشر: زراعة البقول ذات الاصول اي الجذور (ص ١٤١ ـ ١٥٠)

الباب الرابع عشر: زراعة البقول (ص ١٥١ ـ ١٦١)

الباب الخامس عشر: زراعة الرياحين ذوات الزهور والاحباق وسائر الشجر (ص ١٦٣ ـ ١٧٢).

نود ان نتوقف قليلاً عند القطن، الذي يدخله في عداد الحبوب. وحري بالذكر ان القطن خاماً وخيوطاً وأقمشة، كان بين أكثر المواد تصديراً إلى أوروبة وعن طريق البحر من اشبيلية (على ما مر بنا).

يقول ابن بصال: «وجه العمل فيه ان تدبر له الأرض تدبيراً حسناً، وتدمن بالزبل الرقيق البالي أو بزبل الضان (الغنم) ثم يحرز بالحرث في شهر يناير (كانون الثاني) ثم تترك قليلاً ثم تُثنى ثم تثلث. يفعل بها هكذا حتى تنتهي الى عشرة (كذا) سكك. وهذا هو العمل الذي يسمى العشري واكثر من يستعمله اهل صقلية (ص ١١٤). «ويوافقه (القطن) من الأرض بالأندلس الحرشا المحسومة لانه في هذه الأرض يسرع بنفعه ولا يتأخر عن وقته ويكثر حمله. واما اهل صقلية فينتخبون له الأرض الكريمة. وقد يفعل هذا أهل السواحل بالأندلس، وذلك موافق له فيها ان شاء الله تعالى». (ص ١١٥).

وصفة أخرى في زراعته: هذه الصفة يعملها اهل الشام ووجهه ان تدبر أرضه قبل ذلك بعام بما امكن من انواع الزبل الطيب البالي الرقيق النقي من الحجارة وغيرها. فإذا أدمنت عمد اليها وخرقت بالحرث، فاذا كان بعد تمام العام في شهر ابريل (نيسان) هيئت الأرض وتريث بالسقي واقيمت احواضاً ثم حفر في الأرض حفراً لطافاً نحو نصف الاصبع ثم يجعل في كل حفرة من الزريعة حبتين او ثلاثا ويكون بين كل حفرة وأخرى نحو شبر ونصفه، ثم يرد التراب على الزريعة وتترك كذلك بلا سقي حتى ينبت ويصير في قد الاصبع..» (ص ١١٥ ـ ١١٦).

هذه المقارنة بين الأسلوب الصقلي والاندلسي والشامي فيها دلالة على اطلاع مباشر فيما نعتقد.

ونصل الآن الى الباب السادس عشر والأخير من كتاب الفلاحة لابن بصال. ويصفه بقوله: «وهو باب جامع لمعان غريبة ومنافع جسيمة من معرفة المياه والآبار واختزان الثمار وغير ذلك مما لا يستغني عن معرفتها اهل الفلاحة إذ هي من تمام اعمالها واستكمال فائدتها. (ص ١٧٣).

والأمور التي يعرض لها ابن بصال في هذا الباب تشمل اشياء كثيرة. لكننا سنتوقف عند بضعة منها فقط.

١ ـ العمل على دفع مضار الحيوان المتولد في البساتين وغيرها كعروق الأرض وما اشبهها (ص ١٧٣).

٢ ـ من اراد استجلاب اعشاب البرية الى جنانه مثل السيكران والضومران(؟) وسائر ذلك مما ينتفع به فينبغي ان يرقبها حتى تطيب وتسقط زريعتها فيجمعها عند ذلك فيملكها عند نفسه، فان زراعتها في الزمان الذي تسقط فهو موافق لها. (ص ١٧٣)

٣ ـ هناك قواعد يوردها لفتح البئر، وهي أمور عملية مهمة (ص ١٧٥). ويشير بعد ان يفصل هذه القواعد الى تجربته بقوله: «وهذا مما جربه صاحب النسخة واختبره فوجده كما وصفه» (ص ١٧٦).

ومن اطرف فصول هذا الباب ما ذكره عن اختزان الثمار. فهو يشرح اسلوب اختزان التفاح (ص ١٧٦) والرمان (ص ١٧٦ ـ ١٧٧) ثم يتحدث عن الأشياء الأخرى التي يمكن ان تختزن مثل القسطل والبلوط والجوز واللوز والجلوز (ص ١٨٠). وهناك فقرة عن صنعة شمامات حسان، أي اختزانها، بحيث يبسط طين الفخارين في قيعان الظروف التي تريد ان يكون فيها النوار ثم تذوب الشمع وتفرسه على ذلك الطين ثم تدخل اليها الضابط والمساوية وتقيم فيها الصناعة مختلفة ثم تمشي على تلك الخطوط بالمرور فتنقيها بها وتغرس فيها اجناساً من النوار مثل الخيري والياسمين والنرجس وغيرها، فتكسي قاعة تلك الظروف بالنوار ولا يظهر من الشمع شيء، وتبدو الاشكال فيه بينة من احسن شيء. وانما جعلنا الشمع على الطين صيانة للنوار ليبقى بنضارته، فإذا سقي هبط الماء من تحته الى الطين يرطبه فيغذو النوار بذلك فتبقى تلك الرطوبة عليه، فيطول بذلك الاستمتاع به ان شاء الله تعالى»(ص ١٨١)

هذا هو كتاب الفلاحة لابن بصال موصوفاً مبرمجاً. والذي أرجوه ان يكون في هذه الصفحات بعض الفائدة لمن يريد ان يتعرف الى عناية الأندلسيين بالفلاحة عملاً وارشاداً. وقد تم الأمر على يد ادقهم بحثاً وترتيباً وتنظيماً.

الهوامش

(١) خوسي ماريا مياس بييكروسا، **علم الفلاحة عند العرب**، (نقله الى العربية عبد اللطيف الخطيب) (تطوان، ١٩٥٧) ص ١١.

(٢) *The Legacy of Islam*, eds. Joseph Schacht and C.E. Bosworth (Oxford, 1974), p. 451.

(٣) بييكروسا، **علم الفلاحة**، ص ١١.

(٤) *Legacy* (1974), p. 452.

(٥) ابن ابي اصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الاطباء**، تحقيق نزار رضا (بيروت، ١٩٦٥) ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠. لا يورد ابن ابي اصيبعة هذا الكتاب مع الكتب التي نقلها قسطا بن لوقا الى العربية، ولعل السبب انه كان معنياً بالآثار الطبية للذين ترجم لهم. وقد حدث مثل هذا في كتاب ابن ابي اصيبعة مع آخرين.

(٦) ابن وحشية، **الزراعة النبطية**، تحقيق توفيق فهد (دمشق، ١٩٩٤)، راجع ايضاً مقال توفيق فهد في:
EI2, art, *Ibn Wahchiya*

(٧) *Legacy* (1974), p. 433 n. 3.

(٨) *Legacy* (1974), p. 452

(٩) بييكروسا، **علم الفلاحة**، ص ١١ و١٢.

(١٠) ابن ابي اصيبعة، **عيون**، ص ٤٩٣.

(١١) المكان نفسه ص ٤٩٤؛ بييكروسا، **علم الفلاحة**، ص ١٤

The Legacy of Islam, eds. T. Arnold and A. Guillaume, (Oxford, 1931) p. 330; Legacy p.446.

وللراغب في تقصي دقائق هذه القضية مع كل ملابساتها يمكن العودة الى:

C.E. Bubler, *La Materia Medica de Discorides*, Transmission medieval ye renacentista,5 volumes (Barcelona, 1953-9)

هذه نصيحة بييكروسا في علم الفلاحة ص ٤ هامش (٥) وقد اتم ابن جلجل عمل الراهب نقولاوس والطبيب بن حسداي، إذ انه صحح الاخطاء الواردة في الترجمة ووضع شرحاً أو مقدمة للكتاب.

Legacy (1931)p.330.

(١٢) بييكروسا، علم الفلاحة، ص ١٤، راجع ايضاً:

E. Levi- Provençal, *Histoire de l'Espagne Musulmane Xe siècle*, vol. II, (Paris, 1932) pp. 322, 240, 289, 90.

(١٣) بييكروسا، **علم الفلاحة**، ١٤ ـ ١٥.

(١٤) Olivia Remie Constable, *Trade and Traders in Muslim Spain*, (Cambridge, 1994) pp. 169-208.

(١٥) D.C. North and R.P. Thomas, *The Rise of The Western World*, (Cambridge, Blackwell, Oxford, 1988) pp. 245-7.

(١٦) خوسي مارية مياس بييكروسا ومحمد عزيمان (محققان ومترجمان الى الاسبانية) ابن بصال كتاب الفلاحة (تطوان، ١٩٥٥) ص ١١.

(١٧) بييكروسا، **علم الفلاحة**، ص ١٥.

(١٨) المكان نفسه، ص ١٦.

(١٩) المكان والصفحة نفسهما.

(٢٠) المكان والصفحة نفسهما.

(٢١) المكان نفسه، ص ١٧.

(٢٢) المكان نفسه ص ١٩ ـ ٢٠.

(٢٣) **المقنع في الفلاحة**، تأليف احمد بن محمد بن حجاج الاشبيلي، تحقيق صلاح جرار وجاسر ابو صفية، تدقيق واشراف عبد العزيز الدوري (عمان، ١٤٠٢/ ١٩٨٢) ص (ج).

(٢٤) المكان نفسه ص (ح).

(٢٥) المكان نفسه والصفحة نفسها. راجع دراسة المحققين حول الكتاب في ص (د ـ ص) وصحة النسبة الى المؤلف ص «ذ».

(٢٦) بييكروسا وغريمان، ابن بصال، **كتاب الفلاحة**، ص ١٣.

(٢٧) المكان نفسه، ص ١٣ و١٤.

(٢٨) المكان نفسه، ص ١٤.

(٢٩) المكان نفسه، ص ١٤ ـ ١٥. بخصوص البساتين وانتقال النباتات وانتشارها في العالم الاسلامي يراجع:
Andrew M. Watson, *Agricultural Innovations*, Cambridge, 1983.

(٣٠) المكان نفسه، ص ١٧.

(٣١) المكان نفسه، ص ١٧ هامش ١٦.
(٣٢) المكان نفسه، ص ١٨ و١٩.
(٣٣) المكان نفسه، ص ١٩ ـ ٢١.
(٣٤) بييكروسا، **علم الفلاحة**، ص ٤٥ ـ ٤٦.
(٣٥) بييكروسا وغريمان، ابن بصال، **كتاب الفلاحة**، ص ٣٨.
(٣٦) ارقام الصفحات الواردة في متن هذه الدراسة بدءاً من انواع المياه، تشير الى صفحات ابن بصال، كتاب الفلاحة، بييكروسا وغريمان.

فضل العرب في تطور أوروبة العلمي

أوروبة تستفيق بعد ترنح وسقوط

في القرن الثالث للميلاد اتخذت القبائل البربرية، كما دأب المؤرخون على تسميتها، خطة الهجوم على الامبراطورية الرومانية. وكانت الحرب بين الفريقين سجالاً. فالامبراطورية كانت قد اصابها الانحطاط (الذي انتهى الى زوالها رسمياً سنة ٤٧٦م) وبدل ان تكون الجيوش حصناً للأمبراطورية اصبحت، في حالات كثيرة، اداة تخريب وتدمير، إذ آل أمرها الى ان صارت ألاعيب في أيدي قادتها الطامعين في العرش الامبراطوري، واحياناً كان القادة انفسهم العوبة في أيدي الجيوش الرومانية.

وفي مقابل ذلك كانت هذه القبائل البربرية نشيطة قوية. كانت موزعة الأصول: فهناك الجرمان، وهم الذين استقروا في القرن الخامس وما بعده في اطار الامبراطورية الرومانية؛ وهناك السلاف الذين انتهى بهم الأمر ان عمروا اواسط أوروبة وشرقها؛ وهناك المغول (مثل الهون والماغيار) الذين انتشروا بين هنغاريا وفنلندا.

خلال القرنين الثالث والرابع، وحتى في أوائل القرن الخامس، كانت هذه القبائل، ولنحصر اهتمامنا بالجرمنية منها، تقاتل وتحارب، فإذا انتصرت جازت الحدود واحتلت. لكن في القرن الخامس قبلت هذه القبائل الاقامة داخل الحدود معترفة للامبراطورية الرومانية بوجودها. وحتى لما قضي على الأمبراطورية نهائياً ظلت بعض هذه الدول الجرمانية مقيمة، مثل القوط الشرقيين، في ايطالية وما اليها (٤٨٩ ـ ٥٢٥). ومملكة الفرنجة التي قامت في اوائل القرن الخامس، توسعت بعد سقوط أوروبة ايام ملكها كلوفيس (٤٨٦ ـ ٥١١). وكانت هذه اقوى الدول الجرمانية. ويعود ذلك الى ان الفرنجة، بعد ان استقروا في جزء كبير من فرنسة والمانية الحاليتين لم يرحلوا عن بلادهم، بل توسعوا فتحاً وضماً. وكانت دولة القوط الغربيين قد قامت في اسبانية سنة ٤١٥ واستمرت هنالك حتى الفتح العربي سنة ٧١١.

وليس من شك في ان دولة الفرنجة شهدت اكبر عصورها نشاطاً لما حكمها شارل الكبير (شارلمان ٧٧١ ـ ٨١٤). وقد اعترف به البابليون، فتوجه امبراطوراً على ما عرف في التاريخ باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة وذلك في عيد الميلاد سنة ٨٠٠.

إلا ان امبراطورية شارلمان تدهورت تدريجياً حتى انتهى امرها سنة ٨٩٩. واقتصرت على مملكة فرنسة.

وفي القرن العاشر نعمت الأجزاء الالمانية من امبراطورية شارلمان السابقة بحكام اقوياء، وفي مقدمتهم اوتو (الأول) الكبير (٩٣٦ ـ ٩٧٣). لكن اوتو الثالث (٩٨٣ ـ ١٠٠٢) الذي جرب ان يقلد شارلمان، كان دون هذا مقدرة بمراحل. فتسربت نواحي الضعف الى

الامبراطورية، إلا ان الدولة لم تنحل. وقد تمكن الاباطرة الالمان، على العموم، من دفع عادية قبائل جديدة اتجهت نحو أوروبة الغربية مثل الصقالبة (السلاف) والدانيين والهنغاريين، ومن ثم فانها مكّنت لهذه المنطقة من السير في طريق الحضارة، ولو بخطوات بطيئة جداً. ومنذ اواسط القرن الحادي عشر تصبح فرنسة وانكلترا مسرحي العمل الجدي المثمر.

على ان قعقعة السلاح التي لم تنقطع عن الدوي خلال الفترة التي تحدثنا عنها وحتى فيما تلا ذلك، لم تكن الصوت الوحيد الذي كان يسمع في انحاء أوروبة الغربية. فقد كان الى جانبها اصوات خافتة، لكنها كانت ذات شأن في بناء تلك المنطقة مع الزمن. فصوت المحراث الذي كان يكشف من الأرض سطحها دون ان يعمق اسنانه في اعماقها، كان عاملاً مهماً في تطوير اقتصاد البلاد الزراعي. ولأن القبائل كان عدد افرادها يتزايد، وكانت قطعانها تتكاثر، ولم يكن للسكان معرفة فنية كافية لاستثمار الأرض، فقد كانت هجرات السكان، خاصة حتى القرن السابع، هي الطابع الذي ترك اثره في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في ربوع أوروبة الغربية. وكان ثمة صوت القلم الذي كان الراهب يديره في عزلته ناسخاً بعض ما تبقى من الآداب الكلاسيكية، ذا أثر في تطوير الحياة الفكرية فيما بعد. وكان هناك صوت المدرس الذي كان يعلّم من تصبو نفسه الى رتبة كنائسية أو وظيفة في البلاط، يترك بصماته في نفوس الناشئة. ويجب ان لا ننسى صوت الراعي الكنسي أو المتعبد في ديره أو صومعته الذي كان ينشد ترانيم التسبيح بكرة وأصيلاً. هذه الأصوات تستحق منا نظرة خاصة، لأنها كثيراً ما كانت تلجأ الى ما كتبه آباء الكنيسة الأوائل كي تحصل على ما تنشد أو ترنم أو ترتل.

- ٢ -

ونحن إذا حاولنا التعرف الى العناصر الحضارية، على ضآلتها احياناً، وحيائها من بساطتها احياناً أخرى، لوجدنا أموراً كثيرة ظلت في ضمير أوروبة الغربية؛ ولما آن لها ان تستغل استغلالاً صالحاً مفيداً جاءت بثمار جيدة.

فأوروبيّو العصور الوسطى، كانوا يرون في رومة ضمير الحضارة. فهي التي تركت في نفوس الناس آراء هامة تتعلق بالوحدة والعالمية والنظام والسلطة التي لم تستطع أوروبة العصور الوسطى التفلت منها. فقد كانت رومة ذاكرتهم العامة؛ رومة التي لم تسقط ولكنها ظلت خالدة. كان السكان، اينما ولوا وجوههم، وحيثما جربوا ان يتسقطوا اصواتاً خفية، وجدوا ان صوت رومة كان يطن في آذانهم.

فضلاً عن ذلك فقد كانت آثار الرومان ماثلة امام عيونهم. فان هجمات القبائل البربرية وحربها لم تخرّب جميع الطرق التي انشأتها «رومة» الامبراطورية، ولا اتت على كل الجسور التي بنتها، ولا هدمت جميع المدن التي عمرتها ولا ازالت كل ما بنته رومة من اسوار وقلاع وحصون. هذا الى ما كان يبنيه الناس هنا وهناك من تماثيل ظلت قائمة شاهدة على حضارة كانت قد بلغت شأوا عظيماً في مسارها. وكم حُمل من هذه الآثار الجميلة من قطع الى كاتدرائيات بيزا ولوكا وسلرنو وكنائس الاديرة مثل مونتي كاسينو ووستمنستر وغيرهما لتزينها.

ولنذكر ان اللغة اللاتينية أصبحت لغة الكنيسة عامة ولغة الدولة غالباً ولغة المثقفين. ذلك بأنه لم يكن من الممكن لأي من لُغى هذه القبائل ان يحل محل لغة كانت قد حذقت القول في الأدب والفلسفة (على ضعفها بين الرومان) والقصص والميثولوجيا، وقولبت فنون القول شعراً ونثراً، فضلاً عن ما سنت من قوانين وشرائع. فكان من الطبيعي ان تظل مثل هذه اللغة مطمع انظار الراغبين في التقدم في جميع مجالات الحياة التي تمتّ الى القلم بصلة. وقد بدأ جمع ما كان يدور من قصص وحكايات لاتينية الأصل، والتي كان لها فضلاً عن محتواها الجميل، وقع موسيقي في الفاظها أو ما تحويه من شعر، حول سنة ٤٠٠م، الى هذا كان ثمة اهتمام حتى بكبار الشعراء الكلاسيكيين من الرومان مثل فِرجِل Virgil واوفيد Ovid وبعض أهل الفكر مثل سنيكا Seneca.

وكان من الطبيعي، وقد كان الاهتمام بالأدب اللاتيني واللغة اللاتينية على ما رأينا، ان تكون ثمة عناية بقواعد اللغة وشروح النصوص. ومن هنا نجد ان المعجم والشروح المختلفة حظيت باهتمام كبير. ولعل أهم معجم كان الذي وضعه بابياس Papias في اواسط القرن الحادي عشر. إلا ان الذي يجب ان لا يغيب عن البال هو أن مادة هذا المعجم بالذات جمعت من مؤلفات اقدم عهداً.

وما دمنا قد تحدثنا عن آثار الحضارة الرومانية المادية وآثار رومة في اللغة والأدب، فلننتقل الى القانون الروماني لنرى مدى تأثيره في أوروبة العصور الوسطى. يمثل ثيودورك ملك القوط الشرقيين (٤٧٤ ـ ٥٢٦) بعض هذا الاقتباس الجرماني من القوانين الرومانية. فقد حفظ هذا الملك للرومان، أي من كان لا يزال في مملكته من سكان البلاد الاصليين، حقهم في استعمال القانون الروماني، فضلاً عن انه اقتبس الكثير من الأمور الإدارية الرومانية. وكان يعتمد في ذلك على وزرائه الذين كان الكثيرون منهم من الرومان انفسهم. وكانت قوانين القبائل الجرمانية، مثل قوانين سواها من القبائل التي توطنت أوروبة الغربية، تعتمد تقاليد القبيلة فيما يتعلق من قانون الامبراطور ثيودوسيوس الذي دوّن سنة ٤٣٨. ويظهر هذا الدمج في نظم القوط الغربيين ونظام الرك Alaric والقوط الشرقيين والبرغنديين وحكام الألب الشرقية. ومعنى هذا، من الناحية العملية، أن القانون الروماني ضم الى ما كان عند القبائل من عرف وعادة في تطبيق الاحكام.

أما الإحياء الصحيح للفقه الروماني فقد جاء في جامعة بولونيا الايطالية وعلى يد ارنيريوس Irnerius في مطلع القرن الثاني عشر.

- ٣ -

ثمة عنصر آخر مهم كان ينتشر في أوروبة في الفترة الممتدة من القرن الرابع الى القرن العاشر: المسيحية. لسنا معنيين هنا بانتشار المسيحية، فذلك أمر يطول شرحه. ان الذي يعنينا هو تقبل السكان، القدامى والطارئين، هذه الديانة الجديدة. وهنا يترتب علينا ان نضع النقاط التالية أمام القارىء.

١ ـ كان الزمن الذي تلا حكم قسطنطين الكبير (٣١٢ ـ ٣٣٧) فترة انتشار وذيوع للمسيحية، بحيث قيل إن اكثر من ثلث سكان الامبراطورية كانوا قد اصبحوا مسيحيين (وإن كان هذا ينطبق على النصف الشرقي من الامبراطورية اكثر منه على الجزء الغربي منها).

٢ ـ إلا ان هجرات الجرمان العنيفة على الامبراطورية اعاد للوثنية دولتها، حتى في نواح كانت قد تنصرت.

٣ ـ لكن المسيحية كانت قد انتظمتها في أوروبة الغربية كنيسة قوية موطدة الأركان ثابتة الدعائم ترتكز الى البابوية. فافاقت المسيحية من هول الصدمة، ولذلك نجدها تنتشر بين الجرمان وهم بعد في دور التنقل أو الاحتلال. واعتناق الجرمان للمسيحية كان اعتناقاً جماعياً لا قبول افراد هنا وهناك بالدين الجديد عليهم.

٤ ـ كانت المسيحية قد تعرضت لخلافات لاهوتية؛ لكن في نهاية المطاف انتصرت العقيدة الكاثوليكية، ممثلة بالبابوية.

٥ ـ كان للملوك مثل كلوفيس (ملك الفرنجة ٤٨١ ـ ٥١١) الذي اعتنق المسيحية مع رعاياه دفعة واحدة (حوالى ٤٩٦) وشارلمان (٧٧١ ـ ٨١٤) الذي عمل على نشر المسيحية في المناطق التي احتلها الى الشرق من مملكة الفرنجة الاصلية، دور كبير في هذا العمل.

٦ ـ كان بين الذين تصدوا لشرح المسيحة وتفسيرها (فلسفياً خاصة) فئة من كبار أهل الفكر في ايامهم، منهم مارتن Martin اسقف تور (٣١٦ ـ ٣٩٧) وامبروز Ambrose اسقف ميلان (٣٤٠ ـ ٣٩٧) واغسطين Augustine اسقف هِبّو في شمال افريقية (٣٥٤ ـ ٤٣٠)، وهو الذي وضع كتابه المشهور «مدينة الله». وقد ظل هؤلاء منارة تهتدي الكنيسة بها.

وما الذي احدثته هذه النقلة في نفوس الناس؛ ان المسيحية أوضحت لاتباعها مشكلاتهم الروحية وبذلك حلت الكثير من القضايا التي كانت تقلقهم؛ ووضعت حداً للحيرة التي كانوا يتردون فيها بسبب هذه الفروق بين ما كانوا يعتقدون، وما طلعت به المسيحية عليهم. ولعله من الممكن ان يقال بأن اعتناق القبائل للمسيحية هذب من اخلاق البعض منهم.

ولا يجوز لنا ان نغفل عن ذكر أمور أخرى عملية جاءت نتيجة لانتشار المسيحية:

١ ـ كان الذين يجيدون القراءة (والمقصود قراءة اللغة اللاتينية) يقبلون على الأدب الكلاسيكي القديم. وهو أدب وثني. ومن ثم فان موقف الكنيسة من هذه القضية حريٌّ بان نعنى به. فالمجمع القرطاجي (٣٩٨) قرر منع المؤمنين من قراءة هذا الأدب الوثني. وقد قال المرسل البابوي في القرن العاشر «لا يجوز للمؤمنين ان يتتلمذوا على افلاطون وسواه من رعاع الفلاسفة». وقد كان من الضروري ان يتعلم الذين يرغبون في اتقان اللغة اللاتينية قواعدها. وكانت الشواهد، بطبيعة الحال، تؤخذ من كتّاب الرومان وشعرائهم؛ لذلك منع غريغوريوس Gregory الكبير (بابا ٥٩٠ ـ ٦٠٤) الناس من تعلم حتى مبادىء النحو لأن الشواهد وثنية.

٢ ـ ومع ذلك، فاننا نقع على مديح للأدب اللاتيني، ممثلاً بشيشرون (Cicero، ١٠٦ ـ

٤٣ ق. م.) والشاعرين اوفيد (Ovid ٤٣ ق. م. ـ ١٧م) وفرجيل (Virgil ٧ ـ ١٩ ق. م.)، صدر عن بعض رجال الدين. وقد استمرت العناية بهذا الأدب الوثني، حتى في الأديرة، حتى القرن الثاني عشر.

٣ ـ كانت ثمة محاولة للتوأمة بين الشعراء القدامى والشعراء المسيحيين، عن طريق اللجوء الى الرمز وتفسير الاسطورة تفسيراً دينياً، وان لم يكن لاهوتياً.

٤ ـ وكان بين القضايا التي شغلت رجال الكنيسة تاريخ خلق الكون. فقد كان الآباء الشرقيون، ممثلين بالقسطنطينية، قد قبلوا ان العالم خلق سنة ٥٥٠٩ ق. م. لكن هذا لم يرض الآباء الغربيين. [وقد ظلت هذه المشكلة تشغل بال الكثيرين حتى حلها المطران أشر Usher (١٥٨١ ـ ١٦٥٦) في مطلع العصور الحديثة، وتوصل الى التأكيد على ان الخلق تم في السنة ٤٠٠٧ ق. م، في ٢ تشرين الأول/ اكتوبر، في الساعة السادسة مساء].

وقد ظهرت في هذه الفترة الحوليات التي تدور حول الملوك والبابوات والأديرة. ويلحظ الباحثون ان أوروبة المسيحية في العصور الوسطى هي التي اعطت للتأريخ نوعاً من الفلسفة الخاصة به.

والشيء الذي يجب ان نحتفظ به دوماً هو ان أوروبة، التي كانت من قبل جزءاً من الامبراطورية الرومانية، كانت لغة الحضارة فيها اللاتينية. اللغة اليونانية لم تعرف إلا في صقلية. ولم تنقل حضارة اليونان الفكرية الى اللغة اللاتينية في عصر الامبراطورية. وكان من الطبيعي ان لا تنقل مثل هذه الآثار الى أوروبة الغربية في الفترة التي نتحدث عنها، أي بين القرنين الخامس والحادي عشر. ولم تعرف مكتبات تلك الأيام نسخاً من كتب يونانية. وحتى لو وجدت لما كان ثمة من يستطيع قراءتها.

هذه الآراء التي عرفتها أوروبة العصور الوسطى لم تظل قابعة في دهاليز اكتنازها. كانت تنتقل من مكان الى آخر. كان الانتقال، بطبيعة الحال بطيئاً، لأن السبل والوسائل كانت محدودة وكانت، بسبب توالي الحروب، تتوقف احياناً كثيرة.

ولعل أول ما يجب ان نعنى به هنا هو آلية الحفظ، حفظ هذه المصادر المحدودة للمعرفة. وهذا ينقلنا الى التحدث عن الرهبنة والأديرة.

الرهبنة شرقية الأصل. نشأت في مصر على يد القديس انطونيوس (عاش بين ٢٥٠ و٣٥٦). ولما انتقلت الرهبنة الى بلاد الشام وآسية الصغرى تطورت وأينعت. إلا انها بلغت أشدها إنشاءً وتنظيماً وانتشاراً في أوروبة، وفي غربها خاصة. ففي القرن الرابع كانت الرهبنة قد عرفت طريقها الى تلك الاصقاع. ولما وضع القديس بندكت Benedict قوانين رهبنته في دير مونتي كاسينو Monte Cassino سنة ٥٢٩، اصبحت الحركة الرهبنية تسير في طريق قويم. وقد اعان البابا غريغوريوس الكبير هذه المؤسسة كثيراً، لذلك كان نجاحها كبيراً. وقامت في أوروبة انظمة رهبنة متعددة، لكن الحركة التي يجب ان تذكر بعد بندكت هي التي قامت في دير كلوني Cluny سنة ٩١٠، والتي تعرف بالاصلاح الكلوني.

ان العمل الاساسي الذي قامت به المنظمات الرهبانية المختلفة كان نشر المسيحية. كان بندكت اتخذ من ديره، الواقع في منتصف الطريق بين رومة ونابولي، مضافة يأوي اليها الغرباء والفقراء والحجاج، فينالون من طعامه وشرابه ومأواه. وقد أصبح كل دير، في هذه المنظمة وفي غيرها، يقوم بهذه المهمة، فضلاً عن المهمات العلمية التي سنعرض لها. «ان الرهبان كانوا شيئاً لا يستغنى عنه في نشر المسيحية. ولم يكن اثرهم في الاحتفاظ بالعناصر المدنية وتحسينها أقل من ذلك. وقد أدى تشديدهم على العمل المثمر الى إحياء مساحات واسعة من الأرض المهملة والى اكتشاف تحسينات كبيرة في وسائل الزراعة، بالنسبة الى ما كان يعرف قبلاً.

وقد يكون الدير مركزاً لتبادل الآراء والمعلومات أو مصدراً لنوع جديد من الموسيقى أو الأدب وما الى ذلك من النشاطات الاجتماعية والفكرية؛ لكن هذا كله كان يحدث بطريق المصادفة، فان الأمر لم يكن ضرورة. وأديرة البندكتيين، التي شاع أمرها في الغرب، كانت اصلاً اماكن للعبادة، بما في ذلك المشاركة في التسبيح الكنسي، التي كانت تستغرق بين أربع ساعات وسبع ساعات يومياً. أما ما كان يخصص للدرس والمطالعة، وكانت حصته ثلاث ساعات في اليوم، فقد كانت تأملاً في الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة. أما المدارس فلم ينص قانون بندكت عليها. والمدرسة التي وجدت في بعض الأديرة لم يكن فيها تعليم منتظم ولم يكن لها حتى مدرسون مخصوصون للقيام بالتعليم. وما كان يتلقاه الرهبان كان يدور حول الشؤون الدينية.

لم تكن مكتبة الدير أصلاً تحتوي على كتب عامة صالحة للاطلاع وتوسيع نطاق المعرفة، بل كانت الكتب تكاد تقتصر على الكتاب المقدس وبعض الكتب اللاهوتية التي تفيد اولئك الذين كانوا يعدّون أنفسهم للحياة الدينية داخل الدير أو خارجه.

مثل هذا الوضع تبدل واتجه نحو التحسن فيما بعد. فقد دخلت مكتبات بعض الاديرة كتب كلاسيكية من نتاج الكتّاب والشعراء مثل اوفيد وفرجيل، وسنكا، والمؤرخين مثل تاستس Tacitus. فدير بك Bec كانت مكتبته تحتوي على ١٦٤ كتاباً في مطلع القرن الثاني عشر، واضيفت اليها ١١٣ مجلداً هدية من اسقف بايو Bayeu سنة ١١٦٤.

وكانت الكاتدرائيات الكبيرة من مراكز الحياة الفكرية في العصور الوسطى. وحلت هذه محل الاديرة التي ضعف شأنها بعض الشيء. فان بعض المدارس المرتبطة بها تمتاز بالنظام والمناهج التعليمية كما كانت مكتباتها اغنى من سواها. ونكتفي بالاشارة هنا الى العناية بالكلاسيكيات في شارتر Chartres واورليان Orlean والاهتمام باللاهوت في رانز Rheims ولاون Laon وسواهما في مجالات الدراسة الأخرى، مثل كانتربوري Canterbury في انكلترا.

فضلاً عن ذلك، فقد نشأت في الفترة المتأخرة من العصور الوسطى المكتبات الملكية؛ إلا ان هذه تعود الى فترة متأخرة أيضاً. ولنذكر على سبيل المثال مكتبة اوتو الثالث (٩٨٣ ـ ١٠٠٢) ومكتبة هنري الثاني (١١٥٤ ـ ١١٨٩) ومكتبة لويس السابع (١١٣٧ ـ ١١٨٠) ملك فرنسة. لكن الاهتمام بمكتبة ملكية جيدة تشغل حيزاً واضحاً في البلاط لم يعرف إلا في القرن الرابع عشر.

وثمة ملاحظة حرية بالإهتمام، وهي ان هذه المكتبات جميعها لم تكن مكاتب عامة، بل كانت مكاتب خاصة، يستعملها الافراد الذين يرتبطون بالعمل في الدير أو الكاتدرائية أو البلاط.

على ان الدور الرئيسي الذي يجب أن يذكر لعدد كبير من الأديرة، هو ان واحدها كان فيه قاعة للنسخ، وهذا ينجر بشكل خاص على الفترة التي تمتد من القرن الثامن وما يليه. وهذه القاعة Scriptorium كانت مؤسسة قائمة بذاتها، وقد أصبح العمل فيها، مع مرور الزمن، أمراً حرياً بالاحترام. فقد أعفي أولئك الذين كانوا يعملون في مثل هذه القاعات في المؤسسات الرهبنية الكلونية من الخدمة في كورس الكنيسة. واعتبر بعض رجال الكنيسة النسخ افضل من العمل في الحقل. في مثل هذه القاعات نسخ هؤلاء الرهبان مئات من الكتب، لا الدينية فحسب، بل كتب الأدب والتاريخ والتراجم الكلاسيكية التي وصلت اليها ايديهم، وبذلك حفظوا تراثاً كان له أثر كبير فيما بعد. فضلاً عن ذلك، فقد خصصت، فيما بعد، مبالغ من واردات أرض فرزت لذلك، لإصلاح الكتب القديمة، واستئجار اشخاص كان عملهم نسخ الكتب بالذات. صحيح ان هذا لم يبلغ الذروة إلا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، لكن الأمر كان لا بد له من بداءة كي يصل الى الدرجة التي وصل اليها.

نرى من هذا كله ان هذه المراكز المتنوعة كانت آلية حفظ الكتب وانتقال الأفكار. وحريّ بالذكر ان مثل هذا التبادل في أمور الفكر كان يقوم بين المؤسسات التي تتبع نظاماً واحداً، أكثر مما كان يحدث بين المراكز المتقاربة جغرافياً. فالأديرة البندكتية كانت تتواصل فيما بينها أكثر مما كانت هي بالذات تتواصل مع أديرة كلونية أو سواها، ولو في الجوار المعقول.

المعرفة الأوروبية في الأسر

- ١ -

يجدر بنا أن نضع بين يدي القارىء نماذج بيّنة من المؤلفات التي كانت تعتبر المراجع الرئيسة لطلاب العلم في العصور الوسطى. وقد كان الأربعة التالية أسماؤهم هم المقدمين على سواهم. بوتيوس (Boethius حوالى ٤٧٠ ـ ٥٢٥) وكسيودوروس (Cassiodorus حوالى ٤٨٠ ـ ٥٧٣) وايزيدور الأشبيلي (Isidore of Seville حوالى ٥٦٠ ـ ٦٣٦) وبيد الانكليزي (Bede حوالى ٦٧٣ ـ ٧٣٥).

بوتيوس: درس في صغره في أثينا ومن ثم فقد كان الوحيد بين المؤلفين الأربعة الذي كان يعرف اليونانية. وقد وزر لثيودوريك ملك القوط الشرقيين في ايطالية سنة ٥١٠، إلا ان الملك غضب عليه بسبب تهم ألصقت به، منها التآمر على حياة الملك نفسه، فسجن وعذّب ثم أعدم.

نقل بوتيوس بعض كتب أرسطو في المنطق إلى اللاتينية، وعني بكتاب الأرغانون Organon بشكل خاص. واستخلص من الرياضيات اليونانية قدراً قليلاً حسبه كافياً لحاجة

المعاصرين له. وألّف في المنطق والفلك والحساب، وهذه كانت كتباً ابتدائية. لكن كتابه في الجدل وتأليفه في الموسيقى كانت تتسم بعمق، بحيث انه من المتعارف عليه بين الباحثين ان الموسيقى ظلت دراستها لفترة طويلة تعتمد على ما وضعه بوتيوس.

كان هم بوتيوس الرئيسي التوفيق بين الفلسفة اليونانية والمسيحية مستمداً الكثير من آرائه من معرفته بافلاطون. وكان يرى ان المنطق اليوناني ضروري لفهم هذا الدين. وكتابه المسمى «سلوى الفلسفة» (واسمه باللاتينية De Consolotione philosophiae) وهو عرض جيد لهذا الموضوع. هذا الكتاب كانت قراءته مقصورة على أئمة المعرفة يومها، إلا ان مؤلفاته المدرسية وترجماته ظلت لمدة طويلة المراجع المعتمدة في التدريس.

كسيودوروس: وزر هو الآخر لثيودوريك ملك القوط الشرقيين. كتب عدداً من الرسائل الى اصدقائه كانت تحوي وصفاً لحالة ايطالية السياسية والحضارية، وقد نشرها فيما بعد تحت اسم متنوعات Variae.

لكن هذا العالم كان معنياً بتوضيح أهمية العلوم الدنيوية بالنسبة للمتعلمين، فوضع لذلك كتباً مدرسية كانت خلاصات لما بلغه الاقدمون فيها. وهذه الكتب، مثل كتب بوتيوس، استعملت في التعليم، وقد لجأ إليها القرّاء العاديّون، على اختلاف أهوائهم للحصول على المعرفة.

ايزيدور الاشبيلي: كان الأكثر شهرة بين كتّاب تلك الأزمنة ومؤلفيها. وقد وضع موسوعة لخص فيها المعرفة العلمية والفلسفية على نحو ما وصلت اليه. ويبدو ان موسوعة ايزيدور كانت، بسبب ترتيبها، محببة الى الكثيرين. وقد فرغ منها قبيل وفاته (٦٣٦) بوقت قصير، ولكنها لم تلبث ان اجتازت جبال البرانيه الى أوروبة، وقد عثر على عدد كبير من النسخ مما يدل على سعة انتشارها.

موسوعة ايزيدور اسمها «الأصول» Etumologia ذلك بأنه تتبع فيها اصول الكلمات وجذورها، واشتقاقها لا من حيث انها لغة ولكن من حيث انها تعبير عن أفكار وأسماء الأشياء. وقد اعتبرت، عبر قرون طويلة، خلاصة المعرفة البشرية لأنها احتوت على الفنون الحرة السبعة والطب والقانون والكنيسة والالفباء والانسان والحيوان (وكان هذا اطول اقسامها) والأرض والكون والجغرافية الطبيعية والسياسية والفن المعماري والمساحة والزراعة والعلوم العسكرية والسفن والادوات المنزلية والفنون العملية.

ولعل عبارة الفنون السبعة تحتاج الى بعض التوضيح هنا. ان العصور الوسطى قسّمت المعرفة الى سبعة اصناف سمتها الفنون الحرة. وكانت تنضم في باقتين تسمى الواحدة الرباعية وتشمل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى، وتسمى الثانية الثلاثية ويدخل فيها النحو والبيان (البلاغة) والمنطق.

ومصادر ايزودور كانت متباعدة زماناً ومكاناً، فهو يفيد من العهد القديم من الكتاب المقدس والأدباء الكلاسيكيين، وخاصة اللاتينيين منهم، ومفكري المسيحية وآباء الكنيسة.

ومن ثم فقد احتوت هذه الموسوعة كل ما وصلت إليه يد رجل نهم في طلب المعرفة، مشفق عليها ان تضيع، راغب في أن يضعها بين أيدي قرّائه بطريقة سهلة يسيرة. وقد نجح في هذا الأمر. لذلك كانت الرغبة في نسخها واقتنائها كبيرة.

جاءت الموسوعة في عشرين كتاباً.

والقطعة التالية من «الأصول» تتحدّث عن الطب وعلاقته بالفنون الحرّة.

١ ـ هناك تساؤل يرد على ألسنة البعض عن السبب الذي دعا إلى اقصاء الطب عن الفنون الحرة (السبعة). والسبب هو ان كلاً منها له مجاله الخاص، أما الطب فيشملها جميعها. ذلك بأنه يتوجب على الطبيب ان يعرف النحو كي يتمكن من فهم ما يقرأه وينظمه.

٢ ـ وللسبب عينه يجب ان يعرف الطبيب البيان (البلاغة) إذ ان ذلك يعينه في تحديد الأمراض التي يعالجها. ومثل ذلك أمر المنطق الذي يحدد ويشفي اسباب الضعف وذلك بالاستعانة بالعقل. والحساب لازم أيضاً لأنه يمكن الطبيب من حساب عدد الساعات في مرض البرحاء [وهو مرض عصبي تتخلله نوبات] وعدد الأيام في حالة الحيض.

٣ ـ وعلى الأساس نفسه، فان الهندسة تدرب الواحد على ما يجب أن يلاحظه بالنسبة لمواقع النقاط والبقاع [في جسم المريض]، لأنها تفتح عينه على ذلك. فضلاً عن ذلك فان هذا [الطبيب] لا يمكن أن يتجاهل الموسيقى لأننا نقرأ عن الدور الذي تقوم به في شفاء المرضى في أعصابهم.

٤ ـ وأخيراً يتحتم على الطبيب أن ينفقه في علم الفلك، لأنه العلم الذي يتناول النجوم في مسالكها وتبدّل الفصول. فان أجسامنا تتبدل أيضاً تبعاً لتبدل أحوال السماء. ومن هنا فقد قيل ان الطب هو فلسفة ثانية. لأن السبيلين للمعرفة (الفلسفة والطب) يعنيان بالإنسان على انه كلٌّ، فبينما تشفي الفلسفة النفس فان الطب يشفي الجسد».

ولننقل فقرتين أخريين تظهران لنا امتزاج المعرفة بالأسطورة، وحتى قد تغلب الثانية على الأولى.

أ ـ «الكبد Lecur وقد سمي بهذا الاسم (الاجنبي) لأنه مستودع النار، ومنه تهب (النار) الى الرأس. ومن ثم تنتشر الى العينين وما سوى ذلك من أعضاء الحس والأطراف؛ وبسبب حرارتها تحول السائل الذي كان الجسم قد تمثله من الغذاء الى دم. وهذا الدم تُزوَّد به جميع الأجزاء لتغذيتها وتقويتها. وفي الكبد تسكن اللذة والرغبة على ما يرى اولئك الذين يتناظرون حول الفلسفة الطبيعية».

ب ـ «يقال أن جنس السكيوبودس يقيمون في اثيوبيا. وكل شخص له رجل واحدة. وهم قوم عجيبون في سرعتهم في السير. ويسميهم اليونان سكيوبودس بسبب انهم في الصيف يستلقون على ظهورهم ويحتمون من القيظ برفع أقدامهم الضخمة فوق رؤوسهم».

[**ملاحظة**: كان القدماء يعتقدون ان كل شيء، حتى الأحياء، يتكوّن من أربعة عناصر: الماء والهواء والنار والتراب؛ ولما كان لا بد لمستودع في الجسم البشري لهذه العناصر فقد وقع الاختيار على الكبد][1].

بيد: كان راهباً انكليزياً قضى أكثر أيّامه في دير جارو Jarro في مقاطعة درهام Durham. كان طلعة ذكياً منقباً منبشاً. لكن جهله باليونانية، كما كانت الحال مع ايزيدور، اضطره الى الاكتفاء، في النواحي العلمية، بفتات العلم الروماني الذي جاء في عصور الامبراطورية المتأخرة والمدون باللاتينية. فوضع كتباً في الحساب والفلك وخلاصة التاريخ كانت تغلب عليها السطحية بطبيعة الحال. إلا ان ما وضعه في قواعد اللغة وفي البيان (البلاغة) كان أفضل من ذلك، إذ إنه كان يتّقن اللاتينية ويجيد الكتابة بها نثراً وشعراً. وأعماله في التقاويم الكنسية لا يستهان بها.

وعندما ننظر في تعليقاته وشروحه للأسفار المقدّسة نجد رجلاً عارفاً بما يتحدث عنه، ويحسن عرض آرائه. ومثل ذلك يقال في مجموعة من العظات الدينية التي أصبحت مثالاً يحتذى ومصدراً ينقل عنه.

والكتاب الذي أكسب بيد شهرة خاصة هو كتاب «تاريخ الكنيسة الانكليزية»:
Historia ecclesiastica gentis Anglorum.

ولعل الناحية التي تميزه عن الكثيرين من معاصريه هو انه لم يقبل بالقول بأن الدين وحده هو طريق تقدم الجنس البشري، بل ان هذا التقدم يتوقف على الدين والعلم معاً. وهي فكرة نيّرة بالنسبة لتلك العصور.

- ٢ -

عرفت أوروبة العصور الوسطى حركتي احياء للحياة الفكرية: الواحدة في ايام شارلمان (٧٧١ ـ ٨١٤)، والثانية أيّام أوتو الأول (الكبير ٩٣٦ ـ ٩٧٣).

تمركزت الأولى حول بلاط شارلمان في آخن Achen أو اكس لا شابل Aix-la-Chapelle. كان القصد الذي رمى إليه الأمبراطور هو رفع مستوى التعليم الديني بين الرهبان، كي يتمكنوا من القيام بواجباتهم نحو الشعب على طريقة افضل. فأقام مدرسة القصر في البلاط واستدعى الكوين (Alcuin حوالى ٧٣٥ ـ ٨٠٤) الانكليزي ليتولى الاشراف عليها. وقد نجح هذا العالم اللاهوتي الكبير في جعل البلاط مركزاً ثقافياً وكان عضد شارلمان في اصلاح الطقس الديني الكنسي. وبعد ثماني سنوات من عمله في البلاط انتقل الى دير تور Tours حيث تولى رئاسته حتى وفاته. وكانت فئة من المدرسين الانكليز والايطاليين والاسبان تعمل في مدرسة القصر، ايام الكوين وبعده.

وقد أمر شارلمان بوجوب انشاء مدارس في عدد كبير من الأديرة وفي الكاتدرائيات. فكانت ثمة حركة احياء للأدب اللاتيني واللاهوت. وكانت مواد التعليم اللغة اللاتينية والقراءة والحساب والموسيقى والترانيم الدينية.

فضلاً عن ذلك فقد كان هناك اهتمام، بسبب حماسة سيد البلاط نفسه، في جمع الكثير من الكتب القديمة.

وعصر شارلمان ونهضته أنتجا ما يسمى في اللغات الأجنبية الحرف الصغير في الكتابة، وهذا يسر النسخ ومكّن الخطاطين من تجميل كتاباتهم[٢].

ولعل خير ما يمكن ان نفعله ان ننقل الى القراء خطاب الامبراطور شارلمان الى رئيس دير فلدا Fulda بالمانية (٧٨٠ ـ ٨٠٠) حول ضرورة العناية بالتعليم والتعلّم:

«تحية وبعد، ليكن معلوماً لقداستكم انه مما يرضي الله ان وجدنا، نحن والمخلصون من رجالنا، انه من المفيد بالنسبة للاسقفيات (مراكز المطارنة) والاديرة التي فوض المسيح أمر الاشراف عليها الينا، فضلاً عن جماعة الاخوان الرهبان، ـ وجدنا انه من المفيد الاهتمام بأمر الأسقفيات والأديرة. وذلك فيما يختص بالثقافة الأدبية وتعليم اولئك الذين وهبهم الله القدرة على التعلّم، كل حسب مقدرته وطاقته. ولما كان احترام القوانين الرهبانية ومراعاتها يؤدي الى النظام والى نعمة السلوك الحسن، كذلك فان الغيرة في العلم والتعليم يمكن ان يؤدي الى النتيجة نفسها. وهكذا فان الذين يبغون ارضاء الله، بان يحيوا حياة قويمة صالحة، عليهم أيضاً الحصول على رضاه بالنطق السليم... وعلى الرغم من ان المسلك القويم قد يكون افضل من المعرفة، الا ان المعرفة تسبق آداب السلوك... إذ كانت تصلنا خلال السنوات القليلة الماضية خطابات من كثير من الأديرة، جاء فيها ان الاخوان الرهبان الذين يعيشون هناك يقيمون الصلوات والابتهالات المقدسة من اجلنا. ولقد وجدنا في معظم تلك المكاتبات الأفكار الصائبة الى جانب التعبيرات الفجة غير المألوفة... إذ لم يكن بوسع اللسان الذي لم يثقف بسبب اهمال الدراسة الآداب، بل أيضاً بعقل شديد التواضع لتحصيل العلم واقتناء المعرفة بما يرضي الله، حتى يتسنى لكم، في سهولة ويسر اكثر من ذي قبل وبطريقة صحيحة أيضاً، التعمق في فهم خبايا الأناجيل المقدسة وأسرارها»(٣).

ولكن امبراطورية شارلمان ضعفت (بعد وفاته ٨١٤) ثم تقسمت نهائياً سنة ٨٤٣، فانتهى بذلك هذا النشاط الذي كان شارلمان لولبه. والمهم بهذه المناسبة القول بأن هذه الحركة كانت محاولة لكن نتاجها لم يكن فيه جدة ولا ابداع.

وحاول اوتو الكبير، ملك المانية وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة (٩٣٦ ـ ٩٧٣) وخليفتاه، ان يقوموا بالعمل الذي قام به شارلمان. لكن النجاح كان هنا حتى اقل بما اصابته آخن. ذلك ان اوتو لم يكن له بلاط شارلمان. فلم يكن للحركة مركز دفع ونشاط.

- ٣ -

هذا الجو الفكري الذي حاولنا وصفه يمثل الناحية الوضاءة من حياة أوروبة في العصور الوسطى، لأنه يتحدث عن الذين تعلموا ودرسوا وكتبوا. أما القرّاء فكانوا أيضاً قلة، وهم الذين وصلت اليهم الخلاصات التي تحدثنا عنها. أما السواد الأعظم من الأوروبيين فلم تصل اليهم حتى هذه المعرفة.

وقد استمر هذا الوضع حتى مطلع القرن الثاني عشر إذ تبدلت الحال. على أنه حري بالذكر ان التبدل لم يأت دفعة واحدة. فشؤون كثيرة ظلت تحتل حيزاً لا يستهان به في حياة أهل الفكر.

فنحن إذا اخذنا مثلاً مكتبة محترمة تعود الى سنة ١١٠٠ وجدنا انها تحتوي على

الكتاب المقدس، وقد يكون في نسخ متعددة وكتابات آباء الكنيسة من القرن الثاني حتى ذلك التاريخ والشروح والتعليقات على الموضوعين، والكتب المدرسية التي وضعها امثال بوتيوس وسواه. ومن المرجح ان يرصع هذه المجموعة ايزيدور ومؤلفات الكتاب الكلاسيكيين باللاتينية. وكان من النادر ان تعثر فيها على كتاب باللغة اليونانية. فهي اصلاً لم تنتشر ما فيه الكفاية في المنطقة الواقعة إلى الغرب من هنغاريا الحالية ونهر الابه. والافراد القليلون الذين كانوا يعرفون بعض اليونانية جاءهم ذلك من علاقاتهم التجارية مع بزنطة.

أما بعد سنة ١٢٠٠ فقد كانت مثل هذه المكتبة تزينها مدونة جستنيان القانونية والتشريعات والمراسيم البابوية وكتب اللاهوت التي وضعها انسلم Anselm وبيتر لومبارد Peter Lombard وهي حديثة العهد نسبياً. وأهم من هذا انه كانت تحتوي على كتب في الرياضيات والفلك والفلسفة ودواوين الشعر البطولي والغنائي، خاصة البروفنسالي. كان الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة تحتفظ بمكانتها. وكان هناك أيضاً مؤلفات بوتيوس وايزيدور وأمثالهما.

وحتى الموسوعة التي وضعها لامبرت (Lambert) سنة ١١٢٠ كانت تحتوي الكثير الكثير مما ضمنه ايزيدور موسوعته، مع اضافات وقع عليها، إلا انها لا تمثل إلا خطوة أولى نحو التطور الذي شمل أوروبة في القرن الثاني عشر.

بين حول سنة ١١٠٠ ونحو سنة ١٢٥٠ خطت أوروبة، خاصة فيما وراء البرانيز، خطوات كبيرة في العلم الفلسفة؛ اقل ما يقال فيها انها كانت خطوات تختلف نوعاً وكمّاً عما عرفته البلاد نفسها في تاريخها القريب؛ بحيث أصبح العالم والفيلسوف، كل في المجال الذي يحبه، ولا اقول الحقل الذي يتخصص فيه، فهذا أمر هو من تطورات العالم خلال القرنين الماضيين، أصبح العالم والفيلسوف يجادل ويناقش ويبحث ويجرب ويقارن ويقابل لأنه حصل على مادة جديدة واطلع على نهج جديد في التعامل مع المشكلات الفكرية والعلمية.

نقل العلوم من العربية الى اللاتينية

- ١ -

ان الذي أحدث هذا التبدل، في أوروبة والغربية منها خاصة، كان حركة النقل والترجمة من العربية الى اللاتينية أصلاً، مع بعض الترجمات من اليونانية الى اللاتينية ـ على ان نذكر ان العمل الأول (أي النقل من العربية) كان الأسبق والأوسع نطاقاً والأعمق أثراً في تطوير الحركة الفكرية الأولى في أوروبة.

كانت الرقعة التي تمّ فيها نقل المؤلفات العربية الى اللغة اللاتينية واسعة ـ فقد امتدت من بلاد الشام عبر الشمال الافريقي (تونس) وصقلية الى اسبانية. وكان الجزء الأقل انتاجاً في هذه الناحية بلاد الشام. فأولئك الذين حملوا السيف للقتال في ايام الحروب الصليبية لم يكونوا، في غالبيتهم، من أهل القلم. لذلك فالفترة التي امتدت قرنين من الزمان تمت فيها ترجمة كتابين: الوحد مؤلف لعلي بن عباس (توفي ٣٨٤/ ٩٩٤) والمعروف باسم الكتاب

الملكي Liber Regius الذي نقله اسطفان البيزي والمعروف أيضاً باسم اسطفان الانطاكي (لاقامته في هذه المدينة) وذلك حوالى سنة ١١٢٧. والثاني هو «سر الاسرار» المعزو لأرسطو، وقد نقله فيليب الطرابلسي Philip of Tripoli بعد ذلك بنحو القرن.

أما تونس فقد كان لها دور خاص، ذلك ان قسطنطين الافريقي Constantinus Africanus الذي كان يتردد على مدرسة القيروان الطبية، التي يرجع انشاؤها الى أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع للهجرة (او أواخر التاسع أو أوائل العاشر للميلاد)؛ وقد وضع أساتذتها اسحق بن عمران واسحق بن سليمان وأحمد بن الجزار وسواهم كتباً طبية قيمة نقل عدداً منها قسطنطين وكان يدّعي تأليفها. وأكثر الباحثين يربطون بين ما ترجمه قسطنطين وبين تدريس الطب في جامعة سلرنو Salerno وهي أول معهد لدراسة الطب باللغة اللاتينية في أرض أوروبية، إذ لعله كان يعنى بالترجمة لهذه المؤسسة أو لأساتذتها. وقد قضى قسطنطين سنيه الأخيرة في دير مونتي كاسينو (توفي ١٠٨٧).

وكان شيء من بقايا المعرفة الطبية والتنجمية قد ظل بين أيدي الناس في جنوب ايطاليا. وكان الناس يتناقلون ذلك فيما بينهم، لكن دور هذه المنطقة بالنسبة للترجمة من العربية كان محدوداً جداً.

أما البلد الذي تمّ نقل القسم الأساسي من العلم العربي عن طريقه، فهو اسبانية. وكانت الترجمة تتم في برشلونة وترزونة وسيغوفيا وليون (الاسبانية) وبامبلونة، لكنها تركزت أخيراً في طليطلة. أما شمالي البرانيز فقد كانت بينزيه وناربون ومرسيليا من الأماكن التي أسهمت بالترجمة أيضاً.

والذين عملوا في نقل العلم والفلسفة العربيين الى اللغة اللاتينية كثر. وقد جاء اكثرهم من خارج اسبانية بالذات ـ من انكلترا وفرنسة والمانية وسواها.

ونود، قبل ان نعرض لعمل المترجمين والنقلة، أن نشير إلى بضعة أمور مرتبطة بالعمل ذاته:

١ ـ لم يكن ثمة جرد للكتب الموجودة، على ان يتخير النافع والضروري والمفيد منها للترجمة. ان المصادفة اصلاً والميل الشخصي ثانياً كانا المرشدين للمترجمين.

٢ ـ عمل المترجمون في اماكن متباعدة، فلم يكن بينهم اتصال يحول دون التكرار في نقل الكتب.

٣ ـ لعلّ بين ما ترجم ما لم يكن يستحق الجهد، والى جانب ذلك فقد كانت ثمة كتب كثيرة لم ينتبه إليها، ومن ثم فقد خسرها العالم.

٤ ـ إلا ان الأمر الذي لا خلاف حوله بين الباحثين هو ان جماع ما ترجم كان كبير الفائدة وعميق التأثير بالنسبة للحضارة العالمية. ويرى هوسكنز مثلاً انه لولا ذلك لما تقدمت أوروبة في ذلك الوقت.

ليس من اليسير التأريخ حتى لأشهر الترجمات. ذلك لأن المترجمين أنفسهم لم يؤرخوا

دوماً لأعمالهم، كما ان بعض الأرقام امحت أو محيت عمداً وزوّرت التواريخ وأسماء المترجمين. فضلاً عن ذلك فهناك ترجمات على درجة من الأهمية لكننا لا نعرف اسماء العاملين في الترجمة.

يجدر بنا ان نتذكر ان المترجمين لم يتقنوا جميعهم اللغة العربية بحيث انهم كانوا يستطيعون تفهم النص بشكل دقيق. ومن ثم فقد كان لا بد من واسطة بين النص العربي والنص اللاتيني بشكله النهائي. وكانت الواسطة واحدة من اثنتين: إما ان ينقل النص من لغة الكتاب الاصلية الى اللغة المحكية (ويغلب عليه في هذه الحالة ان ينقل شفويا) وبهذه الطريقة يمكن للمترجم الاجنبي بالتعاون مع آخرين ان يصيغه باللاتينية. وفي هذا الاسلوب ما فيه من ضعف وما يؤدي اليه احياناً من تشويش في المعنى. وعلى كل، فالذين درسوا تاريخ الترجمة في هذه الحقبة لم يعثروا على الكثير مما تمّ نقله عن هذا السبيل.

وكان الأسلوب الآخر هو الذي يتم عن طريق علماء يهود كانوا قد شاركوا في الحضارة العربية بالترجمة الى العبرية ثم يساعدون المترجم الأجنبي على نقله الى اللاتينية. ونحسب ان هذا الاسلوب كان يؤدي احياناً الى اساءة فهم النص أو تفسيره، ومن ثم نقله الى اللغة الاجنبية ـ أي اللاتينية نقلاً فيه شيء من البعد عن الأصل.

قد يكون من الصعب تتبع خط زمني للترجمة. فهناك ترجمة لجداول فلكية قام بها ادلارد الانكليزي Adelard of Bath مؤرخة سنة ١١٢٦. ولعله يصح القول بأن الربع الثاني من القرن الثاني عشر هو فترة الانطلاق نحو الترجمة.

ويعتبر جيرار الكريموني (Gerard of Cremona ١١١٤ ـ ١١٨٧) شيخ المترجمين. أحب جيرار ان يتعرف إلى كتاب المجسطي[٤]، من تأليف بطليموس القلوذي (القرن الثاني م) والذي نقل إلى العربية (٨٢٧م)، فرحل الى اسبانية، وهناك تكشفت له، بالواسطة لأنه لم يكن يعرف العربية، محتويات المكتبة العربية. فاستقر في طليطلة وتعلم اللغة العربية وعمل في الترجمة، فنقل فيما احصي، واحدا وسبعين مؤلفاً الى اللاتينية، إذ ظل يقوم بعمله حتى وفاته سنة ١١٨٧. ويؤكد الباحثون ان الفترة التي قضاها في طليطلة متعلماً ومترجماً زادت عن الستين سنة. وقد حقق أمله في ترجمة المجسطي سنة ١١٧٥.

كان بين ما نقله جيرار كتب أرسطو في المنطق مع شروح تميسينوس والفارابي ومبادىء اقليدس وكرويات ثيودوسيوس ورسالة لأرخميدس، فضلاً عن كتب متعددة في فروع الهندسة والجبر والبصريات. لكن أكبر جزء من فهرست ترجمات جيرار كان في ميدان الطب. فقد نقل عن العربية مؤلفات جالينوس وابقراط وقانون ابن سينا وكتابي المنصور والحاوي للرازي وما وضعه ابو القاسم الزهراوي الأندلسي في الجراحة. وهو الى ذلك، الذي نقل ما كتبه الفارابي، خاصة في شرحه لأرسطو.

وعندنا ان جداول الخوارزمي ترجمها روبرت تشستر Robert Chester سنة ١١٢٦، وفي السنة ١١٤٥ ترجم روبرت نفسه الجبر للخورزمي (ومن هنا جاءت كلمة اللغارثم). سنة

١٢٠٢ وضع أو ترجم (؟) ليونارد البيزي Leonardo of Pisa كتاب في الاباكوس، (وهي «معَدّة» تحسب فيها الأشياء على اسياخ تتعلق بها كلل خشبية صغيرة). ولما تم نقل هذه الأمور في الجبر، وصل هذا العلم الى الدرجة التي ظل عليها حتى القرن السادس عشر.

ليس من اليسير وضع جدول كامل بأسماء الكتب جميعها التي نقلت الى اللاتينية ولا بأسماء النقلة، لكن حري بنا ان نتذكر ان أفلاطون التيفولي Plato of Tivoli نقل زيج البتاني الى اللغة اللاتينية سنة ١١٥٠، وتمت أيضاً ترجمة جداول الخوارزمي (ادلارد) ثم جداول الزرقالي الأندلسي والفرغاني (فرغانة في أواسط آسية)، وتم نقل المجسطي رأساً من اليونانية سنة ١١٦٠، فأصبح في متناول المشتغلين بعلم الفلك كل المادة الأصلية، وصار بامكان فلكيي مونبيليه ان يكون لديهم مركز اساسي لهذا العلم.

وقد شهد القرن الثالث عشر ثلاثة من كبار المترجمين هم الذين يضعهم مؤرخو الفكر العربي بعد جيرار في الأهمية، وهم الفرد الانكليزي Alfred the Englishman ومايكل الايقوسي Michael the Scot توفي ١٢٥٣) وهرمن الجرماني (Hermann the German توفي ١٢٧٢). فهم، من هذه الناحية، معاصرون للذين عملوا في بلاط فردريك الكبير أو الثاني، (Frederick II, the Great ١١٩٤ ـ ١٢٥٠) وابنه وخليفته مانفرد Manfred المتوفى سنة ١٢٦٦؛ ذلك بأن خروج صقلية عن سلطان العرب سنة ١٠٩١ لم ينتج عنه رحيل سكانها العرب المسلمين عنها. لذلك بقيت هناك جالية عربية متعلمة وذات صناعات راقية، فكانت عونا لروجر وفردريك ومانفرد في تطوير الحياة في الجزيرة. بل ان روجر نفسه دعا الجغرافي العربي الكبير الأدريسي ليقيم في بلاطه وكلفه رسم خريطة للأرض ووضع معها كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» (١١٥٤م). وكان في حاشية ملوك صقلية منجمون وفلكيون عرب.

فالبلد كان جوه الفكري والاجتماعي والسياسي مهيأ لأن يقوم بدور في هذا العمل الكبير: نقل العلوم من العربية الى اللغة اللاتينية. صحيح ان العمل كان في النصف الأول من القرن الثالث عشر، لكنه كان يجاري الإحياء العلمي الذي كانت أوروبة قد اخذت نفسها به، فكان كل عمل يتم هو لبنة في البناء.

والذين عملوا في البلاط الصقلي هم الأمير يوجين Eugene the Prince وثيودور الانطاكي Theodor the Antichian ومايكل الذي مرّ ذكره.

وقد نقل يوجين البصريات البطلميوسية، وقام ثيودور بترجمات متنوعة تتعلق بالحيوان بشكل خاص، لأن الامبراطور كان مغرماً بالحيوانات والطيور وكانت عنده حديقة كان شديد العناية بها عملاً وعلماً.

ولنعد الآن الى مترجمي القرن الثالث عشر. كان الفرد الانكليزي فيلسوفاً من حيث نشأته واتجاهه. وكانت فلسفة أرسطو في الطبيعة هي موضوع عنايته. وهذا معناه، عندما يحاول ان يترجم هذا الصنف من الفلسفة الأرسطية، فلا بد له من ان يشد على ابن رشد

بالنواجد، فكان الفرد من أوائل الذين أوصلوا ابن رشد إلى أوروبة، ولو ان بعض ما كان معروفاً قد نقل من قبل. وكان لجاكوب أناتولي (Jacob Anatoli ١٢٩٤ ـ ١٢٥٦) فضل في انه أول من نقل فلسفة ابن رشد إلى أوروبة.

أما مايكل الايقوسي الذي عمل في طليطلة (كان فيها سنة ١٢١٧) فقد نقل دوائر (افلاك) البطروجي (في الفلك) سنة ١٢٢٠. وعمل على نقل ما كتبه أرسطو في الحيوان، وبذلك وضع بين أيدي العلماء اللاتين دروساً منظمة مبنيّة على المشاهدة والاختبار، فهذا هو المعروف عن الحيوان لأرسطو. ومع هذا كانت هناك تعليقات عربية، لكنها كانت في علم الحيوان قليلة، إذا قيست بغير ذلك من نواحي المعرفة. وعني مايكل بنقل شروح ابن رشد لأرسطو. ومايكل كان أول من ترجم القرآن الكريم الى اللغة اللاتينية.

وكانت عناية هرمان الالماني تدور بأرسطو وخاصة بالأخلاق النيقوماخية، وقد نقل كتاب الشعر وكتاب البيان (البلاغة) لأرسطو مع الشروح التي دارت حولهما وعليهما.

حريّ بنا ان نتوقف هنا لنشرح نقطة أشرنا اليها من قبل، وهي ان الكثيرين من المترجمين الأوروبيين كانت معرفتهم بالعربية بحاجة الى مساعد ومعين. لذلك فاننا نعثر على اسماء لهؤلاء المساعدين، منها غاليبوس Galippus الاسباني الذي كان ساعد جيرار الايمن: واندراوس Andrew الذي كان يعرف العربية والعبرية والسريانية واللاتينية، وذلك بشهادة البابا فيه (سنة ١٢٢٦)؛ وبطرس الفونسي Petrus Alfonsi الذي انتهى به الأمر بأن طب لهنري الأول ملك انكلترا؛ وسافاسوردا Savasorda، واسمه الأصلي ابراهام بن حيّا، وقد كان ضليعاً في اللغة العبرية وآدابها والفلسفة اليهودية؛ لذلك كان عوناً للذين نقلوا أرسطو وشروح ابن رشد. وابراهام بن عزرا (١٠٩٢ ـ ١١٦٧) كان أيضاً عاملاً مساعداً في الترجمة.

فضلاً عن ذلك فهناك اسماء وردت في مناسبات مختلفة، لكن لم يتضح دورها بعد مثل جون الاشبيلي وابن داود.

كان ابن رشد، فضلاً عن بروزه في الفقه والفلسفة الأرسطية، طبيباً. وقد نقل كتابه الكليات في الطب الى اللاتينية باسم Colliget في بادوا سنة ١٢٥٥. ومع اننا لا نؤرخ هنا لما انجزه العرب في نواحي المعرفة، فنحن معنيون بالترجمة والمترجمين، فانه حري بالذكر ان ابن رشد وجه نقداً علمياً لجالينوس في شؤون التنفس. وبهذه المناسبة فهناك طبيبان عربيان آخران وجهّا نقداً لجالينوس هما ابن بطلان (توفي ٤٥٩/ ١٠٦٦) وابن النفيس (توفي ٦٨٧/ ١٢٨٨) وهذا هو الذي اهتدى، بطريقة التعليل المنطقي، الى دورة الدم الصغرى.

وقد كان للعرب تفوق في طب العيون، ويعود ذلك، فيما يرى بعض الباحثين، الى أمرين ـ الأول انتشار أمراض العين في المنطقة، والثاني اهتمام العلماء العرب بقضايا البصريات. وأشهر أطباء العيون العرب هو علي بن عيسى الذي ترجم كتابه مرتين الى اللاتينية كما نقل الى العبرية.

ثمة عدد من الكتب نقلت عن العربية الى اللاتينية لكنها مجهولة المؤلفين والمترجمين. وتشمل هذه كتباً متفرقة في التنجيم والطبيعة وما وراء الطبيعة واعمالاً صغيرة في العلوم

معزوة لأرسطو. وقط ظهرت هذه في الغرب حوالى سنة ١٢٠٠. وثمة نسخة من المجسطي مجهولة المترجم (غير ترجمة جيرار) ولكنها نقلت عن العربية. وقد ظهرت في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر رسائل لاتينية في السيمياء أصلها عربي وهي منسوبة الى جابر بن حيان.

وهنا نتوقف لنشير الى أمور هي في غاية الأهمية.

أولاً ـ ان لغة العلم كانت، بين القرن الثالث والسادس/ التاسع والثاني عشر، العربية، ونقل الكتب التي اشرنا الى نموذج منها من العربية الى اللاتينية كان الخطوة الأولى في انتقال المعرفة العلمية الى أوروبة.

ثانياً ـ ان الذي نقل الى أوروبة لم يكن العلم وتفاصيله فحسب، بل كان ثمة منهج مبني، في كثير من الأمور، على التجربة. فقد أدخل العرب، وهم يطوّرون ما أخذوه عمن سبقهم وينمونه، أسساً جديدة، فضلاً عن التطوير الذاتي للعلوم. هذا هو الذي يصح ان يسمى عادات عقلية ورغبات في اجراء التجارب. هذا كله انتقل إلى الغرب المسيحي.

ثالثاً ـ ان الرازي ترجمت اعماله الطبية الى اللاتينية قبل اعمال ابن سينا. ولكن ابن سينا هو الذي اصبح «قانونه» كتاب الطب التدريسي في جامعات أوروبة. ويعود ذلك، على ما يرى الذين بحثوا هذه القضية، الى ان اسلوب ابن سينا كان على القارىء أيسر.

رابعاً ـ ان واحداً من أكبر أهل العلم الذي ظهر في دنيا العرب، وهو ابو الريحان البيروني (توفي بعد ٤٤٢/ ١٠٥٠)، لم تنقل كتبه الى اللاتينية. ويبدو ان صعوبة لغة هذا العالم، مع فصاحة اسلوبه، حالت دون ذلك. ولسنا نشك في ان نقلة تلك الأيام وخلفاءهم قد خسروا الكثير، لأن آراء هذا العالم لم تصلهم.

خامساً ـ ثمة أدب/ علم لم ينقل من العربية الى اللاتينية، وهو الأدب الجغرافي العربي.

ان حركة الترجمة للمؤلفات العربية الى اللغة اللاتينية لم تتوقف في اسبانية بانتهاء القرن الثاني عشر. ذلك ان طليطلة ظلت مركزاً للدرس والنقل حتى في القرن الثالث عشر. فان الفونس الحكيم، ملك قشتالة (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤) كان يرعى مدرسة تعلم فيها العربية، وكان يرئسها ابو بكر الريقوتي. ويرى بعض الباحثين ان عدداً من الذين تعلموا العربية فيها قام بترجمة كتب من العربية الى اللاتينية. ولعل الترجمة كانت هنا اقرب الى الصحة من بعض ما نقل من قبل.

رغبة منا في اتمام الصورة نشير الى ما ترجم رأساً من اليونانية الى اللاتينية. وقد تم اكثر هذا في بلاط الملوك النورمان في صقلية. فهي، وجنوب ايطالية، كانا ملتقى اليونانية واللاتينية والعربية على ما مر بنا. في صقلية عمل هنريكوس ارستبوس Henricus Arstippus والأمير يوجين Eugene. فنقل يوجين بصريات بطلميوس وكليلة ودمنة، وعمل ارستبوس على نقل اعمال آباء الكنيسة وترجمة مينو وفيديو لافلاطون وجزء من كتاب الأنواء لأرسطو. فضلاً عن ذلك فقد عمل هذا الراهب، الذي كان رئيساً للكوريا (المجلس الكنسي) في صقلية، على

حمل مخطوطات بزنطية الى صقلية (حفاظاً عليها بسبب اضطراب الأمور في الدولة الشرقية). وكان بينها مخطوط جميل للمجسطي وعنه نقلت أول ترجمة لاتينية مباشرة عن اليونانية. وقد كان ليوجين الأمير دور في عمل ارستبّوس.

يلاحظ من هذا ان الغالب على البلاط الصقلي أيضاً، كان النزعة العلمية. هذا الاهتمام العلمي في صقلية كان يجاريه وجود مدرسة سلرنو الطبية الايطالية، فكان للمؤسستين ـ البلاط والمدرسة ـ اثر في توجيه العناية نحو العلم.

إلا ان العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين القسطنطينية في الجهة الواحدة وبين البندقية وبيزا في الجهة الأخرى، يسرت للكثير من الأدب الفلسفي واللاهوتي اليوناني الانتقال الى العالم اللاتيني مترجماً. وتظهر في تاريخ هذه الفترة (العقود الأولى من القرن الثاني عشر) ثلاثة أسماء هي جايمز البندقي James the Venetian وبرغنديو البيزي Burgundio the Pisan وموسى البرغاموي Moses of Pergamo وكان هذا ايطالياً. وقد تم على ايديهم نقل المنطق الحديث لأرسطو واعمال آباء الكنيسة وشروح نيميسيوس على افلاطون ومختارات من خلاصة قانون جستنيان وحتى ما ورد في كتاب قديم في الفلاحة عرف باسم جيوبونيكا Geoponica[٥].

وأما إلى الشمال من جبال الألب فقد تمت ترجمات من اليونانية مباشرة الى اللاتينية، وهي في مجملها فلسفية لاهوتية، الأمر الذي اقتضته الخلافات بين البابوية ومناوئيها. إلا ان هناك ترجمات لأعمال أرسطو، فضلاً عن ترجمات مجهولة النسب والزمن. وثمة ترجمات من اليونانية ومن العربية الى اللاتينية لكنها غير مؤرخة.

يجدر بنا، بعد ان اشرنا الى الترجمة المباشرة وتحدثنا ببعض التفصيل عن الترجمة عن طريق العربية، ان نقارن بين نوعي العمل (ولو اننا أشرنا الى بعض ذلك من قبل) كي تكون الصورة واضحة على قدر الإمكان.

أولاً ـ الترجمات المباشرة، على العموم، أصح وأدق إذ إنها تمت دون وساطة كما حدث بالنسبة للنقل من العربية. فالوساطة (العبرية أو العربية المحكية) سهلت النقل لكن لعلها يسرت للأخطاء ان تتسرب الى المتن.

ثانياً ـ الاهتمام في الحالتين كان يشمل الفلسفة والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية.

ثالثاً ـ لقد ظل أفلاطون يونانياً، أما أرسطو فقد تعرب في الطريق وحمل معه، لما نقل الى اللاتينية، الشروح والاضافات التي ضمّها العلماء العرب إليه.

رابعاً ـ اللاهوت والنحو انتقل من اليونانية الى اللاتينية مباشرة. أما الموضوعات الأخرى فقد جاءت بطريق الواسطة. وثمة علم (أو شبه علم) التنجيم الذي كان يغلب عليه الطابع العربي.

والذي يتفق عليه الباحثون هو ان نهضة القرن الثاني عشر في أوروبة كانت علمية وكانت عربية ـ يونانية.

الإحياء العلمي وابن رشد في أوروبة

كان ثمة حركة إحياء علمية في القرن الثاني عشر والقرن الذي تلاه. والتبدل الذي طرأ على أوروبة في العصور الوسطى، بسبب تعرفها إلى هذا العدد الكبير من الكتب العربيّة التي كانت تحتوي على علم لم تألفه المنطقة من قبل كان كبيراً. وعلى كل فلا يجوز لنا ان نتصور ان أوروبة الغربية نفضت عنها كل ما كان مقبولاً من قبل واتخذت لها أساليب جديدة في النظرة الى الحياة والكون دفعة واحدة. مثل هذه الطفرة ما كان لها ان تحدث في تلك الظروف والاحوال. ففي موسوعة لامبرت Lambert التي وضعها سنة ١٢٣٠ كان لا يزال أثر بليني الروماني وايزيدور الاشبيلي قوياً. صحيح ان شيئاً من العلم الجديد قد وصل الى تلك الاصقاع، فتنوعت الكتابات العلمية وتعمقت ودخل فيها نوع من الملاحظة والتخصص في الدراسات، لكن حتى الموسوعة التي وضعها فنسنت أوف بوفيه Vincent of Beauvais في اواسط القرن الثالث عشر لم تتخلص من بعض ضغوط الماضي. فهذا المؤلف الذي وضع كتابه الضخم معتبراً انه يمثل ايامه ـ أي بعض التجديد في المعلومات ـ كان نصف موسوعته مخصصاً للعلم، وقد احتوى هذا القسم الكثير من علم العرب وشروحهم على ارسطو خاصة في مجال الطب. لكنه ظل في شؤون أخرى، اسير تقاليد قديمة.

على كل، لم يكن الزمن خالياً من فئة من الناس تحسسوا من هذه المعرفة الجديدة اكثر من ذلك. فهناك البرت الكبير (Albertus Magnus ح ١١٩٣ ـ ١٢٨٠) الفيلسوف الالماني، الذي كان يرى ان المهم في العلم ليس القبول بالمنقول بل البحث عن طبيعة الأشياء. ولم يمتنع عن مخالفة ارسطو الرأي ونقده. انه لم يقبل بالأمر المقبول لمجرد انه جاء من فئة أو هيئة متسلطة.

ونحن إذا أخذنا العلوم المهمة لنرى ما الذي اصابها في القرن الثاني عشر والقرن الذي يليه، وجدنا ان التقدم في الهندسة بعد التعرف إلى اقليدس وترجماته وشروحه، بلغ حداً كبيراً، بحيث انها لم تخط خطى جديدة بعد ذلك إلا في العصور الحديثة. وكان إدخال الجبر والمقابلة في حقل الرياضيات اساس التحليل الرياضي الحديث. كما ان ادخال الأرقام العربية (ولعل الأمر تم عن طريق التجار لا العلماء) يسّر التعامل في الرياضيات، ومن بين ما تم القيام به في الفترة التالية حل المعادلات الجبرية المربعة والمكعبة.

ونتيجة لترجمة الازياج (أو الزيجات) المختلفة التي مر بنا خبرها، أصبح من الممكن عملياً القياس بالدرجات والدقائق والثواني.

وما دمنا نشير إلى الفلك، فهناك نوع من الفلك يسمى التنجيم، وهو على ما يرى الباحثون، الفلك العملي لأنه يستخدم لكشف الطالع. إلا ان هؤلاء المنجمين، الذين كانت تزخر بهم بلاطات الملوك (شرقاً وغرباً وفي العصور القديمة والمتوسطة) كانت لهم معرفة دقيقة بارتباط الفصول والأنواء والليل والنهار والمد والجزر بعضها بالبعض الآخر وبما قد يحدث لحملة عسكرية. والمعرفة الأولى هي فلكية اصلاً، لذلك كان للمنجمين دور في تطوير

علم الأنواء، والأجواء والطقوس. وقد وصل أوروبة في القرن الثاني عشر سيل من كتب التنجيم العربية، لعل في مقدمتها كتب الكندي وأبي معشر وسواهما. وقد عني مايكل سكوت الذي كان احد منجمي بلاط فردريك بكتب التنجيم فوضع فيها، معتمداً الى ما وصل اليه، ما اهتم به فردريك الثاني (الكبير). وكانت الجامعات في أوروبة فيها كراسي لتدريس التنجيم، على نحو ما كان فيها مراكز استاذية لتدريس الطب.

وثمّة نوع آخر من المعرفة يحار الباحثون أين يضعون أصحابه هو السيمياء. والأصل فيها، على ما يرى اكثر الدارسين لها، انها محاولة لتحويل المعادن الخسيسة الى معادن ثمينة وخاصة الى الذهب. ومن ثم فان أي شخص يحسب انه توصل الى القاعدة التي ستجعله غنياً كبيراً لن يبوح بالسر. ومن هنا فقط احاطت بهذه الصناعة ـ أو هذا العلم ـ هالة من السر والسحر والضباب والتغييب. إلا ان هناك من يربط بين هذه ـ السيمياء ـ وتطور علم الكيمياء فيما بعد. ويقول هؤلاء ان صلة التنجيم بالفلك هي مثل صلة السيمياء بالكيمياء ـ لكن المقارنة ليست صحيحة. فالفلك كان قائماً حتى اثناء الاهتمام بالتنجيم. أما العلاقة بين الكيمياء والسيمياء ـ من ايام الفراعنة حتى العصور الوسطى (وحتى بعد ذلك) فهي مجال للبحث الجدي الذي ينتهي عادة بالحزر.

إلا ان العلم الذي خطا خطوات، والذي كان للترجمة التي تمت من العربية الفضل الأكبر في تطويره فهو الطب. ونحن نعرف ان قانون ابن سينا اصبح كتاب الطب المقدس في مدارس أوروبة الطبية وظل حتى مطلع العصور الحديثة.

ومع الاهتمام بالطب، فقد كان ثمة اهتمام بالمفردات الطبية (الاعشاب أو الحشائش الطبية) لاعتماد الطب اليوناني ـ العربي عليها في العلاج. لكن الذي اخذه الغرب عن العرب بالنسبة لهذه الاعشاب ـ هذا العلم الذي سمي الاقرا باذين كان قليلاً نسبياً.

كان في هذه الفترة اشخاص يعنون بالمراقبة والملاحظة والدرس والاستقصاء. من هؤلاء ولخر الملفرني Walcher of Malvern الذي حاول سنة ١٠٩٢ ان يعين الفرق في الوقت بين انكلترا وايطالية، والذي اخذ، في سنة ١١٢٠، يحسب بالدرجات والدقائق والثواني. ولكن اكثر المراقبين والباحثين والملاحظين أهمية هو ادلارد الباثي Adelard of Bath الذي اهتم بالعلم خلال العقود الأربعة الأولى من القرن الثاني عشر. انه كان يقول ان الرواية الموثقة هي معيقة عن العمل، لأنها تسلطية. ويجب ان نبحث عن جميع الوسائل لفسير الكون والحياة قبل ان نلقي بالأمر على عاتق الآلهة. انه كان رائداً من رواد التدقيق العلمي.

لكن الذي نلاحظه، على كل، هو ان أمرين حدّا من هذا الاتجاه العلمي وقيداه وهما القبول بالرواية، بحيث ان الطب مثلاً كان يدرس من الكتب ـ من الرواية؛ والثاني هو منطق ارسطو. إذ كان من الضروري ان يدرس المنطق ثلاث سنوات قبل ان يسمح للطالب بأن يدرس الطب (قانون فردريك الكبير). ومعنى هذا سيطرة الناحية المنطقية الجدلية فكرياً على الناحية التي تعتمد التفكير والملاحظة والبحث. ان ناحية النقد كانت قد أصابتها الحياة

إصابة رفيقة التسلط في شؤون الفكر كان هو الأمر السائد. لكن هل كان باستطاعة القوم في ذلك الوقت القيام بأكثر من ذلك؟ ألم يكبلنا التّسلّط ـ نحن العرب ـ منذ القرن الخامس/ الحادي عشر، على النحو نفسه؟

- ٢ -

كان بوتيوس قد دفع بالمنطق الارسطي الى واجهة الحياة الفكرية في أوروبة، وبسبب النفوذ الذي كان بوتيوس يتمتع به، قبل المفكر الأوروبي هذا المنطق على انه الأصل. ذلك بأن اسلوب ارسطو الواضح الدقيق قبل كليا إذ وصل الى أوروبة مع العرب الذين عنوا بشرحه وتفسيره خاصة على ايدي فلاسفتهم. ولم يستطع أفلاطون من التّمكن من الأوروبيين لأن أسلوبه الحواري الأدبي الفضفاض كان، لما وصل، غريباً على هؤلاء. والذي عرف فيما بعد عن افلاطون جاء في ثياب الافلاطونية الحديثة والذي أصبح ذا أثر كبير في حركة التصوف في تلك النواحي، بقيادة مدرسة شارتر Chartre.

إلا ان القرن الثاني عشر، بعد ان دخله ارسطو بقوة، أصبح «قرن» منطق في الدرجة الأولى. وقد اصبحت كتب ارسطو معروفة للباحثين بجملتها في نهاية القرن الثاني عشر، إذ كانت جميعها قد نقلت إلى اللاتينية إما عن طريق العربية أو ترجمة من اليونانية مباشرة. والمهم هو ان آراء أرسطو فيما وراء (بعد) الطبيعة هي التي كانت لها السيطرة الفكرية الكبرى.

«... كان ابن رشد شارحاً لأرسطو، كما شرحه غيره من قبل ومن بعد... ولكن الشروح الرشدية لم تأت بمجرد تعاليق وحواش، ولكنها رمت الى تعميق نظريات ارسطو لابلاغها للآخرين بأكثر ما يمكن من الوضوح. كان ابن رشد يرتقي بالتلخيص «الى التعريب» فقد استنطق ابن رشد نصوص ارسطو وترجمها ترجمة جديدة استئصالاً وتأصيلاً. انطلق بنية التغلب على «قلق العبارة» لتصير النظريات الارسطية «معرفة» مفهومة... فإذا كان ابو علي بن سينا يمتاز باتجاه إشراقي (أساسه الأفلاطونية الحديثة) أي انه كان يلتمس الفلسفة بواسطة الحدس (إلهام وذوق)، فان ابن رشد امتاز باتجاه يعتمد أساساً على العقل، والعقل مرتبط بالحس على اعتبار ان الحواس مطية واقعية للتعقل والعقلنة. فالإنسان، في واقعه، حيوان يحس، حيوان متأطر بالمحسوسات لكنه حيوان توّاق إلى تجاوز المحسوسات والى تجاوز تعددها الى النظر العقلي الذي يعطينا القدرة على تنظيم علاقاتنا بها» (ص ٢٤٢).

وفيما يتعلق بانتقال ابن رشد الى الغرب يرى محمد عابد الجابري ان ترجمة ابن رشد إلى العبرية تؤدي الى مشكل هو «نوع فهم الأوروبيين لابن رشد. لقد كتب ابن رشد بالعربية ثم نقلت كتبه الى العبرية واعتمد اللاتينيون في الغالب على الترجمات العبرية لمؤلفات ابن رشد. افلا يكون لهذه اللغة الواسطة أي العبرية تأثير في اللاتينيين لفكر ابن رشد؟

«... ان كثيراً من المستشرقين ذوي المكانة العلمية الممتازة يربطون بعض أفكار ابن رشد بل كثيراً من افكار الفكر الاسلامي بأصول يهودية وبمفكرين يهود، كفيلون (القرن الأول)، الشيء الذي يدفع الى القول بأن الفلاسفة المسلمين تأثروا بالفلاسفة اليهود السابقين لهم.

انا اعتقد ان الأثر اليهودي الذي لاحظه المستشرقون في المؤلفات الفلسفية الاسلامية المترجمة الى اللاتينية يرجع الى عملية الترجمة ذاتها أي الى كون هذه المؤلفات ترجمت الى العبرية أولاً ثم الى اللاتينية ثانياً... ان ابن رشد لم يكن يتقيد بارسطو تقيداً تاماً في شروحه وتلخيصاته، بل يتخذ فكرة ارسطو منطقاً للتفكير، وكثيراً ما يأتي بأفكار جديدة لم يقل بها ارسطو، ولكنها تنسجم الى هذا الحد أو ذاك مع فلسفة ارسطو. هذا يعني ان ابن رشد لم يكن مجرد شارح؛ بل كان فيلسوفاً له اتجاهه الخاص وأصالته الخاصة» (ص ٢١٢ ـ ٢١٣).

ويضيف أحمد شحلان «هناك جانب آخر كان له تأثير كبير على النصوص المترجمة. ذلك ان اليهود عندما ترجموا من العربية الى العبرية، وخصوصاً مؤلفات ابن رشد المتعلقة بعلم الكلام أو مؤلفات الغزالي، فانهم لم يحافظوا على الامثلة والنصوص القرآنية أو الاشعار العربية أو الاحاديث، بل غيروها وعوضوها بنصوص من التوراة أو التلمود أو اشعارهم وآثارهم. وان عملية مثل هذه كفيلة بأن تغير النص الفلسفي تغييراً كبيراً ليس في مضمونه اللغوي فقط، ولكن أيضاً في منهجه ومضمونه ورؤاه العلمية، بل مضمونه الحضاري الذي بني تحليله على مقومات ذهنية في إطار خاص وفي ظروف تاريخية خاصة» (ص ٢١٤).

وحريّ بالاهتمام هو ان الفلسفة واللاهوت كانا يعتبران متناقضيين من حيث جوهر الأمور التي يتعرضان لها. ومع ان الفلسفة كان بامكانها ان تتملص من ربقة اللاهوت من حيث انها نظام بحث ودراسة، فان الذي قيد الفلسفة هو وجود الفكرة التسلطية في المجال الديني، والتي كانت قوية ومنظمة في تراتيبها.

وقد آن لنا ان نعنى بالرشدية ودخولها أوروبة في تلك الأزمنة. والذي نعتمد عليه في هذا الأمر هو «اعمال ندوة ابن رشد ومدرسته في الغرب الإسلامي» (الرباط، ١٩٧٩).

فقد عقدت في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة محمد الخامس (في الرباط) في ٢١ ـ ٢٣ نيسان/ ابريل ٢٩٧٨ ندوة خاصة بمناسبة مرور ثمانية قرون على وفاة ابن رشد، وكان المساهمون في الندوة ممن قضى سنوات يدرس ويدرّس الفلسفة الاسلامية وفلسفة أوروبة في العصور الوسطى، لذلك جاءت بحوثهم نتيجة هذا العمل الدؤوب.

يقول محمد زنيبر «.. فان ارسطو حينما كان يدرّس الفلسفة أو يؤلف فيها، انما كان يقوم بعمل مشكور يضمن له حسن السمعة والمجد. وبديهي ان يتفرغ لعمله بكل حماس وان يجد في التقدير الشعبي والرسمي قوة معنوية تدفعه الى الانتاج والكتابة والتصرف في تفكيره بكل حرية.

«فهل نستطيع ان نقول ان ابن رشد وجد أمامه الظروف المشجعة نفسها؟

«لقد تغير المخاطب رأساً على عقب. فالمجتمع الاسلامي ليس هو المجتمع الاغريقي. فهو لا يواجه الفلسفة مع استعداد لتقبلها، لأنه ممتلىء فكرياً وشعورياً بفلسفته الفائضة من العقيدة الاسلامية. كان لا بد من التفرغ الذاتي لاستيعاب الفلسفة بمذاهبها المتضاربة، وهذا ليس من الممكن الحصول عليه بصورة كافية في مجتمع متشبع بعقيدة دينية، ولذلك فان

الأرضيّة التي يعمل فيها الفيلسوف بالمجتمع الاسلامي هي أرضية تكاد تقع كلها خارج ديار الاسلام.

«لذلك فإن الفلسفة ظلت، برغم وجودها منذ قرون بالمجتمع الإسلامي، تحمل دائماً طابع الشيء الغريب، المستورد، الذي لا تدعو الضرورة إلى إدماجه في تكوين المثقّف أو العالم المسلم» (ص٥).

والسؤال الذي يواجه دارس ابن رشد هو «ما هي ميزة ابن رشد؟» وقد اجاب عن هذا محمد عزيز الحبابي بقوله:

ويجمل أحمد كامل خصائص فلسفة ابن رشد وهدفه النهائي من هذه الفلسفة بقوله: «اما خصائصها فنجملها في دقة الفهم لنصوص السابقين والحرص على الوصول الى الحقيقة... استجابة لمنهج برهاني عقلي... اما هدفه النهائي فهو الوصول الى الحق بالعقل وبالبرهان والدفاع عن الدين ضد منكريه وعن الفلسفة ضد رافضيها» (ص ٢٠٨).

وقد توصل ابن رشد «الى ان للدين مبادىء وأُصولاً خاصة وان للفلسفة كذلك مبادىء واصولاً خاصة، الشيء الذي ينتج عنه اختلاف البناء الديني عن البناء الفلسفي. ولذلك كان من غير المشروع في نظره دمج اجزاء من هذا البناء في البناء الآخر أو قراءة أجزاء من هذا البناء بواسطة اجزاء من ذاك. ان النتيجة ستكون ـ وهذا ما يؤكد عليه ابن رشد مراراً ـ تشويه تلك الأجزاء والتشويش على البنائين معاً... وهكذا فإذا اراد الفيلسوف ان يناقش قضايا الدين فعليه أولاً ان يسلم بمبادىء الدين، وإذا أراد العالم الديني ان يناقش قضايا الفلسفة، أية فلسفة، فعليه ان يسلم أولاً بالمبادىء التي شيدت عليها هذه الفلسفة» ـ محمد عابد الجابري (ص ١١٣).

لما وصلت الرشديّة الى أوروبة اثارت، كما اثارت الارسطية قبلها، قضايا مهمة. وسنرى كيف ان دخول الرشدية الى الغرب لقي مقاومة شديدة رغم الاعتراف بإبداعه الفلسفي. الا ان ابن رشد لقي ترحيباً عند توما الاكويني (Thomas Aquinas ح ١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) ، الذي كان يرى ان القضايا المنزلة لم تعد من اختصاص رجال الدين فقط، وانما اصبحت تبحث بحثاً فلسفياً على ضوء المبادىء اليقينية والمنطق، وانه باستطاعة العقل ان يبلغ الى الحقائق اليقينية في الالهيات. في هذا وأمور أخرى يتفق ابن رشد وتوما، وليس بمستبعد ان يكون الأخير تأثر بشروح الأول لأرسطو (ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧).

يجدر بنا ان نتذكر ان دخول ما وراء الطبيعة حلبة الفكر الأوروبي كانت نتيجته اصلاً تكبيل الفكر. لكن ما وراء الطبيعة التي وصلت مشروحة على يد ابن رشد كانت عملاً من اعمال العقل. إذ انها تظهر العقل وتوضح دوره وتضع المنهج اللازم اتباعه للوصول الى الحقيقة (ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩).

كان دخول ارسطو في صحبة ابن رشد الى أوروبة ذا أثر كبير، لأنه اثار، من جديد، قضايا كانت ما وراء الطبيعة وسيطرة المنطق الأرسطوي قد طوياها محلياً. لذلك كان من

الطبيعي ان تقاوم هذه الموجة الجديدة. ونحن نجد انه سنة ١٢١٠ (أي في أول القرن الثالث عشر) يمنع تدريس ارسطو. ويجدد هذا المنع سنة ١٢١٥. وفي سنة ١٢٢٨ قال البابا غريغوريوس التاسع ان اقسام اللاهوت في أيّ جامعة لها المقام الأول وانها هي التي ترشد بقية الاقسام على نحو ما تسيطر الروح على الجسد. وقد منعت جامعة باريس سنة ١٢٧٢ أيّ مناقشة في أيّ قضية لاهوتية في كلية الآداب فيها.

الا ان الأمر الذي يستحق الذكر هو ان القرن الثالث عشر كان قرن قيام المدارس الكبرى والجامعات. ولم يكن من اليسير دوماً كبح جماح المدرسين ومتقدمي الطلاب من ان يثيروا قضايا فكرية لعلها كانت، في احيان كثيرة، مزيجاً من مشكلات الفلسفة ومعطيات الدين.

وهكذا فان ابن رشد الذي توفي ٥٩٥/ ١١٩٨، لم يسمع الكثيرون باسمه في المشرق بله ان يعنوا به، ولم يلبث ان خبا نوره في المغرب، لكنه انار سبل الظلام في أوروبة خلال القرن الثالث عشر وأثار قضايا كانت نتيجتها النهائية نوعاً من تحرر الفكر الأوروبي في الفترات التي تلت.

❖❖❖

لسنا بحاجة الى أكثر من هذا كي يتضح لنا ان نقل العلوم العربية الى الغرب اللاتيني في هذه الفترة المبكرة، وضع بين أيدي الدارسين أموراً حرية بالدرس والتقصي، وان دخول الفلسفة اليها كان له أثر في تحريك الفكر عند هؤلاء القوم.

الهوامش

(١) C.H. Haskins, *The Renaissance of the Twelfth Century*, (Cleveland, Ohio, 1957) pp. 303-306.

(٢) R.C. Sullivan, *Aix-la-Chapelle in the Age of Charlemagne*, (Norman, Oklahoma, 1963).

(٣) جوزيف نسيم يوسف، **نشأة الجامعات في العصور الوسطى**، (القاهرة ١٩٧١) ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٤) كان بطليموس كلوديوس (Claudius Ptolemaeus) يونانياً مقيماً في الاسكندرية. وفيها وضع مؤلفاته المتعددة ومنها كتابه الجغرافية الذي عرف باسم الكبير Majestus. ولما نقل هذا الكتاب الى العربية سمي المجسطي، وظل اسمه كذلك خلال العصور الوسطى. والكتاب في الجغرافية الفلكية.

(٥) كتاب في الزراعة وضعه كاسيانوس باسوس Cassianos Bassos بناء على رغبة الامبراطور البزنطي قسطنطين السابع (٩١٣ ـ ٩٥٩م).

الخلافة العباسية

عن: البرت حوراني ـ تاريخ الشعوب العربية

Albert Hourani, A History The Arab People

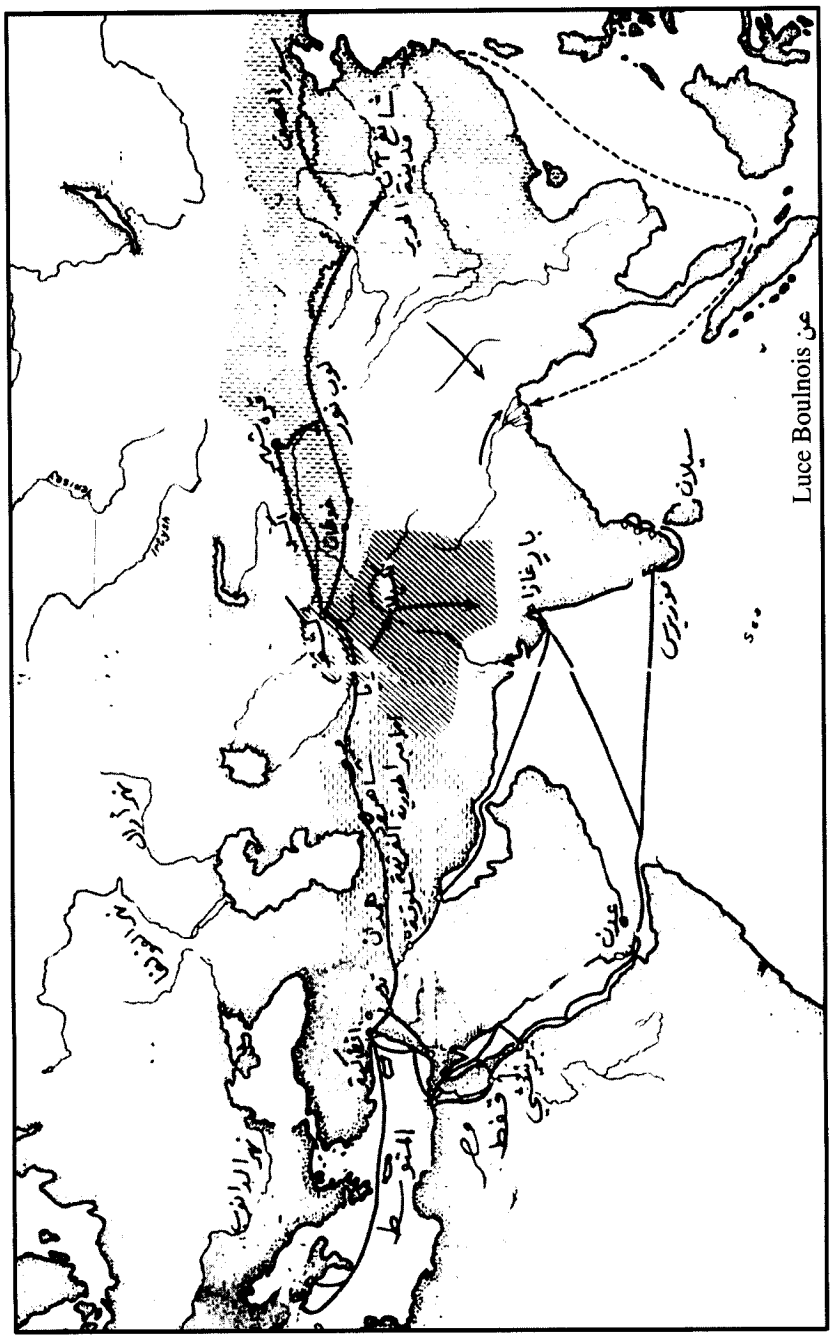

طرق الحرير حوالي سنة ١٥٠م.
عن Luce Boulnois
The Silk Road
(New York, 1966) pp. 50 - 51

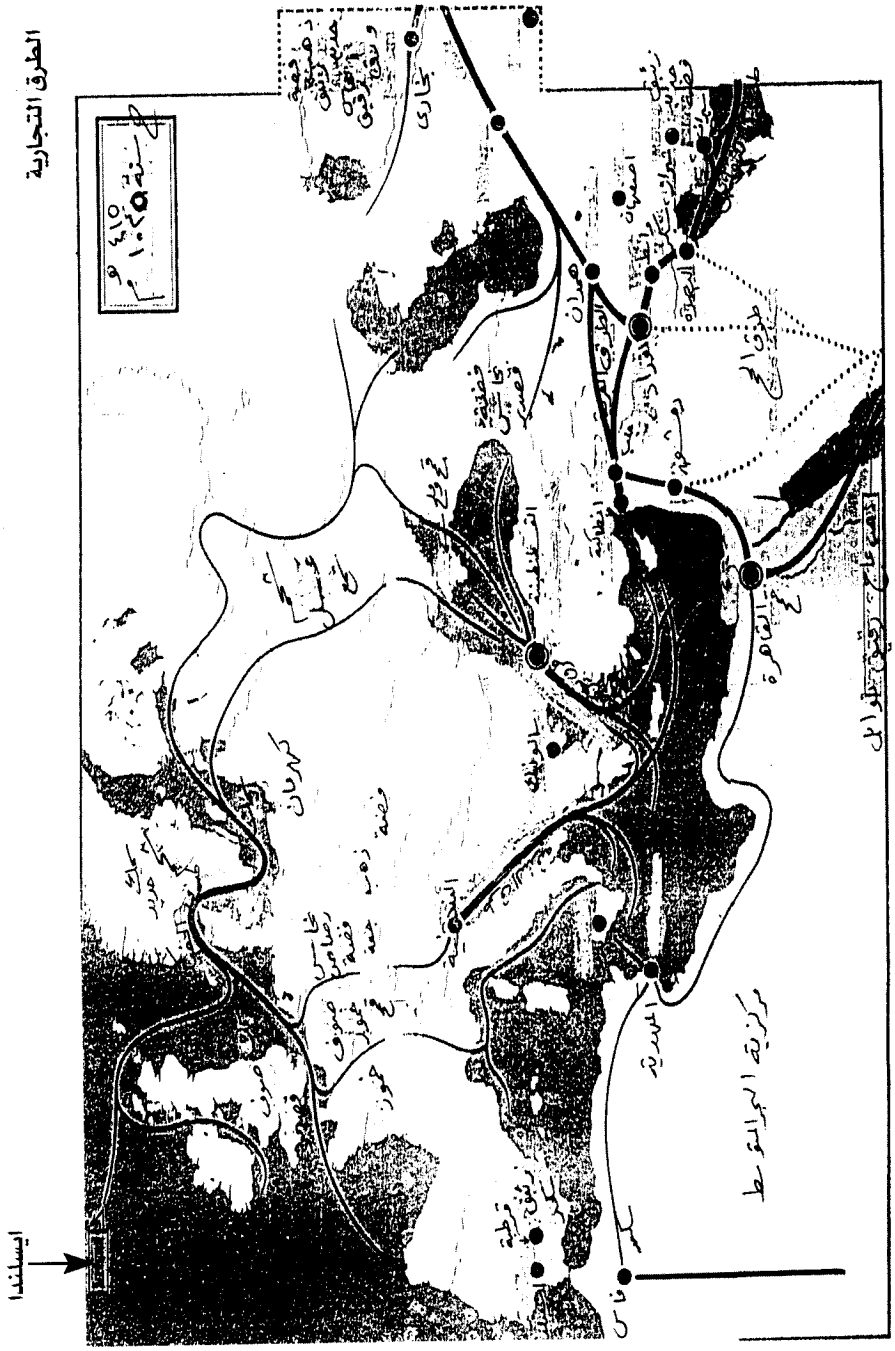
الطرق التجارية
سنة ١٠٤٥ هـ
ايسلندا
بخارى
اصفهان
همدان
بغداد
الرقة
الموصل
الطريق الحربي
القاهرة
البحر الأحمر
البحيرة
دمشق
حلب
القسطنطينية
بروسة
أنقرة
قونية
كرمان
البصرة
المدينة
مكة
جدة
صنعاء
عدن
زبيد
مكة
مركزية البحر المتوسط
قرطبة
فاس

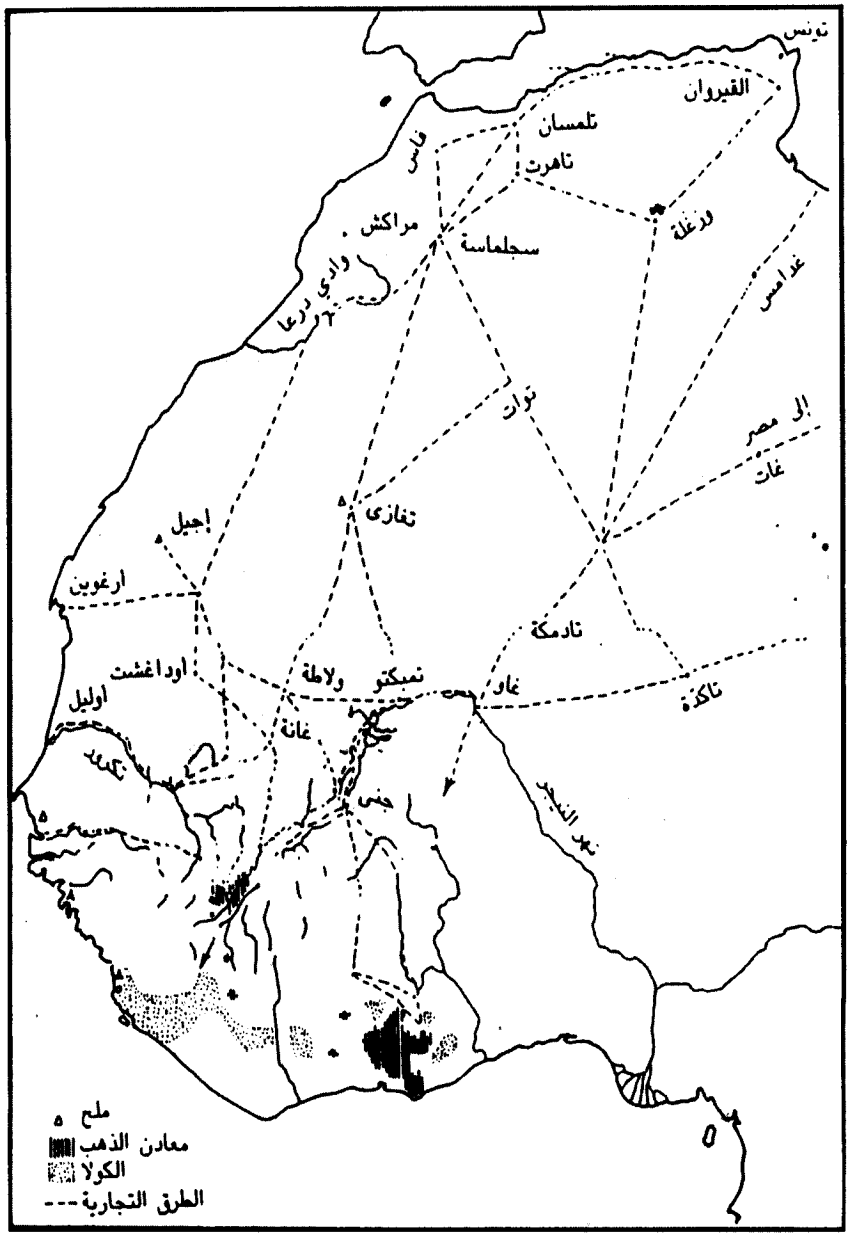

خريطة (١) الطرق التجارية في الصحراء الكبرى والسودان الغربي
بين ١٠٠٠ و١٥٠٠ م

عن: نقولا زياده ـ افريقيات (لندن، ١٩٩١)

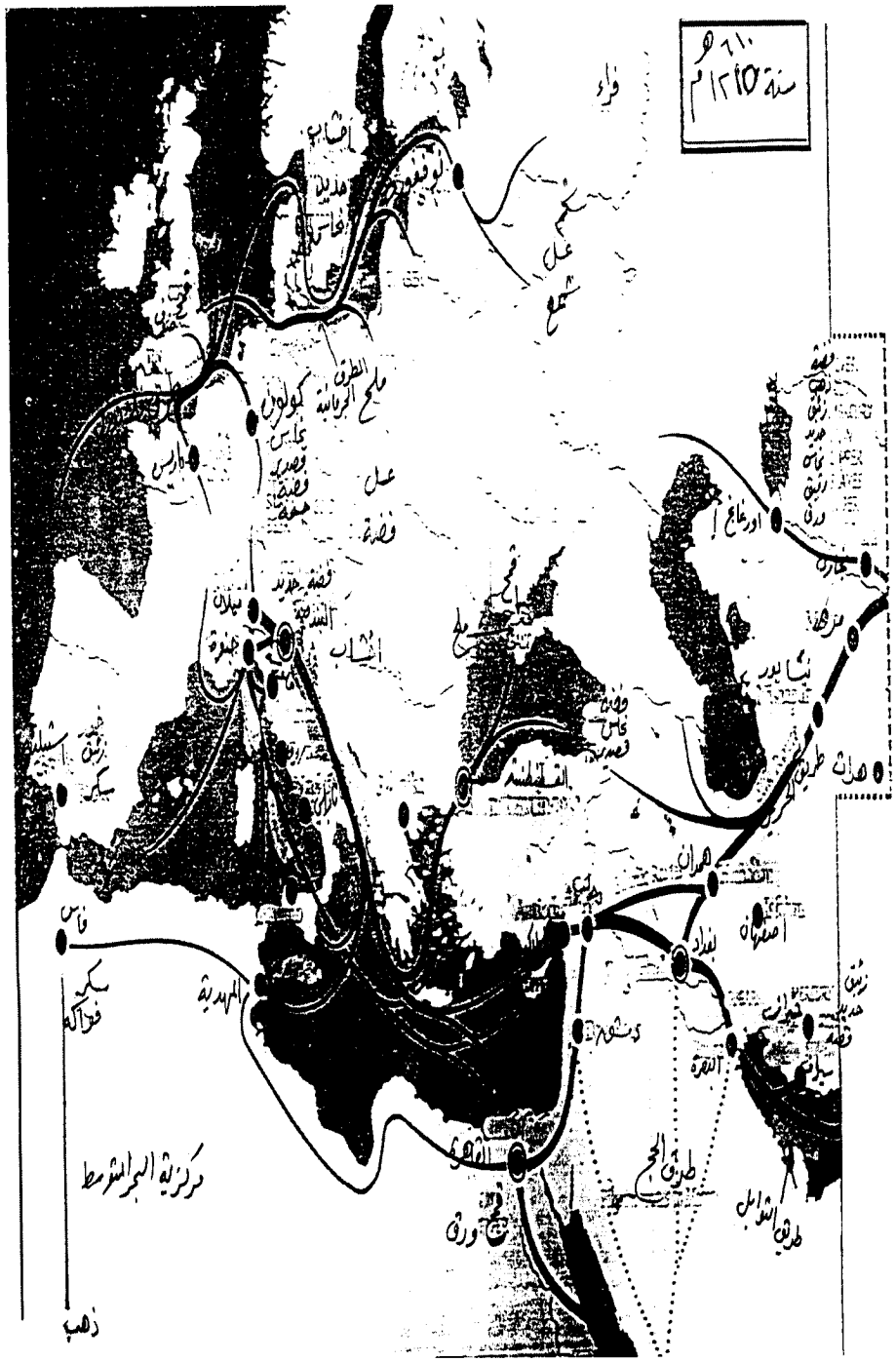
سنة ١٢١٥ هـ
١٨٠٠ م
فاس
المهدية
بغداد
دمشق
القاهرة
طرابلس
طريق الحج
طريق القوافل
دركزية البحر المتوسط

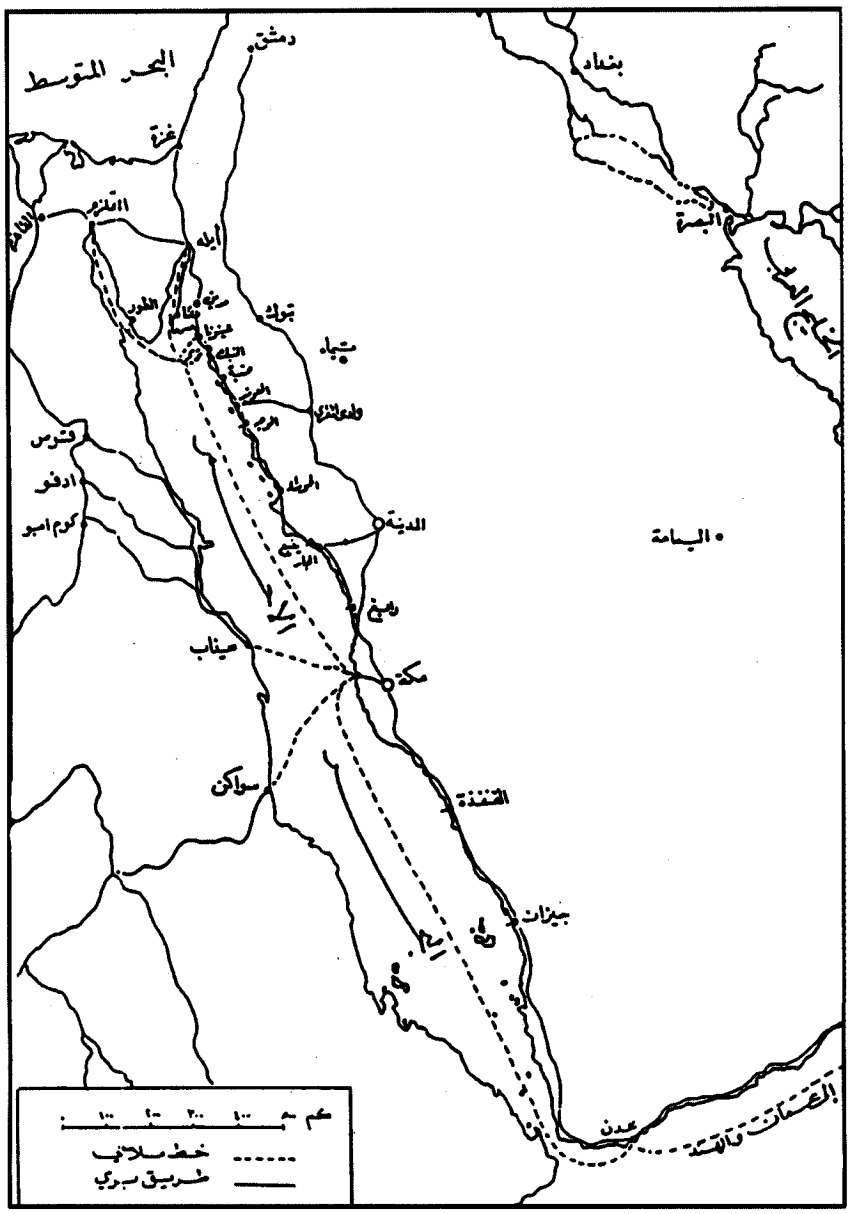

الموانىء وطرق الملاحة في البحر الأحمر في الفترة الإسلامية

عن: علي بن ابراهيم بن علي حامد غبان
بحوث في التاريخ والآثار - الرياض ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م
ص ١٤٩

طرق بلاد الشام أيام المماليك

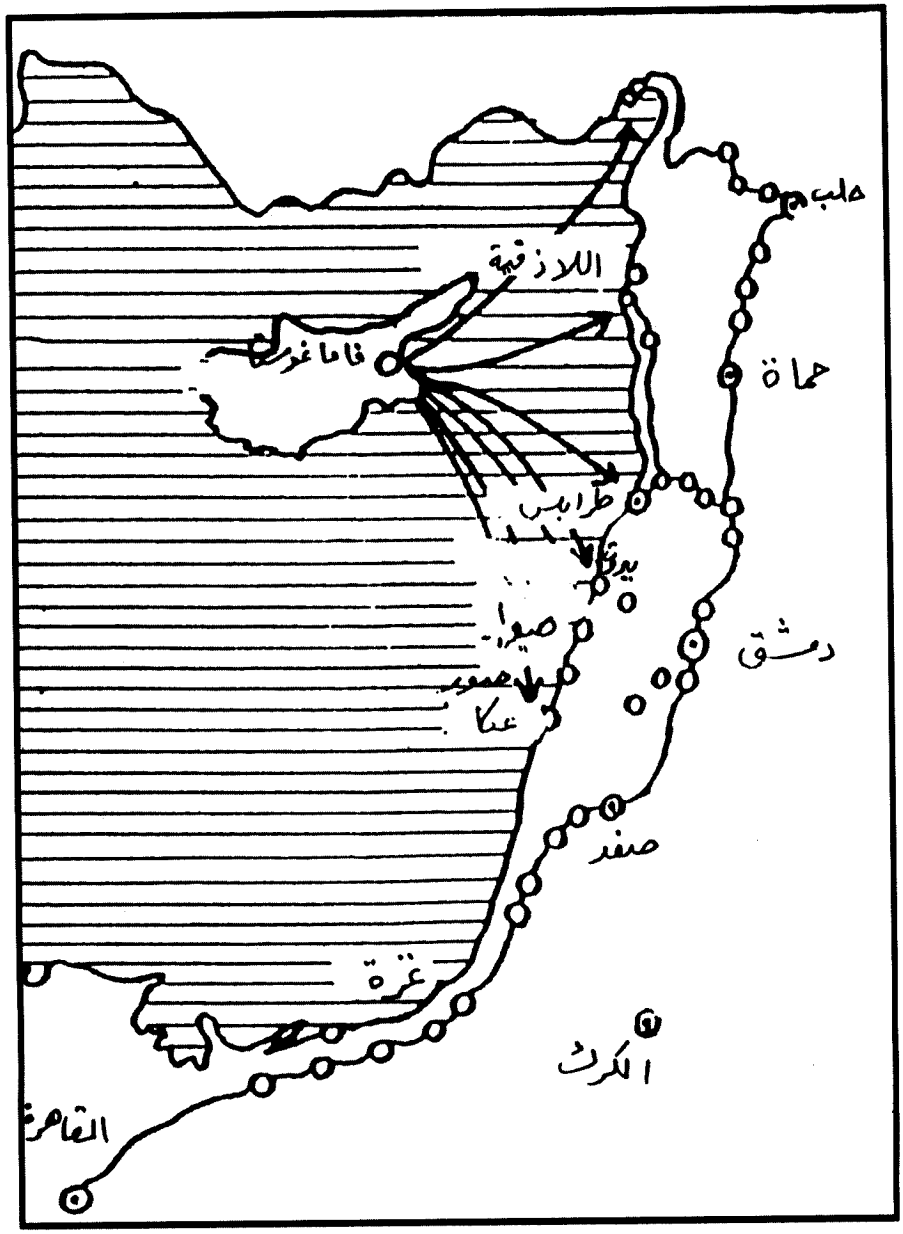

Nicola A. Ziadeh
Urban Life Syria under the Early Mamluks
(Beirut, 1953) p. 130 (after Sauvaget)

تجارة زيت الزيتون
في حوض البحر
المتوسط
(المنطقة الإسلامية)
M. Lombard

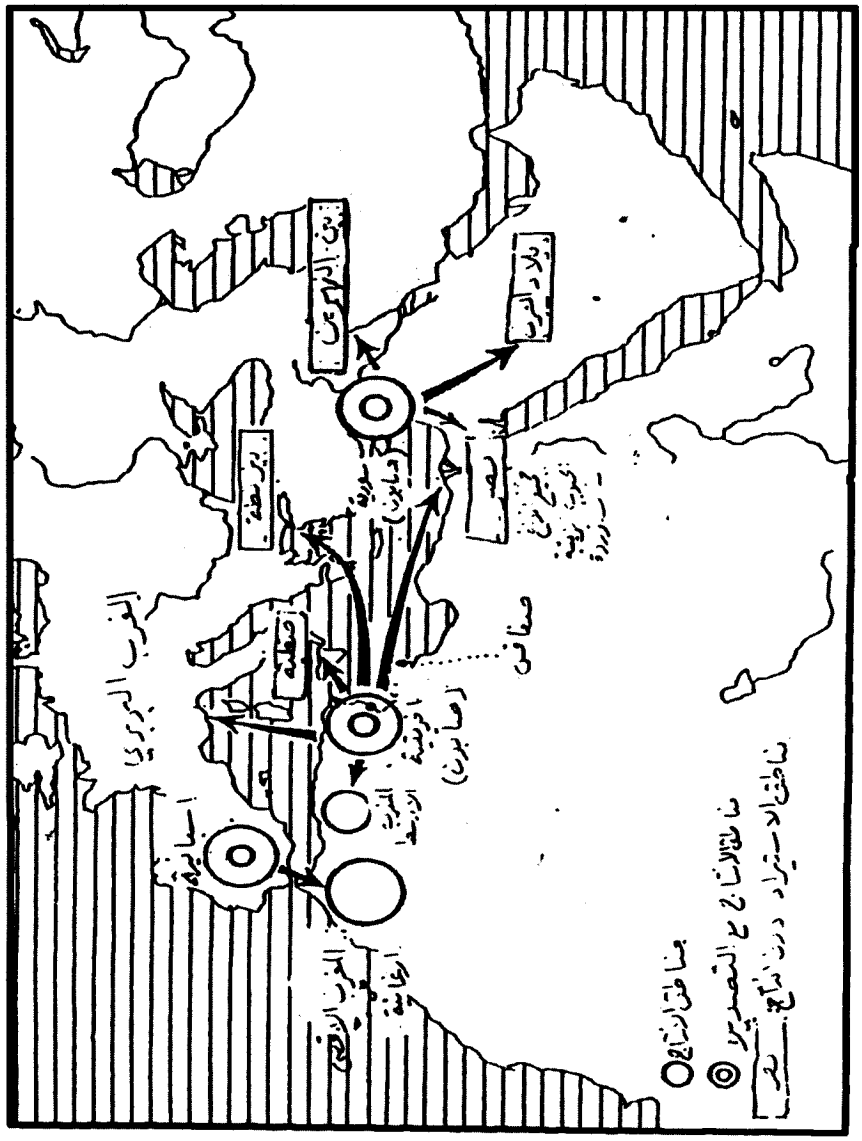

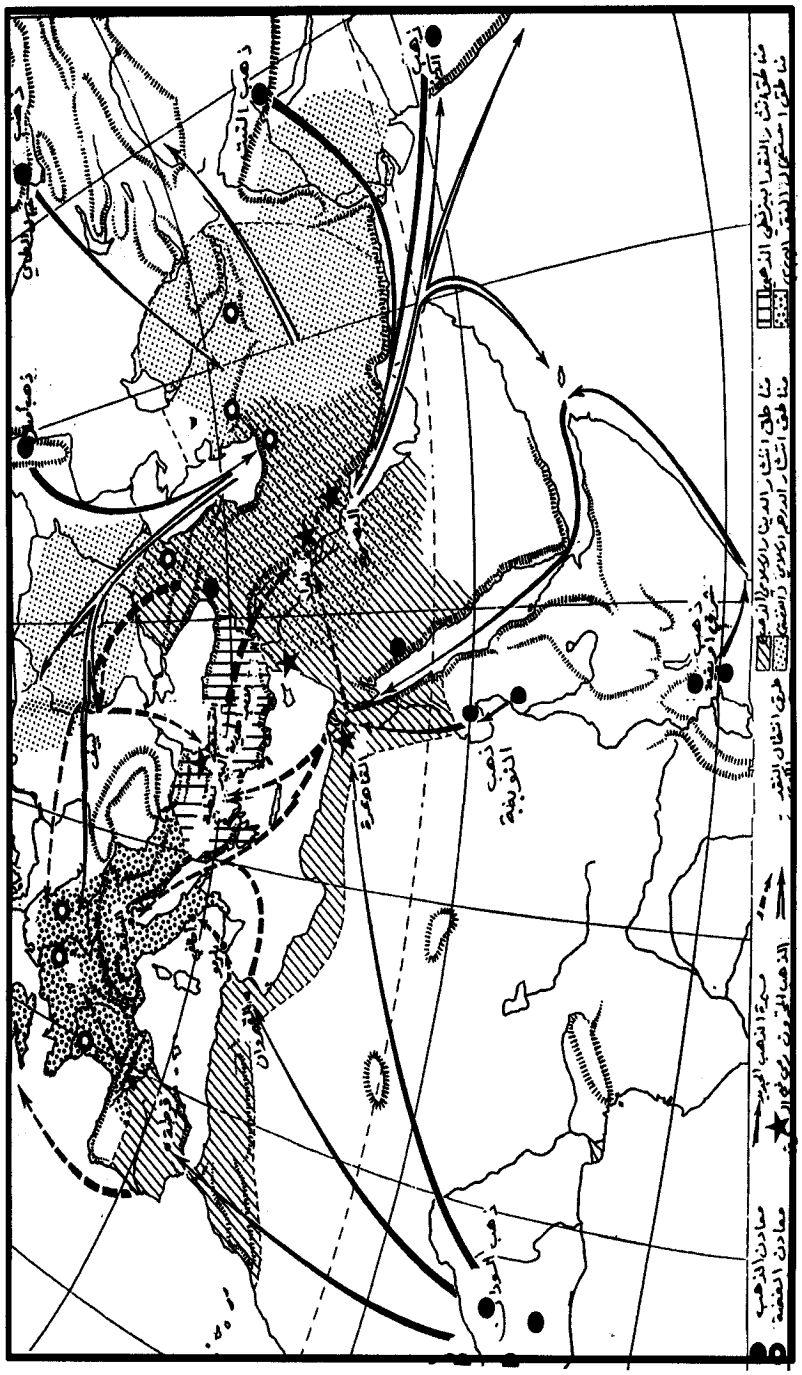

المعادن والنقود السائدة (من القرن الثاني الى السابع هـ/ الثامن الى الثالث

M. Lombard, Monnaie et Histoire
d'Alexandre à Mahomet
Paris - La Haye 1971, pp. 152 - 3

الأهلية للنشر والتوزيع